إلا أننا نسقط سعداء

رواية

تأليف: إنريكو جاليانو
ترجمة: أماني فوزي حبشي
مراجعة: الرداد شراطي



إبداعات عالمية

أكتوبر 2022

444

إبداعات عالمية
إلا أننا نسقط سعداء
إنريكو جاليانو
2022
أكتوبر
444



صدر العدد الأول في أكتوبر 1969
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1923 - 1990)


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

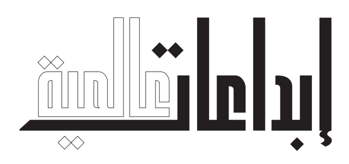
إلا أننا نسقط سعداء

رواية

تـــألـــيـــف: إنريكو جاليانو

تــرجـــــمــة: أماني فوزي حبشي

مـــراجـــعــة: الرداد شراطي



تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التنضيد والإخراج والتنفيذ و التدقيق اللغوي: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat.alamiya@gmail.com

ISBN: 978-99906-0-718 - 5

العنوان الأصلي

Eppure Cadiamo Felici

By

Enrico Galian

Printed in Italy
www.garzantilibri.it

الطبعة الأولى - دولة الكويت، إبداعات عالمية - العدد 444
المجلـس الوطـنـي للثقـافـة والفـنـون والآداب - أكتوبر 2022

إلى بوبي، التي تسكن في قلبي... *Begadang*
كلمة إندونيسية تعني (البقاء مستيقظين طوال الليل لنتحدث).



«لأنني أحبك بتفانٍ، بصرف النظر عمن تكونين».
أبوليوس، التحولات.

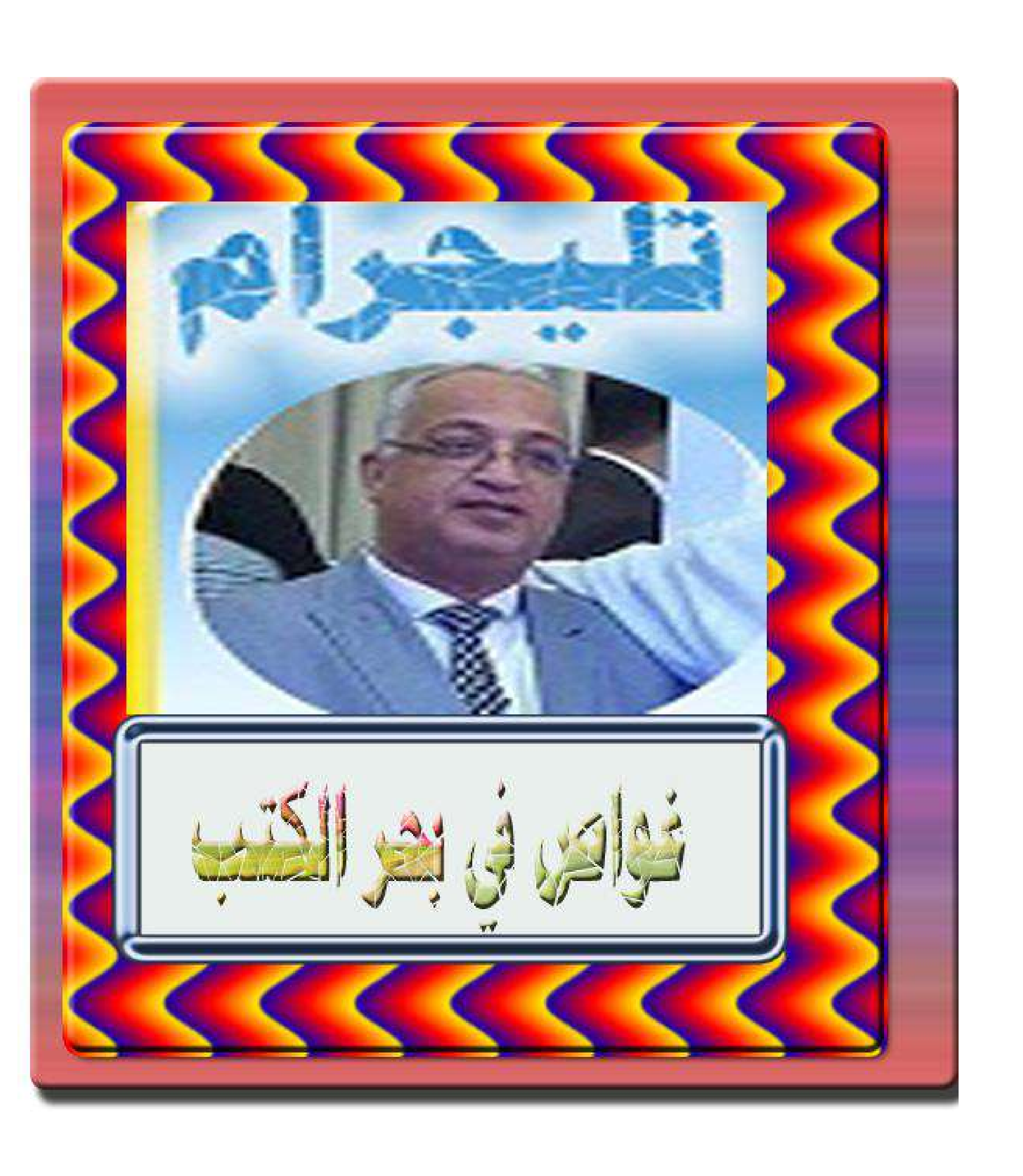
(أسطورة كيوبيد وسايكي)

«هـل شـعرت مـن قبـل أنـك مثـل كيـس مـن البلاسـتيك تحملـه الريـح؟»

كاتي بيري، *Firework*

ملحوظة: أجرت المترجمة بعض التعديلات البسيطة
على النص الأصلي بالاتفاق مع المؤلف.

الجزء الأول


تليجرام
غواص في بحر الكتب

1

سأحبك يا لوكا إلى الأبد.

سباتارو خنزير مسنّ.

الحب مثل العطر، سهل وضعه، صعب نزعه، مستحيل نسيانه.

بالأمس نمت مع كازالي وكان شيء جميل.

(شيئا جميلا) يا جاهل

حفظت جويا سبادا تلك الكتابات، إلا أنها في كل صباح لا تستطيع أن تمنع نفسها من إعادة قراءتها، واحدة تلو أخرى، بينما تمضغ فطيرة التوت، وهي تجلس بقدميها معقودتين فوق مقعد المرحاض.

وخلف الباب، أصوات ست أو سبع - على الأقل - من زميلاتها يضحكن، ويضعن المساحيق، ويطلبن النصائح حول ماذا يكتبن لذلك الأحمق الذي لا يتصل مطلقاً.

إلا أنها تراهن بمجموعة أسطوانات بينك فلويد[1] الكاملة على أن كازالي هو من كتب تلك العبارة. إنه من ذلك النوع القادر على الدخول خفية إلى حمام البنات، ممسكاً بقلم التلوين في يده ليخط حكمة ثمينة كهذه، وليوهم كل الفتيات في المدرسة أنه فتى

(1) Pink Floyd: فريق روك من كامبريدج (المملكة المتحدة)، بدأ العام 1965، وكان من أكثر فرق الروك تميزاً من حيث كلمات الأغاني والموسيقى.

متفـوق بالفعـل. نـوع مـن عمليـات التسـويق الذكيـة في الحقيقـة، لكنهـا في غايـة البـؤس.

ثـم في الحقيقـة، إن مـا خطّـه شـبيه حقـاً بتوقيـع لجاهـل مدلـل مثلـه، نظـراً إلى وجـود ذلـك الخطـأ النحـوي.

رن الجـرس الأول، وبـدأت زميلاتهـا في التسـلل إلى الخـارج وهـن يضحكـن، ولم تكـن جويـا انتهـت بعـد مـن نصـف فطيرتهـا. تلمـس، كـما تفعـل دائمـاً، الندبـة الصغـيرة الموجـودة خلـف أذنهـا اليمنـى، بينـما تعـد الثـواني، التـي تحتـاج إليهـا؛ لـكي تخـرج دون أن يراهـا أحـد.

تتنـاول الإفطـار في المدرسـة لأن الأفضـل، بالنسـبة إليهـا، ألا توجـد في المنـزل إلا أثنـاء نومهـا. ربمـا الحـل الأمثـل أن يوجـد المـرء هنـاك وهـو ميـت؛ لأن الميـت وحـده مـن سـيكون عـلى سجيته في محيطهـا العائـلي؛ ولذلـك منـذ بضعـة أشـهر تصـل إلى المدرسـة مبكـرة وتغلـق عـلى نفسـها الحـمام لتـأكل هنـاك.

جويـا سـبادا، سـبعة عـشر عامـاً، شـعرها أحمـر طبيعـي، وأمطـار مـن النمـش تنـزل مـن أنفهـا حتـى عظمتَـي وجنتيهـا. عيناهـا كأنهـما بحيرتـان زرقـاوان متسـعتان، تبـدوان لامعتـين دائمـاً، حتـى عندمـا لا تلمعـان. ترتـدي دائمـاً قميصـاً مربعـاً مـن الصـوف، مـع بنطلـون جينـز ممـزق ومبقـع، لكنـه ليـس مـن تلـك النوعيـة الممزقـة والمبقعـة التـي، في الحقيقـة، يبلـغ سـعرها شـهرين مـن الإيجـار؛ فهـي ببسـاطة كذلـك لأنهـا قديمـة جـدّاً؛ ولأنهـا كل مـا تملكـه. جسـمها أيضـاً رفيـع، لكـن ليـس بالمقيـاس الموجـود حولهـا، الـذي يجعلهـا تبـدو كأنهـا تـزن بضعـة كيلوغرامـات أكـثر مـن المتوسـط، إلا أنهـا لا تنتبـه حتـى لذلـك، أو إذا أردنـا الدقـة، لا يهمهـا بالفعـل أي شيء؛ فهـي لم تضـع المسـاحيق عـلى وجههـا قـط، وتكـرس لعمليـة تصفيـف شـعرها وارتـداء ملابسـها الوقـت نفسـه الـذي يكرسـه فتـى، وربمـا أقـل.

في واقع الأمر، بالنسبة إلى الفتية؛ فهي شيء لا يعبر، ولا حتى على بُعد كيلومترات من رادار اهتماماتهم الجسدية؛ فهي في المرتبة الأخيرة في قائمة الأجمل في الفصل؛ تلك القائمة، التي خطوها ثم وزعوها أيضاً بسادية، وكان موقعها بالتحديد في المرتبة قبل الأخيرة. ليست في المرتبة الأخيرة، إلا لأن من تأتي بعدها؛ المسكينة، تعاني من خلل في جهازها الهضمي ووزنها أكثر من مائة كيلو.

أي شخص آخر كان سيشعر بالضيق الشديد عندما يكتشف أنه في هذا الموقف، وربما أصابته الصدمة، التي لا يمكنه الشفاء منها إلا بعد أعوام من التحليل النفسي، لكن الأمر مختلف بالنسبة إلى جويا سبادا. شعرت جويا فقط بالغضب العميق تجاه من قام بذلك التصنيف، ثم ألقت بالورقة بما تحويه من الأسماء في سلة المهملات، قبل أن تتمكن زميلتها، زائدة الوزن، من قراءتها.

غريبة جويا سبادا.

أجل، إن هي حاولت وحسب، ستكون مقبولة تقريباً، لكن لا تتوقعوا ذلك المشهد الكلاسيكي، الذي تنزع فيه قليلة الحظ في المدرسة نظّارتها لتصبح فجأة بارعة الجمال. ليست من هذا النوع، ثم إنها لا ترتدي النظّارة.

رن الجرس الثاني.

ألقت جويا بنصف الفطيرة في المرحاض، وأنزلت عليه المياه، فتحت باب الحمام. خرجت زميلاتها. وعلى المرآة أمامها، وجدت مكتوباً بأحمر الشفاه:

مايوناجويا[2]، هل أكلكِ كثيراً من القراصيا هو سبب وجودك الدائم فوق المرحاض؟

(2) اسم البطلة Gioia؛ معناه فرحة، وMaiunagioia هو الاسم الحركي، الذي أطلقه عليها زملاؤها للسخرية منها ومعناه (ليست فرحة على الإطلاق).

2

جويا سبادا، يناديها جميع زملائها فيما بينهم (مايوناجويا)، تدخل إلى الفصل وهي تسمع أغنية The great Gig in the Sky والصوت على ارتفاع +10. بالتأكيد، هذا يسمح لها بميزة لا يمكن تجاهلها؛ وهي ألا تستمع إلى أحاديث الناس، لكن يساعدها بصفة عامة أن تجلس هناك؛ في مقعدها القريب من النافذة، وتبدأ في إحدى ألعابها المفضلة، التي أطلقت عليها هي اسم «المنتدى»، وفيها، من خلال النظر إلى حركات شفاه الزملاء، تضع على أفواههم عبارات، تتخيلها هي. وهكذا على يسارها؛ حيث توجد جوليا وسيلفيا، اللتان تتناقشان حول المدة التي يثبت فيها ظلال العيون الخاص بكل منهما، كانت جويا تتخيلهما تقولان: «من المؤكد أن ذلك المشهد من فيلم الجمال الأمريكي[3] مؤثر بالفعل!».

- «أجل، في كل مرة أشاهده، لا بد أن أتأثر!».

أو أمامها، على بُعد مقعدين؛ حيث يجلس ثلاثة فتية يتشاجرون بحماس حول ضربة جزاء لم تُمنح لفريق يوفانتوس، كانت جويا تتخيل: «لكن ما هذا الذي تقوله؟ دي جريجوري أفضل!».

«هل أنت غبي؟ وماذا عن فيكيوني؟».

«لستما سوى أحمقين، الأفضل من الجميع هو دي أندريه[4]!».

الظلم الحقيقي، تبعاً لجويا، هو أنه لا يمكن ترك السماعتين ملتصقتين بأذنيها طوال اليوم. إذا تركوها تفعل هذا، سيصبح العالم، بلا شك، مكاناً أفضل.

إلا أنها في أثناء انتظار وصول مدرس الساعة الأولى، تأخذ قلماً من حقيبتها وتبدأ في كتابة حروف على ذراعها اليسرى. ببطء، وبعناية،

(3) American Beauty: فيلم أمريكي إنتاج العام 1999.

(4) De Gregori, Vecchioni, De André: مغنون إيطاليون في فترة السبعينيات.

تعيد عليها من جديد بطرف قلمها الأزرق، حتى أصبحت مكتوبة بخط كبير وجميل يمكن رؤيته أيضاً من بعيد؛ وهي الحروف التي تكوِّن تدريجيّاً الكلمات: Wenn ein Glückliches fällt.

من حين إلى آخر، كانت تتوقف، تبعد عينيها عن ذراعها وتنظر بإعجاب إلى النتيجة، وتبتسم. الغناء الفردي لكلير توري(5)، إضافة إلى أنه رائع، كان معجزاً؛ فقد أنقذها من أن تسمع ضحكات زملائها وزميلاتها، الذين كانوا يلقون نظرة على عادتها الصباحية في أن تكتب العبارة نفسها على ذراعها اليسرى. لا يعرف أحد منهم ماذا تعني تلك الكلمات، وعلى الفور أوَّلوها بـ«تلك، التي، هناك، خلل، ما، لديها»، أو «تلك، التي، لديها، كثير، من، المشكلات»، وأيضاً من أجل تلك الكلمات القليلة، التي تعيد كتابتها في كل صباح على ذراعها.

«لكن ما هذا؟ أهو مكتوب باللغة الإنجليزية أم ماذا؟» سألتها في اليوم الثالث جوليا باتّا، زميلتها المصنّفة أنها الأجمل في الفصل، جاءت بالتحديد في المركز الأول.

«أم ماذا؟»، أجابتها جويا، دون حتى أن تنظر إليها. كانت تريد أن تشرح لها أنها كانت كلمات بالألمانية؛ تلك المكتوبة، وأنها كلمات لا يمكن ترجمتها، لكنها تعني بطريقة أو بأخرى: «عندما تكون السعادة شيئاً يقع»، أو ربما أيضاً أن تقول لها لماذا تكتب تلك الكلمات بالتحديد فوق ذراعها، كل يوم. إلا أن الطريقة التي سألتها بها، ونظرات الآخرين جميعاً هناك حولها، دفعتها في النهاية إلى أن تكون إجابتها: «أم ماذا؟»، التي كانت، لأسابيع كاملة، الكلمات الوحيدة التي تبادلتها مع زملائها. في الواقع، هناك أشياء معينة نقولها فقط لمن نعلم أنه يمكنه أن يفهمها؛ وهو أيضاً السبب الذي من أجله نتحدث قليلاً جدّاً عن الأشياء التي تهمنا بالفعل.

(5) Clare Torry: مغنية بريطانية اشتركت مع بينك فلويد في إحدى الأغنيات.

وحده أستاذ الفلسفة، البروفيسور بوفه Bove، من يفهم ذلك؛ ففي فسحة ذلك اليوم نفسه، وبينما كانت تقف وظهرها مستند إلى جدار الممر وتمضغ بعض المقرمشات، مرّ أمامها، ثم توقف، ثم عاد بضع خطوات إلى الخلف وهو ينظر إلى ذراعها، وقال لها: «آه، العزيز ريلكه [6] المسن!».

مكثت جويا هناك، بفم مفتوح، تنظر إليه وهو يبتعد ويصفر، من دون أن يضيف أي شيء آخر. البروفيسور بوفه الوحيد، الذي استطاع أن يتعرف إلى القصيدة التي منها نقلت هذا البيت، وبالمصادفة كان الوحيد، الذي يوجه إليها الحديث في تلك المدرسة. بلا شك الوحيد الذي سترغب جويا أيضاً في التحدث معه.

«صباح الخير يا أولاد»، يقول معلم العلوم في أثناء دخوله، دون أن يرد عليه مخلوق.

أحياناً، كانت جويا ترد التحية للأساتذة، ثم بالتدريج أدركت أنه شيء لا أهمية له على الإطلاق. إن كلمة «صباح الخير»، التي يقولونها في أثناء الدخول، هي بمنزلة بطاقة العمل التي يختمونها؛ ومن ثم لا يهمهم أيضاً أن يرد أحد التحية. ربما هناك شيء طفولي في الأمر، إلا أن جويا كانت تحب الطريقة، التي كانت عليها المدرسة في زمن ما، عندما كان التلاميذ ينهضون عند دخول المعلم إلى الفصل ويصيحون بصوت واحد: «صباح الخير يا أستاذ!».

سأل المدرس: هل عليَّ اليوم أن أشرح أم أسأل؟ كانت الإجابة بالتأكيد مفروغاً منها؛ وهي ما وصلت إلى المدرس بصوت واحد: «أن تشرح!».

في الحقيقة، حتى الخرائط الجغرافية المعلقة على الجدران تعرف أن يوم الاثنين يوم الاختبار.

(6) Rilke, Rainer Maria Rilke : شاعر وروائي نمساوي: راينر ماريا ريلكه.

- هل أنتم متأكدون؟ أليس اليوم هو الاثنين؟

- أجل يا أستاذ، اليوم الاثنين، لكن المرة الأخيرة قلت إنك ستشرح.

قالها كازالي من المقعد الأخير، بوجهه المتميز المعتاد لأحمق.

اشتم الأستاذ رائحة الخدعة، وأخرج من جيبه مفكرة صغيرة، تصفحها بسرعة، ثم قال: يؤسفني أن أعارضك يا كازالي، لكن أخشى أنك تنسب إليَّ كلمات لم أقلها.

تبعاً لجويا، لا بد أن تكون هناك حلقة في الجحيم مخصصة بصفة حصرية للأساتذة، الذين يتحدثون بكلمات صعبة فقط لمتعة أن يُشعروا مَن أمامهم بأنهم أقل.

- إذن، أنا أرى يا كازالي العزيز، أنه نظراً إلى محاولتك اللئيمة أن تخدعني، يمكن أن تكون أحد المحظوظين، الذين سيجلسون هنا بالقرب مني لنتحاور معاً حول الخلايا الليمفاوية وخلايا الدم البيضاء.

نظر كازالي حوله بحثاً عن بعض الدعم من زملائه، لكن لا شيء. خُفضت كل العيون، وتظاهرت الرؤوس بأنها تبحث عن شيء في الحقيبة، وساد الصمت.

- إذن يا سيد كازالي، أنا في انتظار حضرتك.

قال كازالي: حالاً أستاذ! وفي ذلك الوقت، كانت يده تلعب أسفل المقعد. فهم الفصل بأكمله ماذا يحدث، ويمكن استنتاج ذلك من واقع أنهم جميعاً، فيما عدا جويا، أخذوا على الفور في تصفح كتاب العلوم، في محاولة لاستيعاب أكبر عدد ممكن من المعلومات في أقل فترة زمنية ممكنة: فتلك اليد أسفل المقعد كانت في الواقع الإشارة إلى أن شخصاً آخر بينهم سيأخذ حتماً دور كازالي في الاختبار، بينما سيكون هو سليماً معافى.

وبالفعل، يخرج من مكانه ويجلس بالقرب من الأستاذ، وعلى وجهه تعبير الأكثر هدوءاً في العالم.

- كيف أرى على وجهك هذا الكم من الحبور يا سيد كازالي؟

- لأنني ذاكرت وأتشوق إلى الساعة التي يمكنني أن أثبت ذلك يا أستاذ.

- حسناً يا سيد كازالي. إذن هل يمكن لسيادتك أن تشرح لي الأصل الإيتيمولوجي للتعبير «leucocita»؟

ابتسم كازالي. وكان من الواضح جدّاً أنه، في ذهنه، كان يعد عدّاً تنازليّاً.

ثلاثة

اثنان

واحد...

يطرق أحدهم الباب. يدخل ماريو، الحارس: «صباح الخير، آسف على الإزعاج، لكنه أمر عاجل. هناك مكالمة مهمة لـ...»، يفتح الساعي ورقة صغيرة، «كازالي جانلوكا. لا بد أن يذهب على الفور إلى أسفل!».

ومن آخر الفصل تتصاعد الضحكات المكتومة.

سأل المعلم: هل حدث شيء خطير؟

أجاب الساعي: لا أعلم، أعلم فقط أنها مكالمة من المستشفى.

يَحبُك كازالي أكثر تعبيرات القلق التي يستطيعها على وجهه، ينهض ويقول للأستاذ: ربما يمكن لسيادتك امتحاني فيما بعد؟

- حسناً حسناً، لا تفكر في الأمر الآن. اذهب يا كازالي، أسرع.

وينهض كازالي على الفور، مستعدّاً للهروب إلى الخارج.

لا يرف جفن لأحد من زملائه. لا أحد يملك الشجاعة لينهض ويقول ما حدث في الحقيقة؛ وهذا بدافع الخوف فقط؛ لأن كازالي زعيم صغير ينظم حفلات من الخوف و/ أو السخرية لمن، إذا لم يكن مدعوّاً، ينتقل على الفور من خانة «شخص ما» إلى خانة «لا أحد».

فيـما عـدا جويـا، لا يمكـن لمخلـوق في العـالم، ولا حتـى الخلايـا الليمفاويـة، ولا خلايـا الـدم البيضـاء، أن يرغـب في أن ينتهـي أمـره في خانـة «لا أحـد».

وهـذه هـي بالفعـل المرة الثالثـة، هـذا العـام، التـي يسـتخدم فيهـا كازالي هـذه الخدعـة، مـع ثلاثـة معلمـين مختلفـين، إنهـا المـرة الثالثـة.

(فهـو يعطـي ماريـو ورقـة بعـشرة يوروهات، ويـبرع ماريـو في دوره، وهـو يدخـل لاهثـاً إلى الفصـل متظاهـراً بحـدوث مأسـاة عائليـة للتـو. في الواقـع، في خـلال ثـلاث ثـوانٍ، يكـون الاثنـان في مخـزن السـعاة يلعبـان بالـورق أو يشـاهدان أفلامـاً إباحيـة عـلى «التابلـت». نصابـان).

مـن بـين الجميـع، ربمـا تكـون جويـا الوحيـدة، التـي يمكنهـا أن تقـول شـيئاً مـا؛ لأنهـا لا يدعوهـا أحـد مطلقـاً إلى تلـك الحفـلات، وحتـى إذا دعاهـا أحدهـم، سـتذهب فقـط إذا كانـت تحـت تأثـير الأدويـة المُخـدرة.

مـن المؤكـد أنهـا إذا فعلـت ذلـك سـيُقال عنهـا إنهـا جاسوسـة، جبانـة، دودة، والكائـن الأكـثر قبحـاً وقرفـاً في الكـون. تـصرف مـن هـذا النـوع سـيدفعها إلى الانحـدار عـلى الفـور إلى أحـط درجـات الوضاعـة والـشر.

إلا أنــه، مــن العــدل أن يعــرف الجميــع ذلــك منــذ البدايــة، فمايوناجويـا سـبادا، هـي بالفعـل تلـك الشـخصية المقـززة، المنحطـة والخسيسـة، وفقـاً لمعظـم زملائهـا. أمـا أولئـك، الذيـن لا يرونهـا كذلـك حتـى الآن، فلأنهـم لا يعلمـون حتـى أن هنـاك وجـوداً لجويـا سـبادا.

لكنهـا هـي أيضـاً لا تجتهـد كثـيراً أيضـاً لتنـزع عـن نفسـها تلـك الصفـة، بـل، أحيانـاً، وبـلا تفسـير، وعـلى الرغـم مـن معرفتهـا أنهـا عـلى وشـك أن تفعـل شـيئاً لـن يجلـب عليهـا سـوى مزيـد مـن كراهيـة العـالم الخارجـي لهـا، ومزيـد مـن المـزاح والضحـكات السـاخرة خلفهـا، إلا أنهـا لا تتمكـن مـن أن تمنـع نفسـها مـن فعلـه.

تعرف أن هذا شيء خاطئ وسيجر عليها في المقابل انتقاماً واستهدافاً، لكنها على الرغم من ذلك تفعله، ولا تعرف حتى سبب ذلك.

كانت هذه إحدى تلك المرات. وهكذا قالت: أستاذ! وكازالي لا يزال أمام الباب.

تحركت ثمانية عشر رأساً لتنظر نحوها. ست وثلاثون عيناً تطلق عليها سهاماً من الكراهية. يصر كازالي أسنانه، يخصها بنظرة تحوي بالفعل حروف تهديد. اللعبة على وشك أن تنتهي.

قال الأستاذ: حسناً يا آنسة سبادا.

سألته، وهي لا تفهم: حسناً ماذا؟

- حسناً تفضلي، سأمتحنك.

- لا يا أستاذ، كنت أريد أن أقول شيئاً!

- لا يوجد وقت الآن، ضيعنا حقاً كثيراً منه. قولي لي ما تريدين؟ وسيادتك اذهب، ماذا تنتظر؟

قال لكازالي، الذي يستغل شرود المعلم ليوجه لجويا حركة بيده وفمه: حركة لم تستطع هي أن تترجمها على الفور، لكنها ستكشف فيما بعد أنها إيماءة عن إيحاء جنسي مقزز وبشع.

ثمانية عشر فماً تُفتح وتُصدر ثماني عشرة ضحكة ساخرة غبية عالية، وعلى الأقل ثلاث إيماءات بالإصبع الأوسط، تعرف معناها، تعترض طريقها بينما تتجه نحو منصة المعلم.

تتنهد جويا وتعض شفتيها، وتلمس بسبابتها الجرح الصغير خلف أذنها اليمنى، وتقول هامسة لعنتها المفضلة: «كوكب قذر».

3

ليس أنها لم تجرب قط، على العكس، منذ أن أصبحت لها ذكريات، وهي تحاول.

جربت محاولة أن تصبح مثلهم، لكن الأمر لم ينجح.

حاولت أن تصبح نفسها، لكن الأمر لم ينجح.

كان الأمـر دائمـاً عـلى هـذه الحـال، وفي المدرسـة الجديـدة، الحـال أسـوأ.

عندمـا تتظاهـر أنهـا مثلهـم يتعـذر عليهـا ذلـك: كانـت تحـاول أن تقـول العبـارات نفسـها، وتفعـل الإيمـاءات نفسـها، لكنهـا كانـت تصـدر عنهـا بطريقـة عجيبـة. تخطـئ الأزمنـة، ونـبرة الصـوت، كل شيء. كانـت تضحـك دون أن تفهـم النـكات، وتحـاول أن تلقـي نكاتـاً لم يكـن يضحـك أحـد منهـا، ثـم بالفعـل كانـت تتعـثر كل ثـلاث ثـوانٍ في شيء مـا أثنـاء سـيرها، ويضحـك الجميـع منهـا. وتقريبـاً، كانـت تلـك هـي الفـترة التـي وُلـد فيهـا اسـم مايوناجويـا.

عندئـذٍ، قالـت لنفسـها في أحـد الأيـام: حسـن إذا أرادوني هكـذا كـما أنـا، وإذا لم ... فسـماعا وطاعـة.

وكانت النتيجة سمعا وطاعة.

وفي لحظـة، التصقـت بهـا صفـة المتغطرسـة، التـي لا بـد مـن تجنبها كالطاعـون الدمـلي، ولم ينزعهـا أحـد عـلى الإطـلاق. كـما لم يحـاول أي منهـم، بطبيعـة الحـال، أن يقـوم بالمبـادرة ولا أن يذهـب لـيرى مـن كانـت بالفعـل، مايوناجويـا سـبادا؛ تلـك الفتـاة التـي لا تتحـدث، ولا يتحـدث إليهـا أحـد مطلقـاً، بـل وإذا فعـل كان ذلـك للهجـوم الـلاذع عليهـا إلى أقـصى حـد.

لأنـه، إذا رأيتهـا مـن الخـارج، فـإن جويـا شـخص سـترغب في تجنبـه. شـخصية سـتبدو لـك ناقمـة عـلى العـالم بأكملـه بـلا سـبب. شـخصية ستتسـاءل بـكل جديـة إذا كانـت لديهـا مشـكلة في عضـلات وجههـا المسـؤولة عـن تكويـن الابتسـامة. إن الاسـم الحـركي مايوناجويـا وصلهـا، بالترتيـب الزمنـي، فقـط بعـد صفتـي: التفـاؤل ومـرض هربـس.

علـى الرغـم مـن ذلـك، ربمـا، توجـد أيضـاً أشـياء أخـرى لا يعرفهـا أحـد عنهـا؛ وهـي أن جويـا سـبادا شـخصية قـادرة، عندمـا يقدمـون إليهـا هديـة مـا، عـلى أن تفتـح البطاقـة فقـط، وأن تنـسى أن تفتـح الهديـة نفسـها. وجويـا سـبادا هـي الوحيـدة عندمـا تمطـر السـماء لا تأخـذ المظلـة، وإذا كانـت معهـا لا تفتحهـا. جويا سـبادا شـخصية عندما تجـد كتابـاً يعجبهـا، لا تبـدأ في التهامـه، لكـن في قراءتـه بتمهـل، خوفـاً مـن أن تنهيـه بسرعـة. جويـا سـبادا لا تبتسـم كثـيراً، لكـن عندمـا تفعـل ذلـك تشـعل الضـوء. جويـا سـبادا لا تعلـم جيـداً مـن تكـون بيلـين رودريجيـز[7]. جويـا سـبادا هـي الوحيـدة عندمـا تكتـب موضوعـات التعبـير تكتـب كل شيء بـلا نقـاط ولا فواصـل، ثـم تضيـف علامـات التنقيـط في النهايـة. جويـا سـبادا عندمـا تـرى كلبـاً تحييـه، دائمـاً. جويـا سـبادا عندمـا تضـع قميصهـا، تخطـئ في كل مـرة ترتيـب الأزرار. في حجـرة جويـا سـبادا، يوجـد جـدار عليـه مجموعـة مـن صـور المغنـين والكُتـاب، الرسـامين والشـعراء، وخمسـة وتسـعين في المائـة منهـم عـلى الأقـل، مـن الأمـوات؛ وهـي عندمـا تـأكل البيتـزا تبـدأ مـن الحـواف. جويـا سـبادا، أجـل، وهـذا حقيقـي، واحـدة ممـن لا يتحدثـون تقريبـاً مطلقـاً مـع النـاس، خصوصـاً مـع مـن هـم في سـنها، ليـس لأنهـا تكـره الجميـع، أو لأنهـا تعـد نفسـها أفضـل منهـم كـما يعتقـدون؛ بـل لأنهـا فقـط تـرى وتشـعر جيـداً جـدّاً بأنهـم، جميعهـم، أفضـل مـن ذلـك، وبأنهـم يبثـون حولهـم نسـخة مخالفـة من أنفسـهم؛ نسـخة سـيئة، كأن بدائـل مدعـوون ليحلـوا محلهـم في المدرسـة والعمـل والميـدان، بينـما هـم، أولئـك الحقيقيـون، يمكثـون في المنـزل، يغلقـون عـلى أنفسـهم جيـداً، ويختبئـون في حجـرة مـا، خوفـاً مـن أن يراهـم أحـد. جويـا سـبادا إذا رأت واحـداً منهـم فقـط، حتـى إن كان واحـداً منهـم فقـط،

(7)Belén Rodrìguez : مذيعة وفتاة استعراض إيطالية أرجنتينية .

لم يرسل بديله إلى المدرسة، لن تفكر لثانيتين قبل أن تلتصق به كأنها لاصق مزدوج. لأن جويا سبادا هي واحدة يقول عنها كل مَن قابلها إنها تكره الناس، وإنها ستعيش سعيدة فقط وحيدة في جزيرة نائية، بينما هي تعلم أن الأمر ليس كذلك، وأنها تحب الناس، تحبهم حتى الجنون، تدرسهم، وتراقبهم، دائماً.

إنها لا تكره البشر، إنها تكره فقط الكذب، والمشكلة هي أن الاثنين، تقريباً دائماً، يتوافقان.

لا أحد يعرف ذلك، لكن عندما كانوا يسألونها في المدرسة الابتدائية: ماذا تريدين أن تفعلي عندما تكبرين؟ كانت تجيب دائماً، وبالطريقة نفسها، وتقول: «أن أسعد أحدهم».

4

- تنظيف حمامات الملاهي الليلية بعد مواعيد العمل، بكل ما فيها من قاذورات خارج المراحيض وطين وقيء وبراز.

- آه، أجل، بالتأكيد.

- أن تحصي على يديكِ كل الأموال من فئة سنت واحد، واثنين، وخمسة سنتات في بنك، بينما هناك من يجلس بالقرب منكِ ويقول لكِ باستمرار وبصوت مرتفع أرقاماً عشوائية.

- وهذا أيضاً، بالتأكيد.

- ربما ممارسة الجنس مع أيٍّ من زملائك في الفصل.

- تلك ستكون قاسية، لكنني سأفضِّل ذلك بلا شك!

كانت جويا تسير في خطوة بطيئة جدّاً، تقريباً تجر قدميها، وفي الوقت نفسه تتحدث مع تونيا، التي تسير بجوارها. وكانت تونيا تسرد عليها، مثل كل الأيام، القائمة: قائمة الأشياء، التي تستعد جويا لعملها بدلاً من العودة إلى المنزل، إلى تلك الشقة الواقعة

في الطابـق الثـاني وسـط بنايـات عملاقـة مـن المنـازل الشـعبية. كل يـوم تخـترع تونيـا أشـياء جديـدة بشـعة، لكـن نـادراً مـا تجـد جويـا شـيئاً لا تفضِّـل عملـه، بـدلاً مـن أن تفتـح البـاب، ومجـرد أن تتنفـس الهـواء الـذي يُتنفـس في منزلهـا وفي حيّهـا.

شـهدت مـن المنـازل السـيئة والمتهالكـة منـازل متنوعـة خـلال أعوامهـا السـبعة عـشر، لكـن هـذا المنـزل، بـلا منـازع، ذو قيمـة مضافـة هـي أنـه يقـع، أيضـاً، في ضاحيـة مكونـة كلهـا مـن المنـازل الشـعبية؛ مـن بنايـات عملاقـة رماديـة تمـلأ جدرانهـا الكتابـات البشـعة، ويسـكنها تقريبـاً بصفـة حصريـة مسـنون متذمـرون، ومليئـة بوجـوه لا يمكـن أن تشـعر مطلقـاً بالرغبـة في أن تقـول لهـا مبتسـماً: صبـاح الخـير. إلا أنـه بعـد أعـوام عـلى قائمـة الانتظـار، جـاء دورهـما أخـيراً؛ وهكـذا في أحـد الأيـام فتحـت أمهـا، وهـي لا تـزال ترتـدي قميـص النـوم، خطابـاً، وبعينـين تملؤهـما الدمـوع قالـت لهـا: أصبـح لدينـا منـزل. وانتقلتـا عـلى الفـور منـذ ثلاثـة أشـهر.

- أن تصـابي بالبواسـير الملتهبـة، ولا تسـتطيعين الجلـوس لمـدة أسـبوع!

- آه، أجل، بكل سرور.

كانـت تونيـا صديقتهـا المُفضلـة. أكـثر وقاحـة مـن رقيـب في البحريـة، إلا أنهـا مسـتعدة دائمـاً أن تمنـح جويـا النصائـح الجيـدة، وأن تسـاعدها في اللحظـات الصعبـة. طويلـة، شـعرها قصـير، مـن حـين إلى آخـر تتحـدث بلهجـة جنوبيـة؛ وهـي الوحيـدة القـادرة، تقريبـاً، عـلى أن تُضحـك جويـا. إنهـا الصديقـة المكتملـة الخصـال: مخلصـة، مبـاشرة، لا تلـوي الكلـمات، وليسـت عـلى أي حـال خبـيرة بذلـك الفـن، الـذي تعرفـه جيـداً كل الفتيـات الـلاتي تعرفهـن جويـا؛ وهـو تليـين كل مـا هـو سـيئ. أجـل، كانـت جويـا تتسـاءل دائمـاً كيـف أن أغلـب الفتيـات

يريـن أن الصديقـة الجيـدة هـي الإنسـانة الرقيقـة؛ لأنهـا تعـرف كيـف تجـد الكلـمات المناسـبة لـكي لا تجـرح، وأن تتمهـل فيـما تقولـه، لكـن صديقـة مثـل تونيـا أفضـل كثـيراً، فعندمـا تتصرفـين بطريقـة سيئة لـن تقـول لـكِ: «ربمـا كان عليـكِ، أتعرفـين، مـن الأفضـل...»، لكنهـا سـتقول لـكِ: «هيـه يـا حلـوة، أنـتِ تتصرفـين بطريقـة مقرفـة، تعرفـين هـذا، أليـس كذلـك؟».

بالفعـل، تونيـا هـي الصديقـة الكاملـة عـلى الأقـل لألـف سـبب، لكنهـا كذلـك لسـبب واحـد: فهـي بـلا وجـود.

أجـل، تونيـا فينشـينزي، البالغـة مـن العمـر سـبعة عـشر عامـاً، أبوهـا مـن بيومونتـي، وأمهـا مـن سـاليرنو، التـي تعرفـت إليهـا في اليـوم التـالي، منـذ أن انتقلـت هـي وأمهـا وجدتهـا جيـمّا إلى هنـا، توجـد فقـط في خيـال جويـا. إنهـا صديقتهـا المتخيلّـة. مفيـدة، مفيـدة جـدّاً في عـدد مـن الظـروف: فهـي تلعـب الكـرة الطائـرة (هنـاك دائمـاً مبـاراة أو تدريـب تذهـب جويـا لـتراه، عندمـا تكـون بحاجـة إلى أن تخـرج مـن المنـزل)، تذهـب إلى مدرسـة أخـرى (لا أحـد يـدري مطلقـاً، ربمـا يخطـر في بـال أمهـا أن تتصـل بهـا لتسـألها كيـف حـال المدرسـة) ومنعهـا أبواهـا مـن أن تحمـل الهاتـف النقـال حتـى تبلـغ سـن الثامنـة عـشرة؛ لأنهـما «تقليديـان»، ولديهـما مبـادئ صحيـة وصارمـة (وهكـذا لا توجـد هنـاك أي خطـورة في أن تطلـب الأم رقـم هاتفهـا وتتصـل بهـا عندمـا تكـون «في غـير وعيهـا»). أيضـاً لأن جويـا نفسـها ليـس لديهـا هاتـف نقـال. أجـل، تمامـاً؛ فهـي ليـس لديهـا هاتـف نقـال، ربمـا تكـون الوحيـدة في العـالم الغـربي (مـع تونيـا)، التـي ليـس لديهـا هاتـف نقـال. لا؛ لأن الأم ذات مبـادئ صحيـة، لكـن ببسـاطة لأنـه لا يمكنهـم أن يسـمحوا لأنفسـهم بذلـك، نظـراً إلى أن النقـود الوحيـدة التـي تدخـل المنـزل هـي تلـك الخاصـة بمعـاش الجـدة، وتلـك الباقيـة مـن معـاش

الجـد، التـي لا بـد أن تكفـي ثلاثـة أشـخاص، ومعهـم قـط.

- أن تشـاهدي منـذ البدايـة حتـى النهايـة كل حلقـات مسلسـل Beautiful!.

- لا، حسناً، هذا لا، لا تطلبي مني هذا يا تونيا!

مـع تونيـا تتحـدث جويـا، بصـوت مرتفـع، وتتحـدث معهـا كثـيراً جـدّاً، خصوصـاً عندمـا تشـعر بأنهـا في حالـة سـيئة وفي حاجـة إلى شـخص ليخفـف عنهـا ويضحكهـا.

في الواقـع، كان لجويـا، منـذ فـترة المدرسـة الابتدائيـة، ميـل إلى فتـح قوسـين بعيـداً عـن العـالم، وأن تلقـي بنفسـها داخلهـما. لاحظـت ذلـك في البدايـة مدرسـاتها، عندمـا رأيـن أنهـا تقـضي أغلـب وقتهـا تحـدق في الفـراغ، وأنهـا لا تنجـح مطلقـاً في البقـاء منتبهـة كثـيراً في أثنـاء الدروس. منــذ ذلــك الحــين، تقريبــاً، اكتشــفت جويــا أنهــا يمكنهــا أن تكــون مقتربـة جـدّاً مـن العـالم بداخـل رأسـها أكـثر مـن ذلـك الخارجـي.

سـألتها تونيـا عندمـا أوشـكتا عـلى الاقـتراب مـن وجهتهـما: لمـاذا، ألا تعجبك «Beautiful»؟

- هل أنتِ مجنونة؟

أجـل، بخـلاف مشـاهدة «Beautiful»، يمكنهـا أن تفعـل عمليّـاً أي شيء آخـر، لـكي لا تضطـر إلى مشـاهدة ذلـك الـذي سـتراه بمجـرد أن تعـبر عتبـة المنـزل. أمهـا ممـدة عـلى الأريكـة، تقريبـاً نصـف مخمـورة تشـاهد التلفزيـون، والحـوض ممتلـئ تمامـاً بالأطبـاق المتسـخة، وفوقـه تتطايــر بضــع ذبابــات، جدتهــا جيــمّا في الحجــرة الخلفيــة بجهــاز الإطعـام الوريـدي المتـدلي، والقسـطرة التـي لا بـد مـن تغييرهـا. جاكـو؛ القـط الشـبح، يجـول في مـكان مـا مدمـراً الأثـاث، ولا يزعجـه شيء، ثـم إن رائحـة المنـزل المُغلـق لا يمكـن تحملهـا، وبقـع العفـن في الزاويـة بـين المطبـخ وحجـرة الجلـوس، وحنفيـة الحـمام التـي لم يكـف ماؤهـا عـن

التسرب منذ اليوم الأول الذي وصلن فيه إلى هنا.

الشيء الغريب الوحيد هو حينما تستضيف أمها أيضاً أحد أصدقائها الصغار؛ وهو الأمر الذي يحدث من حين إلى آخر. في العادة، يكونون فتية تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والعشرين، قابلتهم في محل ما قبل ساعة الإغلاق، وينتظرون بشوق ليخبروا أصدقاءهم عن مغامراتهم الجنسية، أو رجالاً فوق سن الخمسين، عاطلين، ومهملين، بذقون لم تُحلق منذ ثلاثة أيام، وجيوب كبيرة أسفل عيونهم. والمرة الأخيرة، كان يوجد شخص عمره واحد وخمسون عاماً، لديه خصلة شعر فوق رأسه وألثغ في حرف الراء، وعندما دخلت جويا وقالت بأدب: «صباح الخير»، أجاب قائلاً: لم تخبريني أن لديكِ ابنة.

والجزء الأكثر إحراجاً من هذا الأمر أن أمها لم تقل قط لأي من أصدقائها أن جويا ابنتها. عندما كانت تقدمها إليهم، إذا فعلت ذلك، تقدمّها على أساس أنها «شريكتي في المسكن»، أو «أختي»، أو «ابنة عمي التي طلبت أن تمكث معي هنا لبضعة أيام».

ليست لدى جويا أي فكرة عن السبب الذي من أجله تفعل أمها هذا. ربما تكون لديها فكرة ما: ربما تخشى أن وجود ابنة ربما يُعجل بهروب أي عريس محتمل، بالتأكيد؛ فهي لا تدرك أن: التخلص من ذلك النوع من العرسان لا بد أن يكون أحد أهدافها وليس أحد مخاوفها، وجميعهم رجال صحبوها إلى الفراش في الأمسية الأولى، بل وخلال الساعة الأولى؛ ومن ثم من الصعب أن يكونوا قد فكروا، أو خطر في بالهم، أن يبنوا أي علاقة جادة معها.

وهكذا، وبعد أن عبرت أمام كلمات السباب المكتوبة بالخط العريض (عاهرة)، التي خطها أحدهم بألوان الرش على الجدار الخارجي للمنازل الشعبية، صعدت الطابقين لتصل إلى شقتها،

وضعـت يدهـا عـلى المقبـض وتوقفـت هنـاك لثانيـة.

ثم قالت للمرة الثانية اليوم: يا له من كوكب قذر.

قالتهـا لأنهـا سـمعت بالفعـل مـن الخـارج صـوت أمهـا وهـي تـصرخ مـع أحدهـم، وعندمـا أجـاب ذلـك الشـخص، فهمـت عـلى الفـور مـن كان.

- أكاد أفكـر أنـه في هـذه الحالـة سـتكون مشـاهدة «Beautiful» أفضـل.

5

- لا بـد ألا تقـترب حتـى مـن هـذا المنـزل، أنـت تعلـم ذلـك، أليـس كذ لك ؟

- بـكل تلـك النقـود، التـي جعلتِنـي ألقـي بهـا هبـاءً في تلـك الأعـوام لتهجرينـي بعدهـا، كأننـي أنـا مـن يدفـع الإيجـار، إذن، لي كل الحـق في أن أكـون هنـا!

- إن النقـود الوحيـدة، التـي ألقيـت بهـا، هـي تلـك التـي دفعتهـا في خاتمَـي الـزواج البشـعين المسـتعملين اللذيـن ابتعتهما!

- أنـتِ عـلى حـق، الخطـأ خطئـي أنـا، كل شيء خطئـي! لم يكـن عـليَّ أن أقـع في حـب شـخصية غبيـة مثلـكِ!

- توقف عن الصياح، ستوقظ أمي!

- أنا لا أصيح!

- بلى، أنت تصيح!

- لا، أصيح!

- أجل، بل أنت تصيح!

- لا، أنا لا أصيح!

كانـت أغلـب مناقشـات والديهـا، في العـادة، تعتمـد عـلى الصـوت،

تبعاً لذلك التسلسل: هي تقول له (أو هو يقول لها) إنه/ إنها يصيح/ تصيح، والآخر يجيب بأن هذا غير حقيقي، ثم يرفع كل منهما صوته أعلى من الآخر؛ وهكذا في النهاية، حتى إذا لم يكونا يصرخان في البداية، من المؤكد يبدآن في الصياح.

قالت جويا: أهلاً. لم يجب أحد. دخلت وخلعت حذاءها، وبدا أن أيّاً من أمها وأبيها لا يدرك وجودها؛ وهو أمر ليس سيئاً على الإطلاق، عند التفكير بتمعن.

- هل يمكن أن أعرف ماذا تفعل هنا؟ وكيف استطعت العثور على العنوان؟

- قلت لكِ إنني بحاجة إلى سيرتي الذاتية، وحاسوبي معطل، وأتذكر أنني كنت قد تركت نسخة على هذا الحاسوب!

- تذكر أننا انفصلنا منذ ثلاثة أعوام!

- إيه، وماذا عن ذلك؟

- بالتأكيد، ليست نسخة حديثة.

- ماذا تقصدين؟ إنني لم أقم بأعمال كثيرة خلال تلك الأعوام الثلاثة؟

- لا، كنت أريد أن أقول إن تلك السيرة الذاتية ستنقصها بالتأكيد أشياء، مثل «ترددت على عاهرات على الرغم من أن لديَّ زوجة وابنة سنها أربعة عشر عاماً»، و«ضربت في حالة سكر زوجتي أكثر من مرة».

تحذير: تفهم جويا أن هناك جرساً ما قد رن؛ ولذلك من الأفضل أن تصبح مرئية الآن.

والمقصود بـ(جرس) هو عندما تقول أمها شيئاً ما يمكن أن يتسبب بشكل قاطع في تدهور الوضع؛ وذلك باستفزازه أو لمس زر موجع، السخرية منه وجرح كبريائه كرجل، إذا كان في الإمكان

تسـميتها كذلـك. كلهـا أشـياء، في الفـترة الماضيـة، كانـت تعنـي فيـما بعـد، صفعـات مؤكـدة، ومعـاوني الشرطـة في المنـزل، والجـيران الكريهين في النافـذة وهـم يومئـون بالرفـض برؤوسـهم.

كانـت تسـأل نفسـها دائمـاً كيـف يمكـن لأمهـا، التـي كانـت تعرفـه، وتعلـم جيـداً جـدّاً أنهـا بقـول أشـياء معينـة سـيرد هـو بيديـه، لا تنجـح مطلقـاً في السـكوت. حسـناً، ربمـا كان هـو سـيرفع يديـه في كل الأحـوال، لكـن، لمـاذا، بحـق الشـيطان، يجـب عليهـا أن تقول تلـك النكات السـاخرة، تلـك العبـارات المسـيئة والجمـل الجارحـة؟ شيء غامـض بالفعـل.

عـلى كل حـال، العبـارة الأخـيرة، تلـك الخاصـة بالسـيرة الذاتيـة، نمـوذج كلاسـيكي للجـرس. إذا لم تظهـر جويـا أمامهـما وتقـول بطريقـة حسـنة وبصـوت مرتفـع «صبـاح الخـير!»، سـينتهي الأمـر بأمهـا عـلى الأرض متألمـة وأبيهـا ذهـب وصفـع خلفـه البـاب. وبـلا سـيرة ذاتيـة هـو الأمـر، الـذي سـيكون أكـثر خطـورة، ليـس لأنـه هكـذا لـن يعـثر عـلى عمـل، لكـن لأن هـذا سـيعني رؤيتـه مـن جديـد خـلال فـترة وجيـزة.

لا، في سـبيل ألا تـرى وجهـه خـلال فـترة وجيـزة في المنـزل، يمكـن لجويـا أن تقـوم بماراثـون مشـاهدة «Beautiful» لمـدة شـهر بـلا فواصـل إعلانيـة.

- «صباح الخير!»، قالت إذن وهي تقف أمام الباب.

- «حبيبتـي الصغـيرة!»، أجابتهـا أمهـا، وهـي تجـري للقائهـا واحتضانهـا، كأنهـا عـادت لتوهـا مـن مهمـة في أفغانسـتان.

- «أهـلاً جويـا»، قـال الأب بصـوت منخفـض وهـو يشـعل سـيجارة. تسـتمر الأم في احتضانهـا، وتشـعر جويـا فـوق شـعرها بـشيء مبتـل؛ وهـذا يعنـي أنهـا بـدأت في البـكاء.

ويضيـف الأب، بصـوت منخفـض أكـثر: آه، بالمناسـبة، هنـاك شيء آخـر.

- إذا كنت تريد نقوداً انسَ الأمر! هذا الشهر نحن أيضاً مفلسات تماماً.

- لا... هناك مشكلة أخرى.

تبتعد أم جويا وتمسح دموعها وتنظر نحوه. ويمر جاكو؛ القط الشبح، من أسفل قدميها وهو يخرخر، كأنها لحظة لطيفة من لحظات الحنان الأسري.

- ماذا تريد؟

- سأحتاج إلى أن أنام هنا، لبضعة أيام فقط.

6

«كيف كانت تلك الكلمة؟».

أغلقت جويا سبادا على نفسها في الحجرة الصغيرة مع جدتها جيمّا، تمسك بقلم في يدها وتضعه بين شفتيها، بينما تحدق في الفراغ أمامها كأنها تحاول أن تتذكر. أمامها، موضوعة على الفراش، توجد مفكرة مفتوحة يوجد فيها عدد من الكلمات، مكتوبة بطريقة عشوائية، على كل الصفحات، وبجوار كل منها سطران، شيء كالتفسير.

- هيا! تبدأ بحرف P.

تقول متحدثة بصوت مرتفع أمامها. تشير إلى كلمة يونانية سمعتها اليوم في المدرسة من أستاذ العلوم، في أثناء الخطبة، التي ألقاها في ختام امتحانه المؤلم (وفي تلك الحالة، كان يقول إنه في عمرها يجب أن يكون للصبي بالفعل القدرة على الاختيار، أن يقرر ماذا يجب أن يفعل في حياته، وإنها، بعدم الاستذكار، لا تمارس هذه الخاصية، ما كان أيضاً بالفعل تناقضاً؛ فالمرء يمكنه أيضاً اختيار ألا يذاكر، في كل الأحوال).

وقالـت: Pro...pro....proairesis! وهـي تـضرب بيدهـا عـلى مـلاءة جدتهـا، ثـم كتبـت بسرعـة الكلمـة عـلى المفكـرة، وهـي تضـع علامة «يسـاوي» بجوارهـا، ثـم عرَّفتهـا: القـدرة عـلى الاختيـار والقـرار وفقـاً للتفكـير العقـلاني.

نظـرت مـرة أخـرى إلى الكلمـة لبضـع ثـوانٍ، كررتهـا بطـرف شـفتيها، بصـوت منخفـض، وهـي تحـدق في الفضـاء وتفكـر في أنهـا تعـرف عـلى الأقـل شـخصين، خـارج هـذه الغرفـة الصغـيرة، ليـس لديهـما في الواقـع، وعمرهـما فـوق الأربعـين؛ أي proairesis، ثـم أغلقـت المفكـرة، ووضعـت القلـم فـوق الطاولـة، ونظـرت إلى جدتهـا.

ظلت هنـاك معها، بالأضـواء المنخفضـة وفي أذنيها أغنيـة Another Brick in the Wall[8] بأعـلى صوت.

تسـمع جويـا، عمليّـاً، فقـط الموسـيقى، التـي يمكـن أن يصنفهـا أي مراهـق متوسـط، موسـيقى قديمـة، أو بالتحديـد، عتيقـة. الفضـل - أو الذنـب، يعتمـد ذلـك عـلى وجهـات النظـر - يرجـع إلى جدهـا ألفريـدو، زوج جيـمّا، الـذي مـات وعمـر جويـا تسـعة أعـوام. قضـت جويـا الأعـوام الأولى مـن حياتهـا دائمـاً في منـزل جديهـا، والأبـوان دائمـاً خـارج المنـزل يبحثـان عـن عمـل، أو في أغلـب الأحـوال يفقدانـه. كان ذلـك ملاذهـا، أن تتمكـن مـن قضـاء فـترة طويلـة معهـما وليـس مـع أبويهـا. كانـت تقـضي أمسـيات كاملـة مـع جدهـا تسـتمع فيهـا إلى تلـك الأسـطوانات، وكان هـو يـشرح لهـا معنـى الكلـمات، وكان يحـكي لهـا كيـف وُلـدت تلـك الأغنيـات. الفـرق الإنجليزيـة والأمريكيـة، المطربـون المؤلفـون لأغانيهـم مـن الإيطاليـين، لكـن أيضـاً أغـاني الـروك في التسـعينيات، جميعهـا أشـياء لم يسـتمع إليهـا حتـى زملاؤهـا في الفصـل. كان الجـد ألفريـدو مجـرد مسـن، حـداداً عـلى المعـاش، لكـن ثقافتـه الموسـيقية كانـت غـير عاديـة. وكان يعمـل أيضـاً (ديجـي)؛ منسـق الأغـاني في راديـو محـلي صغـير، في

(8) أغنية لفريق بينك فلويد المعروف تناهض منظومة التعليم Another brick in the Wall – Pink Floyed.

شـبابه. والـشيء الوحيـد، الـذي تركـه ميراثـاً لجويـا هـو كل مجموعـة أسـطواناته الفينيـل لفرقـة بينـك فلويـد. ربمـا، لـو كان تـرك لهـا سـبع فيـلات بحمامـات سـباحة، لمـا كانـت ستسـعد بهـذه الطريقـة.

الحقيقـة أن موسـيقى فرقـة بينـك فلويـد فيهـا هـذا الـشيء، الـذي لا يوجـد في أي موسـيقى أخـرى؛ فهـي تفصـل المـرء عـن الأرض، ترفعـه، عـادةً مـا تكـون موسـيقى حزينـة، لكـن حزينـة بطريقـة تجعـل مـن الحـزن شـيئاً جميـلاً، بـل عذبـاً، ثـم في منتصـف ذلـك الحـزن العـذب توقظـك، وتُـدرك أنـك لم تعـد حزينـاً، وأن قدميـك لم تعـودا تلمسـان الأرض، وأنـك في مـكان آخـر، وأن العـالم هنـاك تحـت، وأنـت فـوق، وأنـك نجـوت: فأنـت بعيـد؛ ومـن ثـم نجـوت.

هكـذا يمكـن لجويـا أن تجيـب إذا سـألها أحدهـم لمـاذا تسـمعهم كثـيراً هكـذا. في الواقـع، لم يسـألها هـذا السـؤال أحـد قـط. في نهايـة الأمـر، العثـور عـلى شـخص مـا يمكنـك التحـدث معـه شيء صعـب، أجـل، لكـن ليـس هـو أصعـب الأشـياء. الأصعـب هـو العثـور عـلى مـن يمكنـه أن يسـألك الأسـئلة الصحيحـة، تلـك التـي لديـك عنهـا أجوبـة، موجـودة هنـاك منـذ أعـوام وأنـت لا تعـرف هـذا. وهنـاك، في الوقـت نفسـه، منـذ ثـلاث سـاعات، لا يـزال والداهـا يتشـاجران عـلى أشـياء حدثـت قبـل حتـى أن تُكتـب أغنيـة Another Brick in the Wall. إنـه السـبب، الـذي مـن أجلـه تجلـس جويـا في الحجـرة الصغـيرة، مـع جدتهـا التـي تجـاوز عمرهـا الثمانـين؛ لأن المكـوث هنـا معهـا، والنظـر إليهـا، هـو أكـثر شيء في العـالم يمكنـه أن يهدئهـا.

ليـس فقـط جدتهـا، لكـن في الحقيقـة كانـت التجاعيد هي السـبب، تجاعيـد كبـار السـن التـي يمكنهـا النظـر إليها لسـاعات.

إن تلـك التجاعيـد طـرق ورحـلات، إنهـا أخطـاء، وكلـما زاد عـدد التجاعيـد، زادت قصـة الحيـاة المخطوطـة عـلى الوجـه. وجويـا سـبادا

كانـت كثـيراً مـا تجلـس هنـاك -لأنهـا كثـيراً مـا كانـت تحتـاج إلى أن تهـدأ وهـي في منزلهـا - وتتبـع مسـار تلـك الانحنـاءات المرسـومة عـلى الجلـد، وتسـير في داخلهـا، وتحـاول أن تتخيـل كـمّ الضحـكات والدموع، وكـم الوجـع والفـرح الـذي اسـتلزم لينحتهـا، إنهـا مثـل الجبـال البـارزة التـي تظهـر في الأفـق، وتحـكي عـن مناظرهـا الطبيعيـة، ومثـل المراكـز الرئيسـة، والإشـارات، والخرائـط، تنظـر إليهـا، حتـى لـو لبضـع ثـوانٍ؛ لتعـرف أيـن يجـب أن تذهـب، ومـاذا عليهـا أن تفعـل، مـن هـي وأيـن مكانهـا.

لسـبب مـا عجيـب، جويـا سـبادا، بخـلاف العاقـلات مـن صديقاتهـا، تحسـد جدتهـا عـلى التجاعيـد، وتريـد أن تكـون لديهـا هـي أيضـاً، ليـس بسـبب نـزوة مـا عابـرة، ولا لأنهـا مختلـة، إنهـا تريدهـا لأنهـا تريـد أن تكـون لديهـا حيـاة ثريـة مثـل هـذه عـلى وجههـا. ترغـب في أن تلمسـها بأصابعهـا، وتعـرف أن شـيئاً مـا قـد عـبر عـلى جلدهـا، وأنهـا لم تمكـث منغلقـة عـلى نفسـها في مكانهـا، وأن الحيـاة خربشـتها، وتركـت علامـة مـا، ولا يهمهـا إذا كان ذلـك سـيؤلمها أو سـيفيدها، تريـد فقـط تلـك العلامـة.

مثـل ذلـك القطـع؛ ذلـك القريـب مـن أذنهـا، الـذي ربمـا يكـون أغـلى مـا لديهـا. تلمسـه كثـيراً جـدّاً، في كل مـرة تريـد أن تتذكـر مـا لا تريـده بالتحديـد، وإلى أيـن لا تريـد الذهـاب.

وراء البـاب، يوجـد أبوهـا، الـذي يتهـم أمهـا بأنهـا دمـرت حياتـه، وهـي بينـما تقـول لـه أن يرحـل، وإنـه لا يمكنـه النـوم هنـا، وإن هنـاك حكـماً بالانفصـال يمنعـه مـن ذلـك.

تجلـس جدتهـا جيـمّا وعيناهـا شـبه مغمضتـين، وتتنفـس ببـطء. تحـاول أن تتكلـم؛ وهكـذا تنـزع جويـا السـماعتين وتقـترب بأذنهـا مـن شـفتيها. نـادراً مـا تسـتطيع أن تقـول أي شيء مفهـوم، لكـن يحـدث

هـذا أحيانـاً.

- ججججججه... جججججه.

لا، هذه لم تكن إحدى تلك المرات.

لكـن للأسـف نزعـت السـماعات بالفعـل، حتـى إن كان ذلـك لمـدة ثـوانٍ، ووصلـت إليهـا أصـوات هذيـن الشـخصين، اللذيـن، أجـل، أتيـا بهـا إلى العـالم، ولا بـد أن تكـون ممتنـة لهـما، لكـن إذا اسـتبعدنا هـذا، ربمـا كانـا سـيصنعان معروفـاً كبـيراً لنفسـيهما وللكـون بأكملـه إذا لم يكونـا قـد تقابـلا قـط.

قالـت جويـا لجدتهـا، حتـى إن كانـت تعـرف أنهـا لـن تحصـل عـلى رد: إنهـما بالفعـل اثنـان مـن الحمقـى، أليـس كذلـك؟ ولم تكـن تعـرف حتـى جيـداً إذا كانـت جدتهـا تفهـم مـا تقولـه، أو إذا كانـت تفهمـه فقـط في بعـض المـرات.

- أنـا أقصـد، مـاذا لديكـما بعـد ليقولـه أحدكـما للآخـر، ليجـرم كل واحـد الآخـر، وليـصرخ بسـببه؟ تعلـمان أن أحدكـما لا يحتمـل الآخـر، فليمكـث كل منكـما في حجـرة وننـهِ هـذا، أليـس كذلـك؟

تحاول الجدة جيمّا أن تقول شيئاً ما، لكن لا يخرج شيء.

- أعلـم، أعلـم. لا بـد أن أكـون قويـة. لا بـد أن أتظاهـر بأننـي لا أهتـم بـشيء. لا بـد ألا أهتـم. أعلـم هـذا.

تحاول الجدة جيمّا أن تقول شيئاً، لكن لا يخرج شيء.

- ومـاذا لـو كنـت أرغـب في أن أذهـب إلى هنـاك لأضرب الاثنـين بالمقـلاة عـلى وجهيهـما؟ أجـل، لسـاعتين. ضربـات بالمقـلاة. يـا إلهـي، يـا لـه مـن حلـم!

وقبـل حتـى أن تنتهـي مـن العبـارة، فُتـح بـاب الحجـرة الصغـيرة. ظهـر أبوهـا، عينـاه حمـراوان وينشـج.

- اخرجي من هنا.

كان يمكنها أن تجيبه بأن يذهب من هنا، أو بأنها ليست لديها أي نية بأن تنهض، لكن جويا سبادا، مع مرور الأعوام، تعلمت أنه عندما يكون لأبيها هذا الوجه من الأفضل دائماً طاعته، وأن تقول له «أجل»، حتى إن قصدت «لا» جليّاً. أو على الأقل أن تمكث في صمت، وهي تردد ذهنيّاً ترتيب الألبومات المسجلة في الاستوديو أو على الهواء لبينك فلويد، وأن تنتظر أن يهدأ. لم يكن السبب في تلك الندبة أنها وقعت في المتنزه في سن سبعة أعوام، حتى إن رددت ذلك دائماً للمعلمات والزميلات.

- الآن، تعالي إلى هنا وأجيبي عن سؤال!

نظرت إليه جويا، ومكثت ساكنة.

- سؤال واحد بسيط. تعالي.

نهضت جويا، وألقت نظرة أخيرة على جدتها، وحاولت جاهدة أن تصور ذهنيّاً تلك الحزمة من التجاعيد حول عينها اليسرى. تعرف أنها تحتاج إلى كل هدوء هذا العالم في الدقائق القادمة.

7

هناك في المطبخ، تجلس أمها أمام المائدة. هي أيضاً عيناها حمراوان. تظهر رائحة دخان، بينما تمتلئ مطفأة السجائر.

جلس الأب في مواجهة الأم.

- تعالي، اجلسي هنا على رأس المائدة.

قال هذا بصوت هادئ، لكن يمكن التمييز بوضوح أن هذا الهدوء كان ظاهريّاً ومصطنعاً ومتوتراً. جلست جويا.

- تبلغين من العمر ستة عشر عاماً.

- سبعة عشر يا بابا.

- أفضل أيضاً. أنتِ كبيرة، ومن المؤكد أنكِ قد كوَّنتِ أفكاركِ

الخاصـة حـول هـذه القصـة كلهـا.

وهنا فهمت جويا بالفعل ما يريد.

- جورجو، اتركها وحدها؛ فهي لا دخل لها في هذا!

- دعينـي أطـرح هـذا السـؤال فقـط عـلى ابنتـي. هـذا فقـط، ثـم يمكنهـا أن تعـود إلى جدتهـا.

تعـرف جويـا بالفعـل مـا السـؤال، وتريـد أن تنهـض وتذهـب مـن هنـا فقـط قبـل أن تضطـر إلى الإجابـة. لكـن ليـس أن تذهـب إلى هنـاك فقـط، لكـن أن ترحـل، أن تخـرج مـن المنـزل. أن تذهـب، إن أمكـن، إلى مدينـة أخـرى، إلى ولايـة أخـرى، ربمـا إلى كوكـب آخـر، إذا وُجـد.

- أصبحـت سـنك سـبعة عـشر عامـاً؛ ومـن ثـم أريـد أن تفهمـي مـن هـذا السـؤال أننـي الآن أمنحـك كل الثقـة في العـالم، وأننـي أتعامـل معـكِ كامـرأة، ؛ ومـن ثـم أضـع رأيـكِ إلى حـد كبـير في الحسـبان.

في رأس جويا، تدور في دوامة كلمتين فقط: (زفت) و(لا).

هكذا: زفت، لا، زفت، لا، زفت، لا، زفت، لا.

- الآن، أريـدك أن تفكـري في هـذا جيـداً، خـذي الوقـت الـلازم، لكننـي أريـد أن تقـولي لنـا، في رأيـك، الخطـأ خطـأ مَـن في كل مـا يحـدث، خطئـي أم خطـأ أمـك؟

- زفت، لا، زفت، لا، زفت، لا.

- ولتعلمـي أننـي أعلـم أنـكِ، بالتأكيـد، سـتقولين إن الخطـأ خطـأ كلينـا نوعـاً مـا، لكننـي أريـد أن تقـولي لنـا الآن، في رأيـك، مَـن المخطـئ أكـثر؛ لأننـي متأكـد مـن أنـك اسـتطعت، خـلال تلـك الأعـوام، تكويـن فكـرة مـا.

في اللحظـة نفسـها، التـي انتهـى فيهـا الأب مـن تلـك العبـارة، سـقط القـط الشـبح كأنـه أمطـار مـن السـماء، ووقـع فـوق منتصـف المائـدة؛ ولهـذا السـبب أيضـاً يطلقـون عليـه هـذا الاسـم. عندمـا وصلـن إلى

المنـزل الجديـد، كان هـو موجـوداً داخلـه بالفعـل، كأنـه هـو المالـك الأصـلي، ومنـذ ذلـك الحـين يفعـل هـذا، يظهـر فجـأة، كأنـه تكـوَّن في هـذه اللحظـة. يمكنـك أن تعـثر عليـه داخـل الأدراج، ويمكنـك أن تتعـثّر بـه، أو يقفـز بـين الأشـخاص في أثنـاء الحـوارات. القـط الشـبح.

يطـيّره أبـو جويـا بضربـة بيـده فيُسـقطه أرضـاً، ولـو زادت الضربـة عـلى ذلـك بدرجـة بسـيطة جـدّاً، لكانـت صدمتـه بالمُـبرد.

- هيا، قولي لنا! مَن في رأيك مخطئ أكثر، أنا أم أمك؟

- جورجـو، مـاذا تريدهـا أن تقـول لـك؟ أنـت تعـرف بالفعـل! لمـاذا تقحمهـا في الوسـط؟

- لأنــه، إن عاجــلاً أم آجــلاً، لا بــد أن يقــول لنــا أحدهــم هــذا الـشيء، ويجـب ألا يكـون شـخصاً أحمـق مـن القضـاة أو المحامـين أو مـن شـابههم. حانـت السـاعة، التـي لا بـد أن تـدركي فيهـا أنـكِ أنـتِ السـبب الأصـلي في كل هـذه المأسـاة!

- «أنـا السـبب! أنـا السـبب!» تـصرخ الأم، وهـي تضـع يديهـا عـلى صدرهـا.

لكن لم تعد جويا تسمعهما.

نظرتهـا ثابتـة، تجـاه الفـراغ. تجلـس سـاكنة، والـشيء الوحيـد الـذي يتحـرك هـو أسـنانها، داخـل فمهـا، تصطـك ببعضهـا. توجـد أيضـاً كلمـة تـشرح هـذا الـشيء؛ وهـي مكتوبـة في مفكرتهـا، التـي توجـد الآن هناك في الغرفـة الصغـيرة مـع جيـمّا؛ وهــي كلمــة فارسـية zhaghzhag، وتعنـي «عندمـا تصطـك أسـنانك، مـن الـبرد أو مـن الغضـب».

كان هــذا مــا يحــدث لهــا بقــوة مــن الغضــب الآن؛ وهــذه هــي الحركـة الوحيـدة التـي تقـوم بهـا.

- بالتأكيـد، هـو خطـؤكِ أنـتِ! وإذا لم يكـن ذلـك مَـن سـيكون! حـان الوقـت لـكي تعـترفي بهـذا.

صرخ الأب ووجهه مكتسٍ بالحمرة، لكن جويا كمن يجلس أسفل المياه، تصل أصواتهما إليها غير واضحة، ليست سوى ضوضاء كسرها العبور من خلال المياه، ليست سوى أصوات خالية من المعنى. نجحت فقط في أن تفكر في أنها يجب ألا تجلس هنا، وأن هذا ليس مكانها، وأنها لا تريد أن تجيب عن سؤال من هذا النوع، وأن جاكو ربما مصاب الآن، وأن جدتها تجلس بمفردها، وأن اليوم قد بدأ بأن حصلت على -5 في العلوم، وبزميل في الفصل يهددها على الباب، وأن ذلك في مقابل ما يحدث الآن هو الجزء الأفضل، وأن أباها وأمها ليسا سوى أحمقين، وأنها لم تغلق قارئ الـ«إم بي ثري»؛ ومن ثم، وفقاً لحساباتها، لا بد أن أغنية Mother الآن عليه، الأغنية الأخيرة من الوجه (أ) من أسطوانة The Wall، وأنها ربما، بقليل من الجهد واستراق السمع، تستطيع أن تفهم إذا كانت هي الأغنية، التي تخرج من السماعات، التي توجد حالياً في جيبها، وأنها لم تتناول العشاء، لكن في نهاية الأمر لا تشعر بالجوع، وتوجد في الخارج سماء مرصعة بالنجوم، وأنها ترغب في أن تخرج لتراها.

أجل، هذا ما تريد عمله.

ألا تبقى هنا. ألا تجيب عن هذا السؤال. أن تخرج فقط.

وهكذا، نهضت جويا، ودون أن يتمكن والداها من إدراك ما يحدث: ببطء وبهدوء تراجعت خطوة إلى الوراء، ثم بقفزة سريعة جدّاً أصبحت خارج الحجرة ويدها بالفعل على باب المنزل، فتحته، ونظرت إلى كليهما لنصف ثانية فقط، ورأت أنهما أدركا الآن فقط ما يحدث، ثم خرجت وأخذت تجري وتهرب بأقصى سرعة تستطيعها، في الظلام، خلف النجوم، بعيداً.

8

اجري يا جويا اجري.

أخـذت تجـري بأقـصى سرعـة في حياتهـا. الهـواء يمـلأ رئتيهـا، وضربـات قلبهـا تتسـارع، ولا تعـرف حتـى إلى أيـن هـي ذاهبـة، ولا حتـى إلى متـى ترغـب في أن تظـل بعيـدة. تعـرف فقـط أنهـا تريـد أن تضـع أكـثر عـدد ممكـن مـن الشـوارع بينهـا وبـين منزلهـا. وأخـذت تفعـل هـذا قـدر اسـتطاعتها.

في النهايـة، وعندمـا بـدأ العـرق يُـبرد ظهرهـا، وبـدأت ركبتاهـا في الارتعـاش مـن التعـب، عندمـا تراكـم الحمـض اللبنـي في القدمـين وأجبرهـما عـلى الوقـوف، أدركـت أنهـا وصلـت إلى مـكان مـا في المدينـة لم تكـن رأتـه مـن قبـل. لا يعنـي هـذا أنهـا تعيـش في مدينـة كبـيرة، لكنهـا هنـا منـذ أشـهر قليلـة، والشـارع الـذي توجـد فيـه الآن، والمنـازل والبـار المغلـق الـذي توقفـت أمامـه، لا يوجـد لهـا أثـر في وسـط مـا تتذكـره.

تشـعر بالتعـب الشـديد؛ وهكـذا تجلـس عـلى المقاعـد البلاسـتيكية للبـار. يبـدو أنـه ليـس مغلقـاً، لكنـه مهجـور. كان يبـدو أن اللافتـة الخارجيـة يمكـن أن تكـون BarAonda، إلا أنهـا تنقصهـا الأحـرف الأربعـة الأخـيرة؛ ومـن ثم تحولـت إلى كلمـة BarA[9] الكئيبـة. وبالقرب مـن البـار، كانـت توجـد هضبـة صغـيرة تقـف عليهـا كنيسـة صغـيرة كأنهـا مُنمنمـة، ومـن الشـارع يصـل فقـط صـوت بعيـد لتلفزيـون مـا. الآن، عندمـا انتبهـت، تشـعر جويـا أيضـاً ببعـض الـبرد. ارتفعـت ريـاح بـاردة، ولم تكـن هـي ترتـدي سـوى سروال البدلـة الرياضيـة وتي شـيرت، وكانـت غارقـة في العـرق.

---

(9) كلمة Bara تعني صندوق الموتى.

إلا أنها جلست هناك، ولم يكن أحد في الجوار. ربما لو كان الأمر يعود إليها، لنامت هنا وأنهت الأمر. وفجأة، تشعر بأن جفنيها ثقيلان جدّاً، كأنهما ملتصقان في أوزان من الرصاص. لا تعرف لماذا، لكن فجأة شعرت بنعاس رهيب، إلى حد أنها لم تعد تستطيع أن تفتح عينيها على الرغم من البرد والوضع، الذي لا يمكن تجاهله، وأنها تجلس على المقاعد الخارجية لحانة لم تكن رأتها من قبل في جزء من أجزاء المدينة، تراها للمرة الأولى؛ حيث لا يوجد أحد، وأن لها في مكان ما أبوين ليست لديهما أي فكرة عن مكانها.

وهكذا، في النهاية، نامت. بذراعيها المتجمدتين والمخاط في أنفها، نامت جويا. ونامت بعمق إلى حد أنها حلمت أيضاً. كان الحلم بشعاً يجب فيه أن تمسح نحو مليون من الكلمات بالحروف الكبيرة مكتوبة بأحمر الشفاه في المدرسة، من فوق الجدران والمقاعد والأرضيات، كانت كلمة MAIUNAGIOIA[10]، والمكتوبة في كل مكان، على حين أن أباها وأمها خلفها باستمرار يسألانها: من المخطئ؟ هه؟ من هو؟

ثم، في لحظة ما، ضوضاء ما توقظها.

كان شيئاً كضربة، كأن أحدهم يضرب الجدار بكرة بلاستيكية، إلا أنه كان صوتاً مكتوماً وقويّاً: تك!

فتحت جويا عينيها، ونظرت حولها، لكن لا يوجد أحد.

تك! ضربة أخرى.

الآن فقط أدركت أنه في حالة وجود معتدين أو لصوص في الجوار، يمكنهم أن يعتدوا عليها أو يسرقوها دون أن يزعجهم أحد. وفجأة، شعرت ببعض الغباء؛ لأنها مكثت في مكان لا تعرف حتى أين هو، وفي هذه الساعة من الليل.

---

(10) الاسم الذي أطلقه عليها زملاؤها، ويعني «ليست فرحة على الإطلاق».

تك! ضربة أخرى.

الآن، أمامهـا حـلّان، إمـا أن تهـرب، وإمـا أن تذهـب لـترى مـا هـذا. عـلى الرغـم مـن أن جويـا سـبادا تعـرف جيـداً جـدّاً أنـه في كل أفـلام الرعـب توجـد دائمـاً تلـك الشـخصية الغبيـة، التـي بـدلاً مـن أن تهـرب، تقـرر أن تذهـب لـترى مـاذا هنـاك؛ ومـن ثـم تُذبـح أو تُقطـع أعضاؤهـا أو تُشـنق؛ بسـبب مـا يقـع بـين الفضـول وعدمـه، إلا أنهـا تقـرر أن تذهـب لـترى. وببـطء، وبهـدوء، لكنهـا تذهـب: تسـير نحـو مصـدر الصـوت.

ثم يعود الصوت: تك!

كانـت شرفـة الحانـة BarA عـلى شـكل حـرف L، تجلـس هـي في أحـد الأطـراف، والضوضـاء تـأتي مـن الطـرف الآخـر، وهكـذا، لم تسـتطع أن تـرى مـا يحـدث. ربمـا كان قطّـاً، أو الريـاح التـي تتسـبب في تحريـك بعـض الأبـواب، أو ربمـا - وهـو السـبب الأرجـح - أن يكـون سـارقاً - معتديـاً. تسـير جويـا بمحـاذاة الجـدار، وتتوقـف، ثـم تطـل برأسـها فقـط. وفي الزاويـة، في العمـق، تـرى شـيئاً مـا، بـل والأهـم أنهـا تـرى شـخصاً مـا.

يبـدو صبيّـاً، يرتـدي كنـزة، ويضـع قلنسـوته عـلى رأسـه، ويلعـب لعبـة رمـي السـهام بمفـرده.

9

يلقـي بسـهم، ثـم يذهـب ليلتقطـه، ثـم يلقـي بسـهم آخـر، ثـم يذهـب ليلتقطـه. إنـه ماهـر، يسـدده دائمـاً في مركـز الهـدف أو عـلى رقـم 60.

يبقـى واقـع أنـه يلعـب بمفـرده، عمليّـاً في الظـلام، في حانـة مهجـورة اسمها BarA.

وهكـذا، تجلـس جويـا دقيقتـين مندهشـة تشـاهده وهـو يلعـب، لكـن بعـد ذلـك تُـدرك أنهـا اللحظـة، التـي عليهـا فيهـا أن تعـود أدراجهـا، وتبـدأ في البحـث عـن طريـق المنـزل، أو عـلى الأقـل أن تفهـم أيـن توجـد بالتحديـد. إلا أنهـا، بينـما تسـتدير، تصطـدم عـن طريـق الخطـأ بمقعـد، تـرك أحدهـم فوقـه مطفـأة سـجائر، تسـقط المطفـأة وتتهشـم إلى آلاف القطـع، وتتسـبب في صخـب عـالٍ جـدّاً، وهكـذا يلتفـت لاعـب الأسـهم ويسـتدير قائـلاً: مـن هنـاك؟

في أثنـاء اصطدامهـا بالمقعـد، جرحـت جويـا ركبتهـا: حتـى إن أرادت الهـروب لـن تتمكـن، وهكـذا أجابـت: لا شيء... أنـا... أجـل... عـلى كل حال...

لم يدعهـا الألم في ركبتهـا تعـبِّر بوضـوح كاف. وتقـدم لاعـب الأسـهم نحوهـا. رائـع، تماماً مـا كان ينقصهـا.

حاولت أن تقول له: لا تقلق؛ فأنا على وشك أن أرحل من هنا!

قال هو: هل أصبتِ؟

- لا، لا، لا تقلـق؛ لقـد فقـدت عظمـة ركبتـي فقـط. قـل لي إذا رأيتهـا في الجـوار.

قالت جويا وهي تمسك بركبتها.

قال لها: اجلسي هنا، هيا.

وهـو يحـرك المقعـد المتسـبب فيـما حـدث ويجلسـها. في إحـدى يديـه كان ممسـكاً بمرطبـان مـن الزجـاج، مـليء بالحجـارة، وضعـه عـلى المائـدة، ثـم أمسـك بقدمهـا وبحـذر حـاول أن يفردهـا لهـا عـلى مقعـد آخـر.

صرخت هي: مهلاً!

- اهـدئي، إنهـا مجـرد كدمـة، أتعرفـين؟ لم تفقـدي تمامـاً القـدرة عـلى اسـتخدام قدميكِ!

قالت جويا، وهي تبعده: وأنت من تكون؟ دكتور العظام ذو القلنسوة؟

- لا يا (شيء)، أنا لست سوى شخص يعرف أنه عندما تصطدم بمقعد، ينتهي تأثير ذلك بعد قليل.

نسيت جويا لثانية أنها هشمت توّاً ركبتها، ونظرت إليه بغضب.

- معذرة، هل أخطأت أم أنك ناديتني للتو (شيء)؟

قالت له. إذا لم يكن بسبب الألم، فأن يناديها أحدهم (شيء) كان سيكون دافعاً كافياً لأن تنهض وتذهب على الفور من المكان دون حتى أن تحييه، على الرغم من تصرفه المهذب ومساعدتها على الجلوس.

- أنا؟

- لا. انظر، أحد العملاء المائتين الموجودين في هذا المحل!

نظر هو حوله، كأنه يتظاهر بالبحث عمن فعل هذا، ثم قال مبتسماً: آه، نعم. إذا حدث ورأيته قولي لي يا (شيء)، وأنا سأجعله يدفع ثمن هذا! فلا أحد يتحدث هكذا مع الآنسات!

كان مجرد صبي، سنه تقريباً من سنها. يظهر فقط الجزء الأسفل من وجهه وعينه اليمنى، التي تبدو بلون كستنائي قاتم. له ذقن صغيرة، نوعاً ما، لكن فيها قليلاً من الشعر. أخذ من جديد المرطبان المليء بالحجارة في يده وجلس أمامها.

- يا (شيء)، هل يمكن معرفة ماذا تفعلين في هذه الساعة في حانة مهجورة وأنتِ لا ترتدين سوى تي شيرت؟ هل تطاردين المجانين؟

- مبدئياً، أرجوك أن تتوقف عن مناداتي بـ(شيء)، ثم أنا هنا لأنني... لكن معذرة، على أي أساس تتحدث، وأنت تلعب بمفردك

بالأسـهم في المـكان نفسـه، في السـاعة نفسـها، إضافـة إلى أنـك تحمـل في يـدك مرطبانـاً مـن الزجـاج مليئـاً بالحجـارة؟

- ربما لديَّ سبب جيد لأوجد هنا.

- إيه، ربما أنا أيضاً.

- وأنتِ بهذه الملابس؟

- لماذا؟

- (شيء)، اعذرينـي، لكـن يبـدو لي أنـكِ لسـتِ سـوى واحـدة لديهـا سـبب جيـد لئـلا توجـد في مـكان آخـر.

- وأنت لست سوى شخص لا يهتم فقط بما يخصه!

- إيـه، إيـه، موافـق، معـذرة. كأننـي لم أقـل شـيئاً. دعينـا لا نبـدأ بدايـة خاطئـة.

- نبدأ؟ ماذا تريد أن تقول؟

سألته جويا، وهي تحرك قليلاً رأسها جانباً.

- إيـه، نحـن نتعـارف، أليـس كذلـك؟ ثـم إنـكِ تبديـن لي واحـدة بـدأت بالركبـة الخاطئـة.

نظـرت إليـه جويـا نظـرة سيئة. اقـترب منهـا الصبـي للحظـة بحـذر. حـاول أن يلمـس المنطقـة التـي أصيبـت فيهـا. توقـف هـي يـده، وتضم شـفتيها، وتضعهـا لـه ببـطء فـوق المائـدة، وهـي تحـدق فيـه بتلـك النظـرة، التـي تعنـي في اللغـة العالميـة للنظـرات: ومـاذا تريـد أن تلمـس؟

- أنا أفضل، شكراً!

- حسناً!

- أجل!

يـدرس هـو ذراعهـا، ينظـر إليهـا باهتـمام، يضـم حاجبيـه، ويقـترب أكـثر بعينيـه.

- حسناً؟ إلامَ تنظر؟

- ما هذا الشيء الذي كتبتِه هنا؟

- كلمات.

قالت جويا وهي تربت على قدمها.

- فعلاً! كنت أعتقدها حروفاً موضوعة بالمصادفة!

- في الحقيقة كثيرون يعتقدونها هكذا!

- لكن ما معناها؟ كلمات بالألمانية، أليس كذلك؟

كانت الحروف قد مُسحت بعض الشيء بسبب العرق، لا يمكن قراءتها تقريباً. يحاول هو أن يفك شيفرتها، لكن جويا تغطيها بيدها.

- اسمع، الآن أشعر بأنني بالفعل أفضل، وتقريباً سأذهب.

يعقد هو ذراعيه ويضع قدميه فوق إحدى الطاولات الصغيرة، ثم يقول لها برضا: أرأيتِ؟

تلمس جويا ركبتها، وبينما تفعل ذلك قالت وهي تتنهد:

- ها هو واحد آخر.

- آخر ماذا؟

- واحد آخر من أولئك الذين يحبون أن يقولوا «أرأيتِ؟» عندما يكونون على حق.

- حسناً، كان لا بد أن أختار بين هذه وأن أقول «لتقبِّلي يدي»، وكان صراعاً ضارياً، لكن في النهاية ربحت «أرأيتِ؟».

- معذرة، أعتقد أنني لم أفهم جيداً: هل قلت لي للتو أن أقبِّل يدك؟

- من؟ أنا؟

- أجل، أنت: هل قلت لي هذا؟

- ربما يكون هناك بعض الاحتمال أن هذا الأمر قد حدث. أجل.

- وأنـت، لإنسـانة عرفتهـا للتـو، تقـول شـيئاً مثـل هـذا؟ هكـذا، كأننـي أختـك؟

- ليسـت لـديَّ أخـوات، لكـن أيضـاً إذا كانـت لـديَّ واحـدة، لا أعتقـد أننـي كنـت سـأكون قليـل التربيـة حتـى أقـول لهـا هـذا!

وهنـا، عنـد تلـك العبـارة، وبعـد بضعـة قـرون، أو بعـد ذلـك، حـدث...

حـدث ذلـك الـذي تمكّـن قليلـون بالفعـل مـن أن يـروه؛ لأنـه في المـرات التـي يحـدث فيهـا، لا يوجـد أحـد مطلقـاً في الجـوار ليسـتمتع بالمشـهد، إلا أنـه يحـدث.

جويا عندما تضحك.

ليـس بصعوبـة، لكـن كانـت ضحكـة اسـتغرقت ثانيتـين، لتسـحبها بعـد ذلـك (في الحقيقـة لم تكـن ترغـب في أن تشـعر بأنهـا مهزومـة)، لكنهـا ضحكـت.

- إيـه، إيـه، فلانـة التـي كان عليهـا أن تقبّـل يـدي، تقريبـاً ضحكـت. هـل هـذا يعنـي أن المضايقـة قـد ولّـت؟

حاولـت جويـا أن تنهـض، يقـترب منهـا الصبـي ليسـاعدها، تبعـده هـي قائلـة: سـأتصرف بمفـردي، سـأتصرف بمفـردي!

- أوه، لسـتِ إذن عـلى الإطـلاق تلـك السـيدة، التـي فجـأة تقبـل مسـاعدة شـخص غريـب!

- ربما يمكنك أن تقول لي اسمك، وهكذا لن تصبح بعد غريباً.

- ربمـا يمكنـكِ أنـتِ أن تقـولي لي اسـمكِ؛ وهكـذا يمكننـي أن أتوقـف عـن أن أدعـوكِ (شيء). أو إذا كنـتِ تفضلـين يمكننـي الاسـتمرار.

- جويا، اسمي جويا، وأنت؟

- أنا (لو).

نظرت جويا لبضع ثوانٍ إلى وجهه: (لو).

- (لو).

- (لو)!

- أجل، (لو). هل نريد أن نمكث هنا طوال الليل نردده؟

- هل اسمك بالفعل (لو)؟ أي إن (لو) هو اسمك؟

- أجل. إنه تصغير. أصدقائي ينادونني هكذا دائماً.

- آه، إذن، اسمك هو لورينزو؟

- ربما.

- لقد قلت لك اسمي.

- لكنكِ لم تقولي لي مما تهربين. لنقم بمقايضة: أخبرك أنا، إذا أردتِ، لماذا ألعب بالأسهم هنا في الليل، لكن اسمي أقوله لكِ فقط إذا قلتِ لي لماذا أنتِ هنا.

- نعم، لماذا أنت هنا؟

- بسيطة. هل ترين الآلة الصغيرة للأسهم هناك؟ إنها الوحيدة الموجودة في مكان مفتوح في المدينة كلها.

- إذن؟

- إذن، هي الوحيدة التي أستطيع أن أستعملها ليلاً عندما لا يكون هناك أحد.

تنظر إليه جويا وهي تحدق قليلاً بعينيها، كأنها تريد أن تقول: ولماذا ترغب في أن تلعب بمفردك عندما لا يكون هناك أحد؟

- إذا نظر إليَّ أحد، لعبتُ بطريقة سيئة جدّاً، ويكون إنجازاً إذا استطعت أن أُلقي السهم في الدائرة، وغالباً ما ينتهي سهمي على الجدار، أما إذا لعبت بمفردي، أُسدده دائماً حيث أريد. لا تسأليني عن السبب؛ لأنني أنا نفسي لا أعرفه.

لم تسـأله جويـا عـن أي شيء، لكـن لأنهـا في داخلهـا فهمـت تمامـاً مـاذا يقصـد. لم تلعـب قـط بالأسـهم في حياتهـا، ولا تعـرف حتـى كيـف تمسـك في يدهـا بسـهم، لكـن يحـدث الـشيء نفسـه أيضـاً لهـا: عندمـا ينظـر شـخص مـا إليهـا، أو حتـى عندمـا يكـون فقـط بالقـرب منهـا يضحـك أو يتحـدث داخـل إطـار شـؤونه، لا تسـتطيع مطلقـاً أن تصـل إلى المركـز في أي شيء، لكـن عندمـا تكـون بمفردهـا، بالتأكيـد ليـس دائمـاً، لكـن أحيانـاً هـذا يحـدث، فـإن السـهم يعـرف تمامـاً أيـن تريـده هـي.

سألها: وأنتِ، لماذا أنتِ هنا؟

لكنها قالت فقط: إيه.

- لا تعرفين كيف انتهى أمرك هنا، أليس كذلك؟

- نعـم، ليسـت لـديَّ أي فكـرة. أعـرف فقـط أننـي بـدأت أجـري، وعندمـا لم أعـد أسـتطيع أن أكمـل، وجـدت نفـسي هنـا.

- مشكلات في المنزل؟

- أجل... لكن... كيف عرفت؟

- حسـناً يـا (شيء)، لا يحتـاج المـرء إلى أن يكـون شـيرلوك هولمز ليرى أنـكِ تقريبـاً بالبيجامـا، إلا إذا كنـتِ مـن الأشـخاص، الذيـن يخرجـون عـادةً مـن منزلهـم بهـذه الهيئـة، ومـع هـذا الـبرد أيضـاً.

- أعتقـد أننـي قلـت لـك اسـمي بالفعـل، إذن، ربمـا يمكنـك أن تتوقـف عـن أن تدعـوني (شيء)، الآن.

- أتعرفـين؟ أعتقـد أننـي لـن أتوقـف. لقـد قـررت أننـي أفضِّـل (شيء). ألا يعجبـك؟

- نعم، لا يعجبني.

- حسـناً، هنـاك مـا هـو أسـوأ في الحيـاة مـن أن يسـميكِ أحدهـم (شيء).

- أجـل، أن يكـون اسـم المـرء مجـرد أداة تعريـف[11]، عـلى سـبيل المثـال.

حـدّق فيهـا الصبـي بجديـة. اسـتمرت جويـا، كأنهـا ترغـب في أن تـشرح لـه: Lo أداة تعريـف.

- أعلـم جيـداً مـا أداة التعريـف، ويمكـن أن يصبـح ضمـيراً أيضـاً. أنظـر إليـكِ بطريقـة سيئة ربمـا تفهمـين منهـا كـم أعجبتنـي مزحتـك!

- الآن تفكر في أن تقول لي ما اسمك بالفعل؟

ولا تـكاد تنتهـي مـن السـؤال، حتـى تسـمع صوتـاً مـن الشـارع، مـن بعيـد، ينـادي: جويـا! جويـا.

- أعتقد أنهم يبحثون عنكِ.

- يا للبؤس، إنه أبي! كيف استطاع أن يصل إلى هنا؟

تختبـئ جويـا تحـت إحـدى الطـاولات، وتجلـس هنـاك لتسـتمتع بمشـهد أبيهـا الـذي يمـر.

قال لها: لا تريدينه أن يراكِ، إيه؟

- جويا! جويا!

- لا أريـد أن أعـود إلى المنـزل معـه. كلـه إلا هـذا. وأنـت تحـدَّث بصـوت منخفـض حتـى لا يسـمعك!

- تعالي معي!

ويأخذهـا مـن يدهـا ويسـير منحنيـاً ويقودهـا حتـى نهايـة تـراس الحانـة؛ حيـث توجـد آلـة اللعـب بالأسـهم. توجـد مسـاحة قدرهـا نصـف مـتر تقريبـاً بـين الآلـة والجـدار، ويختبئـان هنـاك، في الظـلام، وكل مـا حـول المـكان يجعلانهـما غـير مرئيـين بالفعـل.

ويقول هو: ليس سيئاً كميعاد أول. أليس كذلك؟

- كأول ماذا؟

(11) تستخدم Lo في اللغة الإيطالية أداة تعريف للمذكر في حالات محددة.

- جويا! جويا!

- نحـن في بـار، نحـن الاثنـان، ذكـر وأنثـى، أنـتِ مـاذا سـتطلقين عليـه؟

- مممم... صدمة في الركبة وأب أحمق في الجوار؟

- آه من بنات اليوم. لقد قتلن معنى الرومانسية!

ابتعـد أبـو جويـا، ولم يعـد صـوت ندائـه مسـموعاً، تخـرج هـي و(لـو) مـن المخبـأ.

- الآن، وقد ابتعد أبوكِ، هل تلعبين مباراة أسهم؟

- لا، أعتقد أنه من الأفضل أن أعود أنا أيضاً إلى المنزل.

- ألا تخافين من أن تعودي بمفردك؟

- بعـد أن قابلـت شـخصاً بقلنسـوة يلعـب وحـده بالأسـهم، ويحمـل في يـده مرطبانـاً مـن الحجـارة، أعتقـد أن لا شيء يمكنـه أن يخيفنـي. قـل لي فقـط مـا الطريـق الـذي يجـب أن أسـير فيـه لأعـود إلى حـي المنـازل الشـعبية؟

- هل تسكنين هناك؟

- لا في الحقيقـة، كنـت أفكـر أنـه في الليـل، بعـد الحانـة المغلقـة، أحـب أن أذهـب لزيـارة حـي سـيئ السـمعة بعـض الـشيء.

يبتسـم (لـو) ويـشرح لهـا الطريـق، بينـما تبـدأ جويـا في الارتعـاش وتصطـك أسـنانها بعضهـا ببعـض، لكـن ليـس بسـبب الغضـب هـذه المـرة؛ بـل بسـبب الـبرد.

- برد بعض الشيء، أليس كذلك؟

يقول لها بعد أن ينتهي من الشرح.

- ربمـا أحـب أن أسـتمع إلى صـوت أسـناني التـي تصطـك ببعضهـا. يـا لهـا مـن أصـوات موسـيقية!

- هـل أنـتِ هكـذا سـاخرة طـوال الوقـت، أم أنـا الـذي أشـعركِ

بالرغبــة في أن تطلقــي مزحاتــك اللاذعــة؟

- لنقل إن الأمر مركب من الشيئين.

- هل يمكنني على الأقل أن أعيركِ كنزتي؟

- وكيف يمكنني أن أعيدها إليك؟

- بسـيطة، إذا أتيـتِ إلى هنـا غـداً في السـاعة نفسـها، سـتجدينني هنـا ألعـب.

- هنا.

- أجل.

- أنت تحب جدّاً اللعب بالأسهم.

- إذن، هل تريدينها أم لا؟

- حســناً، أشــكرك؛ لأننــي فعــلاً أشــعر بأننــي ســأتجمد، لكننــي ســأعيدها إليــك في الغــد.

- رائع.

- أنت فعلاً لطيف يا (لو) (اختصار ما لا أعرفه).

- ليـس لطفـاً، لكـن يلزمنـي سـبب لأراكِ مـن جديـد، وهكـذا ربمـا تشرحـين لي مـا هـذا الـشيء المكتـوب عـلى ذراعـك.

ترتـدي جويـا الكنـزة، وتنظـر إلى وجهـه لثـوان معـدودة، الآن، وقـد خلـع القلنسـوة، اسـتطاعت أن تـراه كلـه. شـعره المقصـوص قصـير جـدّاً، كسـتنائي فاتـح، يعكـس بعـض الـشيء الضـوء القـادم مـن مصابيـح الطريـق. فمـه كبـير جـدّاً، غـير متناسـق قليـلاً مـع باقـي ملامـح وجهـه، لكـن بـلا قبـح، يبـدو، عـلى الأرجـح، فـم أحـد أولئـك الذيـن عندمـا يضحكـون تكـون ضحكاتهـم مـن النـوع المعـدي، التـي تظهـر جيـداً، وتُسـمع جيـداً. عينـاه كسـتنائيتان داكنتـان، ضيقتـان بعـض الـشيء، كاللوزتـين، رموشـه طويلـة جـدّاً، ثـم بجـوار حاجبـه وحمـة داكنـة طولهـا نحـو سـنتيمترين، وهـي تنـزع أيضـاً بعـض الشـعر مـن الحاجـب نفسـه.

- ربما يحمل اسماً غبيّاً، لكنه ليس فتى قبيحاً.

فكرت جويا في تلك الثواني القليلة.

لكنها لاحظت أيضاً أنه ينظر إليها بطريقة غريبة. لن تتمكن من أن تصفها؛ لأنها ببساطة لا يبدو لها أنها تتذكر قط أنها رأت أي شخص ينظر إليها هكذا. كأنه ينظر إليها، لكنه في الوقت نفسه ينظر إلى أبعد من ذلك، كأنه يحدق في الفضاء، إلا أنه يحدق فيها هي.

لكن كل هذا حدث في ثانيتين، وربما أيضاً أقل من هذا.

- إذن، إلى اللقاء غداً. سأعثر على سبب لأعود إلى هنا وأعيد إليك الكنزة.

قالت له، مبدئيّاً لتكسر حرج نظرته إليها. كانت بالفعل ثانيتين، لكن تبدو أطول من ذلك بكثير.

- أقل شيء، فأنا لم أهدِها إليكِ.

أجابها هو وقد استيقظ.

- سلام يا (لو).

- سلام يا (شيء).

10

«صباح الخير يا أولاد».

قال البروفيسور بوفه وهو يدخل. لم يجب أحد فيما عدا جويا؛ فهي تجيب عليه هو فقط، ويمكن رؤية أن هذا يهمه.

عمره سبعون عاماً، لكن يبدو كأنه في الثمانين. الشعر والذقن ناصعا البياض، وجهه محفور، ويرتدي دائماً بدلاً قديمة مزدوجة الصدر، بلونَي الرمادي الداكن أو الرمادي الفاتح، ذات أكمام مستهلكة تماماً عند المرفقين، ويُدرس الفلسفة.

يجلـس وينظـر إلى الفصـل، الجميـع، واحـداً واحـداً، في أعينهـم، لبضـع ثـوانٍ. يفعـل دائمـاً الـشيء نفسـه، بالنسـبة إليـه هـي الطريقـة التـي يسـجل بهـا الحضـور. هكـذا، يقـول، يراقـب الحضـور و الغيـاب. وفي الواقـع، أحيانـاً يضـع علامـة الغيـاب عـلى حاضريـن في الفصـل، إذا رأى في أعينهـم أنهـم في مـكان آخـر. لا يغضـب، ولا يصيـح، يسـجلهم غائبـين فقـط.

بعـد الانتهـاء مـن تسـجيل الحضـور، يفتـح حقيبتـه ومنهـا يُخـرج صينيـة مليئـة بالحلـوى الصغـيرة، يضعهـا فـوق المكتـب، عـلى مـرأى الأعـين. وأكـثر مـن كونهـا فطائـر صغـيرة، فقـد كانـت بالفعـل قنابـل مـن السـعرات الحراريـة: بينيـه بالكريمـة كبـيرة مثـل كـرات التنـس، كانيلـوني تبـدو كأنهـا أنابيـب الحـوض، وفطائـر أكـبر مـن أن تُمسَـك بيـد واحـدة.

- الآن، سـأنادي عليكـم، وسـأختار وفـق الحـظ، واحـداً بعـد الآخـر سـتأتون هنـا، سـتختارون قطعتكـم المفضلـة، وتأخذونهـا إلى أماكنكـم، وبمجـرد أن أقـول انطلقـوا، سـتبدؤون في أكلهـا.

قالـت جوليـا باتّـا، التـي يعـادل احتياجهـا الغـذائي اليومـي ذلـك الـذي لطائـر طنـان يتبـع حميـة: لكننـي لسـت جائعـة يـا أسـتاذ!

أجـاب البروفيسـور: حسـناً لـن أصر؛ هـذا يعنـي أن مَـن سـأختاره بعـدكِ سـيكون مـن حقـه أن يأخـذ حـق اثنـين.

ثـم بـدأ الأسـتاذ في منـاداة الأسـماء. كازالي، دون أي مجهـود، كان أول اسـم اختـير. إنـه الكائـن الحـي، الـذي يحظـى بأكـبر قـدر مـن الحـظ في النصـف الشـمالي مـن الكـرة الأرضيـة، بـلا شـك.

ثـم خرجـوا واحـداً تلـو الآخـر جميعهـم، وأخـذ كل منهـم حلـواه. وبطبيعـة الحـال، كل منهـم، فيـما عـدا كازالي، عندمـا كان يصـل إلى هنـاك كان يقـول: لا، ذلـك الـذي أردتـه لم يعـد موجـوداً!

- لا تحاولـوا أن تبـدؤوا في الأكل قبـل أن أقـول لكـم، وإلا سـأعطيكم أربعة!

وبعـد أن انتهـت كل الفطائـر، أبعـد بوفـه الصينيـة. نظـر إليهـم لثانيـة، ابتسـم، ثـم قـال: تفضلـوا! الآن يمكنكـم أن تأكلـوا.

ومـن بـين الصفـوف بـدأت التعليقـات تتناثـر: لكـن، كـم هـو لطيـف الأسـتاذ أن يحضرهـا لنـا!

- لا بد أنها جميعاً منتهية الصلاحية!

- ربمـا تكـون تلـك المتبقيـة مـن حفـل المناولـة لحفيدتـه مـن سـنتين!

- فطيرتي طعمها يشبه الخضراوات!

مكـث بوفـه هنـاك ليراقـب الصبيـة. كانـت عمليـة المضـغ طويلـة بعـض الـشيء؛ لأن الفطائـر كانـت ضخمـة بالفعـل. حتـى بوتشـا، الـذي اسـتطاع في إحـدى الأمسـيات أن يلتهـم بيتـزا كاملـة في أقـل مـن ثلاثـين ثانيـة، لم ينتـهِ بعـد مـن كعكتـه الصغـيرة.

وبينـما كانـت أفـواه الجميـع ممتلئـة، خبـط الأسـتاذ بقـوة عـلى المائـدة، وقـال: توقفـوا! توقفـوا جميعـاً! اتركـوا عـلى الفـور كل الفطائر!

حـاول بوتشـا أن يقـول وفمـه ممتلـئ بالأشـياء البنيـة: لكـن يـا أسـتاذ!

- مَن سيستمر منكم في الأكل، لن يأخذ سوى درجتين!

لا يمـزح بوفـه عندمـا يقـول هـذا؛ فهـو قـادر عـلى أن يفعـل حقـاً ذلـك؛ وهـو عـادةً لا يهتـم إن ذهـب الوالـدان إلى مديـر المدرسـة؛ فهـو بالفعـل عـلى المعـاش، ولا يمكـن لأحـد أن يضايقـه أبـداً، ثـم إنـه أسـتاذ لا يخـشى شـيئاً، حتـى إن أتى وزيـر التعليـم بنفسـه ليلومـه عـلى شيء، سـيسرد عليـه مقـولات أفلاطـون أو كانـط، وسيبتسـم ثـم سـيقول لـه بـكل أدب أن يذهـب ويهتـم بشـؤونه.

هكـذا توقـف الفصـل. لم يسـتمر أي منهـم في المضـغ، ووضعـوا جميعـاً مـا تبقـى مـن الفطائـر عـلى الطاولـة.

- أستاذ هل يمكننا أن نعرف ماذا...

- اخـرس يـا كازالي، ونظّـف وجهـك، الـذي يبـدو كأنـه سـلة قمامـة في محطـة القطـارات!

ضحك الفصل.

نهض بوفه ووقف أمام المكتب، ثم بدأ:

- إن الحيـاة، التـي تحـدث لنـا هـي مـا يحـدث. أعلـم أن هنـاك مئـات مـن النظريـات حـول القـدر، أو الكارمـا، أو العدالـة الإلهيـة. أرسـطو، وهيغـل، وحتـى شـوبنهاور، في نهايـة الأمـر، كانـوا جميعهـم مقتنعـين بـأن هنـاك خطـة محـددة لسلاسـل المسـببات والمؤثـرات، لكـن فكـرتي أن كل هـذا، كل مـا في الأمـر، دائمـاً ليـس إلا مسـألة حـظ.

وجـوه يكسـوها الشـك. بعـض الضحـكات. تقريبـاً لم يفهـم أحدهـم بعـد عـمّا يتحـدث المسـن، أو إلى أيـن يريـد أن يصـل.

- إن فطائركـم، فطائـر أحلامكـم كانـت هنـاك، فـوق تلـك الصينيـة. فقـط بعـض منكـم مَـن واتاهـم الحـظ اسـتطاعوا الاختيـار؛ لأن أولئـك اختـيروا في البدايـة. الآخـرون كان عليهـم أن يرضـوا بذلـك الـذي تبقـى.

قال جميع التلاميذ، تقريباً بصوت واحد: آهههههه.

- حتـى إن كان هنـاك دائمـاً شـخص مـا يتخـلى عـن اختيـاره، يرفضه، أو يـترك الآخريـن يأكلـون فطائره.

نظـر الجميـع إلى باتّـا، التـي أجابـت عـلى نظـرات الجميـع بنظـرة ترغـب تقريبـاً في أن تقـول: ثـم مـاذا؟

- وعندمـا أخذتموهـا إلى أماكنكـم، كل منكـم أكلهـا بطريقتـه، ووفق سرعتـه، لكـن تقريبـاً جميعكـم قمتـم بالـشيء نفسـه، هـل لاحظتم؟

نظر الصبية كل منهم إلى الآخر. لا، لم يلحظوا.

- لقـد بدأتـم في أكلهـا مـن الجـزء الـذي وفـق رأيكـم أقـل حـلاوة. كانـت كل الفطائـر بهـا كريمـة أو شـوكولاتة؛ أي كان بهـا جـزء أكـثر مذاقـاً، وكنتـم جميعـاً ترغبـون في تـرك هـذا الجـزء للنهايـة، هـل أدركتـم هـذا؟

قال أحدهم: أنا أفعل هذا دائماً يا أستاذ!

قال بوتشا: أنا أقذفها في فمي من أي جزء!

ضحكات.

- ولكـن لم تكونـوا تعلمـون أننـي سـأقول لكـم «توقفـوا». لم يكـن في إمـكان أحدكـم أن يعـرف هـذا.

قـال كازالي: أجـل يـا أسـتاذ، بمناسـبة هـذا، كان أمـراً غـير لطيـف بالمـرة! لـو كنـت أعـرف؛ لكنـت بـدأت مـن الكريمـة!

- أجـل، أعلـم ذلـك يـا كازالي، أعلمـه، ولهـذا قلـت لكـم أن تتوقفـوا؛ لأجعلكـم تفهمـون كيـف تسـير الأمور.

سأله هو: أي أمور؟

- كل شيء يــا كازالي، كل شيء. كل ذلــك الــذي يجــب أن تعرفــه يكمــن في تلــك الفطــيرة التــي تركتموهــا في منتصفهــا.

وتقريباً كل الفصل يعبِّر عن الاستياء بوجهه.

- لأننـا نعتقـد بـأن لدينـا وقتـاً للعـب ووقتـاً للجـد. ونقـول: آه، أجـل، يومـاً مـا سـأفعل هـذا وسـأفعل ذلـك، لكـن لا معنـى لأن نفكـر في أن: هـذه الأشـياء سـأفعلها عندمـا يكـون لـديَّ منـزل أو عمـل.

وبينــما كان يقــول هــذا، كان الأســتاذ يقلــد الأصــوات، بتظاهــر خفيــف.

- لكـن الحقيقـة أنـه لا وجـود لفكـرة: الآن سأتسـلى، ثـم بعـد ذلـك سـأفكر في هـذا. بمـا أن اللحظـة هـي دائمـاً اللحظـة الحاليـة، وإذا فكرتم في أن الأفضـل سـتنالونه في النهايـة، فأنتـم لسـتم سـوى حمقـى، وأنكـم

إذا مكثتم هكذا مختبئين خلف عذر أنكم ما زلتم صغاراً، وأن اللحظة لم تحن بعد، فغداً، وخلال عشرة أعوام أو خلال عشرين عاماً، ستفعلون دائماً الشيء نفسه، وستقولون دائماً إنكم لستم مستعدين، وإنها ليست اللحظة المناسبة، وإنكم ما زلتم تحتاجون إلى الوقت؛ ومن ثم إذا مكثتم في الانتظار حتى تتيقنوا، أو حتى تطمئنوا، فلن تأكلوا الكريمة على الإطلاق؛ لأن اليقين الوحيد الذي لدينا هو أن لا أحد منكم، لا أحد مطلقاً، سينتهي من فطيرته للنهاية، سيكون هناك دائماً شيء لا بد من إنجازه، سيكون هناك دائماً شيء غير مكتمل.

مكث الفصل بعض الثواني في صمت، منقسماً بين من ينظر إلى الأستاذ ومن ينظر إلى الحلوى.

- ولا تظنّوا أنني عندما أقول «كريمة» أقصد فقط أن تخرجوا وتستمتعوا، وتتعاطوا المخدرات، وكل تلك الأشياء التي تعتقدون أنتم أنها الكريمة. إن الكريمة، هنا، هي الشجاعة أن تكونوا أنفسكم، أن تكون لديكم الرغبة في أن تُظهروا من أنتم في الحقيقة، أن تكون أعينكم مفتوحة، وأن يسمع الآخرون صوتكم. تلك هي الكريمة الحقيقية؛ ومن ثم فالحقيقة هي أنه ليست هناك لحظة يمكنكم الاستغناء فيها عن عمل هذا، فترة تجربة، أو «ليست هذه هي الساعة»، لكن الحقيقة هي أن لديكم حلوى واحدة فقط، ووقتاً قليلاً لتأكلوها.

يستمر الصمت، لكن الأعين كلها الآن تتجه نحو الحلوى.

قال بوتشا: والآن، هل يمكننا أن نكملها يا أستاذ؟

يضحك الفصل، ويضحك أيضاً البروفيسور، الذي يتوقف بعد ذلك فجأة ويقول: حاول وسأعطيك درجتين.

11

وقفت جويا وظهرها مستند إلى الجدار، ورأسها في داخل كتاب اللغة الإيطالية، تنتظر. كل يوم في الفسحة، يعبر البروفيسور بوفه في الممر، يتوقف أمامها ويسألها السؤال نفسه: ماذا تريدين أن تسأليني اليوم؟

مشكلة جويا، لنقُل إحدى مشكلاتها، هي الخجل. والخجل يثير التوتر؛ فأنت ترغب أيضاً في أن ترفع يدك، وتقول الأشياء، أو تسأل الأسئلة، لكن عندما تحاول ذلك، تشعر كأنك تعبر من طريق ضيق مزدحم بالبشر، الذين يسيرون في الاتجاه المخالف لك، إلا أن أولئك البشر ليسوا أشخاصاً، لكنها أفكار؛ أفكار تقول لك: «ما هذا الذي تفعله؟»، «لكن لا، ما هذا الغباء الذي أنت على وشك أن تنطق به؟»، «هل تتخيل أن الأستاذ سيجيب عن سؤال بهذه الحماقة؟». وهكذا في النهاية، تمر اللحظة، ويصبح الأمر على الفور متأخراً جدّاً، ولا تقول أي شيء. هكذا جويا، عندما يتعلق الأمر بطرح أي سؤال في الفصل.

لقد حاول أيضاً البروفيسور بوفه أن يشرح لها أنها يجب ألا تقلق: «اطرحي كل الأسئلة التي ترغبين فيها، حتى إن بدت لكِ غبية، بل، كلما ازدادت الأسئلة غباءً، كان الأمر أفضل! إن الفلسفة نفسها وُلدت؛ لأن أحدهم بدأ في طرح الأسئلة التي كانت تبدو للآخرين غبية!».

- لكن أسئلتي غبية جدّاً يا بروفيسور!

- يا آنستي، إن من لا يطرح مطلقاً أسئلة غبية ليس شخصاً ذكيّاً.

وهكذا كل يوم في الفسحة، تقف جويا هناك وحدها، وظهرها مستند إلى جدار الردهة إذا كانت تمطر، أو إلى جدار المتنزه إذا

كانـت الشـمس سـاطعة، مثـل اليـوم. كانـت تقـف هنـاك في انتظـار البروفيسـور، الـذي عندمـا يصـل يتوقـف بعصـاه أمامهـا، يبتسـم لهـا، ويسـألها: مـا الـذي ترغبـين في أن تسـألي عنـه اليـوم؟

- لا أعـرف يـا أسـتاذ... اليـوم الموضـوع غريـب... تلـك الحكايـة الخاصـة بالكريمـة والفطائـر.

- قولي لي يا آنسة سبادا، ما الشيء الغامض بالنسبة إليكِ؟

- لا، لا، كل شيء واضـح جـدّاً، فقـط لا أفهـم شـيئاً واحـداً... كيـف يمكنـك أن تعـرف أن ذلـك الـذي تمسـكه بـين يديـك هـو فطيرتـك؟ أي، لقـد قلـت ذلـك حضرتـك أيضـاً: الحيـاة التـي تحـدث لنـا هـي مـا يحـدث، والأمـر كلـه ليـس إلا مسـألة حـظ، وإلى آخـر ذلـك. أجـل، لكـن مـاذا إذا أخـذ فطـيرتي شـخص آخـر؟ إذا كان مـا أمسـكه في يـدي، ببسـاطة، لا يعجبنـي، أو يسـبب لي نوعـاً مـن الحساسـية؟ سـيادتك مـاذا فعلـت بفطيرتـك؟ هـل أكلـت مـا وجدتـه بـين يديـك، أم حصلـت عليهـا، بـأن ذهبـت إلى محـل الحلويـات لتختارهـا؟

عندمـا انتهـت، كانـت جويـا تقريبـاً تنشـج. كانـت تريـد أن تسـتمر عـلى الأقـل نصـف سـاعة أخـرى مـن الأسـئلة، لكـن توقفـت عندمـا بـدأت تشـك في أنهـا تنغمـس في الأمـر ربمـا أكـثر مـما ينبغـي. ضرب البروفيسـور ضربـة بعصـاه عـلى الأرض، نظـر أولاً إلى أسـفل، ثـم نظـر إلى جويـا في عينيهـا، قـال فقـط: «عندمـا تسـألين عـن الفطـيرة، التـي في يـدك وإن كانـت لـكِ بالفعـل، عندمـا تفكريـن أنهـا ربمـا تنتمـي إلى شـخص آخـر... عندئـذٍ فهـي ليسـت لـكِ. إن فطيرتـك هـي تلـك التـي لـن تسـألي نفسـكِ مطلقـاً إذا كانـت هـي الصحيحـة أم لا».

ثـم ضرب مـرة أخـرى بالعصـا عـلى الأرض، ابتسـم، ثـم ذهـب وهـو يصفر .

12

في الحصـة الرابعـة، بينـما يسـقط الفصـل ببـطء نحـو الغيبوبـة الأكـثر عمقـاً وهـم يتظاهـرون بأنهـم يسـتمعون إلى الـشرح الرائـع للأنشـودة السادسـة للمطهـر[12]، يلقيـه الأسـتاذ دي برنـاردو، يُسـمع طـرق عـلى البـاب.

كان ماريـو الفـراش. لا يلقـي حتـى التحيـة، يفتـح البـاب، ويقـول فقـط: سـبادا، للمديـر.

لم تكـن جويـا أدركـت مـا حـدث. كانـت زميلتهـا عـلى المقعـد هـي مـن هـزّت ذراعهـا وقالـت لهـا: إنهـم يتحدثـون عنـكِ.

لم يكـن لـدى جويـا أدنى فكـرة عـمّا يمكـن أن يكـون السـبب. إنهـا المـرأة الخفيـة، عمليّـاً، لا وجـود لهـا. أمـر جلـل بالفعـل أن اسـمها موجـود في دفـتر الحضـور، إلا أنهـا تنهـض وتخـرج.

تحـاول في أثنـاء الطريـق أن تسـأل ماريـو إذا كان يعـرف أي شيء. يجيـب ماريـو: «أنـا؟ أنـا لا أعـرف مطلقـاً أي شيء»، لكنـه في حقيقـة الأمـر يعـرف كل شيء دائمـاً.

تطـرق جويـا البـاب، وتسـمع مـن الداخـل صـوت المديـر وهـو يقـول لهـا: تفضـلي. وتدخـل.

- اجلسي يا آنسة سبادا، اجلسي.

مديـر المدرسـة سـباتارو مـدرس رياضيـات سـابق. سياسـته تجـاه دوره أن يلتـزم الاهتـمام بشـؤونه الخاصـة إلى أن يجـبره أحدهـم عـلى التدخـل في أمـر مـا؛ ولهـذا فمـن النـادر جـدّاً أن يسـتدعي أحـداً؛ لذلـك إذا حـدث هـذا، يكـون الأمـر جـد خطـير.

وجويـا سـبادا، أكـثر مـن كونهـا تتنـاول إفطارهـا بمفردهـا وهـي محبوسـة في الحـمام، أو أنهـا تسـتمع إلى A Momentary Lapse of

(12) المطهر Purgatorio: الجزء الثاني من الكوميديا الإلهية لدانتي آليجييري.

Reason[13] بـدلاً مـن الاسـتماع إلى المدرسـين، لا تتذكـر أنهـا قـد فعلـت أي شيء يمكـن أن يعرفـه أحـد بالـ«خطـير جـدّاً».

- هل حدث شيء ما؟

سألت جويا وهي لا تزال تمسك مقبض الباب.

- في الحقيقة، أجل، لكن تفضلي اجلسي.

جلسـت جويـا. كان المديـر سـباتارو يجلـس هناك ويـداه مضمومتان أمـام فمـه. تكـره جويـا عندمـا يضـع الكبـار أيديهـم مضمومـة أمـام أفواههـم قبـل أن يتكلمـوا. إنهـا إيمـاءة مَـن يعـرف بالفعـل أنـه عـلى حـق، لمـن لـن يسـتمع إلى أي كلمـة سـتقولها. عـادةً مـا يكـون رد فعلها التلقـائي تقريبـاً واحـداً: أن تجلـس في المقابـل وتقـوم بالإيمـاءة نفسـها، الابتسـام للمتحـدث أو النظـر إليـه في عينيـه. المشـكلة الوحيـدة أن ذلـك سـيُرى عـلى الفـور عـلى أنـه سـخرية وعـدم احـترام، وأمـام مديـر المدرسـة التـي وصلـت إليهـا فقـط منـذ ثلاثـة أشـهر، لـن تكـون حركـة ذكيـة.

قالت: وهل لي علاقة في ذلك؟

- بالطبع، لقد استدعيتك...

- في الحقيقة، ليست لدي أي فكرة عمّا يمكن أن يكون السبب.

- هل هذه تخصك؟

قاطعهـا المديـر، وهـو يُخـرج مـن الـدرج آلـة تصويـر ديجيتـال. آلـة التصويـر التـي تخصهـا. مَـن الـذي أخذهـا منهـا؟ وكيـف سـمحوا لأنفسـهم بهـذا؟ كانـت موجـودة في حقيبتهـا، كيـف فعلـوا ذلـك؟

- أجل، أعتقد ذلك، لكن اعذرني، كيف وصلت إلى سيادتك؟

- في الحقيقـة، شـخص مـا وضعهـا عـلى مكتبـي وبجوارهـا بطاقـة تخـبرني بمشـاهدة الصـور.

---

(13) الألبوم الثالث عشر لفريق الروك الإنجليزي بينك فلويد.

- وسيادتك بطبيعة الحال لم تفعل هذا.

- لا، أنا بطبيعة الحال فعلت هذا.

- لكن لا يمكن هذا! إن هذا... هذا اختراق للخصوصية!

- طبعاً، تماماً؛ ولهذا السبب استدعيتك.

- أي؟

- أي إنني شاهدت الصور الموجودة هنا في الداخل، وأعتقد أن سيادتك الآن مدينة لي ببعض التفسير، ففي هذه الحالة، يمكن أن تتعرضي سيادتك للمساءلة القانونية. أتعرفين هذا؟

أدار مدير المدرسة آلة التصوير، وبدأ في تصفح الصور، وأدرك أنه لا يرى شيئاً، ارتدى نظاراته السميكة، وأبعد رأسه عن شاشة العرض.

- هنا، انظري هنا.

قال وهو يحرك الآلة بعض الشيء ليطلع جويا على الصور التي ينظر إليها.

لم تنظر إليها، فهي تحفظ تلك الصور عن ظهر قلب.

- إن سيادتك، يا آنسة سبادا، لا يمكن أن تصوري الأشخاص دون إذنهم، خصوصاً زملاءكِ في المدرسة. وهنا توجد مئات من الصور!

- لكن... إذا كانت...

- أجل، أعلم، كل الصور أخذت من الخلف، كلها، بلا استثناء، لكن هذا لا يغير شيئاً؛ لأن بعضهم أوصل إليَّ آلة التصوير هنا وبالقرب منها بطاقة يقول فيها إنه مستعد لمقاضاتك؛ لأنه عرف نفسه، ولم يكن قد منحكِ إذناً!

مكثت جويا بفم شبه مفتوح، دون أن تعرف جيداً ماذا تفعل، بينما كان المدير يضرب آلتها الديجيتال بأصابعه، ثم خطر لها شيء كالاستنارة: لكن... اسمح لي، الآن الجميع يلتقطون صوراً في كل الساعات،

عمليّاً، والجميع ينتهي أمرهم، بالمصادفة، في صور شخص آخر، وهناك شخص قال لك إنه سيقاضيني؛ لأنني... صورته من ظهره؟

- يبدو أنه شخص لا يستلطفكِ يا آنسة، ومن حقه تماماً أن يفعل ذلك، وأنتِ تعلمين، لقد راجعت القانون على الأقل عشر مرات.

نظرت جويا إلى مدير المدرسة بدهشة.

- لكنها صور أحتفظ بها لنفسي! لم أطلع أحداً عليها قط!

- لا يهم يا آنسة سبادا، ببساطة، لا يمكنكِ، وتفهمين ما لا يمكنكِ عمله، أليس كذلك؟ إن هذا ضد القانون.

همست جويا وشفتاها مضمومتان: لا بد أنه كازالي، أقسم على ذلك. في أقل من يوم ينفذ انتقامه!

- ماذا، معذرة؟

- لا شيء، لا شيء.

أجل، تقريباً بالتأكيد كان هو. توجد كلمة لتعريف من هم على شاكلته: schmegegge. كلمة باليديشية وتعني كلمتين في الوقت نفسه (أحمق ومنافق)؛ وهذه أيضاً من الكلمات الموجودة في مفكرة جويا، وبينما يتحدث معها المدير كانت تراها؛ لأن كازالي هو النموذج المثالي لكل schmegegge موجود على وجه الأرض.

- الآن سأعيد إليكِ آلة التصوير، ولن أحذف الصور؛ لأنني فقط أفهم أن لها قيمة ما بالنسبة إليكِ، لكن لا بد أن تعديني أنكِ لن تطلعي عليها أحداً.

- لقد سبق وقلت لحضرتك، إنها من أجلي أنا فقط.

- والأهم، أنكِ ستتوقفين عن تصوير زملائك في المدرسة.

- حسناً، أعدك بذلك.

- إذا لم تلتزمي وعدك هذا، سأتجاهل كل مرحلة يُتوقف فيها عن الدروس، ولن أتردد لحظة واحدة في أن أشجع الزملاء على

تقديـم ذلـك البـلاغ، أحـذرك!

- حسناً يا سيادة المدير.

- لكـن، إذا أردتِ فعـلاً، يمكنـك أن تطلبـي الإذن منهـم، أليـس كذلـك؟ ثـم ربمـا أيضـاً أن تطلعـي الجميـع عليهـا إذا أردتِ. وربمـا يمكنـك أيضـاً أن تشـاركي في المسـابقة التـي ننظمهـا.

قال لها هذا، وقد نزع عن وجهه تعبير اللوم.

- أي مسابقة؟

- كيـف أي مسـابقة؟ آه، بالفعـل، إنـكِ جديـدة هنـا. مسـابقتنا «ضـع نفسـك في الإطـار». لمـدة أسـبوع كل سـنة، يكـون التلاميـذ أحـراراً في أن يزيّنـوا ردهـات المدرسـة بصـور ورسـوم، بـشرط أن تكـون مؤطـرة. يمكنـك أن تشـتركي بواحـدة مـن تلـك الصـور، في النهايـة هـي أعـمال فنيـة، أليـس كذلـك؟

نظـرت إليـه جويـا بضـع ثـوانٍ، وكانـت تفكـر، ثـم ردت: لا، شـكراً، أفضِّـل الاحتفـاظ بهـا لنفـسي.

ثم نهضت وتوجهت إلى باب الخروج.

قاطعهـا مديـر المدرسـة وهـي أمـام البـاب: اسـمحي لي بلحظـة أخـرى.

- ماذا حدث؟

- لا شيء، كنت فقط أريد أن أسألك، لكن لماذا؟

- نعم؟ لماذا ماذا؟

- لماذا تصورين الأشخاص من ظهورهم؟ ما المتعة في هذا؟

- هكذا.

- هكذا؟

- أجل، هكذا.

13

في أحد الأيام، في الصف الأول الثانوي، عندما كان أساتذة مادة التربية الدينية يقومون بعمل الاختبارات النفسية، التي يمكن أن تساعد المرء بعض الشيء على فهم نفسه، كانوا في فصل جويا طرحوا عليهم السؤال الأول: ما السعادة بالنسبة إليك؟

وقتها أجاب الزملاء: أن ألعب مع فريق ميلان. أن أربح نقوداً كثيرة. أن تكون لديَّ سيارة لامبورغيني شبح.

وأجابت زميلاتها: أن أجد الحب. أن أفقد خمسة كيلوغرامات. أن أعمل ممثلة وأمثل مع برادلي كوبر.

وعادت جويا لتفكر في هذا الاختبار القديم الآن، عند عودتها إلى المنزل. لماذا؟ ربما لأن اليوم تحقق ما كانت كتبت عنه في ذلك اليوم.

فتحت الباب، وداخل المنزل لم يكن هناك أحد، فقط بطاقة على المائدة تقول: خرجنا لنبحث عن عمل لبابا. سنعود في وقت العشاء.

أجل، في ذلك اليوم، كتبت جويا ببساطة: أن أعود من المدرسة وأجد المنزل خالياً.

كان جدها مات بالفعل، ولم تكن الجدة في حالة جيدة، وتلك كانت الفترة الأخيرة التي مكث فيها الأبوان معاً، ولم تكن أكثر اللحظات سعادة في حياتها بالتأكيد.

كانت توجد جيمّا فقط هناك في غرفتها الصغيرة، وجاكو؛ القط الشبح، قد حطم بالفعل شمعداناً وإطاراً قديماً.

يا له من حلم! يا لها من معجزة!

أخذت جويا قارئ الـ«إم بي ثري» وذهبت إلى الحجرة الصغيرة للجدة، وتأكدت أن كل شيء هناك على ما يرام، ومنحتها قبلة جميلة

على جبهتها، ثم وضعت لها شاشة العرض أمام عينيها، وكان مكتوباً عليها «موسيقى لجيمّا». كانت أغاني أوبرا قديمة لبافاروتي ودومينيجو وكاريراس[14]. كانت القائمة الخاصة بجدتها، وكانت تُسمعها لها في كل مرة تستطيع ذلك؛ لأنه بمجرد أن تضع تلك الموسيقى في أذنيها، يتخذ وجهها على الفور لوناً مختلفاً، ويسترخي جلدها، ويوجد دائماً ضوء صغير، هناك في عمق حدقتيها، كأنهما مصباحا سيارة بعيدة من آخر الطريق السريع في الليل. نظرت الجدة إلى الشاشة وابتسمت، كأنها فهمت ما سيحدث، وقالت: «ججججههههه».

ثم ذهبت جويا إلى هناك، وأوصلت الـ«إم بي ثري» إلى جهاز الاستريو، وأدارته ووضعت الصوت على أعلى درجة.

شَغّلت كل تلك الموسيقى القديمة جداً، التي تتحدث عن قصص الحب، بصوت مرتفع جداً، ولربما دعا ذلك الجيران لاستدعاء الشرطة، لكنها لم تشغّلها لترقص أو لتصرخ أو لتكسر الأشياء - وإن حدث وتراجعنا على أنها لا تكسر الأشياء، فأحياناً تفعل ذلك أيضاً - لكنها شغّلتها فقط لترافق عملية التنظيف. ربما شخص آخر كان سيستفيد من ذلك الموقف ليستمتع بأمسية جميلة، بملابس مريحة أمام التلفزيون، وهو يُخرج توتره في البطاطس المحمرة وشوكولاتة النوتيلا، إلا أن جويا لا تفعل ذلك. بمجرد أن قرأت الورقة الصغيرة حول العمل، قررت على الفور أن تقضي الساعات التالية هكذا، أن تنظم الأطباق، وتكنس، وتنظف الزجاج، وتزيل الأتربة.

تقريباً كل أثاث منزلها ليس أثاثاً: ليس سوى مساحات يمكن الكتابة عليها. كانت الأطباق في الحوض كثيرة جداً إلى حد أن

(14) مغنو أوبرا مشهورون؛ أسماؤهم بالترتيب باللغة الإيطالية لتسهيل البحث عنهم Luciano Pavarotti، Placido Domenico، José Carriras.

أحدهـم إن أراد أن يغسـل يديـه عليـه أن ينـزع بعـض الأواني ويضعهـا جانبـاً، وكانـت الأرض متسـخةً جـدّاً تغطيهـا بواقـي الطعـام، حتـى إذا سـار المـرء فوقهـا، سُـمع صـوت تهشـمها!

ربمـا يتسـاءل بعضهـم، وربمـا لا، كيـف إذن، عـلى الرغـم مـن القـذارة وعـدم النظـام المتراكمـين خلـف تلـك الجـدران، لم تفكـر هـي مـن قبل في أن تنظفهـا؟ كيـف فكـرت فقـط الآن في ذلـك وهـي بمفردهـا؟ الحقيقـة أنـه عندمـا تكـون أمهـا في المنـزل، خصوصـاً عندمـا تُحـضر معهـا أحـد أصدقائهـا الصبيـة، تفقـد جويـا الرغبـة، ليـس فقـط الرغبـة في التنظيـف، تفقـد أيضـاً الرغبـة في أن تطـل مـن النافـذة لتنظـر كيـف هـو الجـو في الخـارج، وتفقـد الرغبـة في أن تعـد لنفسـها قهـوة باللـبن مع البسـكويت، وتفقـد الرغبـة في أن تنجـز حتـى واجباتهـا، وتفقـد الرغبـة في أن تكـون لديهـا أي رغبـة. كل مـا تسـتطيع عملـه أن تسـتمع إلى الموسـيقى، أو أن تقـرأ أو أن تشـاهد فيلـماً. وهكـذا الآن، والمنـزل فـارغ، كأنـه بفعـل السـحر، تشـعر بالرغبـة في أن تقـوم بـكل شيء، كل شيء حقـاً، وتراهـا تجـري مـن غرفـة إلى أخـرى بالمكنسـة في يدهـا، وهـي تقفـز ممسـكة بقطعـة مـن القـماش وترقـص وجاكـو؛ القـط الشـبح، فـوق ذراعهـا، عـلى وشـك أن يصـاب بنوبـة مـن القـيء، والجـدة هنـاك ممـددة في الحجـرة الصغـيرة، بينـما الجـدران تهتـز بتأثـير الذبذبـات القويـة لصـوت بافـاروتي وهـو يغنـي «وفي الفجـر سـأنتصر!»، وهـي هنـاك تعـرق وتلقـي بنفسـها في الأرض، وتـضرب الهـواء بقبضتهـا، وتضحـك.

وهذا لا يحدث كثيراً، لكن عندما تضحك جويا، يضيء النور.

14

وعندمـا عـادت الأم في المسـاء، وجـدت ورقـة فـوق الطاولـة مكتوبـاً عليهـا: ذهبـت مـع تونيـا إلى «ماكدونالـدز».

لم تكن أمها من نوع الأمهات العصبيات بصفة عامة، وأغلب المرات تكون المشكلة مشكلة الكحول أو أحد خطَّابها، لكنها لا تطرح مطلقاً كثيراً من الأسئلة عندما تخرج جويا في المساء. كثيراً ما ترضى بورقة مكتوبة، ثم إن تونيا فتاة تبعث على الثقة. تبدو فتاة جيدة، حتى إن لم تكن تعرفت إليها شخصيّاً، إلا أنها تثق بغريزتها وتشعر بأن تلك الصداقة ستفيد ابنتها. ولهذا، إذا عرفت أنها مع تونيا، لا تشعر بالقلق.

للأسف، لم تكن الأمور تماماً هكذا؛ وهذه المرة أكثر من المعتاد: لأن جويا أخذت كنزة من غرفتها، ثم نزلت، أعطت قبلة أخرى إلى جدتها، وقالت لها: أعرف أنكِ لن تصدقيني، لكنني على وشك أن أخرج مع فتى.

نظرت إليها جدتها، كأنها فهمت. وأجابت: ججججهههه.

15

تسير جويا بالكنزة مطوية جيداً في يدها، في طريقها إلى حانة الأمسية السابقة. لا تدري جيداً ماذا بها، لكنها ربما تكون المرة الأولى، التي يحدث لها هذا؛ وهي تشعر بشيء ما، وليست كلمة «خوف» هي الكلمة الصحيحة، إلا أنها تشعر ببعض الخوف. وليست كلمة «أمل» هي أيضاً الكلمة الصحيحة، لكنّ لديها بعضاً منه أيضاً، وحتى كلمة توتّر أو فرح أو فزع ليست هي الكلمات الصحيحة، إلا أنها تشعر ببعض منها كلها.

توجد طريقة، باللغة الإنجليزية؛ لتحديد هذا الشعور، عندما يكون لدى المرء كثير من الانفعالات في داخله، ولا يعرف حتى كيف يحددها. يقولون Nonplussed. في مكان ما بين صفحات مفكرتها؛ حيث تدوّن كل شيء، توجد أيضاً هذه الكلمة، وخطرت

في ذهنها وهـي في طريقها نحـو الحانـة؛ لأن جويـا الآن تشـعر بـشيء لا تعـرف مـا هـو؛ ومـن ثـم هـو nonplussed.

وقبل أن تخرج صففت شعرها.

بينـما يسـيران معـاً، قالـت لهـا صديقتهـا المتخيّلـة: منـذ وقـت مناولتـك الأولى لم تفعـلي هـذا.

- ربما أكثر من ذلك أيضاً يا تونيا.

- تبديـن واحـدة مـن زميلاتـك الغبيـات، أولئـك الـلاتي يطلقـن عـدداً مـن الصرخـات عنـد التحـدث عـن الصبيـة.

- والآن، اهـدئي ولا داعـي للإهانـات! ثـم أنـا فقـط ذاهبـة لأعيـد الكنـزة لشـخص لا أعـرف حتـى اسـمه.

- حسـناً، لكـن في هـذا الخطأ خطـؤكِ. كنـتِ تخشـين أن تكـوني غـير مهذبـة وتسـأليه عنه؟

- في الواقع أجل، عند لحظة ما بدا لي تقريباً سؤالاً غير مناسب.

قالت جويا وهي تُسرع من خطواتها.

- لكـن عـلى كل حـال الكنـزة أنيقـة. أكاد أشـعر بـالأسى؛ لأنـكِ لا بـد أن تعيديهـا إليـه، تبـدو جيـدة عليـكِ.

- أشكرك يا تونيا، فأنتِ بالفعل صديقة حقيقية، كالمعتاد.

وعندمـا تصـل إلى الحانـة، تسـمع جويـا بالفعـل مـن الشـارع ضوضـاء الأسـهم التـي تدخـل في الهـدف. وعندمـا يصـل ذلـك الصـوت إلى أذنيهـا، تشـعر بقبضـة صغـيرة داخـل معدتهـا، كأنهـا اللكمـة، لكـن تلقتهـا مـن الداخـل؛ لكمـة تؤلمهـا، ولا تـؤلم في الوقـت نفسـه.

رأتـه، فهـو هنـاك يسـدد بالأسـهم. يرتـدي كنـزة أخـرى، بقلنسـوة أيضـاً، تشـبه كثـيراً تلـك التـي عـلى وشـك أن تعيدهـا هـي إليـه.

تتحـرك بـين المقاعـد والموائـد وتقـف خلفـه، وهـي تسـير عـلى أطـراف أصابعهـا، حتـى لا يسـمع. عندمـا تكـون عـلى بُعـد خطـوات

قليلـة منـه، يقـول هـو لهـا، دون أن يسـتدير: هـل أنـتِ هنـا؟

- كيف استطعت أن تسمعني؟

- يا (شيء) أنتِ لستِ صامتة كما تعتقدين.

قال هو، دون أيضاً أن يلتفت.

أصـدرت جويـا زمجـرة صغـيرة، وقالـت لـه: قلـت لـك ألا تنادينـي (شيء)!

ثـم ألقـت عليـه الكنـزة. وفـوق مائـدة صغـيرة كان المرطبـان الزجاجـي المـليء بالحجـارة لا يـزال موجـوداً، وبالاقـتراب قليـلاً لتنظـر، لاحظـت أن الكنـزة التـي كان يرتديهـا اليـوم ليسـت فقـط شـبيهة جـدّاً بالأخـرى، بـل مثلهـا تمامـاً.

- أنـت، بالتأكيـد، متميـز بالفعـل في اختيـارك لكنزاتـك. مـا هـذا؟ هـل لديـك دسـتة منهـا كلهـا متشـابهة؟

هـل تعرفـين مـن كان ألـبرت آينشـتاين؟ سـألها بينـما هـو مسـتمر في اللعـب.

لم تجبـه جويـا، لكنهـا نظـرت إليـه بوجـه يريـد أن يقـول: هـل تسـخر منـي؟

- حسناً، هل تعرفين ماذا كان يفعل؟

- لا، ماذا كان يفعل؟

- أدرك أنـه في كل صبـاح يفقـد في المتوسـط نحـو خمـس دقائـق ليختـار مـاذا يرتـدي.

قال (لو) وهو يلقي بسهم آخر، 40 نقطة.

- وهكـذا، في يـوم مـن الأيـام أجـرى بعـض الحسـابات، وأدرك أنـه في العـام يفقـد تقريبـاً ثلاثـين سـاعة، أي تقريبـاً أكـثر مـن يـوم كامـل.

قالت جويا: آه.

- وهـي في خـلال خمسـين عامـاً سـتصبح أكـثر مـن اثنـين وسـبعين

يومـاً. في نهايـة الأمـر، فهـو يضيـع شـهرين مـن حياتـه ليفكـر مـاذا يرتـدي في الصبـاح ليذهـب إلى عملـه!

يلقي بسهم آخر. 48 نقطة.

- وهكـذا، في يـوم مـن الأيـام دخـل إلى محـل بـدل، واختـار سـترة وقميصـاً وبنطلونـاً وحـذاءً، أكـثر الأشـياء المريحـة التـي عـثر عليهـا، وطلـب مـن المحـل أن يصنـع لـه سـبعاً مـن كل نـوع، كلهـا متشـابهة تمامـاً. ومنـذ ذلـك اليـوم وهـو يرتـدي دائمـاً ملابسـه بالطريقـة نفسـها.

- فهمـت؛ ومـن ثـم أنـت تقـول لي إنـك في المنـزل لديـك خمـس كنـزات أخـرى متماثلـة.

ألقى بسهم آخر. 60 نقطة.

- أربـع كنـزات أخـرى. أحتفـظ بواحـدة مختلفـة للمناسـبات الخاصـة.

قال، ليلتفت بعد ذلك ويجلس بجوارها.

- والأخرى كيف هي؟

- مثل تلك، لكنها سوداء.

تقدمت جويا بعض الشيء لتنظر إليه أكثر من قريب، وقالت:

- إيه، لكن تلك أيضاً سوداء.

- آه، فعلاً؟

قـال هـو. حاولـت جويـا أن تمسـك نفسـها، ثـم انفجـرت بعـد ذلـك في الضحـك، وارتـدت مـرة أخـرى الكنـزة التـي كانـت اسـتعارتها، فقـد كان الجـو بـارداً.

قال (لو): عمى الألوان الملعون!

ثـم انتهـت جويـا مـن الضحـك، وفجـأة، أخـذت في يدهـا الأسـهم. وقفـت في وضـع الاسـتعداد، ألقـت بهـا، الواحـد تلـو الآخـر، ولم يصـل أي منهـا إلى داخـل الدائـرة.

- أتعرفين أنني لم أرَ قط أحداً يلعب بمثل هذا السوء؟

- حسناً، حتى أنت في البداية، كنت سيئاً بعض الشيء، أليس كذلك؟

- آه، بلى، يا (شيء)، لكن بالتأكيد ليس بهذا السوء.

- اسمع يا (أداة التعريف)، أعطني دقيقتين لأفهم الطريقة، ثم سنرى!

قالت هي، وهي تنظر إليه نظرة سيئة، ثم أمسكت بالسهم في يدها، وأغمضت عينيها قليلاً لتنظر جيداً إلى الهدف، وألقت به.

ووصلت تماماً إلى مركز الهدف. 50 نقطة.

- أوه، اللعنة.

قال هو.

لم تدرك جويا في البداية، حتى إنها أصابت المركز، لكن عندما اقتربت من الهدف ورأت سهمها تماماً فوق اللون الأحمر، التفتت فجأة وجرت أمام (لو) وهي ترقص رقصة النصر على بُعد خطوة منه.

لم يكن أحد من زملائها أو أساتذتها ليصدق إذا قيل لهم إن جويا سبادا لديها القدرة على أداء رقصة النصر لتغيظ أحدهم، إلا أن ذلك هو ما يحدث!

في البداية، نظر إليها (لو) نظرة سيئة، ثم بعد ذلك ارتعشت شفتاه قليلاً، ثم ضحك في النهاية.

وقال وهو يضحك: مسألة حظ.

- أجل، أجل.

قالت هي. وبينما تقول ذلك أدركت أنها تفكر في شيء، وكانت المرة الأولى التي تفكر في هذا الشيء عن شخص، وما جعلها تتوقف للحظة وعيناها تحدقان في الفراغ ليس الأمر في حد ذاته، لكن واقع أنها المرة الأولى.

وكانت الفكرة بالتحديد: تبّاً، يا لها من ابتسامة!

كانت رأت من قبل ابتسامات جميلة، لكن هذه كانت المرة الأولى التي ترى فيها واحدة من هذا القرب، وأن تظل جميلة بالنسبة إليها. الشيء الذي تريد أن تفعله الآن هو إيجاد طريقة لتجعله يفعل ذلك مرة أخرى، ربما بأن ترتكب حماقة ما، تقول شيئاً - أي شيء - غبيّاً؛ لتجعله يبتسم من جديد؛ لأنها بالفعل: يا لها من ابتسامة!

- إذن، إذا لم تكن المسألة مسألة حظ، افعلي ذلك من جديد. هيا! سددي مرة أخرى على المركز.

تذهب جويا لتنزع السهم عن المركز، وتقف في وضع الاستعداد، وتسدد.

لا يصل السهم حتى إلى الآلة، بل ينتهي به الأمر على الجدار، وتنقسم إبرته إلى قسمين.

يبدأ (لو) في الضحك، ويبدأ يضحك بقوة. وجويا أيضاً، لكن من الداخل. من الخارج تظاهرت بالجدية، وأخذت تنظر إليه نظرة سيئة وهي تغلق جفنيها، لكن في الوقت نفسه كانت تضحك من الداخل.

قال هو: أخيراً عرفتكِ من جديد!

ثم نهض ليذهب ويلتقط السهم المكسور، وفي أثناء مروره بجوارها، لمس يدها، وعندما لمس يدها توقف، وبدأ يربت عليها، ثم ببطء؛ ببطء شديد جدّاً، شعرت هي بأصابعه بين أصابعها، ولم تفهم ماذا يحدث، وشعرت فقط باللكمة نفسها التي شعرت بها في معدتها من قبل، إلا أنها كانت قوية جدّاً ومتكررة، وبدأ قلبها يدق بسرعة أكبر، وأخذت أنفاس الهواء الخفيفة تمر بين منخاريها، واقترب منها هو، لكن كأنه يفعل ذلك بالتصوير

البطـيء، كأن هنـاك شريحـة مـن الضـوء تنـير عينيـه، ولم تسـتطع هـي حتـى أن تنظـر إليهـما، ووجـدت نفسـها مجـبرة عـلى أن تنظـر إلى أسـفل بعـض الـشيء، تقريبـاً إلى عظـم الوجنتـين، ولم تسـتطع، كانـت تريـد أن تنظـر إليهـما ولم تسـتطع، كأن كل شيء ازداد ظلامـاً عـما كان، وهكـذا بالغريـزة تحركـت جويـا حركـة خفيفـة، وفي أثنـاء حركتهـا لمسـت المرطبـان؛ ذلـك المـليء بالحجـارة؛ فسـقط أرضـاً متسـبباً في صخـب شـديد انتـشر بسرعـة في فـراغ طاولـة المـشرب، كأنـه يوقظـه.

قالـت لـه وهـي تنفصـل عنـه وتبعـد نفسـها: تبّـاً، المعـذرة! هـل تحطـم؟

- لا، لا، اهـدئي. إنـه مـن النـوع القـوي. لقـد اشـتريته خصيصاً لهـذا الغرض.

أجابهـا (لـو)، وهـو يلتقطـه، وينظـر إليـه في مقابـل الضـوء، ثـم يضعـه مـن جديـد فـوق المائـدة. سـاد الصمـت التـام لبضـع ثـوانٍ، كانـت فيهـا هـي تعـرف أنهـا لا بـد أن تقـول شـيئاً مـا لترفـع الحـرج، وربمـا هـو بـدوره، لكـن لم يقـل أحـد منهـما أي شيء، وكلـما زاد لديهـا الشـعور بـأن عليهـا أن تتحـدث، قـلّ لديهـا مـا يمكـن أن تقولـه، وتضخـم الإحـراج كأنـه منطـاد صغـير سـاخن يقـف بينهـما، وهكـذا إلى أن أصبحـت حتـى محاولـة ابتـلاع ريقهـا صعبـة، كانـت تريـد أن يقـول هـو شـيئاً، أي شيء، حتـى إن تفـوه بحـرف واحـد، حتـى يثقـب ذلـك المنطـاد الصغـير مـن الإحـراج.

قال هو أخيراً وهو يجلس: لورينزو.

- ماذا؟

- لم أكـن قـد قلـت لـكِ اسـمي بعـد. اسـمي لورينـزو فيتـا. الآن أصبحنـا متعادلـين. أليـس كذلـك؟

جويـا، التـي كانـت لا تـزال ترتعـش؛ بسـبب الفـزع مـن المرطبـان؛

وبسـبب لا تعرفـه حتـى هـي، وبـلا أي مقدمـات، وحتـى دون أن تقـرر ذلـك مـن قبـل، نظـرت إلى أسـفل، حرّكـت بعـض المقاعـد، وقالـت: أوكي، الآن شـكراً، تأخـر الوقـت، ويجـب أن أعـود إلى المنـزل، سـلام.

ورحلـت، وكانـت في لحظـة بالفعـل في الطريـق، وهـو ينظـر إليهـا مندهشـاً، بينـما لم تكـن لديهـا هـي الشـجاعة لتلتفـت.

16

- ما هذا الهراء، وماذا حدث لكِ؟

- الوقت متأخر يا تونيا، تعرفين هذا.

- مـاذا، متأخـر؟! كان يمكنـك أن تمكثـي عـلى الأقـل نصـف سـاعة أخـرى! هيـا قـولي لي، لمـاذا هربـتِ هكـذا؟

- لا أعلم يا تونيا!

- لا تعلمـين لمـاذا أُخـذتِ، ورحلـتِ حتـى دون أن تحييـه، بعـد أن قـال لـكِ أيضـاً اسـمه؟

- لا، لا أعـرف! كان كل شيء زائـداً... كيـف يمكننـي أن أعـرف مـاذا كان، أعـرف فقـط أنـه بمجـرد أن تلامسـت يدانـا شـعرت فقـط بالرغبـة في أن أذهـب بعيـداً!

- أنتِ لستِ بخير!

- أجل، أنا لست بخير.

- كان كل شيء جميلاً، كما رأيت. لقد أضحككِ أيضاً!

- أعلم كيف كان كل شيء، لا أحتاج إلى أن تُذكِّريني!

اعتـادت جويـا دائمـاً أن تعـرف، عـلى الأقـل بشـكل عابـر، مـا تفعـل. لم يحـدث لهـا قـط مـا حـدث للتـو: أي أن تفعـل شـيئاً مـا دون أن تعـرف جيـداً لمـاذا تفعلـه. فقـط عنـد لحظـة مـا، عندمـا كانـت يدهـا قريبـة إلى هـذا الحـد، ووجهـه وهـذا الخـط مـن الضـوء عـلى عينيـه، في

تلك اللحظة التي كان كل شيء يلفه الظلام... حسناً، شعرت بخوف لم تشعر به من قبل، خوف حقيقي، وغريب؛ لأنه في العمق كان يعجبها ما كان يحدث - لم يحدث شيء يُذكر، لقد لمس هو يدها لثانيتين وربما أقل، إلا أن هذا كان يعجبها - لكن في الوقت نفسه أشعرها بالخوف، الخوف الشديد.

- عليكِ الآن أن تعودي إلى هناك، وتصرفي كمجنونة لديها شخصية مزدوجة، واسأليه إذا كان يمكنكما أن تلتقيا مرة أخرى!

- ماذا؟

- لقد سمعتِ جيداً. وصلّي أن يكون لا يزال هناك!

توقفت جويا. تونيا صديقتها المتخيّلة، لكنها كانت تستطيع رؤيتها جيداً أمامها، تنظر إليها نظرة قاسية.

- ألن يعتقد أنني مجنونة إذا رآني عدت إلى هناك؟

- سيعتقد أنكِ مجنونة إن لم تعودي.

هكذا استدارت جويا مائة وثمانين درجة حول نفسها، وبدأت تجري في الاتجاه الآخر، وتونيا تتبعها، وفي خلال دقيقتين، كانت من جديد خارج تراس الحانة. كان هو لا يزال هناك، جالساً تماماً حيث تركته.

- اسمع...

- (شيء!)، هل نسيتِ شيئاً ما؟

- أجل... بل لا.

- عادةً أكون أنا الذي يقولون له إن بي شيئاً لا يستقيم، لكن يبدو أنكِ أيضاً لا تمزحين.

شعرت جويا بأنها غبية، وهو الشيء الذي نادراً ما يحدث لها، لكن نظرة تونيا، التي استطاعت أن تلحق بها، تطمئنها، وجعلتها تقول: غداً سأجدك مرة أخرى هنا؟

- إذا قلتِ لي إنكِ ستأتين، أجل.

17

لم تكن جويا سبادا قد قبَّلت فتى من قبل.

الحـب، أجـل، الحـب، سـمعتهم يتحدثون عنـه كثـيراً، وفي كل الكتب والأفـلام التـي مـرت أمـام عينيهـا، ورأتهـا في كل مـكان، تقريبـاً كل يـوم: لكنهـا في الحقيقـة لم تعـرف حتـى مـا هـذا الـشيء، ومـا الشـكل الـذي يتخـذه، رائحتـه، صوتـه.

بالتأكيـد، الفتيـات في سـنها جربـن بالفعـل القبلـة الأولى وهـن في المدرسـة المتوسـطة، والآن هـن جميعـاً في مراحـل أبعـد مـن ذلـك بكثـير. ربمـا عليهـا أن تفكـر في الأمـر، أو أن تقلـق، أو تتسـاءل مـا الـشيء الـذي لا يسـير عـلى مـا يـرام بالنسـبة إليهـا، لكـن في الحقيقـة هـي لا تفكـر في هـذا الـشيء.

فذلـك الـشيء، الـذي يطلـق عليـه الجميـع (حـب)، هـو بالنسـبة إليهـا شيء غامـض، يؤمـن بـه الجميـع، لكـن لم يـره أحـد قـط، ومـن المؤكـد لم تـرَه هـي.

مـن حـين إلى آخـر، كان أحدهـم يحـاول الاقـتراب منهـا، يجـرب، فتيـة يفكـرون في قصـة مـا مـع الفتـاة الغريبـة، أو أولئـك الذيـن يعتقـدون، بحثـاً عـن الإثـارة، أنـه مـا دامـت الفتـاة تعيسـة الحـظ فهـي سـهلة المنـال، لكنهـم كانـوا يهربـون عـلى الفـور بمجـرد أن تنطـق هـي بنصـف عبـارة، أو بعـض الكلـمات غـير المعتـادة، أو مزحـة مـن مزحاتهـا؛ فكانـوا إمـا لا يفهمـون منهـا أي شيء، أو يفكـرون: حتـى إن مـت لـن أفكـر في شـخصية لاذعـة إلى هـذا الحـد. ويهربـون.

ولم تكن هي، حتى هذه اللحظة، شعرت بأنها تفتقد أي شيء.

حسـناً، مـن حـين إلى آخـر، كان يحـدث لهـا، أن تفكـر في الأمـر، لكـن مـن بعيـد.

عندما كان يبدو لها أن أحدهم مختلف بعض الشيء، عندما كان يحدث هذا، كانت تقول لنفسها: «ربما يكون هذا هو»، فإنها بمجرد أن تقترب، كانت الأشياء تتغير دائماً.

حتى هذه اللحظة، كانت الأشياء تتغير دائماً عن قرب.

18

هذا الموقع ممتاز.

كانت قد بحثت عنه، ودرسته، وفي النهاية وجدته. كان مقعداً موضوعاً في مكان منعزل، أسفل شجرتَي صنوبر كبيرتين. لم يكن أحد يجلس عليه مطلقاً؛ لأنه منعزل جدّاً أسفل الأشجار، وغالباً ما تمطر فوقه ثمار الصنوبر الثقيلة كأنها كرات طبية. تعرف جويا أنها آجلاً أم عاجلاً يمكن أن تصل فوق رأسها إحدى تلك الحجارة الخشبية، لكنها جلست هناك على الرغم من ذلك. لا بد أن تلتقط هذه الصور.

أجل، الوضع ببساطة رائع، يمكنها أن ترى الجميع، وتقريباً لا يمكن لأحد رؤيتها.

وهكذا تجلس وتنتظر، وعندما يقف أحدهم بظهره أمامها، ويكون قريباً منها، تُخرج آلة التصوير، وتلتقط صورة.

هذا هو المكان الذي تأتي إليه كثيراً؛ لأنها بينما تنتظر يمكنها أن تقرأ أو أن تستمع إلى الموسيقى أو أن تنظر إلى الأشخاص يسيرون ويلعبون، يقبِّل أحدهم الآخر، يجرون ويضحكون.

إلا أن اليوم يوجد شيء ما لا يسير كالمعتاد. الرغبة موجودة، هذا أكيد، لكن استجابتها لا تساعدها. إنها بالفعل المرة الثالثة، التي يعطيها أحدهم فيها ظهره، ويكون هناك على بُعد بضع خطوات منها، وهي لا تدرك حتى هذا، ولا تُخرج على الفور آلة

التصويـر، ولا تحـرك إصبعـاً. كانـت الأهـداف أيضـاً مثـيرة: امرأتـان ومعهـما حقيبتـا الـشراء، طفـل، ومُسـن، لكـن لا شيء.

الحقيقـة العاريـة والقاسـية أنهـا كانـت هنـاك بجسـدها، وحقيبتهـا، وأشـيائها، وكل شيء، لكنهـا في واقـع الأمـر كانـت لا تـزال هنـاك في شرفة الحانـة، كأنهـا في كل لحظـة تكتشـف تفصيلـة جديـدة، رائحـة رطوبـة الجـدران، السـهم المكسـور، صـوت ضحكـة (لـو)، كأن هنـاك ناقلـة تضـع أمامهـا باسـتمرار أطنانـاً مـن اللحظـات ولقطـات لمسـاء الأمـس عـلى شـكل صـور فوريـة، خصوصـاً تلـك الثانيتـين اللتـين تلامسـت فيهـما يداهـما.

- لكن هل الأمر يسير دائماً بهذه الطريقة يا تونيا؟

- لا أعتقـد. لا أظـن أنـه توجـد مختـلات عقليّـاً أخريـات يقضـين وقتهـن يفكـرن في إصبعـين تلامسـا لمـدة نانـو ثانيـة، في اليـوم التـالي لذلـك.

- آه، عندكِ حق.

عـبرت فتـاة تتحـدث في التلفـون، والتفتـت لتعطيهـا ظهرهـا، ووقفـت في وضـع رائـع للصـورة، لكـن جويـا لم تحـرك إصبعـاً، حتـى هـذه المـرة.

- اسمعي، هل يمكنني أن أقول لكِ شيئاً؟

- هـل إذا قلـت لـكِ إنـه لا يمكنـكِ ذلـك لـن تقـولي مـا تريديـن يـا تونيـا؟

- لا، سأقوله لكِ على الرغم من ذلك.

- إذن!

- اسـمعي، أنـا سـعيدة مـن أجـل تلـك اللحظـة العبثيـة المثاليـة، أهنئـكِ عـلى ذلـك، بـل وأنـا تقريبـاً عـلى اسـتعداد لأن أمنـح جائـزة للسـيد (سـهم)، لكـن لتلـك القصـة رائحـة لا تعجبنـي، أتعلمـين هـذا؟

- لماذا؟
- أليس غريباً أنه لم يقترح عليكِ أن تتقابلا في مكان آخر؟
- ربما، لكن مساء الأمس كنت أنا التي...
- نعم، أعرف هذا، كنت هناك، وسمعت، لكن كان يمكنه أيضاً أن يقترح عليكِ أن تغيرا المكان لمواعيدكما، أليس كذلك؟
- مم... أهذا رأيك؟ بالنسبة إليَّ يعجبني أن نتقابل هناك، بعيداً عن الجميع.
- حبيبتي الجميلة، إن المواعيد ليلا في الحانات المغلقة لا يمنحها سوى نوعين من الأشخاص.
- ومن هما؟
- المجانين، أو أولئك المرتبطون بفتاة بالفعل.
- إذا كان مجنوناً لكان تصرف بالفعل تصرفات مجانين، ألا يبدو لكِ ذلك؟
- إذن، أصبحت الاختيارات محدودة.
- هل تريدين أن تقولي إنه في رأيك مرتبط بفتاة أخرى؟
- هل هناك تفسيرات أخرى ممكنة؟
- حسناً... لا أعلم... ربما...
- ربما من الأفضل أن تسأليه هذين سؤالين، هذا المساء.

19

في واقع الأمر، تساءلت جويا بعض المرات: كيف يمكن أن تكون صديقتها المُقربة فتاة توجد فقط في ذهنها؟ أي بخلاف الميل إلى العيش في الخيال أكثر من الواقع، هل هناك أيضاً شيء آخر؟

كانت تسير بعجلة بين شوارع وسط المدينة، ورأسها منخفض، والقلنسوة على رأسها. كان صبية مدينتها يجلسون هناك على

الأسـوار أو في الميادين أو يجولـون، ومـن جهـة أخـرى، كانـت غَـيْرَى، أجـل تغـار، فجويـا في داخلهـا تتمنـى بشـكل مـا أن تكـون مثلهـم، تريـد أن تشـارك في نقاشـاتهم، أن تعـرف عـمّا يتحدثـون، لكـن أيضاً لا، وهـذا هـو الـشيء الغريـب، منـذ فـترة تفكـر في هـذا، لكـن الوحيديـن الذيـن تسـتطيع أن تتحـدث معهـم هـم الفئـة الأصغـر مـن عمـر عـشر سـنوات أو الأكـبر مـن 60 سـنة، أو لا أحـد: فهـي لا تفهـم كل الآخريـن، أو الأفضـل أن نقـول إن المسـألة لا تتعلـق بالفهـم. إنهـا فقـط عندمـا تتحـدث معهـم لا بـد أن تسـتخدم المترجـم.

أجل، هو هذا، المترجم.

والمترجـم هـو عندمـا يكـون لديـك شيء في ذهنـك، وتعـرف أنـك إن قلتـه بهـذه الطريقـة لـن يفهمـك أحـد؛ وهـذا ليـس لأنـك تتفاخـر، أو تشـعر بـأن الآخـر جاهـل -أحيانـاً يكـون الأمـر كذلـك، لكـن هـذا لا يهـم - لكـن ببسـاطة لأنـك فعلـت حقّـاً ذلـك، مـرات عديـدة، حاولـت ذلـك، وقلـت مـا يخطـر في بالـك، كـما هـو، بـلا ترجمـة، وكان كل مـا حـدث أنهـم نظـروا إليـك نظـرة سيئة، أو يسـود فجـأة صمـت مُحـرج، أو ينظـرون إليـك كأنهـم يقولـون: هـل أنـت تحـت تأثـير مخـدر أم مـاذا؟

وهكـذا بـدأت جويـا في اسـتخدام المُترجـم. المُترجـم يأخـذ الـشيء الـذي في ذهنهـا، يرتبـه، ويجـد الكلـمات الصحيحـة؛ أي يترجمهـا، وتكـون النتيجـة هـي، عـلى الأقـل، أن الطـرف الآخـر يفهـم. بالتأكيـد أن مـا يحـدث عـادةً أن العبـارة المترجَمـة ليسـت هـي عـلى الإطـلاق تلـك الأصليـة، وأن الأمـر يكـون مثلـما يقـف بعـض المطربـين الإنجليـز أو الأمريكيـين، ويغنـون أغنيتهـم نفسـها باللغـة الإيطاليـة: في نهايـة الأمـر، مـا ينتـج عـن ذلـك يبعـث عـلى الضحـك فـوراً، أو عـلى الألم، وأحيانـاً الأمريـن معـاً.

ولهـذا السـبب، تحـب جويـا الكلـمات التـي يصعـب ترجمتهـا؛ تلـك التـي تدوِّنهـا في مفكرتهـا في كل مـرة يحالفهـا الحـظ وتعـثر عـلى واحـدة منهـا. أن تعـرف أن هنـاك كلـمات لا وجـود لهـا في اللغـات الأخـرى، هـو أمـر، وجدتـه هـي دائمـاً، رائعـاً، تقريبـاً سـاحراً. وعندمـا تقابـل إحـدى تلـك الكلـمات في أثنـاء الـدرس أو في كتـاب مـا، أو عـلى الإنترنـت، تشـعر بالفـرح الشـديد، وتكتبهـا بسرعـة وبحـماس، ثـم تتعلمهـا حتـى تسـتطيع أن تسـتخدمها بطبيعـة الحـال عندمـا تفكـر بينهـا وبـين نفسـها أو تتحـدث مـع تونيـا.

عـلى سـبيل المثـال، إحـدى الكلـمات التـي تعجبهـا كثـيراً هـي Fernweh؛ وهـي كلمـة ألمانيـة، وتعنـي «الشـعور بالحنـين لأماكـن لـن تزورهـا أبـداً»، وكانـت جويـا تختـبر الـFernweh مـن مائـة إلى ألـف مـرة يوميّـاً، تقريبـاً.

ثـم كانـت تعجبهـا كثـيراً أيضـاً كلمـة komorebi؛ وهـي كلمـة يابانيـة: اسـم يشـير إلى تأثـير معـين للضـوء، الـذي يحـدث عندمـا تتخلـل الشـمس أوراق الأشـجار.

أمـا هـي، فمـن جهتهـا تشـعر بأنهـا pocemucka؛ أي شـخصية تطـرح وتسـأل نفسـها عـدداً مـن الأسـئلة، بالروسـية. أجـل، فـإن جويـا بالتأكيـد pocemucka.

إنهـا كلـمات لهـا عـوالم كاملـة في داخلهـا، شـظايا صغـيرة مـن الصـوت مـن مقطعـين أو ثلاثـة مقاطـع تحتـاج إلى صفحـات وصفحـات لتُشرح، لكنهـا تُـترك هكـذا؛ فهـي غـير قابلـة للترجمـة، ليـس مـن جهـة أنـه مـن المسـتحيل ترجمتهـا، لكـن مـن جهـة أنـه لا يجـب عمـل هـذا؛ لأنهـا جميلـة جـدّاً هكـذا كـما هـي، غـير قابلـة للترجمـة وغامضـة، بأصواتهـا الغريبـة جـدّاً، سـواء كانـت موسـيقية، أم غـير متناسـقة ورائعـة في آنٍ واحـد.

إن أفضل العوالم الممكنة هو ذلك الذي فيه لا يحتاج أحد إلى ترجمة نفسه ليفهمه الآخرون. أو على الأقل هذا ما تفكر فيه جويا.

على كل حال بالنسبة إلى المترجم، الوحيدون الذين لا تحتاج معهم إلى أن تستخدمه هم الأطفال، وجدتها، والبروفيسور بوفه، وتونيا.

و(لو). أجل، أيضاً مع (لو)، حتى الآن لم تستخدم المترجم قط.

أدركت جويا هذا الآن فقط في أثناء سيرها، في أثناء عودتها إلى المنزل بلا صور التقطتها، وبعض الشك في ذهنها؛ شك ولّدته لها تونيا بالتحديد، أفكار لا تبدو جيدة، وتُشعرها بأنها غريبة، مثلما يحدث عندما تكتشف أغنية جميلة في المذياع، ثم تبتعد قليلاً، وتبدأ في فقدان التردد، وهكذا، يصبح الاستماع أصعب.

وهكذا، وبينما هي مأخوذة بكل تلك الفوضى في ذهنها، لم تدرك جويا أنها في أثناء سيرها أصبحت خلف مجموعة من الأشخاص تسير ببطء معهم.

يسيرون جميعاً في صمت.

يرتدون كلهم اللون الأسود.

أجل، لم يعد هناك أي شيء، كانت تسير خلف جنازة.

هي أيضاً ترتدي الأسود؛ لأنها لا تزال ترتدي كنزة (لو) السوداء، وحتى بنطالها الجينز لونه أسود؛ ولهذا، كانت متخفية تماماً، لكنها لا تعرف بالتحديد لماذا بدلاً من أن تتراجع خطوتين إلى الوراء وتذهب إلى حال سبيلها، استمرت في السير، كأنها قريبة أو صديقة للمتوفى أو للمتوفاة.

رفعت جويا عينيها ونظرت إلى الأشخاص. كان لديهم شيء ما، لا تعرف بالتحديد ماذا، لا تستطيع أن تفك شيفرته، لكنْ لديهم

شيء مـا؛ لأنهـا لا تسـتطع أن تـرى الألم، تتوقعـه، لكنهـا لا تعـثر عليـه، رأت فقـط عـدداً مـن النظـارات القاتمـة، ووجوهـاً ثابتـة، بـلا أي تعبـير، لديهـم شيء مـا، لكنهـا لا تفهـم مـا هـو.

ثم جاءتها الفكرة.

توقفـت، وعـادت بعـض الخطـوات إلى الـوراء، حتـى خرجـت مـن المسـيرة وجعلتهـا تسـير أمامهـا.

أخرجــت آلــة التصويــر... صوبــت العدســة، وبهــا كل أولئــك الأشـخاص مـن الخلـف يسـيرون، والعربـة الجنائزيـة هنـاك في المنتصف مـن بعيـد، والتقطـت الصـورة.

20

- لقد تغيّر، أقول لكِ، لقد تغيّر!

- مامـا، أنـتِ تعرفـين أنـه لا يتغـيّر ولـن يتغـيّر أبـداً. سـتكون هـذه المـرة الثلاثـين التـي أسـمعكِ تقولـين فيهـا هـذا، وبعـد شـهر بالتـمام سـتطردينه مـن المنـزل!

- إنه شخص آخر. وربما يكون عثر أيضاً على عمل.

- مامـا، بابـا سـيكون شـخصاً مختلفـاً ربمـا بعـد عبـوره ثمـاني عـشرة حيـاة، كـدودة، ثـم جـرذ، ثـم خفـاش، ثـم ابـن آوى، معـزة وبغـل، ثـم يصبـح إنسـاناً مـن جديـد. وهنـا أيضـاً لـديَّ شـكوكي في أنـه يمكـن أن يصبـح مختلفـاً كثـيراً عـما هـو عليـه الآن!

- جـروتي الصغـيرة، لا تقـولي هـذا. هـل رأيـتِ الـورود الموجـودة هنـاك؟

- أجـل، ورأيـت أيضـاً أنـه لا يوجـد أي ورق تغليـف ولا لاصـق مـن محـل الـورد.

- ماذا تقصدين؟

- لا شيء يا ماما، لا شيء.

- لا، أخبريني الآن، ماذا تريدين أن تقولي!

- إنـه مـن الأفضـل أن تذهبـي لتتحققـي مـن المقابـر؛ لأنـه بالتأكيـد سـيكون هنـاك شـاهد قـبر بـلا زهـور!

- جويـا، يكفـي هـذا! لم أقـل لـه سـوى أنـه يسـتطيع أن يمكـث لبضعـة أيـام، وهـذا لا يعنـي أننـا سـنعود معـاً أو أننـا سـنتزوج، أو مـا إلى ذلـك! ثـم إنـه في كل الأحـوال أبـوكِ، تعرفـين هـذا؟!

- أكره هذه العبارة أيضاً.

- أي عبارة؟

- «إنـه أبـوكِ في كل الأحـوال». سـمعتها طـوال حيـاتي. إنـه يدمـر كل مـا يعـثر عليـه، ولا ينجـح في شيء سـوى ارتـكاب الكـوارث، لكنـه: أبـوكِ في كل الأحـوال!

- أنـا لم أعـد أسـتطيع أن أمكـث بمفـردي. في سـني هـذه، أنـتِ تعرفـين، ولم أعـد أسـتطيع أن أمكـث بصحبـة الصبيـة أو أن أنتظـر الرجـل الكامـل، الـذي سـيدق عـلى هـذا البـاب. إنـه رجـل عـانى طـوال حياتـه. لم يملـك شـيئاً قـط، لا شيء سـوى الـركلات وأشـخاص أوسـعوه لكـماً في ظهـره. لقـد ارتكـب عـدداً مـن الأخطـاء، هـذا حقيقـي، لكننـي أسـتطيع أن أفهـم عـدداً مـن أخطائـه!

- آه، أوكي، رائع!

- أوكي، ماذا؟

- أنتِ تعرفين.

- لقـد دخلـت بالفعـل في تلـك المرحلـة. رقـم قيـاسي جديـد، يـا للهـول! لم تحتاجـي هـذه المـرة سـوى إلى يومـين.

- أي مرحلة؟

- تلـك التـي فيهـا تبرريـن تصرفاتـه؛ تلـك التـي فيهـا يكـون هنـاك

تفسير لأي حماقة ارتكبها في حياته؛ تلك التي فيها: «المسكين، لقد كان تعيس الحظ، لنحاول فهمه!». لنتراهن إذن، في خلال أسبوع ستعودان معاً. ما رأيك؟

- إننا جميعاً من حقنا فرصة ثانية.

- أجل، فرصة ثانية، لكن ليست الفرصة الرابعة والثلاثين.

- جويا، لن أسمح لكِ أن تفعلي هذا! أن تقولي لي كيف يجب أن أعيش حياتي!

- ماما، ما دمت أنا لا تزالين هنا، والجدة لا تزال هنا؛ فهي ليست حياتك بمفردك، هل تفهمين ذلك؟ إنها حياتنا، هل تفهمين هذه الكلمة، حياتنا؟

- أجل أفهمها.

- لا، بل لا تفهمينها. لا تعرفين حتى ما معنى هذه الكلمة. لا بد أن أحضر لكِ المعنى لتقرئيه من القاموس.

- توقفي!

- توقفي أنتِ! إنه شخص لا يمكن على الإطلاق الوثوق به، متكبر ومتقلب، أنتِ تعرفين هذا جيداً جدّاً! لقد أظهر لكِ هذا مليون مرة، وعاملكِ دائماً بأسوأ الطرق، الآن يأتي إلى هنا، يتظاهر بالمهارة يومين، ويأتي ليبحث عن عمل هنا معكِ، يسرق بعض الورود الذابلة من المقابر، وأنتِ تصدقينه من جديد، وتسقطين من جديد بين ذراع...

طراخ!

-...

-...

-...

- آسفة.

-...

- هل سمعتِ ما قلته لكِ؟ آسفة! لم أكن أريد صفعكِ.

- لا يجب أن تعتذري لي يا ماما. فعلتِ طيباً.

- لا تقولي هذا الآن. ولماذا ترتدين ملابسك؟

- لا، حقاً. إنها حياتك.

- جويا، إلى أين أنتِ ذاهبة الآن؟

- لأعيش حياتي.

21

في كل خطوة كانت تفصلها عن المشرب، كانت تونيا، التي تسير بجوارها، تردد باستمرار: اسأليه على الفور! اسأليه على الفور! وهكذا بدأت جويا أيضاً في التدريب على ما ستقوله.

- اسمع، هل يمكن أن أسألك عن شيء؟

- طريقة مراهقة غير واثقة على نحو مبالغ فيه.

- (لو)، يجب أن أقول لك شيئاً ما.

- حاسمة زيادة عن اللازم.

لا توجد طريقة مناسبة. ملعونة تونيا: لماذا لم أختر صديقة متخيّلة أقل صراحةً؟

- هيه، أنت، يا أداة التعريف، هل تشرح لي لماذا يجب أن نتقابل هنا بالتحديد وفي هذه الساعة؟

- أجل، ربما هذه صيغة جيدة!

ثم، كالعادة، عندما يُعد المرء كل شيء على أحسن حال، وعندما يبرمج كل الحركات بكل دقة، تسير الأشياء بشكل مختلف. كان هو هناك، يجلس أمام المائدة هذه المرة، لم يكن يلعب بالأسهم، كان فقط يراقب الطريق في نصف الظلام، رأته هي، ودون أن تدرك

بـدأت تُـسرع الخطـى، ونهـض هـو وذهـب للقائهـا، وكأن الأمـر شيء معتـاد تمامـاً، احتضنهـا.

كان حضناً كافياً ليطيح بخططها لوهلة.

الآن، بطبيعـة الحـال، لا يعنـي الحضـن شـيئاً معينـاً، إنـه فقـط مجـرد حضـن، والنـاس كلهـا يفعلـون هـذا كل يـوم، وإذا قـورن بالقبلـة أو بالجنـس، يكـون الحضـن أقـل منهـما عـشرات الدرجـات، بالتأكيـد، لكـن أولئـك الذيـن يفكـرون بهـذه الطريقـة ربمـا نسـوا مـا معنـى الحضـن الأول؛ ذلـك الـذي يقدمـه لـك ذلـك الفتـى أو تلـك الفتـاة، ليـس المقصـود هنـا تحليـة المشـاعر، فـلا دخـل للعسـل هنـا، لكـن الواقـع أن الحضـن الأول ليـس مجـرد حضـن فقـط، عـلى الإطـلاق، لكنهـا المـرة الأولى التـي فيهـا يسـتند جسـدك إلى جسـد شـخص آخـر، وفي ذلـك اللقـاء تشـعر بـأن بطنـك يصبـح وعـاء، تشـعر بـه وقـد أصبـح كأسـاً أو كوبـاً، والآخـر هـو الميـاه العذبـة، فالحضـن الأول ليـس هـو مجـرد حضـن أول؛ لأن المـرء قبلـه يكـون قِطَعـاً متفرقـة تبـدأ في الالتئـام فقـط في تلـك اللحظـة، يصـير بالتأكيـد، والأمـر يتطلـب وقتـاً طويـلاً، ربمـا حيـاة بأكملهـا، لكـن يبـدأ كل شيء تمامـاً في تلـك اللحظـة، عندمـا يتحـول المـرء إلى شيء مـا، وليـس مجـرد قطـع مبعـثرة.

ثم إن ذلك الحضن الأول استمر فترةً طويلةً جدّاً.

انفصلا بعد قليل وأخذ هو يدها وقال لها: تعالي معي!

22

- وهنا ماذا يوجد؟
- ماذا، ألا ترين؟ إنها كنيسة صغيرة فوق الهضبة.
- أجل أراها، لكن... هل تأتي إلى هنا كثيراً؟
- أجل، كثيراً.

- وماذا تأتي لتفعل هنا؟ هل تجمع أزواجاً لتخيفها؟
- أجل، هذا أيضاً. عندما أشعر بالملل.
- وعندما لا تشعر بالملل؟
- لا شيء محدد. أحب أن آتي إلى هنا فقط.
- وهل هناك أيضاً سبب لأجله تعجبك؟
- لم أفكر في هذا الأمر قط. ربما... ربما تعجبني لأنني من هنا يمكنني أن أرى المدينة كلها، لكن المدينة لا يمكنها أن تراني.
- ماذا قلت الآن؟
- إيه؟ ماذا؟ أنا؟
- أجل، أنت يا (لو). ماذا قلت للتو؟
- إنني لم أفكر في هذا قط.
- ليس هذا، بعد هذا.
- «إنه يعجبني؛ لأنني من هنا أرى المدينة، لكن المدينة لا تراني»، لماذا؟
- لا، لا شيء.
- ما معنى «لا شيء»؟ وجهك لا يدل على «لا شيء».
- إنها قصة طويلة.
- يا (شيء)، ليست لديَّ أي التزامات هذا المساء.
- أوكي، لكنني اضطررت إلى أن أعد ألا أتحدث في هذا الأمر مع أحد، وإلا سأخاطر بأن أُشكى.
- آه، حسناً، إذن لن أصر.
- حتى إذا...
- حتى إذا؟
- اسمك ليس (أحد)، أليس كذلك؟
- ماذا؟

- اسمك ليس (أحد)، هل هذا صحيح؟

- (شيء)، أشعر بأنكِ لستِ على ما يرام.

- هـذا بالتأكيـد، لكـن أنـت أكِّـد لي أن اسـمك ليـس (أحـد)، هـل نحـن متفقـان؟

- لا، أشـكر السـماء أنـه ليـس لـديَّ أبـوان سـاديان ليطلقـا عـليَّ اسـماً بهـذا الغبـاء...

- رائـع، إذن سـأطلعك عليهـا، لكـن لا بـد أن تعـدني بالكتـمان التـام والأبدي.

- يمكننـي أيضـاً أن أقسـم لـكِ عـلى هـذا. ثقـي بي، لـن يسـمعني أحـد أبـداً أتحـدث عـن ذلـك الـذي سـتقولينه لي.

- لقد فعلت ذلك بالفعل؟ لقد أقسمت!

- إذن، هل قررتِ؟

- ها هي، خذ.

- ما هذا؟

- ألم ترَ آلة تصوير قط، يا أداة التعريف؟

- أي إنـكِ تقولـين لي إنـه لا يـزال هنـاك مـن يسـتخدم تلـك الأجهزة؟ هـل أنـتِ متأكـدة مـن أنـكِ لسـتِ مـن قـرن آخر؟

- انظر إلى الصور التي في الداخل، واصمت من فضلك.

- أوه، هل التقطتِها أنتِ؟

- لا، جدتي.

- حسناً، قولي إذن لجدتك إنها بارعة بالفعل. تعجبني.

- حقّاً؟

- أجـل، حتـى إذا لم أفهـم لمـاذا كلهـا لقطـات مـن الخلـف، لكنهـا تعجبنـي، أجـل. كـم عددهـا؟

- نحو مائة على ما أعتقد.

- كلها هكذا؟
- أجل كلها هكذا.
- ولم يلتفت أحد قط، وبدأ يصرخ فيكِ؟
- حتى الآن لا. أقصى ما حدث أن شخصاً ظريفاً ذهب ليخبر عني مدير المدرسة، الذي - بطبيعة الحال - استدعاني.
- مم، لكن لا يمكن أن تقولي إنهم أخطؤوا في ذلك؟
- في نهاية الأمر، أنا أحتفظ بها لنفسي.
- وهذه؟
- هذه التقطتها اليوم.
- جميلة جدّاً.
- هل تعجبك؟
- إلى أقصى حد.
- حقّاً؟
- بالطبع. إنها جنازة، أليس كذلك؟
- أجل.
- انظري هنا، تلك الرؤوس الثلاثة، التي تنظر كلها في اتجاهات مختلفة، ولا تنظر أمامها. إن عربة الموتى هناك، وهم ينظرون في الاتجاه الآخر، كأنهم يريدون... لا أعلم، ربما ألا ينظروا إلى الموت في وجهه. أو الأسوأ... كأنهم يفكرون في أنه أمر لا يخصهم.
- هل هذا ما تراه في الصورة؟
- بالطبع، فهذا واضح تمام الوضوح. رائعة!
- ولهذا التقطها هكذا.
- من الخلف تقصدين؟
- أجل؛ لأنه من الأمام... لا أعلم.
- بالطبع تعلمين يا (شيء).

- لا، حقاً. لا أعرف كيف أشرح ما الشيء الذي لا يعجبني من الأمام.

- يخيفك؟ كل شيء مباشر جدّاً... كل شيء واضح، هل هذا هو؟

- أجل، وأيضاً، ليس هذا كل شيء. انظر، كنت قد بدأت بأن ألتقط صور الأشخاص من خلال تأطير الوجوه جيداً، وكانت النتيجة أن الصور كانت تبدو لي دائماً مصطنعة.

- ربما كان من الأفضل أن تلتقطيها فجأة، أليس كذلك؟

- هذا ما حاولت أن أفعله. وقفت هناك، وأتذكر أنني كنت أنتظر، أحاول أن ألتقط صور الأشخاص عندما لا يدركون هذا، وبجانب واقع أن الأمر كان صعباً، أي، حتى عندما كنت أنجح... فإن الصورة كانت تبدو لي دائماً، على الأقل بعض الشيء، مصطنعة.

- آه.

- هل تفهم؟ إن وجوه الأشخاص تكذب، تكذب دائماً. حتى عندما يقفون هناك «طبيعيين»؛ فهم ليسوا طبيعيين حقّاً؛ فهم جميعاً متماسكون وحريصون على ألا يتركوا أي شيء يفلت منهم، ولا حتى أصغر تعبير غبي! لكن على العكس من الخلف، فمن الخلف...

- من الخلف؟

- من الخلف يقولون دائماً الحقيقة.

23

مرت الساعة الحادية عشرة، ولا تزال جويا و(لو) هناك فوق الهضبة، وظهراهما مستندان إلى سور الكنيسة. ربما سيربطها أبواها، عندما تخطو بقدميها داخل المنزل، بأحد الكراسي ويمطرانها بوابل من الأسئلة؛ لأنه ما دام أبوها خارج المنزل، يمكنها أيضاً أن تقول

إنها لـدى تونيا وتختفـي في الـلا شيء لمـدة يومـين؛ لأن أمهـا لـن تحـرك رمشـاً، فمنـذ فـترة وهــي لا تنتبــه لغيــاب أي شــخص! لكــن الآن كل منهـما يجـب أن يُظهـر للآخـر أنـه مـربٍّ مثـالي، وأن يثبـت أنـه هـو أيضـاً حاسـم في تحديـد القواعـد والمواعيـد. كانـت قـد رأت تلـك القصة مـن قبـل: مـن المؤكـد أن كلّاً منهـما لديـه في مخزنـه خطبـة جميلـة، تلـك المكونـة مـن آلاف الأحـرف والمسـافات.

أو ربمـا لا، نظـراً إلى أنهـا خرجـت غاضبـة منهـما؛ ومـن ثـم لتصفـح عنهـما، سـيتجنبان تمامـاً أن يصرخـا فيهـا.

عـلى كل حـال، لا شيء يهـم جويـا. الآن، مـا يـدور في رأسـها شيء آخـر. شيء آخـر تمامـاً.

في النهايـة، سـألته. أجـبرت نفسـها، حاولـت أن تحتفـظ بيقظتهـا لثلاثـين ثانيـة، وسـألته عـما أرادت.

لم تسـتخدم الكلـمات، التـي كانـت قـررت أن تسـتخدمها، لكـن لا بـأس. حاولـت أن ترتجـل بعـض الـشيء، فكـرت في أنـه ربمـا توجـد طريقـة يمكنهـا بهـا أن تسـأله هـذا السـؤال دون أن تطـرح أسـئلة. وهكـذا، وبينـما كانـا هنـاك، ظهراهـما مسـتندان إلى سـور الكنيسـة الصغـيرة، أحدهـما بالقـرب مـن الآخـر، ينظـران إلى المدينـة، قالـت لـه: اسـمع، لمـاذا نتقابـل دائمـاً هنـا؟

- حسناً يا (شيء)، هذه المرة كنتِ أنتِ من طلب هذا!

- أجل أعلم هذا... وليس لأنني لا تعجبني تلك الأماكن، لكن...

- إن الخطـأ خطـأ والـدَي. إنهـما نازيـان حقيقيـان، أقسـم لـكِ. يتركاننـي أخـرج فقـط في تلـك السـاعة، عندمـا أكـون قـد انتهيـت مـن مذاكـرتي وكل شيء، وهكـذا آتي دائمـاً إلى هنـا، عـلى الأقـل أهـدأ قليـلاً.

- آه، فهمت.

- في الواقـع، هـذه المـرة تأخـرت جـدّاً، وأعتقـد أنـتِ أيضـاً؛ لذلـك

مـن الأفضـل أن ننهـض.

- أجل، أعلم أنك مُحق.

- لكـن، إذا اسـتطعت، يومـاً مـا، أن أقنعهـما، يمكننـا أن نتقابـل في مـكان آخـر، وفي سـاعة أخـرى، أعـدك!

أومـأت جويـا موافقـة، وهـي تنقـل نظرتهـا تجـاه المدينـة البعيـدة، وتثنـي شـفتيها في تعبـير عـن الإحبـاط بعـض الـشيء.

- (شيء)؟ لا أرى أنكِ مقتنعة.

- لا، لكن...

- لكن ماذا؟

- لا يزال الوقت مبكراً.

- قولي هذا لأبوَي، اللذين بمجرد رؤيتي سيعذبانني بالأسئلة!

أومــأت جويــا موافقــة، مــرة أخــرى، لكــن مــن جديــد ببعــض الإحبــاط.

اقـترب منهـا (لـو) حتـى أصبـح عـلى بُعـد عـشرة سـنتيمترات مـن عينيهـا، ثـم قـال: لسـت خبـيراً كبـيراً بأمـور النسـاء، لكـن وجهـكِ يوحـي بالتأكيـد أنـكِ ترغبـين في قـول شيء مـا!

لم تقـل جويـا أي شيء. يوجـد جـزء منهـا يرغـب في التحـدث، أن تقـول لـه مـا تريـد، لكـنّ جـزءاً آخـر؛ بسـبب مـا غامـض، كأنـه يرغـب في أن يفهـم هـو بمفـرده مـا ترغـب في أن تقولـه، وأن يجيـب هـو بمفـرده.

- أوكي، نظـراً إلى أننـي أخمّـن أنـكِ بحاجـة إلى طـرح بعـض الأسـئلة عـليَّ، فلنفعـل هكـذا.

- هكذا، كيف؟

- الآن سأشـغل سـاعة الإيقـاف، لمـدة ثـلاث دقائـق، وأنـتِ في خـلال تلـك الدقائـق الثـلاث يمكنـكِ أن تطرحـي عـليَّ كل مـا تريديـن مـن

أسئلة وأنا سأجيب عنها.

- موافقة!

- لكن بعد ذلك يجب بالفعل أن أذهب، إنني أخاطر الآن بميتة بطيئة ومؤلمة.

- هل أبدأ إذن؟

- انطلقي.

- حسناً. بحق السماء، ماذا تفعل بتلك الحجارة التي تحملها دائماً معك في المرطبان؟ وأين تسكن؟ هل أنت متفوق في المدرسة؟ هل لديك فتاة، مثلاً؟ هل تحب فريق البينك فلويد؟ وهل تعيرني كنزتك مرة أخرى؟ ثم بعد ذلك سنرى.

- توقفي يا (شيء)، لم أقصد أن لديكِ ثلاث دقائق من الأسئلة، لكن سأمكث ثلاث دقائق أخرى، وسأجيب عن كل الأسئلة التي تسألينها في تلك الدقائق الثلاث.

- آه.

- لكن على كل حال سأحاول، حتى وإن بقيت فقط دقيقتان.

- أحسنت.

- فيما عدا السؤال المتعلق بالحجارة؛ فذلك سيستغرق وحده عشر دقائق.

- أوكي، لكن لتسرع الآن.

- أسكن على بُعد كيلومترين من هنا، في واحد من المباني الكبيرة البشعة، التي لا أعرف لماذا لم يهدموها بعد.

- حسناً.

- في المدرسة مستواي متوسط، يمكن أن نقول إنني على ما يرام، فيما عدا بعض مشكلات النظام الصغيرة من حين إلى آخر، أنتِ تعرفين الحال.

- أجل.

- بالنسبة إلى فريق بينك فلويد، أجل أحبه، لكن فقط في بعض اللحظات، مثلاً عندما أستحم، أو عندما أشعر بأنني أحتاج إلى أن أشعر ببعض التعاسة.

- لكن...

- سأهديكِ الكنزة، وكنت على وشك أن أقول لكِ هذا، ثم سنرى... هل كانت هناك أسئلة أخرى؟

- أشكرك و... أجل كان هناك سؤال.

نظر (لو) إلى جويا وابتسم، فهم تماماً أي سؤال كان، وربما كان قد تركه عمداً. وهكذا، نهض، ومد لها يده ليساعدها على النهوض بدورها، وقال لها: لا توجد فتاة أخرى. والآن لنرحل، أرجوكِ!

24

إذا كان أحد أخبرها منذ ثلاثة أيام فقط، لم تكن ستصدق.

لم تكن تعرف حتى إنها قادرة على بعض الأشياء. لم تكن ستصدق أنها قادرة على أن تستيقظ نصف ساعة مبكرة عن المعتاد، سعيدة بأنها تفعل هذا، دون أن تؤجل المنبه ست مرات كما تفعل في العادة.

لم تكن ستصدق أنها ستقضي عشر دقائق كاملة - وليست الثواني الثلاثين المعتادة - لتقرر ما الذي سترتديه.

لم تكن ستصدق أنها قادرة على أن تفكر - أوكي، فقط التفكير؛ فهي لم تفعل هذا - في أن تضع لمسة من قلم الكحل على عينيها قبل أن تخرج، وأن تأخذ حقيبة أمها، تبحث فيها وتحاول أن تصنع فارقاً في شعرها. فقط، مجرد التفكير.

ثـم، وعـلى وجـه الخصـوص، لم تكـن سـتصدق مطلقـاً أنهـا قـادرة عـلى الذهـاب إلى المدرسـة دون أن ينتابهـا ذلـك الخـوف؛ فالذهـاب إلى المدرسـة في حـد ذاتـه، يعجبهـا، لكـن الأشـخاص الذيـن تقابلهـم هنـاك هـم مـن يخيفونهـا. يخيفهـا مـا يفعلونـه، والطريقـة التـي يفعلونـه بهـا.

مثلـما هـو الحـال عندمـا يكـون شـخص معروفـاً كونيّـاً بأنـه تعيـس الحـظ، وربمـا يطلـق مزحـة مسـلية، عندئـذٍ يعلـق الجميـع بتلـك الضحكـة المزيفـة، كأنهـم يقولـون لـه: هـل يجـب علينـا أن نضحـك؟ وإذا كانـت المزحـة نفسـها يطلقهـا كازالي، أو أحـد الذيـن يُعـدون مـن المحظوظـين، عندئـذٍ يضحـك الجميـع. لا تضايقهـا تلـك الأشـياء، لكنهـا تخيفهـا بالفعـل، الخـوف مـن أنـه لـكي يشـعر المـرء بأنـه أفضـل لا بـد أن ينتمـي إلى جماعـة مـا، وأن يدخـل في دائـرة مـا، وأن يكـون عضـواً في نـادٍ خـاص. ألا يمكـن للمـرء أن يشـعر ببسـاطة بأنـه بخـير بمفـرده؟

أو حينـما يقـف ثلاثتهـم يتحدثـون، وواحـد أو واحـدة مـن الثلاثـة يرحـل، وعندئـذٍ مـا يحـدث دائمـاً، وبانتظـام، يبـدأ مَـن بقيـا في قـول شيء مـا عـن ذلـك المبتعـد. يخيفهـا أن الأشـخاص ينتظـرون ابتعـادك ليتحدثـوا عنـك، وتتسـاءل: لماذا إذن لا تفعـلان ذلـك وأنـا هنـا معكـما؟

أو عندمـا يسـأل الأسـتاذ تلميـذاً خجـولاً جـدّاً، وهـذا التلميـذ، ربمـا لا يسـتطيع أن يقـول كثـيراً، حتـى إن كان مـن الواضـح جـدّاً أنـه قـد قـضى أمسـيته يسـتذكر، ثـم يسـأل شـخصاً آخـر؛ شـخصاً حـاضراً بمزاحـه وكلامـه الكثـير، ويخـترع الأخـير مجموعـة مـن الكذبـات، وفي نهايـة الأمـر، يسـتطيع أن يقـول شـيئاً مـا؛ ومـن ثـم تصبـح الدرجـة متسـاوية لكليهـما.

بالنسـبة إلى جويـا سـبادا، تخيفهـا كل هـذه الأشـياء بشـدة، تخيفهـا كثـيراً بالفعـل؛ لأن هنـاك شـيئاً مـا في داخلهـا يقـول لهـا إن هنـاك في الخـارج لـن يتغـير أي شيء، كثـيرون في كل مـكان مقتنعـون أن المدرسـة

ليست إلا فترة انتقالية صغيرة، وبعدها يصل المرء إلى الدبلومة أو الجامعة أو العمل؛ أي إنه هناك في الخارج سيكون العالم شيئاً مختلفاً، إلا أن جويا تعرف جيداً أنه سيكون الأمر نفسه، في أماكن مختلفة، لكن الأشياء نفسها دائماً، الفروق تتكرر دائماً، والتصرفات الجبانة نفسها، وألعاب التفوق نفسها، بوجوه وملابس مختلفة، لكن دائماً الأشياء نفسها.

لكن اليوم لا. اليوم، لا تشعر بأي خوف.

اليوم تجد نفسها هناك، ولا تفكر في ذلك الذي يدور حولها؛ أي إنها ترى أن لا شيء قد تغير عن الأمس، وأن كازالي سيوجد دائماً، وسيتصرف ككازالي، وأن باتّا والأخريات سيظللن هناك وسيتحدثن بطريقة سيئة عن شخص ما، وأن الأساتذة سيأتون دائماً إلى المدرسة على الرغم من أنهم يرغبون في الوجود في مكان مختلف تماماً. لم يتغير أي شيء حولها، لكنها هي من تغير.

وأيضاً إذا كانت تبذل بعض المجهود لتتعرف إلى نفسها، وتونيا خلفها مستلقية على الفراش تقول لها: ما هذا، منذ ثلاثة أيام كنتِ إيمي واينهاوس، والآن أصبحتِ كيتي بيري!

حتى إذا لم يكن في استطاعتها السيطرة على الأمر، وبينما تضبط مرة أخرى قميصها أمام المرآة، تكتشف جويا سبادا، للمرة الأولى في حياتها، أنها لا تعرف أنها، في بعض الأحيان، يمكن أن تصبح جميلة جدّاً.

25

- إذن يا آنسة سبادا، عمَّ ترغبين في سؤالي اليوم؟

- اليوم صعب يا أستاذ. اليوم أعلم أنه حتى سيادتك لن تعرف أن تجيبني.

- أوه، أتمنـى ذلـك جـدّاً. إنـه لـشيء رائـع عندمـا يسـألني أحـد سـؤالاً لا أعـرف إجابتـه!

نظـرت إليـه جويـا، لم تكـن متأكـدة مـن أنهـا فهمـت مـاذا يرغـب في أن يقـول.

- لا تنظـري إليَّ بشـك هكـذا، يـا آنسـة: إن مـن يطـرح عليـكِ أسـئلة لا يمكنـكِ الإجابـة عنهـا يجـبركِ عـلى أن تبحثـي، بـشرط ألا تكـوني مـتِ بالفعـل ودُفنـتِ. وإنهـا نعمـة في كل مـرة نبـدأ فيهـا رحلـة البحـث عـن شيء مـا، سـواء بحثـت عـن امـرأة، أرض أم إجابـة!

وفي تلـك اللحظـة بالتحديـد، عندمـا قـال كلمـة «إجابـة»، عـبر بوتشـا وكازالي خلـف الأسـتاذ، ومـن ورائـه أظهـرا الإصبـع الأوسـط، ففـي السـاعة السـابقة، دوَّن الأسـتاذ كليهـما غيابـاً في حصـة الفلسـفة في الدفـتر، لكـن بوفـه، دون أن يرفـع عينيـه عـن عينَـي جويـا، ضرب ضربـة إلى الخلـف بعصـاه الخشـبية أصابتهـما تمامـاً في الركـب، عصفوريـن بحجـر.

- آه، سـامحاني، لا بـد أننـي أصبتكـما بـلا قصـد! قـال لهـما، لكـن في أثنـاء ذلـك كان ينظـر إلى جويـا مبتسـماً. ورحـل كلٌّ مـن بوتشـا وكازالي وهـما يعرجـان، مُدركـين تمامـاً أنهـما اسـتحقا مـا حـدث لهـما.

- كنتِ تقولين يا آنسة؟ إذن، ما هذا السؤال الجريء جدّاً؟

- حسـناً. لقـد تحدثـت اليـوم عـن هرقليطـس، أليـس كذلـك؟ وقلـت لنـا عبارتـه تلـك.

- «لا يمكن للمرء النزول في النهر نفسه مرتين»، أجل.

- تمامـاً؛ أي إن هرقليطـس يقـول إن كل شيء يتغـير ويتطـور، دائمـاً، ثـم طرحـت علينـا حضرتـك المثـال الخـاص بخلايانـا، وبـأن أغلبيتهـا، في لحظـة مـا، تفعـل ذلـك الـشيء، كأنهـا تنتحـر!

- أجـل، الاسـتماتة. تفعـل الخلايـا ذلـك تطوعـاً؛ لتمنـح الخلايـا الأخـرى مكانـاً.

- أجـل هـذا. إذن، في حياتنـا تقريبـاً خلايانـا كلهـا تمـوت، ثـم تحـل محلهـا أخـرى، وأغلبيتنـا يتغـير في بضعـة أعـوام، مثـل السـيارة في أثنـاء السـباق، تُفـك وتُركَّـب بقطـع غيـار، تقريبـاً شـبه الأصليـة تمامـاً، ثـم تصـل إلى نهايـة السـباق وقـد أصابهـا الصـدأ والعطـب، لكـن فيـما عـدا ذلـك تكـون مشـابهة تمامـاً للحالـة التـي بـدأت منهـا، حتـى وإن تغـيرت كلهـا بالكامـل.

- هذا صحيح يا آنسة، لكن... أين السؤال؟

- هـا هـو ذا، فلتسـتعدّ: هـل يمكـن الشـعور بـأن في داخلـك شـخصاً ليـس أنـت، وفي الوقـت نفسـه تعلـم أن هـذا المخالـف لـك، هـو أنـت أيضاً؟

نظـر البروفيسـور بوفـه إلى جويـا وهـو يضـم عينيـه ويلـف رأسـه جانبـاً بعـض الـشيء. ضمـت جويـا شـفتيها وقالـت: هـل أحـاول أن أقولـه بكلـمات أقـل فوضويـة؟

- لا، لا، يـا آنسـة، لقـد فهمـت، لكـن معـكِ حـق، إنـه سـؤال صعـب جدّاً.

- أرأيت؟ قلت هذا لحضرتك.

- الواقـع أننـا لسـنا واحـداً يـا آنسـة. نتمنـى هـذا، لكـن هـذا وهـم كبـير؛ ذلـك أن نقـول إن لدينـا هويـة واحـدة وشـخصية واحـدة.

- آه، إذن؟

- فكـري في نفسـكِ، ليـس كصـوت منفـرد، لكـن كجوقـة تحـاول كل يـوم أن تغنـي الأغنيـة نفسـها، لكنهـا نـادراً مـا تنجـح. فهنـاك أصـوات كثـيرة في داخـل النفـس، أكـثر مـن تلـك الموجـودة في مـسرح ممتلـئ؛ مـسرح كبـير بحجـم العـالم.

تخيلـت جويـا مشـهد مـسرح ضخـم، مـليء بعـدد مـن (تونيـا)، تتحـدث كل منهـن بمفردهـا، وابتسـمت.

- هل أجبت عن سؤالك يا آنسة؟

- أجل، أعتقد هذا.

ضرب البروفيسور بوفه الأرض بعصاه، وكان على وشك الذهاب، لكن بعد خطوتين توقف، والتفت إليها قائلاً: آه، يا آنسة!

- تفضل يا أستاذ.

- استعدي؛ لأنه كثيراً في سنك، سيحدث لكِ أن الأصوات التي في داخلك ستبدأ في إنشاد أغنيات لن تعجبك بالمرة. دعيها تفعل ذلك، ولا تطرديها؛ لأن تلك الأغنيات ستُحدِّثك بطريقة أفضل عن نفسك من أي شخص آخر!

26

- يمكننا أن نلعب لعبة أنا وأنت.

وحدهما في الظلام مرة أخرى، وظهراهما مستندان إلى سور الكنيسة الصغيرة، (لو) وهو يحمل المرطبان في يده، وجويا معها ورقة بين أصابعها، وبالنظر إليها في الضوء، كان القمر فوق جبهتها.

- أي لعبة؟

- لعبة المرة السابقة، لكن دون مسألة الدقائق الثلاث.

- أي؟

سألها (لو) وهو يسرق الورقة من يدها.

- يسأل كل منا الآخر أسئلة. أنا أحب أن أسأل.

- مثل مسابقة؟

- شيء كهذا. أجل.

- على كل حال، أعلم بالفعل ماذا ترغبين في أن تسأليني.

- وكيف يمكنك أن تعرف هذا؟

- حسناً، أمر بسيط.

قال (لو)، وهو يضع أمام عينيها مرطبان الحجارة، كأنه يقول: أعلم أنكِ تريدين أن تسأليني عن هذا.

- بالفعل، يمكن أن يكون هذا نقطة انطلاق جيدة. هل يمكن أن أعرف ماذا، بحق السماء، يفعل صبي مثلك... انتظر، كم عمرك؟

- ثمانية عشر.

- إذن، أن يسير صبي سنه ثمانية عشر عاماً دائماً ممسكاً بمرطبان من الحجارة يحرص عليها كأنها شيء مقدس؟

- ربما هي مقدسة بالفعل، كيف يمكنك الحكم على هذا؟

قال لها وهو يهز المرطبان بعض الشيء فترن الحجارة في داخله.

- إذا كانت أشياء شخصية جدّاً، لا تقلق، لن أتوجه إليك بأي كلمة عنها.

- لا، حسناً، أجل هو شيء شخصي، لكني أرغب في أن أخبرك عنه بشرط واحد.

- آه، ما الشرط؟

- أن تخبريني أنتِ كيف في كل مرة أراكِ، أرى أنكِ تحملين دائماً تلك العبارة المكتوبة بالقلم الجاف على ذراعك.

- يبدو لي أنه شرط عادل.

نهض (لو)، وترك جويا هناك جالسة في مكانها. تمشى قليلاً في المتنزه الواقع أمام الكنيسة، وهو يحدق بنظره أرضاً.

سألته: هل فقدت شيئاً ما؟

استمر هو بضع ثوانٍ في النظر إلى أسفل كأنه يبحث عن شيء ما، ثم التقط حجراً، وعاد إلى الخلف، وجلس من جديد بجوارها، وأطلعها عليه وهو يلفه أمام عينيها.

- هل تعلمين، هذا الكوكب موجود منذ خمسة مليارات سنة،

تقريباً، ومن الصعب جداً العثور على شيء ما، لم يتحطم، خلال ذلك الزمن، شيء لم يُفقد، شيء ينتمي بطريقة فعلية إلى تلك الفترة.

راقبت جويا الحجر، واللون القاتم اللامع الذي يظهر على السطح بفضل ضوء القمر.

- إن الحجارة هي الشيء الوحيد الذي، أجل، تهشم إلى آلاف القطع، تناثر، لكنها موجودة منذ آنذاك، وتُشعرني دائماً بالجنون فكرة أن ألتقط حجراً، وأن أفكر أن هذا الشيء الصغير يسافر منذ خمسة مليارات سنة.

- إذن، أنت تجمع أجملها؟

- لا يا (شيء). أنا أجمع تلك التي تنتمي إلى أهم الأماكن التي زرتها.

قال (لو) وهو يفتح المرطبان، ويقلبه بينهما هما الاثنين.

- أحتاج إلى أن أتذكر الأشياء، وأن أتذكر من أنا. تقريباً من أين أتيت. هل تعرفين (عقلة الإصبع)؟

- تقصد الحكاية؟

- أجل، فلنقل إنني أحتاج إلى أن أعثر دائماً من جديد على طريق المنزل.

قال وبدأ يضحك وحده.

- إنني أتحدث مع تلك الحجارة. معها أحياناً نتحاور محاورات جميلة .

قال وهو مستمر في الضحك، أما جويا، فقد أمسكت بقوة بالحجر، الذي أعطاه لها منذ قليل، وهي تحاول أن تشعر باللمس برودة سطحه، وتتخيل كم من الطرق قام بها؛ ذلك الشيء الذي بين يديها؛ ليصل إلى هناك، الآن.

- انظري، هذا مصدره حديقة منزلي الأول، عندما كنت صغيراً.

قـال (لـو) وهـو يمسـك بالحجـارة في يـده واحـداً تلـو الآخـر، ثـم يضعهـا مـرة أخـرى في المرطبـان.

- أمـا هـذا، فمـن شـاطئ بالقـرب مـن دبلـن، حيـث ذهبـت منـذ عامـين.

- هل هو شاطئ جميل؟

- جميــل جــدّاً. إذا أردت يومــاً أن أودع الجميــع، ســأذهب إلى إيرلنــدا.

- وهذا؟

- هــذا يــأتي مــن مــكان في الغابــة، لا أعــرف إذا كنــتِ تعرفينــه. بالقــرب مــن هنــا توجــد البحــيرات، وإحــدى تلــك البحــيرات غريبــة جــدّاً؛ لأنهــا في نهايــة كل صيــف، تقريبــاً، تجــف، ومــن العمــق تظهــر قريــة غارقــة، اســمها بحــيرة ريدونــا[15]، هــل تعرفينهــا؟

- لا، أنا لست من هنا، ولم أسمع عنها قط.

- كان أبي يأخـذني إلى هنـاك في طفولتـي. قـال لي إنـه أسـفل البحـيرة توجـد مدينـة شـبح، حـدث لهـا كـما حـدث لأطلنطيـس؛ ففـي يـوم مـن الأيـام، ارتفعـت الميـاه، وغـرق كل مـن يعيـش فيهـا. قـال لي إنهـا مثـل الأطلنطيـس، كانـت مدينـة خياليـة، فيهـا فقـط قاعدتـان؛ قاعدتـان فقـط. الأولى: ألـقِ دائمـاً التحيـة عـلى الجميـع، والثانيـة، لا تتسـبب أبـداً في إيـلام أحـد. في واقـع الأمـر، احـترم الجميـع القاعـدة الأولى لأنهـا سـهلة، غايـة في السـهولة، احترموهـا بـلا أي مشـكلات؛ فلـم يكـن عليهـم عمـل شيء سـوى أن يحيـي بعضهـم بعضـاً، في المدينـة الشـبح، وكان هـذا جميـلاً؛ لأنـه شيء جميـل أن يحييـك أحدهـم حتـى إن لم يعرفـك. المشـكلة ظهـرت في القاعـدة الثانيـة، فحتـى أولئـك المهـرة، أولئك الطيبـون، لم يسـتطيعوا احترامهـا طـوال الوقـت، حتـى

(15) Redona.

إن حاولـوا وحرصـوا عـلى ذلـك، فـإن آجـلاً أم عاجـلاً، دون أن تريـدي، سـيكون مـن الممكـن أن تتسـببي في إيـلام الآخريـن. كان أبي يقـول لي إن الإلـه هـو مـن أغـرق تلـك المدينـة الشـبح، هـل تعرفـين لمـاذا؟ لأنـه عنـد لحظـة مـا أدرك النـاس اسـتحالة ألا يتسـببوا في إيـلام الآخريـن، وأدرك الجميـع أن لا أحـد يمكنـه هـذا، وعندئـذٍ، بـدؤوا يقولـون، نظـراً إلى أنهـا قاعـدة مسـتحيلة، ربمـا مـن الأفضـل إذن عـدم التمسـك بهـا، وهكـذا بعـد فـترة لم يعـد أحـد في المدينـة يهتـم بهـذا، وأصبـح بعضهـم يـؤلم بعضـاً دون أن يفكـروا في هـذا.

قـال لي أبي لهـذا السـبب أغـرق اللـه المدينـة الشـبح. لأنـه حقـاً، مـن المسـتحيل ألا نتسـبب مطلقـاً في إيـلام الآخريـن، لكـن الـشيء الـذي يمكننـا عملـه، كل مـا يجـب علينـا عملـه، ألا نتوقـف أبـداً عـن المحاولـة.

لم تقـل جويـا أي شيء خـلال الحكايـة كلهـا، كانـت جالسـة بفمهـا شـبه مفتـوح تسـمعها، وفي النهايـة خـرج فقـط مـن فمهـا: واو!

- أجل، كنت أذهب إلى هناك مع أبي.

- كنت تذهب؟

فجـأة، أظهـر شيء مـا في عينَـي (لـو) حزنـاً مـا، مختلطـاً بـشيء مـن الغضـب. نـوع مـن النظـرات تعرفـه جويـا حـق المعرفـة؛ لأنهـا رأتـه آلاف المـرات بوضـوح ودقـة، منعكسـاً في المـرآة. وهكـذا لتجعلـه يفهـم أنهـا قـد فهمـت قالـت لـه: وأبي أيضـاً.

- وأبوكِ أيضاً ماذا؟

- وأبي أيضاً... أريد أن أقول إنني أيضاً لا أستطيع أن أتفق معه.

قبـل أن تنتهـي جويـا مـن عبارتهـا، ألقـى (لـو) بـكل الحجـارة أرضـاً، فـوق البـلاط الـذي يجلسـان فوقـه، بحركـة مفاجئـة نهـض وابتعـد، أصبـح فجـأة غاضبـاً، وكأنهـا قالـت شـيئاً أهانـه.

جويـا، مندهشـة، لم تتحـرك مـن مكانهـا، ثـم بعـد لحظـات، لم تسـتطع فيهـا أن تقـول أو تفعـل أي شيء، جمعـت كل الحجـارة حتـى لا تتبعـثر، ووضعتهـا بجـوار المرطبـان. وفي النهايـة نهضـت، وذهبـت بجـواره.

- هل قلت شيئاً تسبب...

- مـاذا تظنـين أن لديـكِ أنـتِ؟! أب لا يسـتمع إليـكِ، لا يفهمـكِ! مـاذا إذن، أب يضربـك؟ مـاذا لديكـم جميعـاً لتشـكوا مـن والديكـم، إذا دققنـا جميعـاً النظـر، سـنجد أنهـم الآبـاء المعتـادون! لا بـد أن تتوقفـوا!

عنـد عبـارة معينـة أصبـح (لـو) حرفيّـاً شـخصاً آخـر. أظلمـت عينـاه وغطاهـما حجـاب مـن الغضـب، وانتـشرت عـلى خديـه بقـع كبـيرة قاتمـة مـن الدمـاء، وأصبـح صوتـه خشـناً، أكـثر عمقـاً، كأنـه فجـأة كـبر أعوامـاً عـدة. تقـف جويـا بجـواره واسـتطاعت فقـط أن تـرى جانـب وجهـه؛ وذلـك الجـزء الضئيـل يكفيهـا لتفهـم في لحظـة أن (لـو) لم يعـد (لـو)؛ بـل أصبـح شـخصاً آخـر، ومـن جهـة، شـعرت ببعـض الفـزع، ومـن جهـة أخـرى، شـعرت بالذنـب البشـع لأنهـا اقتربـت مـن ذلـك الموضـوع، وفي داخلهـا شـعرت بـأن الخطـأ كلـه خطؤهـا هـي، وأنهـا كان لا بـد أن تلتـزم الصمـت، وأنهـا إن لم تقـل «وأبي أيضـاً» لمـا حـدث أي شيء. شـعرت برغبـة مجنونـة في أن تحتضنـه، في أن تُشـعره بأنهـا موجـودة، بأنهـا هنـا، وأنـه حتـى إن لم يكـن يصـدق هـذا، فإنهـا تعـرف حـق المعرفـة بمـا يشـعر، وهكـذا حاولـت بخجـل أن تضـع يدهـا عـلى جنبـه، إلا أنـه نزعهـا فجـأة بقـوة كان وقعهـا عـلى جويـا كوقـع اللكمة، ودون أن يقـول أي شيء تقـدم خطـوة أخـرى إلى الأمـام ليبتعـد عنهـا.

كانـت جويـا تعـرف، تعـرف جيـداً جـدّاً، أنـه عندمـا تهاجـم المـرء أفـكار مثـل تلـك التـي تـراود (لـو) في هـذه اللحظـة، فـإن كل مـا يرغـب فيـه هـو أن يُـترك لحالـه، إلا أنـه في الوقـت نفسـه يريـد عـلى

الأقـل ألا يشـعر أنـه بمفـرده؛ لأن المأسـاة في هـذه اللحظـة أنـه يشـعر بأنـه وحيـد إلى أقـصى حـد، ويريـد أن يتركـه الجميـع في حالـه، إلا أن مـا يُشـعره بـالألم، في الوقـت نفسـه، هـو الشـعور بالوحـدة، كأن المـرء تكـون في داخلـه ريـاح تعصـف بقـوة شـديدة، ولا تسـمح لـه بالتفكـير، بالرؤيـة، يشـعر في داخلـه بريـاح عاصفـة تحـرك الأشـياء وتحطمهـا وتلقـي بهـا في كل اتجـاه، وهكـذا، مجـرد معرفتـه بـأن هنـاك شـيئاً مـا يمكنـه أن يتشـبث بـه، ربمـا لا ينهـي الريـاح، لكنـه عـلى الأقـل يمنعـه مـن أن ينجـرف بعيـداً.

تحـاول مـرة أخـرى، لكـن يبعدهـا (لـو) مـن جديـد، ويقـول لهـا: مـن فضلـك.

هكذا تتراجع هي خطوتين إلى الوراء، ثم تعود لتجلس.

وجلسـت جويـا هنـاك، مسـتندة إلى سـور الكنيسـة الصغـيرة؛ لتتأمل الحجـر الـذي وضعـه بـين يديهـا، وانتظـرت أن تعـبر عنـه هـذه الحالـة. ومـن مـكان مـا، سـمعت همـس تونيـا تقـول لهـا: مـن المؤكـد أنـكِ حمقـاء، أليـس كذلـك؟

لم تجبهـا جويـا، أومـأت فقـط بالموافقـة، فهمسـت تونيـا مـن جديـد: مـن الأفضـل ألا تسـتحضري هـذا الموضـوع مـرة أخـرى، أيتهـا القبيحـة الغبيـة!

- فعلاً.

ثـم فجـأة، كأن شـيئاً لم يحـدث، رأت (لـو) يعـود أدراجـه ليجلـس بجوارهـا، بابتسـامة هادئـة مطبوعـة عـلى وجهـه.

قال لها: إذن؟ هل سنضع تلك الحجارة في الداخل أم لا؟

نظـرت إليـه جويـا وهـي تحنـي رأسـها قليـلاً إلى الخلـف، مندهشـة. لم تلتفـت نحـو تونيـا، لكـن تعـرف تمامـاً أنهـا الآن عـلى وجههـا التعبـير المعتـاد الـذي يعنـي: مـا هـذا!

ربما هو هكذا. ربما يحتاج فقط إلى خمس دقائق لينفس عما به، ربما يكفي تركه حتى يهدأ ثم يعود كل شيء كما سبق.

- إذن؟ ما معنى هذا التعبير على وجهك؟

- لا، لا شيء.

وفي لحظة، بدا بالفعل كأن شيئاً لم يحدث، وكان هذا شيئاً غريباً جدّاً، لكنّه جميل أيضاً؛ لأن جويا فكرت في ثانية أنها دمرت كل شيء، وأن كل شيء انتهى، لكن الآن كل شيء عاد كما سبق، وجعلها ذلك تتنفس، حتى ولو من الداخل، نفساً جميلاً مرتاحاً.

انتهى (لو) في ذلك الوقت من وضع كل الحجارة داخل المرطبان، وبينما كادت جويا أن تلقي بذلك الذي بين يديها في الحديقة؛ الحجر الذي التقطه منذ قليل، أوقف يدها، وفتحها وأخذه منها. نظر إليها لثانية في عينيها، ابتسم لها، ووضع أيضاً ذلك الحجر مع تلك الأخرى في المرطبان.

حجر يذكِّره بها، مع كل تلك الأخرى.

إذا كان قد قال لها «أنا معجب بكِ»، أو «أريد أن تصبحي فتاتي» لما جعل هذا قلبها يدق بالشدة التي يدق بها الآن.

- وأنتِ؟ ما قصة العبارة نفسها التي تكتبينها على ذراعك كل يوم؟

27

حدث ذلك في أحد الأيام في الصف الثاني الثانوي.

وفي أثناء الساعة المخصصة للمكتبة في المدرسة، أخذت جويا من رف الشعراء الألمان كتاباً، انتقته عشوائيّاً، دون حتى أن تقرأ عنوانه، وعندئذٍ قرأت بيت الشعر هذا، وأدركت على الفور أنه

سـيكون بيتهـا المفضـل إلى الأبـد؛ لأنــه لا يمكــن ترجمتــه، ولأن بــين كل الكلـمات التــي لا يمكــن ترجمتهــا؛ ذلــك البيــت هــو مــا يصــف بالتحديـد مـا تشـعر بـه، دائمـاً، كل يـوم.

Wenn ein Glückliches fällt

وكان البيـت الأخـير مـن قصيـدة لرايـنر ماريـا ريكلـه، التـي يمكـن ترجمـة جزئهـا الأخـير، تقريبـاً هكـذا:

ونحن نفكر في السعادة كشيء متصاعد

نشعر بلمستها

التي تكاد تجتاحنا

عندما يسقط الشيء سعيداً

يمكــن ترجمــة تلــك الكلــمات عندمــا يســقط الــشيء ســعيداً، أو عندمــا تكــون الســعادة شــيئاً يســقط، لكــن لا يمكــن ذلــك؛ فبيــت الشــعر يعنــي أكــثر مــن ذلــك بكثــير، إذ لا يمكــن ترجمتــه ببعــض الكلــمات. بالنســبة إلى جويــا، فــلأن هــذا البيــت يتحــدث عــن جــمال الأشــياء الســاقطة، عــن جــمال الأشــياء التــي لا يريدهــا أحــد؛ فقــد صــار عــلى الفــور بيتهــا المفضــل. لأن تلــك الكلــمات الأربــع لريكلــه تحــكي عــن الحــرارة التــي تنبعــث مــما لا نــراه، مــما لا نضعــه في الاعتبــار، مــما يبــدو لنــا بــلا نفــع، بالنســبة لجويــا، يكمــن الجــزء الأكــبر مــن جــمال العــالم في ذلــك، في الأشــياء غــير النافعــة، في الأشــياء التــي تســقط، في الأشــياء التــي يلقــي بهــا الجميــع بعيــداً.

28

ولمـاذا تكتبينـه إذن كل يـوم؟ أريـد أن أقـول، يـا (شيء)، لا أعـرف إذا كنـتِ تعرفـين عـن الاخـتراع الـذي يُدعـى (وشـم).

نظـرت جويـا إلى (لـو) وابتسـمت سـاخرة، ثـم قالـت لـه: «هـل تعلـم؟ أنـت أول مَـن يقـول لي هـذا الـشيء».

- حقّاً؟

- لا، أنت تقريباً المليون.

ابتلـع (لـو) السـخرية، وابتسـم وهـو ينظـر إلى أسـفل، ثـم اسـتمر: لمـاذا إذن؟

- إن الأوشـام تضعهـا مـرة واحـدة ثـم تبقـى هنـاك، وبعـد فـترة تنسـاها... تراهـا، لكـن لا تنظـر إليهـا، أمـا بالنسـبة إلى الأشـياء المهمـة بالفعـل...

توقفـت جويـا، كأنهـا تبحـث عـن الكلـمات عـلى الأرض، في أطـراف العشـب أسـفل حذاءيهـا.

- الأشياء المهمة؟

- لا أعلـم، لكـن لا بـد مـن التشـبث بالأشـياء المهمـة، ونجتهـد في تذكرهـا كل يـوم.

29

- آنسـة سـبادا، هـل تسـمحين بـأن تكتبـي ملحوظاتـك، أم تفضلـين الاسـتمرار في نقـش أشـكال بـلا فائـدة ولا معنـى في دفـترك؟

أعـاد صـوت أسـتاذ العلـوم للحظـة جويـا إلى الواقـع في السـاعة 9:37 صباحـاً؛ فهـي دون أن تـدرك، وفي أثنـاء شرحـه للجهـاز المناعـي وتنـوع أمـراض الإحبـاط المناعـي، بـدأت ترسـم في دفترهـا سلسـلة مـن (لـو) بأكـثر مـن شـكل، ثـلاثي الأبعـاد، وثنـائي الأبعـاد، ممتلـئ ومُفـرغ. واحـد منهـا كتبتـه فـوق شيء يشـبه الحجـر، وآخـر كتبتـه بالكامـل: لورينـزو.

هي فعلاً! جويا سبادا، ترسم اسم فتى.

حتـى أسـبوع مـضى، كانـت الأسـماء المذكـرة الوحيـدة التـي رسـمتها عـلى دفاترهـا التـي تجمـع فيهـا الملحوظـات، هـي ديفيـد جيلمـور[16]، وروجـر ووتـرز[17]. في الواقـع، شـعرت ببعـض الخجـل مـن نفسـها.

لكـن ربمـا لم يكـن البـدء هكـذا، بتخطيـط أفكارهـا في أثنـاء درس أمـراض الإحبـاط المناعـي فكـرة عظيمـة؛ ففـي ذلـك الوقـت أدرك أحدهـم أنهـا هـي، مايوناجويـا سـبادا شـخصيّاً، ترسـم وهـي منهمكـة تمامـاً وتكـرر الحرفـين نفسـيهما، وفي إحـدى المـرات، رسـمت حولهـما أيضـاً إطـاراً مـن الدوائـر الصغـيرة، التـي تبـدو عنـد رؤيتهـا مـن بعيـد كأنهـا قلـوب صغـيرة. وعندمـا أدرك أحدهـم ذلـك الـذي يحـدث، في الواقـع، وصـل الخـبر بالفعـل إلى أقـصى مـكان في الفصـل. رفعـت عينيهـا، واسـتدارت بحـرص، ورأت جيـداً جـدّاً أن وجـوه زملائهـا، خصوصـاً زميلاتهـا، بهـا شيء غريـب، شيء كالابتسـامة.

جوليا باتّا كانت أكثرهم ابتساماً، وأخذت تنظر أكثر تجاهها.

وكادت أن تراهـن بالبوسـتر الأصـلي لألبـوم The Wall المعلـق في غرفتهـا أنهـم كلهـم الآن يعلقـون عـلى تلـك النميمـة المسـلية جـدّاً: «يـا إلهـي مايوناجويـا تحـب أحدهـم!»، أو تـكاد تسـمعهن، في حـمام البنـات، وهـن يقلـن أشـياء مثـل: «ربمـا النسـخة المذكـرة منهـا!» «أو ربمـا يكـون مدمـن مخـدرات!»، أو «مـن يـدري إذا كان هـو يـدري!» أو «إذن فهـي فتـاة طبيعيـة!».

لم تكـن قـط فتـاة عنيفـة، لكـن فكـرت في تلـك اللحظـة أن تطفـئ بـكل سرور، بلكـمات مـن ممسـحة السـبورة المتسـخة بالطباشـير في وجوههـم، تلـك الابتسـامة المطبوعـة عليهـا.

---

(16)David Gilmour : عازف جيتار إنجليزي، وكان عضواً في فريق بينك فلويد.

(17) Roger Waters: مؤلف أغانٍ، ومغنٍّ ومُلحن، شارك في تأسيس فريق بينك فلويد.

لم تكـن نطقتهـا منـذ أيـام، لكـن كان الموقـف كلـه ينتـزع منهـا بـكل تلقائيـة، لعنتهـا المفضلـة: «كوكـب قـذر».

30

حتـى الفسحة كـن طيبـات، ففكـرت جويـا تقريبـاً في أنهن سـيتركن الأمـر برمته.

كادت تقنـع نفسـها بأنهـن في نهايـة الأمـر قـادرات أيضـاً عـلى الاهتـمام بشـؤونهن الخاصـة، وأنهـن ربمـا لسـن بهـذا السـوء، ولا شيء يسـتدعي كل هـذا الخـوف.

ثـم في أثنـاء الفسـحة، وبينـما تسـير لتجلـس في زاويتهـا المفضلـة بجـوار الجـدار حيـث تذهـب دائمـاً، مـرت بجـوار مجموعـة منهـن، تقـف باتّـا في وسـطها. لم يفعلـن كثـيراً: أخـذن فقـط يضحكـن بصـوت منخفـض، وبـدا لهـا أيضـاً أنهـا سـمعت إحداهـن تحـاول إسـكاتهن.

وهنـا أدركـت أن الأمـر لـن يكـون بهـذه السـهولة، وأنهـا هـي التـي يجـب عليهـا أن تحـترس لمـا يحـدث خلفهـا.

وعندمـا عـادت إلى الفصـل، تأكـدت مـن ذلك: عـلى دفترها، وأسـفل تصميـم (لـو) الجميـل ثـلاثي الأبعـاد بالنجـوم والدوائـر الصغـيرة، كان مكتوبـاً باللـون الأحمـر:

- هل اسمه إذن لورينزو، عشيقك المتخيّل؟

لم يكـن الـشيء السـيئ هـو المكتـوب، لكـن وجـه الزمـلاء عنـد عودتهـا. جميعهـم، حتـى أولئـك الذيـن في الأحـوال العاديـة يتعاملـون بحياديـة، وتركوهـا دائمـاً في حـال سـبيلها، حتـى أولئـك الذيـن يدعونهـا باسـمها، أو لا يدعونهـا عـلى الإطـلاق، كانـوا جميعـاً بتلـك الابتسـامة المكتومـة، وتلـك النظـرات المتآمـرة، والإشـارات المتفـق عليهـا. شيء عجيـب، كيـف يتغـير الأشـخاص فجـأة بمجـرد الاتفـاق عـلى أن يقفـوا

جميعـاً ضـد واحـد؟! يصبحـون متماسـكين، كجسـد واحـد. حتـى زميلاتهـا، أولئـك الـلاتي، حتـى لحظـة مضـت، اهتممـن بشـؤونهن، بمجـرد أن عـثرن عـلى عـدو مشـترك، تغـيرت وجوههـن عـلى الفـور، ارتديـن زيّـاً، وأصبحـن تمامـاً كالباقـين.

شيء عجيـب، كيـف لا يشـعر أحـد بـأدنى قـدر مـن الانزعـاج عنـد التدخـل في أمـور الآخريـن، هـذا مـا لا تسـتطيع جويـا اسـتيعابه، كأنـه قـد أصبـح حقّـاً شرعيّـاً تمامـاً للجميـع أن يتحدثـوا أو أن يمزحـوا أو يكتبـوا عـلى دفترهـا: هـل اسـمه إذن لورينـزو، عشـيقك؟

هنـاك كلمـة صينيـة تعـبِّر عـن ذلـك الـذي لا يسـتطيع زملاؤهـا عملـه، عبـارة تثـير جنـون جويـا لأنهـا مـن ثلاثـة حـروف، إلا أنهـا عظيمـة جـدّاً؛ ومعناهـا: أن تضـع الآخـر في قلبـك. بالنسـبة إلى جويـا، تحـب كثـيراً هـذه الكلمـة التـي تعلمـت أيضـاً أن ترسـم حروفهـا:

恕

في الكتـاب؛ حيـث عـثرت عليهـا، كان نَـصّ مـن الفلسـفة الشرقيـة أعـاره لهـا بوفـه منـذ شـهرين، وكان أيضـاً يـشرح أنـه بالنسـبة إلى الصينيـين، مـن المسـتحيل التفكـير في (أنـا) بـلا (أنـت)، فبالنسـبة إليهـم الـ(أنـا) يُمكـن تعريفهـا فقـط بفضـل (أنـت)؛ ولهـذا تعنـي هـذه الكلمة ضرورة أن يسـتحضر المـرء دائمـاً مشـاعر الآخريـن، وألا ينسـاها أبـداً، وألا يطأهـا أبـداً، لكـن جويـا تـرى حولهـا، الصبيـة المحيطـين بهـا، لا يفعلـون شـيئاً طـوال الوقـت سـوى التفكـير فقـط في الـ(أنـا)، كأنـه لا وجـود لأي (أنـت).

حولهـا لم تكـن تـرى سـوى صبيـة، وأيضـاً ناضجـين، ليسـت لديهـم أي فكـرة عـما تعنيـه كلمـة (شـو) الصينيـة.

31

- إذن يا آنسة سبادا، ماذا تريدين أن تسأليني اليوم؟
- اليوم، لا شيء يا أستاذ.
- ممم، متأكدة؟ يبدو لي أنني أرى في نظرتك لمحة حزن.
- ليست لديَّ أسئلة فلسفية، يا أستاذ.
- إن الأسئلة كلها فلسفية يا آنسة، حتى اختيار البيتزا اختيار فلسفي!
- إذن، يبدو أنني اليوم ليست لديَّ أسئلة، آسفة.
- فتاة في سنك بلا أسئلة مثل السماء بلا نجوم يا آنسة!
- صبراً يا أستاذ، فالسماوات أيضاً تكون بلا نجوم أحياناً!
- إن السماوات يمكن أن تكسوها السحب أو تصبح خالية منها، لكنها لا يمكن أن تكون بلا نجوم. يبدو أنكِ في لحظة ملبدة بالسحب.
- أوكي، إذن لديَّ سؤال.
- تحت أمرك يا آنسة.
- ماذا يمكنني أن أفعل ليتوقفوا؟
- معذرة؟
- تعرف حضرتك أيضاً الاسم الذي يطلقونه عليَّ، وتعلم أنهم يتسلون بمعاملتي على أنني نوع من الأمراض المعدية. وحتى الآن تجاهلت هذا الشيء، ربما اعتدته بعض الشيء، ليس كثيراً، لكنني اعتدته، إلا أنه توجد بعض المرات التي فيها لا أفهم كيف يمكنهم أن...
- أن؟
- أن يستمتعوا بعمل هذا. وليس فقط معي. أرى أنني لست الوحيدة، وأنهم أيضاً يضايقون السمينات، والمجتهدين في دروسهم،

وكل مـن يبـدو لهـم غريبـاً بعـض الـشيء. وهنـاك أيـام، مثـل اليـوم، فيهـا أتسـاءل: مـاذا يمكننـي أن أفعـل لأوقفهـم؟

- لـديَّ خـبر سـيئ لـكِ يـا آنسـة سـبادا. أولئـك الذيـن تتحدثـين عنهـم لا يتوقفـون أبـداً.

- آه، كنت أعرف.

- وحتـى إذا توقفـوا معـكِ، مـن المؤكـد أنهـم سـيتفرغون لشـخص آخـر؛ لأنهـم يحتاجـون إلى ذلـك ليقيهـم مـن الغـرق، بـأن يضعـوا الآخريـن أسـفلهم.

- تماماً! إنه بالتحديد ما أفكر فيه أنا و...

- لكـن، إذا أردتِ أن يتوقفـوا عـلى الأقـل معـكِ، ليـس لديكِ سـوى طريقين: الأول أن تصبحـي مثلهـم، وأن تختلطـي بهـم، وأن تفعـلي مـا يفعلونـه، وهكـذا لا يشـعرون بأنـكِ كائـن غريـب عنهـم، لكـن إذا كنـت أعرفـك، حتـى ولـو بعـض الـشيء، أعلـم أنـكِ لـن تتخـذي هـذا الطريـق أبـداً.

- وماذا عن الطريق الآخر؟

- الطريـق الآخـر أصعـب قليـلاً، ويتطلـب مثابـرة ورغبـة في المغامرة والمخاطرة.

- في كل الأحـوال، لا أعتقـد أن الأمـور يمكـن أن تسـوء أكـثر مـما هـي عليـه. إذن؟

- إذا لم تستطيعي أن تكوني مثلهم، حاولي أن تكوني أفضل منهم.

- ماذا؟

- إذا كانـوا هـم دائمـاً يحاولـون الإلقـاء بـكِ في الأسـفل ليبقـوا عـلى السـطح، حـاولي أنـتِ أن تصعـدي إلى أعـلى؛ فـلا يمكنهـم الوصـول إليـكِ. في أثنـاء محاولتهـم، سـيضاعفون مجهودهـم، وسيشـعرون دائمـاً بثقلهـم، لكنـكِ عندمـا سـتكونين في أعـلى سـترين كيـف أنهـم، رويـداً رويـداً، سـيضطرون إلى تـركك في حـال سـبيلك.

- أجل، كل هذا جميل، لكن بشكل ملموس، ماذا يجب عليَّ أن أفعل يا بروفيسور؟

- هذا شيء يمكنك أنتِ فقط معرفته. اختاري شيئاً تنافسينهم به، فيه تستطيعين أن تظهري للجميع قيمتك، ثم افعليه، ألقي بنفسك فيه. ستجعلينهم يخرسون وأنوفهم في أسفل عندما يرونكِ تصبحين شيئاً لن يصبحوه أبداً.

32

- حسناً يا (شيء)، أنا أعتقد أنكِ غبية بعض الشيء.

- هذا شيء أعرفه، لكن لماذا؟

- صورك، ألا ترين؟

جويا و(لو) أسفل شرفة المشرب. في هذه المرة، لا يمكنها هي أن تمكث كثيراً؛ فقد طلبت منها أمها أن تعود إلى المنزل في التاسعة والنصف، عن طريق ورقة ألصقتها على المبرد. وعندما تفعل هذا، فهناك شيء من اثنين: إما لأنها تريد أن تبدو الأم، التي تعرف أيضاً أن تأمر وأن تُحترم، أو لأنها لا بد أن تتحدث معها. وكانت جويا تخشى الفرضية الثانية.

حكت لـ(لو) ما حدث مع الأستاذ بوفه، وعن طقسهما الغريب أن يتوقفا ليتحدثا في الفسحة، وما قاله لها هذا الصباح.

- صورك، إنها الشيء الذي يتحدث عنه الأستاذ!

- أجل، لكنه يقول إنني يجب أن أستخدم هذا الشيء لأتفوق؛ لأن أريهم أنني أفضل منهم. ماذا أفعل؟ أفرش المدرسة بتلك الصور، وهكذا أتسبب لنفسي بشكوى رسمية؟

يلقي (لو) وهو جالس سهماً تجاه الهدف، ويصل السهم مباشرةً إلى رقم 60.

- يمكنك أن ترسليها إلى قاعة عروض، أو إلى معرض ما، أو مسابقة ما.

عند سماع كلمة (مسابقة) أنار ضوء على وجه جويا.

سأل (لو): هل كانت فكرتي صائبة؟

- لا أعلم، إلا أنه في المدرسة، ستكون هناك قريباً مسابقة أسبوع «ضع نفسك في الإطار».

- آه، جميل! وما هذا الشيء؟

- عمليّاً، يمكن للطلبة أن يعلقوا لمدة أسبوع في ردهات المدرسة الرسوم أو الصور المؤطرة، وفي النهاية، يختار أساتذة الفن الأجمل في الفئات المتنوعة، ويمنحونها جوائز.

- واو! رائع، أليس كذلك؟ وما الجائزة؟

- ليست لديَّ أدنى فكرة، أعتقد أنها كتبٌ، أو أدوات مدرسة، شيء من هذا القبيل، لكن ليس هذا هو الموضوع، الجائزة ليست مهمة. يمكنني أن أفعل هذا فقط لأثبت مَن أنا لـ(باتّا) ومثيلاتها.

نظرت جويا إلى الساعة، لا تزال أمامها خمس دقائق.

- إذن ستشاركين؟

- لا أعلم؛ حيث إنني لا بد أن أكبِّر إحدى صوري الجيدة، ثم أضعها في إطار، ولا أعتقد أن لديَّ النقود لذلك.

- حسناً! يمكنني أنا أن أعطيها لكِ!

انطفأ بسرعة النور الذي أضاء منذ برهة وجه جويا، وانخفضت نظرتها، ونظرت إلى أسفل، كأنه قال لها شيئاً سيئاً جدّاً، وكأنه أهانها. وحتى إن لم يفعل ذلك، إلا أن هذا ما شعرت به آنذاك.

- يا (شيء)؟ هل أنتِ هنا؟

- دعك من هذا، لا يهم.

- اسمعي، سيكون المبلغ قرضاً! هل تعتقدين أنني أريد أن أهد...

- لا يهم، فعلاً. الآن سأذهب، معذرة.

نهضت جويا لترحل، دون حتى أن تحضنه. في العادة الآن كانا يتبادلان الأحضان عندما يتبادلان التحية.

نظر إليها (لو) وهي تسير في الطريق برأس منخفض، وصاح: هيه. لكن جويا لم تلتفت. وهكذا نظر (لو) قليلاً حوله، ثم تجاوز درجات شرفة المشرب، ولحق بها: هل يمكنني أن أصحبكِ إلى المنزل؟

33

طوال الرحلة، طوال الطريق حتى منزلها سارا في صمت. لم ينطق أي منهما بكلمة.

المرة الأولى التي يصحبها إلى المنزل وهي تفسدها هكذا.

كل تلك القصة لبوفه حول أننا في أنفسنا لا يوجد صوت واحد، لكن جوقة بأكملها مليئة بالأصوات، التي يغني كلٌّ منها بمفرده، تظهر بوضوح الآن أمام جويا بكل واقعها الذي لا يمكن تغييره. يوجد في داخلها صوت سعيد بأنه هنا، إلا أنها لا تستطيع أن تُظهره له؛ لأن هناك صوتاً قويّاً غاضباً معه؛ لأنه عرض عليها أن يقرضها النقود، نظراً إلى أن جويا لديها، وسط المليون عيب، تلك الكبرياء الغبية التي ترفض الخدمات، خصوصاً فيما يتعلق بالنقود، ثم، بالإضافة إلى ذلك، يوجد أيضاً صوت يقول لها إنه من الغباء أن نشعر بالإهانة؛ لأن أحدهم أراد مساعدتنا، وإنها لا بد أن تعتذر له؛ لأنها أجابته بطريقة سيئة كما فعلت. المشكلة أن الأصوات كثيرة جدّاً، وجميعها تتحدث في الوقت نفسه، حتى إن جويا في النهاية تقرر ألا تفعل شيئاً، وتستمر في السير بذلك التعبير الغاضب، دون حتى أن تدري لماذا.

أجل، هناك بالتأكيد أصوات أكثر مما ينبغي في داخل كل منا.

- إيه.

يقول هو، وهو يسير خلفها، ولا تجيبه جويا.

يصرّ هو: اسمعي! هل يمكن أن تتوقفي؟

- ماذا حدث؟

تتوقف جويا، وتلتفت، وتجد (لو) يقف أمامها تماماً، وهو يقدم إليها زهرة مارجريت صغيرة. حتى إن كانوا لا يزالون في شهر فبراير، فإن بعضها برز بين العشب هنا وهناك، لتظهر تلك البقع البيضاء والصفراء. لا بد أنه قطفها ليجعلها تبتسم بعض الشيء؛ وليضع الأمور في نصابها، إلا أن جويا رأت الزهرة الصغيرة، ونظرت إلى (لو) لثانية في عينيه، وأصبحت أكثر قتامة.

- ماذا، يا (شيء)، ألا تعجبك؟

- يجب أن تعرف أن من الأشياء التي أكرهها كثيراً قطف الزهور.

- أوه، إذن، عليَّ أن أفهم أنني ارتكبت خطأً صغيراً، أليس كذلك؟

قالت له، وهي تلتفت وتبدأ في السير من جديد: لا يهم.

قالت له هذا، على الرغم من أن الأمر يهمها؛ لأن الزهور تكون جميلة مطمئنة، تعيش حياتها الخاصة، ثم فجأة، يمر الرجال من هناك، ويفكرون أنه يمكن نزعها من مكانها؛ لأنهم يرغبون في أن تسامحهم زوجاتهم على شيء ما، أو أن يقدموها كهدية صغيرة، لصالحهم، إلا أنهم في الوقت نفسه قطفوا الزهرة، وتلك الزهرة؛ بسببهم، ستموت بعد قليل.

تكره جويا سبادا من يقطف الزهور؛ لأنها تكره ذلك الشيء، أن الناس أحياناً يرتكبون الشر دون حتى أن يدركوا الأمر.

على كلٍّ، كلما أراد (لو) أن يصلح الأمور، كانت تزداد سوءاً.

- هل هناك طريقة يمكنني بها أن أحصل على الصفح؟

يقـول (لـو) وهـو يلحـق بهـا. الآن، وقـد أصبحـا عنـد منزلهـا، تضـع جويـا قدمـاً عـلى أحـد السـلالم، تلتفـت قليـلاً، وحتـى إن كان كل مـا تريـده أن تذهـب نحـوه وتحتضنـه، تقـول لـه، قبـل أن تفتـح البـاب، وتختفـي في الداخـل: اهـدأ، الآن لا بـد أن أذهـب. أشـكرك عـلى اصطحابي.

34

- حسناً، قرّرتِ أن تعودي في النهاية يا جروتي!

كان كل ذلـك التدليـل الزائـد مثـيراً للشـكوك؛ إذ لم تكـن قـط عذبـة معهـا بـلا سـبب. وفي الواقـع هنـاك، يجلـس في المطبـخ، كان الأب مبتسـماً وهـو يمضـغ رقائـق السـبرينج رولـز الجاهـزة.

قال هو، وهو يحرك لها المقعد: اجلسي، تعالي!

وهمسـت أمهـا وهـي تمـر أمامهـا وتدخـل إلى المطبـخ لتفتـح علبـة كرتـون صغـيرة، مليئـة، ربمـا، بمعكرونـة إسـباغيتي أو شيء صينـي آخـر: لقـد ابتعنـا عشـاءً لـكِ أنـتِ أيضـاً.

- لست جائعة، شكراً.

- متأكدة؟ انظري كم هي شهية!

قال لها أبوها وفمه مليء بالخضراوات والرقائق المقلية.

لم يكـن هنـاك داعٍ لأن يشرحـا لهـا مـا هـما عـلى وشـك شرحـه؛ فقـد فهمـت جويـا بالفعل.

- يا جروتي، استطاع أبوكِ أن يعثر على عمل!

قالت أمها بصوت منتصر.

أجابت جويا بلا أي حماس: واو!

- أجـل، سـيعمل في مصنـع قريـب مـن هنـا! ألسـتِ مـسرورة يـا جـروتي؟

- عقد ثلاثة أشهر ثم سنرى. لحسن الحظ توجد شركات للوظائف المؤقتة!

قال هو، وهو ينظف ذقنه من خيوط صلصة الحامض الحلو.

فجأة، ظهر جاكو؛ القط الشبح، من فوق المبرد، وهو يلقي نظرة جائعة إلى المائدة.

قالت جويا وهي تتنهد: هل هذا فقط ما يجب أن تقولاه لي؟

- لا يا جروتي، لكنّ هناك شيئاً آخَر... نظراً إلى أن المصنع قريب من هنا جدّاً، ونظراً إلى أنه في الوقت الحالي لا يوجد حل آخر، في الواقع، سيمكث أبوكِ معنا فترة أخرى.

كانت هي تعرف أنهما سيصلان إلى هذا الموضوع. إنه مشهد شاهدته على الأقل خمس أو ست مرات سابقة، منذ أن انفصلا. كانت الترجمة الدقيقة لعبارة أمها في الواقع هي: في الواقع لسنا بهذا السوء معاً، وقد قررنا أن نحاول من جديد!

ألقت جويا من جديد نظرة إلى جاكو؛ القط الشبح، فوق المُبرد، وهي تدعو السماء أن يهجم في أسرع وقت على طعامهما ويلقي بكل شيء أرضاً، ثم أومأت وهي تضم شفتيها، كأنها تقول: أوكي، فهمت. ونهضت وخرجت من المطبخ.

- حسناً، لكن إلى أين أنتِ ذاهبة الآن؟

قال أبوها، لكنها كانت بالفعل في الغرفة الصغيرة لجدتها.

35

- أعلم، أعلم، اليوم لم أمكث معكِ ولا حتى خمس دقائق، أنا آسفة جدّاً يا جيمّا.

- جهههه! جهههه!

- في الواقع، لم يكن يوماً جيداً اليوم، ولم أكن أرغب في أن آتي إلى هنا وأحضر إليكِ تعاساتي، هل تفهمين؟

- جهههه! جهههه!

- معك حق، لم أكن أرغب في أن أشعر باليأس بهذه الطريقة، لكن هل تعلمين؟ أحياناً أنا أيضاً أحتاج إلى أن أشعر باليأس، لا أدري كيف أشرح لكِ هذا، لكن هذا يفيدني. أسقط قليلاً إلى أسفل؛ لأنني هكذا أشعر بالرغبة في أن أنهض من جديد. هل تفهمينني؟

- جهههه! جهههه!

- أعلم أنه تفكير غبي.

وضعت جويا في أذنَي جدتها السماعتين بأغاني الأوبرا المفضلة لديها، ربتت برفق على وجنتها ثم ذهبت إلى غرفتها. نزعت ملابسها وارتدت ملابس النوم، وألقت بنفسها خلف الأغطية. وهي تنظر إلى السقف، خطر في بالها أنها ربما بالغت بعض الشيء في تقييم علاقتها مع (لو). كل هذا من خيالها اللعين النشط، أو ربما من الأفضل استخدام الكلمة بالإيديش، الخطأ كله لأنها luftmensch «شخص يحلم بعينين مفتوحتين باستمرار». ربما رأت في (لو) شيئاً أكبر مما هو عليه بالفعل، تعرف أنه أحمق بعض الشيء، ويبالغ، لكن في الوقت نفسه لا تستطيع أن تمنع نفسها من أن تفكر في الوردة المقطوفة، وكلما زاد تفكيرها، بدا لها التصرف الأكثر تفاهة في العالم تصرفاً كان يمكن لأي فتى أن يقوم به في تلك اللحظة، ويمكن للجميع عمله، لكن ليس (لو)، أو على الأقل ليس (لو) كما تراه هي، وهكذا فكرت أن الصورة التي رسمتها هي عنه ربما لا تتوافق على الإطلاق مع (لو) الحقيقي والفعلي، و...

- توقفي!

سمعت صوت تونيا يصل من أسفل. كانت مستلقية فوق البلاط بجوار فراشها.

- كيف؟

- توقفي عن هذا الهراء.
- لماذا؟

مكثت تونيا هناك مستلقية بجوارها، ويداها خلف رأسها، وهي تنظر إلى السقف وتتحدث في الوقت نفسه.

- هذا الأمر التافه الخاص بزهرة مارجريت الصغيرة لا دخل له. وحكاية الصورة لا دخل لها. ولا حتى القصة التي تؤلفينها الآن الخاصة بالوهم، وما إلى ذلك، لا دخل لها. وأنتِ تعلمين.
- ماذا تقصدين؟
- أقصد أنكِ تشعرين بخوف بشع من هذه المسابقة، تخافين من الاشتراك في اللعبة، من حكم الناس، أنتِ تعرفين في داخلكِ أن كل هذه الفوضى والطريقة السيئة، التي عاملتِ بها هذا الفتى المسكين ليس لها إلا سبب واحد: أنتِ خائفة!

اقتربت جويا من حافة الفراش وحدقت في عيني تونيا دون أن تقول أي شيء. وقالت لها هي: إلى ماذا تنظرين؟ أنتِ تعرفين أنني على حق.

دارت جويا إلى الناحية الأخرى، وأغلقت عينيها، وحاولت أن تنام، لكن كورال الأصوات في رأسها لم يسمح لها بذلك، لفترة طويلة جدّاً، ثم دون أن تدري، نامت، وغرقت في سبات عميق تام، بلا أحلام.

في الصباح، في السابعة تماماً، فُتحت عيناها وحدهما، بلا حاجة إلى المنبه. نهضت وارتدت الجينز، وفتحت نافذة غرفتها لتسمح بدخول كل الهواء الممكن إلى رئتيها، ثم وضعت يدها فوق حافة النافذة لتستنشق مزيداً من الهواء، وهنا عند طرف أصابعها شعرت بشيء ما: نظرت إلى أسفل ورأت حجراً.

أخذته بين يديها ونظرت إليه عن قُرب.

أجـل، لا يوجـد أي شـك، كان حجـر (لـو)، الـذي أحـضره مـن الشـاطئ القريـب مـن دبلـن.

نظـرت جويـا حولهـا، وتساءلت كيـف يمكـن أن يكـون قـد وصـل إلى هنـا؛ لأنـه يوجـد بالفعـل إفريـز أسـفل النافـذة يمكـن لأحدهـم، إذا كان يريـد المخاطـرة بالسـقوط، أن يسـير فوقـه، ولكـن كيـف وصـل إلى الإفريـز؟

- «الشـجرة الموجـودة في زاويـة المبنـى». قالـت لهـا تونيـا، التـي كانـت في ذلـك الوقـت قـد اقتربـت هـي الأخـرى مـن حافـة النافـذة.

- إذن؛ فقـد تسـلق الشـجرة، ثـم صعـد عـلى الإفريـز، وسـار نحـو عـشرة أمتـار معلقـاً، فقـط ليضـع لي حجـراً عـلى النافـذة؟

قالت لها تونيا: من واحد إلى عشرة، كم تعطين لغبائكِ الآن؟

أسفل الحجر كانت توجد ورقة صغيرة.

« حاولـت أن زهـرة المارجريـت أزرعهـا مـن جديـد، ربمـا نجـت، لكـن في الوقـت الحـالي أهـدي إليـكِ هـذا، وهكـذا إذا شـعرتِ بالحـزن يمكنـكِ دائمـاً أن تفكـري في وجـود شيء جميـل في العـالم اسـمه إيرلنـدا، وستتحسـن حالتـكِ في الحـال.

ملحوظة: مساء اليوم في المشرب؟».

أخـذت جويـا الحجـر الصغـير، ووضعتـه عـلى الفـور داخـل جيـب الجينـز، وأعـادت قـراءة الرسـالة عـلى الأقـل عـشر مـرات، وفي كل مـرة مـن تلـك المـرات العـشر كانـت تشـعر بأنهـا غبيـة جـدّاً جـدّاً.

36

- إلى أين تظنين نفسكِ ذاهبة في هذا الجو؟

- اهدئي يا ماما، معي المظلة هذه المرة.

قالـت جويـا في طريقهـا للخـروج، مـع أصـوات الرعـود، التـي تـضيء السـماء مـن بعيـد، والقطـرات الأولى للأمطـار، التـي تـضرب فـوق أغطيـة فتحـات المجـاري.

كانـت السـاعة التاسـعة و10 دقائـق تقريبـاً، ولم تكـن تعـرف إذا كانـت سـتجده في هـذه العاصفـة، التـي عـلى وشـك الهبـوب، لكـن أرادت أن تذهـب عـلى الرغـم مـن ذلـك؛ لتعتـذر؛ لتحتضنـه؛ لتقـول لـه إنهـا كانـت غبيـة.

وفي الطريـق، زادت قطـرات المطـر أكـثر، حتـى أصبحـت في لحظـة سـيلاً حقيقيّـاً، وبينـما كانـت تـسرع الخطـى وهـي تقريبـاً تجـري، شـعرت جويـا بالميـاه وهـي تبـل شـفتيها وشـعرها وتهاجمهـا مـن الأمـام، وكانـت تحـب هـذا، كانـت تحبّـه كثـيراً إلى حـد أنهـا أقفلـت المظلـة، وبـدأت تجـري مـن دونهـا، شـعرت بأنهـا مبللـة تمامـاً بالميـاه وخفيفـة؛ ولسـبب مـا، لا تعـرف مـا هـو، شـعرت بـأن الطريـق إلى المـشرب كان أطـول مـن المعتـاد.

صرخـت فيهـا تونيـا وهـي تجـري بجوارهـا: أنـتِ بالتأكيـد غبيـة لتأخذينـي أنـا أيضـاً معـكِ في هـذا السـيل!

- أليس شيئاً رائعاً؟! ألا تشعرين بشعور جميل؟

- آه، بالتأكيد، لا أعرف إذا كان هذا أفضل أم الحقنة الشرجية!

عندمـا وصلتـا أمـام المـشرب، لم يكـن هـو موجـوداً، لكـن، فقـط شـخص مجنـون سـيخرج إلى الشـارع في مثـل هـذا الجـو.

قالت لها تونيا وهي منقطعة الأنفاس: هل أحضرتِني إلى هنا للا شيء!

ذهبـت جويـا عندئـذٍ لتلتقـط أنفاسـها أسـفل الشرفـة. هـزت رأسـها بعـض الـشيء لتحـرر شـعرها مـن الميـاه، كـما تفعـل الـكلاب، وعندمـا رفعـت رأسـها مـن جديـد، كان هـو هنـاك، أمامهـا، ظهـر فجـأة تقريبـاً كـما يفعـل جاكـو؛ القـط الشـبح، أحيانـاً في المنـزل.

- أهلاً يا (شيء). قال.

لم تحيّـه جويـا، بـل سـارت نحـوه وتقريبـاً وهـي تجـري اندفعـت نحـوه واحتضنتـه بقـوة، وشـعرت بـأن ملابسـه أيضـاً كانـت مبتلـة

تماماً، حتى إنه يمكن سماع صوتها كأنها إسفنج الماء، الذي يخرج من الأنسجة المتهللة، وكان الجو بارداً، لكنها لم تشعر بهذا، ولم يقل لها هو أي شيء، ثم انفصلا من العناق، وأخذ كل منهما ينظر إلى عينَي الآخر، بشعرها الذي كانت المياه تتقاطر منه ويحجب عنها الرؤية بعض الشيء، وفي ذلك الوقت، استمرا في النظر كل منهما إلى الآخر في وسط صخب السيول، التي كانت تسقط من سقف الشرفة؛ صخب قوي جدّاً، حتى إنه إذا تحدث أحدهم الآن لن يُفهم أي شيء. وهكذا، لم يفعلا شيئاً سوى تبادل النظرات، وكانت لدى جويا كلمة لهذا الوضع: manihlapinatapai، كلمة طويلة جدّاً لشعب أرض النار، عثرت عليها يوماً ما في مجلة الكلمات المتقاطعة؛ وتعني «أن ينظر شخصان إلى بعضهما، وتكون لديهما رغبة في أن يقبِّل أحدهما الآخر، لكن لا يملك أياً منهما الشجاعة الكافية ليخطو الخطوة الأولى». لا تعرف جويا إذا كان (لو) يفكر أيضاً بالطريقة نفسها، وتمنت بكل قوتها أن يفعل هو شيئاً ما؛ لأنها كانت متأكدة أنها لن تفعل شيئاً، ولن تستطيع سوى الاستمرار في النظر إليه، حتى حدث ذلك في لحظة، أخذ هو وجهها بين يديه، وقرَّب شفتيه من جويا وقبَّلها، وكانت يداها هي ترتعشان، ليس من البرد، لكنها كانت تشعر كأن أحدهم خفض بالتدريج صوت الأمطار فوق السقف، وكأنها بدأت تنخفض رويداً رويداً؛ ليسود الصمت التام، ولا يتبقى سوى صوت أنفاسهما التي تتداخل، بينما تتزحلق شفاههما المبللة بالأمطار في قبلة، كان تأثيرها على تلك الشفاه يشبه ما فعلته الأمطار على تلك الأرض، هناك في الخارج.

كان شيئاً كالتلاشي؛ التلاشي والوجود المتزايد في الوقت نفسه. كأن المرء غير موجود، وموجود أكثر من أي وقت سابق.

مـر بعـض الوقـت، لا تعـرف مقـداره، ربمـا كان وقتـاً طويـلاً، ربمـا أيضـاً وجيـزاً، ثـم قـال هـو: كانـت هـذه هـي قبلتـك الأولى، أليـس كذلـك؟

لم تكـن جويـا تتوقـع عـلى الإطـلاق سـؤالاً كهـذا. أكانـت بهـذا السـوء؟ هـل أخطـأت في شيء؟

أجابـت: أجـل. وهـي تنتظـر إجابـة مـن نـوع: «آهـه»، أو ربمـا «شـعرت بهـذا».

ثم نظر هو إليها في عينيها، ابتسم وقال: وأنا أيضاً.

37

- هل يمكنني أن أسألكِ سؤالاً يا حلوة؟

- تونيا، حتى إذا قلت لكِ لا...

- بمَ شعرتِ؟

- ماذا؟

- أجل، بينما يقبِّل أحدكما الآخر، بماذا شعرتِ؟

- لـنرَ.. هـل تتذكريـن كيـف يبـدأ عـزف الجيتـار في أغنيـة Fix You، لفريق Coldplay؟

- ماذا؟

- لا؟ إذن لـنرَ... هـل تتذكريـن ذلـك المشـهد في فيلـم «الجـمال الأمريـكي»، مشـهد الحقيبـة البلاسـتيكية، عندمـا يتحـدث هـو عـن الجـمال؟

- هل يمكنكِ يا حلوة استخدام أمثلة أبسط؟

- لكـن لا، اسـمعيني! كان شـيئاً كأننـي كنـت أنـا الحقيبـة البلاسـتيكية؛ شـيئاً كأننـي قـد أُلقيـت في وسـط الريـاح، ثـم، بـدأت التحـرك في وسـطها، ثـم تحولـت تلـك الحـركات كأننـي أرقـص في

داخلهـا. هــل تفهمــين؟

- ربما.

- أي أن الريـاح كانـت هـي مـا تجعلنـي أرقـص، كان هـو يفعـل كل شيء، لكـن في النهايـة كنـت أنـا مـن يرقـص.

- حسناً.

- هل لديكِ تعليقات بخلاف (ربما) و(حسناً)؟

- لا يـا حلـوة، ليـس لـديَّ سـوى هـذه. لا أعتقـد أنـه أروع شيء في الحيـاة أن يشـعر المـرء بأنـه حقيبـة بلاسـتيكية.

- تونيا؟

- قولي لي.

- إنه شعور جميل جدّاً أن يشعر المرء بأنه حقيبة بلاستيكية.

38

الجميـع يسـتهلك صفحـات وصفحـات، روايـات كاملـة ليحـكي عـن اللحظـة السـحرية، التـي يتبـادل فيهـا هـو وهـي قبلتهـما الأولى، بـكل مـا يحيـط ذلـك مـن أشـياء وأجـواء ممكنـة - لحظـات غـروب، شـواطئ ذهبيـة، الثلـج المتسـاقط، إلـخ - لكـن لا أحـد قـط اسـتطاع أن يـشرح جيـداً مـا اللحظـة التـي لا تتكـرر، العجيبـة، التـي يمكـن وصفهـا: عندما يعـود المـرء إلى بيتـه. الرحلـة والطريـق الـذي تقطعـه. القدمـان اللتـان لا تلمسـان الأرض، والقلـب الـذي لا يتوقـف مطلقـاً.

لأنـه عندمـا تحـدث تلـك الأشـياء لمـن يحلـم بهـا حياتـه كلهـا، ولمـن يبـكي في أثنـاء الأفـلام الرومانسـية، ولمـن لم ينتظـروا شـيئاً منـذ طفولهتم سـوى أن يعيشـوا قصـة رومانسـية، يكـون كل شيء جميـلاً جـدّاً، مؤثـراً بشـدة، لكـن عندمـا تحـدث تلـك الأشـياء لفتـاة في السـابعة عـشرة مـن عمرهـا، وُلـدت العـام 1999، وتسـمع فريـق بينـك فلويـد وموسـيقى

التسعينيات، لمن لم ترتدِ تنورة مرة واحدة في حياتها، ولم تضع قط مساحيق على وجهها، وتفضِّل فيلم Fight club على فيلم Twilight، لن تكون كلمة «مؤثر» هي الكلمة الصحيحة.

فما حدث يقلبك مثل الجورب، ينزع الأمعاء ويضعها مرة أخرى بطريقة عشوائية، يلقي أرضاً بكل اليقينيات والمعتقدات ككرة هدم البنايات؛ تلك هي الكلمات الصحيحة.

على سبيل المثال، جويا تسير، لكنها لا تسير؛ بل تتزحلق على الأسفلت كأنها ترتدي عجلات تزلج غير مرئية، لا تزال عيناها تلمعان وممتلئتين بمياه، وشفتاها ترتعشان برعشة مس كهربائي، وكانت كنزتها فوقها، تملؤها الأمطار ورائحته، وكانت تشعر في الوقت نفسه بأنها حمقاء تماماً، وذاتها تماماً، ضائعة تماماً، وفي مكانها تماماً.

كانت تقفز في تجمعات الأمطار، لم تكن تتجنبها كما تفعل في العادة، وعندما رأت واحدة منها كبيرة جدّاً، اندفعت نحوها وقفزت في داخلها، وقطرات المياه والطمي تتناثر في الخارج وتقفز فوقها، فوق ملابسها وعلى يديها ووجهها. كانت هناك كلمة آيسلندية لهذا، فعلاً: hoppípolla، والكلمة تعني بالفعل: القفز في داخل الوحل. كانت قد كتبتها وحفظتها أيضاً، رأتها في فيديو موسيقي في إحدى المرات، لكن لم تفكر قط في أنها ستنفذها بالفعل.

وكان ضوء تلك الليلة، وصمت المدينة، وصوت التلفزيونات في البيوت، كل هذا أصبح ذكرى، كل شيء بدأ يحفر في اللحظة نفسها في ذهنها - كل شيء أصبح شاهداً على شيء عظيم - حتى صناديق القمامة لم تعد فقط صناديق قمامة - والسيارات المتوقفة، ومصاريع المحلات المغلقة، كل شيء غدا شيئاً أكبر، كان كل شيء يتكلم، أصبح لكل شيء معنى، حتى إن المنطق تلاشى في هذه اللحظة.

كان الـشيء الوحيـد المنطقـي، الـذي اسـتطاعت التفكـير فيـه، هـو الآتي: إنهـا سـعيدة بـأن ذلـك حـدث معـه هـو؛ أي، لم تكـن ترغـب في أن يكـون مـع شـخص آخـر. هـو يعجبهـا. فيـما عـدا ذلـك كانـت كل أفكارهـا عبـارة عـن فـوضى. فـوضى غبيـة، جميلـة جـدّاً.

دخلـت وكان أبواهـا في حجـرة المعيشـة، في صمـت غريـب. نظـرت فقـط برأسـها ورأتهـما نائمـين، هـو عـلى أريكـة وهـي عـلى الأخـرى. وعـلى المائـدة ست علـب فارغـة مـن البـيرة. تنهـدت جويـا، واقتربـت ببـطء، أخـذت العلـب السـت، وألقـت بهـا في القمامـة.

ثـم ذهبـت إلى حجـرة جدتهـا، أضـاءت مصبـاح الأباجـورة وقبَّلتهـا عـلى جبهتهـا. فتحـت الجـدة عينيهـا ونظـرت إليهـا. ابتسـمت جويـا، وربتـت عليهـا، وقالـت لهـا: لقـد قبَّلتـه!

ابتسـمت جيـمّا أيضـاً. لا أحـد يعلـم إذا كانـت قـد فهمـت، أو لـشيء آخـر، لكنهـا ابتسـمت، ثـم قالـت: جههـه!

39

ربمـا لا يكـون الأمـر بالطريقـة التـي اقترحهـا عليهـا، لكـن بوفـه كان عـلى حـق بالفعـل: الطريقـة الوحيـدة، التـي يمكنهـا أن تقـاوم إلقـاء الآخريـن لهـا أرضـاً، أن ترتفـع فوقهـم.

تمـر الأيـام، وكلـما تقابـل (لـو) وجويـا، بنـت هـي حـول نفسـها درعـاً مـا، شـيئاً كالـرداء المضـاد للرصـاص، يحميهـا مـن ضحكاتهـم ونكاتهـم، ومـن عبـارات «ليسـت قـط فرحـة»، التـي كانـت تراهـا مكتوبـة عـلى منضدتهـا بمجـرد أن تصـل في الثامنـة.

كان التفكـير في (لـو) يحملهـا بعيـداً عـن هنـاك، ولـه التأثـير نفسـه للسـماعات عندمـا تضعهـا في أذنيهـا، وكونهـا luftmensch، حالمـة دائمـاً

بعينـين مفتوحتـين، لكـن بطريقـة أقـوى، خصوصـاً أن (لـو) حقيقـي، فتـى مـن لحـم ودم.

ويعرف كيف يقبّل جيداً أيضاً.

منـذ تلـك الليلـة أسـفل شرفـة المـشرب، أصبحـت العلاقـة بينهـما أكـثر حميميـة، وتسـبب في ذلـك أن (لـو) في الأيـام التاليـة كان مضطـراً إلى أن يحـدد خروجـه مـن المنـزل إلى يومـين فقـط في الأسـبوع؛ بسـبب سـوء درجاتـه إلى حـد كبـير، وفـرض عليـه والـداه جـدولاً للدراسـة أكـثر قسـوة؛ ومـن ثـم كانـت لقاءاتهـما لمـرات أقـل قـد أدت إلى أن رغبتهـما في أن ينظـر كل منهـما إلى الآخـر ويلمسـه، مثـل رغبـة أن يحـاول أحدهـما التوقـف عـن الـشراب عنـد رؤيتـه لكـوب نبيـذ، أو مثـل تأثـير الخمـيرة في عجينـة البيتـزا.

كان عندمـا ينجـح هـو في التحـرر يهاتفهـا في المنـزل، دائمـاً في السـاعة التاسـعة مسـاءً... كانـت جويـا تهجـم عـلى التلفـون كلاعـب رجبـي على الكـرة البيضاويـة، وكان هـو يقـول لهـا فقـط: «خـلال عـشر دقائـق هنـاك»، ثـم يضـع السـماعة. وعندمـا كانـا يلتقيـان أسـفل الشرفـة، كانـا يتبـادلان القبـلات عـلى الفـور، ثـم يجريـان نحـو الكنيسـة الصغـيرة ويمكثـان هنـاك بجـوار السـور، بعيـداً عـن الجميـع، في محاولـة ليكتشـف أحدهـما الآخـر.

مـن المؤكـد، لم يكـن الأمـر كلـه وروداً وزهـوراً. في بعـض الأوقـات، كان (لـو) يبـدو كئيبـاً، غضوبـاً، خصوصـاً في المـرات التـي يتحـدث فيهـا عـن والديـه، خصوصـاً عـن والـده. كانـت جويـا تحـاول أن تتجنـب هـذا الموضـوع، لكـن أحيانـاً كانـا ينتهيـان إليـه عـن طريـق الخطـأ، ربمـا فقـط بالإشـارة، وعندئـذٍ يتحـول (لـو) إلى شـخص غريـب، ولا تسـتطيع هـي الاقـتراب منـه؛ فيتغـير لـون وجهـه وتتغـير نظرتـه. في تلـك اللحظـات، يصبـح مخيفـاً، ثـم بعـد ذلـك بخمـس دقائـق، أو أكـثر بقليـل، كان كل شيء يعـود إلى طبيعتـه كأن شـيئاً لم يحـدث.

كانت تونيا تقول في أثناء عودتهما إلى المنزل: هذا الشخص غير طبيعي .

- معذرة! ربما لديه أب أسوأ من أبي!

- لا أحد في نصف الكرة الشمالي لديه أب أسوأ من أبيكِ.

- يا تونيا، أنا أيضاً أغضب عندما يسألني أحدهم عن أبوَي.

- أجل، لكن أنتِ لا تتحولين مثلما يحدث لدكتور جيكل ومستر هايد! ثم في الحقيقة، جميل هو أمر أنكما تتقابلان فقط في المساء، وفقط في هذا المكان، جميل حقّاً، لكنني لو كنت مكانكِ سأشعر بغضب شديد من أننا لا نلتقي مطلقاً سوى في الخفاء!

- يعجبني هذا! كأن لديَّ سرّاً يخصني وحدي!

- إنه مثلما يكون المرء وحيداً مع شبح.

- ربما أنا أحب الأشباح.

- لا، أنتِ تحبين أن تعيشي مخدوعة!

كانت تونيا محقة في كلامها بعض الشيء، كانا يلتقيان الآن منذ شهرين تقريباً، ولم يحدث هذا لا في النهار ولا في أماكن غير المشرب والكنيسة الصغيرة. ربما كان سبب أنهما لم يستطيعا الدخول إلى أعمق من ذلك في علاقتهما أنها في داخلها تشعر بأن هناك أمراً ما لا يسير على ما يرام.

وهكذا، في مساء ليلة، الأخيرة، قالت له هذا بوضوح تام بصيغة تهديد: إما أن نتقابل في وقت الظهيرة في الحديقة، أو من الأفضل ألا نتقابل أبداً بعد ذلك. كان صعباً عليها جدّاً أن تقوم بدور الحاسمة، لكنها فعلت ذلك بالفعل. والمشكلة أنه أجابها: أنا آسف يا (شيء)، أنتِ تعرفين كيف هما أبوَي.

وهنا، مع تلك العبارة، أغلق عليها هو الطريق. كانت تعرف أنها لا يمكنها أن تفعل أكثر من ذلك أو أن تطلب منه المزيد؛ لأنه

سيتصرف بشكل سيئ وستتدهور الأمور بينهما، وهكذا استطاعت فقط أن تقول: «حسناً، ربما من الأفضل ألا نلتقي لفترة، على الأقل حتى تستطيع أن تخرج في فترات الظهيرة».

ثم تصافحا بطريقة سيئة، ربما أسوأ من تلك المرة التي تشاجرا فيها على زهرة المارجريت، وفي أثناء عودتها إلى المنزل لم تفعل تونيا شيئاً سوى أنها رددت طوال الطريق: هل رأيتِ؟ لقد قلت لكِ!

كان عذاباً.

ذهبت لتنام وهي تشعر بإحباط شديد في تلك الليلة، وكانت جويا مدركة أنها بلا درعها الواقية من اليوم التالي - الذي سيكون أيضاً اليوم الأخير للاشتراك في المسابقة – ومن ثم لن تشعر بأنها محمية، ولن تشعر بأنه لا يمكن وصول إهانات زميلاتها وسخريتهن إليها. وفي صباح اليوم التالي، بعد أن خرجت من المنزل، ورأسها منخفض، في طريقها إلى المدرسة، مستعدة لأن تعود مرة أخرى «ليست فرحة على الإطلاق» كما هي العادة، لاحظت شيئاً غريباً... هناك، معلقاً على الجدار الخارجي لمبنى المنازل الشعبية، كان هناك خيط معلق على أحد مصابيح السقف المليئة بالأتربة والناموس الميت، تتدلى منه لوحة، أو من الأفضل أن نقول «إطار»، وفي داخله كانت توجد صورة؛ تلك التي التقطتها هي في أثناء الجنازة. وحتى إذا كان الخيط مصنوعاً من سلك قديم، وكان على حائط خارجي، فإنها بدت كأنها موجودة منذ الأزل.

شخص واحد في العالم كله يمكنه أن يفعل شيئاً من هذا القبيل؛ وذلك الشخص هو ذلك الفتى الذي يحمل اسماً غريباً من مقطع واحد، وبمحض المصادفة كان هو أيضاً الفتى نفسه الذي منحته جويا قبلتها الأولى.

الآن يمكنها فعلاً أن تشترك، ويمكنها أن تأخذ صورتها إلى المدرسة، وأن تسجل نفسها في المسابقة! وهكذا، وبعد عشرين ثانية قضتها

وهـي تسـأل نفسـها إذا كان هـذا مجـرد حلـم، اقتربـت لتنظـر أفضـل، ونزعتهـا برفـق ومـن خلفهـا سـقطت ورقـة، أمسـكت بهـا عـلى الفـور، ثـم قرأتهـا بصـوت مرتفـع:

«لم يكــن يهمنــي مطلقــاً أن تكــون لــديَّ فتــاة، مثلهــم، لكنــكِ التقطتِنــي مــن الخلــف». هــل تحبــين أن تســتمري معــي؟

ملحوظـة: اليـوم في الظهـيرة، في السـاعة الثالثـة، سـأكون في الحديقة، ربمـا يمكنـكِ أن تمري مـن هنـاك، إذا أردتِ».

40

كم يمكن أن تستمر الدقائق الخمس؟

في العـادة تسـتمر خمـس دقائـق، لكـن في بعـض الأحيـان تسـتمر لمـدة سـاعات، أيـام، أسـابيع.

مثلما هو الحال الآن.

كانـت جويـا تجلـس هنـاك عـلى مقعـد الحديقـة، وشـعرها مفـرود، ووضعــت أيضــاً خطّــاً بقلــم الكحــل عــلى عينيهــا - أجــل في النهايــة استسـلمت - وكان الميعـاد مـع (لـو) في الثالثـة، والآن السـاعة الثالثـة وخمـس دقائـق، لكـن بعـد السـاعة الثالثـة شـعرت كأن خمسـة أيـام قـد مـرت عليهـا، وليـس فقـط خمـس دقائـق.

في الواقـع، منـذ أن تعرفـت إليـه أصبحـت حياتهـا كلهـا انتظـاراً؛ فهـي تسـتيقظ في الصبـاح، تغسـل أسـنانها وترتدي ملابسـها. تذهب إلى المدرسـة، وتأخـذ القلـم، وتطلـب أن تذهـب إلى الحـمام. كل الأشـياء، التـي كانـت تفعلهـا منـذ شـهرين، كانـت تؤديهـا فقـط، لكنهــا الآن تفعلهــا لأنهــا في انتظــاره هــو. الآن كل شيء أصبــح انتظـاراً؛ لأن كل شيء أصبـح يحـدث بـين المـرة التـي سـتراه فيهـا والأخــرى.

والآن أصبحت الساعة الثالثة وست دقائق، وهو لا يظهر، ولأول مرة بدأت جويا تشعر بالخوف من أنه لن يأتي، وفي المساحة الوجيزة جدّاً في الثواني التي تمر، استطاعت أن تحشر أكثر الأفكار السيئة، كلها مضغوطة معاً، واحدة فوق الأخرى: «إذن، تونيا بالفعل على حق، لن يأتي لأن لديه فتاة أخرى، ولا يريد أن يراه أحد، كان يخدعني، مثَّل دور الرومانسي على تلك الهضبة، وبمجرد أن وصل إلى ما يريد اختفى، يا لي من غبية لأني صدقته، ومجرد فكرة أنني وضعت المساحيق قليلاً على وجهي، أنا! لقد تركت أحدهم يخدعني مثل أي حمقاء أخرى من زميلاتي!»، مليون فكرة، الواحدة فوق الأخرى، بينما كانت تنظر أمامها وهي تحاول وسط كل هؤلاء الأشخاص أن تعثر عليه، ولمدة ثوانٍ كان يبدو لها عدد من الصبية، هو، ثم يتضح لها العكس.

ست دقائق، ولم تكن تشعر بأنها بمثل هذا الغباء مرات كثيرة في وقت وجيز هكذا.

ثم رفعت عينيها من جديد.

ومن بعيد، وفي كنزته السوداء ذات القلنسوة، رأته.

41

- إذن كيف تفعلين هذا؟ وأين تختبئين؟

كان عشب المتنزه له اللون الأخضر لأيام الربيع الأولى عندما تمر أشعة الشمس بين الفروع وتتسبب في komorebi شديد الجمال.

- لا أختبئ يا أبله، أجلس هنا وأنتظر.

- جميل. وإذا لم يعطكِ أحد ظهره؟

- إذن، لن ألتقط أي صور.

عندئذٍ لم تستطع أن تصدق أنه موجود بالفعل، حتى وإن كانت

ترغب فقط في أن تصدر صرخة قوية من صرخات النصر المهتزة الموجهة إلى تونيا وكل عباراتها التي رددتها «لقد قلت لكِ»، إلا أن جويا أجابته، كالمعتاد، كأن كل شيء طبيعي.

وسألها (لو): وماذا تفعلين طوال الظهيرة؟

- أقرأ، وأستمع إلى الموسيقى. أشياء من هذا القبيل.

- واو! ألا تخاطرين بانفعالات زائدة؟ أليس كل هذا مثيراً جدّاً؟

نظرت إليه جويا وهي تغلق عينيها قليلاً بغضب، مهددة: يقول هذا المغامر الكبير، الذي يقضي ليلته يلعب بالأسهم.

- مهلاً! فالأسهم رياضة!

- أجل وجاستن بيبر مغنٍّ عظيم!

- احترسي، لا تقتربي من جاستن(18).

- هل يعجبك جاستن بيبر؟

- لماذا؟ ألا يعجبك؟

- أنت تمزح، أليس كذلك؟

- نعم، لماذا؟

- أرجوك، قل لي إنك تمزح.

- انظري هناك!

أخذ (لو) رأسها بيديه، وجعلها تلتفت تسعين درجة، نحو وسط العشب.

- أين؟

- هذا الرجل ذو اللحية. إنه من ظهره. بسرعة!

- لحظة... ها هي!

التقطت جويا الصورة، ثم أنزلت آلة التصوير على الفور لترى الصورة، ثم قالت: تبدو لي مهزوزة بعض الشيء.

---

(18) Justin Bieber مغنٍّ.

- لا، لا، جيدة. تعجبني. انظري إليه: في رأيي أنه طلب للتو من إحداهن أن تصبح فتاته، ورفضت هي. انظري كيف يضع رأسه، وكيف تكوِّن يده اليسرى قبضة، كأنه يحاول أن يتمالك غضبه!

علق (لو).

- حقا، يمكن. أو ربما الموضوع أبسط من هذا، ربما قضى فقط يوماً سيئاً في عمله.

- لا، لا، أنا أرى أن السبب هو الفتاة.

قال لها وهو ينظر مباشرةً في عينيها.

لم تكن جويا قد أدركت بعد أنه في الحقيقة يحاول أن يقول لها شيئاً آخر؛ ومن ثم استمرت في طرح نظرياتها: حسناً، في نهاية الأمر يمكن أن يكون...

- جويا؟

قاطعها هو. لم يكن قد دعاها جويا من قبل، ربما كانت هذه هي المرة الأولى.

الآن أدركت هي أن هناك شيئاً ما، فسألته في فزع: ماذا؟

- لقد طرحت عليكِ... أتعرفين شيئاً، كالطلب، في البطاقة؟

قال هو، وهو يحاول ألا يسرب إليها أي قلق، لكن لم ينجح في ذلك على الإطلاق، وعندما أدركت جويا هذا القلق، اختبرت شعوراً غريباً، كأنها مستمتعة برؤيته هكذا، وقررت على الفور أن تفعل شيئاً، تعرف بالفعل أن تونيا بعد ذلك ستسبها مرات عديدة لأجله، قررت أن تتركه قليلاً في حالة التوجس تلك.

- سؤال؟ لا أعتقد أنني أتذكر، أتعرف؟ هل كانت هناك أسئلة؟

قالت له، وهي تلعب بآلة التصوير. مكث هو قليلاً بفم مفتوح، ثم قال لها: ألم يخبركِ أحدهم من قبل أنكِ سخيفة؟

- أجل، في الحقيقة كثيرون جدّاً.

- حسناً، لقد كان لديهم بُعد نظر.

أجابها هو، والتفت إلى الجهة الأخرى.

كانت هناك كلمة بلغة التاميل، التي يتحدثونها في سريلانكا، لتشرح ما يفعلانه الآن: oodal؛ ومعناها: التظاهر بالغضب بين المحبين، لكن نظراً إلى أن مستوى مقاومة جويا في تلك الحالات تقريباً صفر، استغرقها الأمر فقط بضع ثوانٍ لتسند ذقنها إلى كتفه وتقول له: هل ربما يكون ذلك السؤال المتعلق باقتراح، من النوع الذي يمكن أن نقول عنه (عاطفي؟).

أجاب هو، وهو لا يزال يتظاهر بالغضب: ربما.

- إذن، في هذه الحالة، لا بد أن أقول لك إن إجابتي عن هذا السؤال هي كلمة تبدأ بحرف الألف.

فكر (لو) لبضع ثوانٍ، ثم قال لها في فرح: إذن إجابتك هي (أجل)؟

- ممم، لنكن أكثر دقة، يمكن أن تكون أيضاً: أعلم، إذا، إذن.

بدأ (لو) ينظر إليها شزراً، وهو يزأر بصوت يكاد يُسمع.

في الواقع، لم تستطع جويا أن تستمر أكثر من هذا، في النهاية ابتسمت، وأومأت وهي تقول له بصوت منخفض: أجل يا أداة التعريف. أجل، أحب أن أستمر معك، أن أكون فتاتك!

42

حدث كل شيء دون أن تكون له أي مقدمات.

في العادة، عندما تحدث الأمور، يكون لها بعض المقدمات. ربما ليس دائماً، لكن بالتأكيد، في أثناء حدوثها، تشعر بأنها تحدث بالفعل.

مثلما الحال عندما يكون لديك امتحان: أنت تعرف أنك هناك

لتفعـل هـذا، ثـم تخلـط كل شيء، وتتعـذب مـن القلـق، لكـن عـلى الأقـل تعـرف مـاذا يحـدث لـك.

في هـذه المـرة، لا. حـدث كل شيء، وفقـط عندمـا حـدث، أدركـت جويـا حدوثـه.

جويا و(لو) في المتنزه جالسان على مقعد.

جويـا و(لـو) يتحدثـان ويتحدثـان، يتحدثـان. لم تتحـدث قـط كثـيراً هكـذا مـع أحـد، ولا حتـى بمفردهـا، وجويـا تتحـدث مـع نفسـها حياتهـا كلهـا.

صـورة لطفـل جالـس عـلى الأرض يتنقـل بالعجلـة الخلفيـة لدراجـة ثلاثية.

ثم يتحدثان ويتحدثان ويتحدثان.

صورة لامرأة تكتب على هاتفها النقال.

ثم يتحدثان ويتحدثان ويتحدثان.

صورة لكلبين ينظران أمامهما مباشرةً.

ثـم يقـول لهـا (لـو) شـيئاً عـلى المقعـد، ويسـخر منهـا قائـلاً: إيـه، ألم يحـدث أن وجـدتِ خطوطـاً في مقعدتـك مـن جلوسـك كل أيـام الظهـيرة هنـا؟ عندئـذٍ تجيبـه جويـا بنـبرة حـادة، بكلـمات مثـل: حسـناً، وأنـت ليسـت لديـك بعـد خطـوط عـلى وجهـك، إذن، لا. ومـن هنـا، تتذكـر كيـف صـارت الأمـور، وكيـف أنهـا سـألته بعـد ذلـك إذا كان يعـرف مكانـاً فيـه منظـر طبيعـي أفضـل مـن هـذا، وهـو يحـكي لهـا قصـة، ويقـول لهـا عـن يـوم كان يسـير فيـه في الطريـق، وسـط البنايات، عـبر أمـام بنايـة بابهـا مفتـوح، وهكـذا، بـلا أي سـبب حقيقـي، يدخـل، ويأخـذ المصعـد. في البدايـة، أخـذ يجـول في البنايـة، وعندئـذٍ سـخرت منـه جويـا - في داخلهـا كانـت تفكـر «كنـت دائمـاً أحلـم بـأن أقابـل شـخصاً يفعـل الأشـياء بهـذه الطريقـة» - لكـن تسـخر منـه عـلى الرغـم

مـن ذلـك، وتقـول لـه إذا كانـت هـي قـد رأتـه لأبلغـت الشرطـة، ويسـتمر هـو في الحـكي، ويقـول لهـا إنـه عنـد لحظـة مـا، بعـد عـشر دقائـق مـن الصعـود والنـزول في المصعـد، يصـل إلى الطابـق الأخـير، ويقـول: تقريبـاً سـأذهب لأرى إذا كانـت هنـاك طريقـة أصعـد بهـا إلى السـطح! وهكـذا، يخـرج (لـو) مـن المصعـد، ويبـدأ في البحـث عـن البـاب الـذي يقـود إلى السـطح، ويعـثر عليـه، ولا يصـدق نفسـه عندمـا يجـد البـاب مفتوحـاً. البـاب المـؤدي إلى السـطح مفتـوح، لا بـد فقـط أن يضـع شـيئاً حتـى لا يغلقـه عـلى نفسـه، ثـم يخـرج إلى السـطح، ومـن هنـاك، ينظـر إلى المدينـة كلهـا مـن علٍ، وقـال لنفسـه إن العـالم قـد فُتـح أمامـه، وإنـه منـذ الآن إذا كان هنـاك مـكان يشـعر فيـه أنـه في منزلـه، لـن يكـون منزلـه، لكـن سـتكون الأسـطح، وإن مكانـه فـوق الأسـطح، وإنـه إذا اسـتطاع أن يفعـل ذلـك، سـيعيش فـوق الأسـطح فقـط.

- فوق الأسطح!
- أجل.
- ولم يقل لك أحد أي شيء؟
- حتى الآن لم يمسك بي أحد.

جويـا، التـي كانـت تنظـر إليـه في عينيـه، فهمـت، تقريبـاً عـلى الفـور، أنـه لا دخـل لـه بجـمال عينيـه، بـل إنـه الضـوء الـذي يأتيـه مـن الخـارج، وأنهـا هـي هـذا الضـوء، وهـو قـد سرقهـا.

- هل تريدين أن تأتي معي؟
- متى؟
- الآن يا (شيء)، الآن. لقد تحولت مقعدتي إلى خطوط.

ثـم بـدأت هـي وهـو يسـيران في وسـط الأشـخاص في أثنـاء خروجهـم مـن عملهـم في شـوارع المدينـة، يتقدمهـا (لـو) بعـض الـشيء، دون حتى

أن يتحـدث إليهـا، وهـو يرتـدي قلنسـوته فـوق رأسـه ورأسـه منخفـض، وهـي تتبعـه عـلى بُعـد نصـف خطـوة، والأفـكار تتتابـع الواحـدة تلـو أخـرى، وعيناهـا مثبتتـان عـلى ظهـره، وظهـور أخـرى كانـت سـتتوقف لتلتقـط لهـا الصـور، لكـن الآن لـن تتوقـف، فلـم يعـد هنـاك سـواه، في مـكان مـا، ولم يكـن هنـاك غـيره.

وتوقفت جويا و(لو) أمام بناية مكونة من 10 طوابق.

- مرتفعة بعض الشيء، أليس كذلك؟

- كلما ارتفعت كان أفضل.

وكل شيء منـذ تلـك اللحظـة بـدأ في الحـدوث، ولم يكـن هنـاك حتـى الوقـت الـكافي لتفهـم أيـن، مـاذا، متـى، كل شيء تـوالى بسرعـة شـديدة جـدّاً، كل شيء دون تلـك اللحظـة التـي فيهـا يسـأل المرء نفسـه أيـن أنـت، مـاذا تفعـل، مـاذا تريـد، كل شيء حـدث فحسـب. كانـت هـي وهـو عـلى السـطح، وجـرت هـي تجـاه الحافـة الأسـمنتية لتتطلع، رجـال ونسـاء وأطفـال وكلاب، كلهـم هنـاك في أسـفل، صغـار جـدّاً، وبعـض السـحب والغـروب، وهـو هنـاك يضـع يـده عـلى جانبيهـا مـن الخلـف، يرفـع شـعرها ويقبِّـل عنقهـا، وهـي تغلـق عينيهـا ولا تشـعر بـأي شيء، تسـمع كل شيء، ولا تسـمع أي شيء، تختفـي الضوضـاء، السـماء هنـاك، لكنهـا ليسـت هنـاك، يمـر بعـض الوقـت، ولا تـدري كـم مـن الوقـت، كثـير منـه أم قليـل، ثـم هـا هـما مسـتلقيان يتعانقـان، وتتذكـر جويـا عندمـا كانـت طفلـة صغـيرة وذهبـت إلى سـاحة فيرونـا مـع والديهـا، وعنـد لحظـة مـا توقفـت لأنهـا شـعرت بالـدوار؛ لأن كل شيء حولهـا بـدأ يـدور، عندئـذٍ توقفـت جويـا، وقالـت: إيـه.

أجابها هو: إيه؟

- هل كل شيء على ما يرام؟

- ماذا؟

- يبدو لي أن شيئاً ما ليس على ما يرام.

عندما تشعر جويا بأنها متوترة جدّاً، تفعل الشيء نفسه دائماً، تنطق بأي هراء.

- ربما.

- أتعلم؟ لقد سمعت أن الأشياء عندما تحدث بهذه الطريقة ينتهي الأمر بالشخصين يتضاجعان.

- أعتقد أنني سمعت هذا أنا أيضاً.

توقفا عند هذا الحد، ثم بدأت أنفاسهما ترتعش. كانت جويا ترتعش خوفاً، ثم قالت له: وسمعت أيضاً أنه إذا لم يتوخَّ الشخصان الحذر، ربما انتهى الأمر بواحدة أن تنجب طفلاً بعدها بتسعة أشهر.

عندئذٍ ابتعد (لو) عنها بعض الشيء، واستلقيا أرضاً وهما ينظران نحو السماء.

سألها هو: لا تريدين هذا، أليس كذلك؟

- ليس الأمر كذلك، فقط..

كانت جويا تبحث عن الكلمات الصائبة، حتى إن كانت تعلمها تماماً.

- فقط؟

مسحت جويا ذقنها كأنها تفكر، وتنهدت مرتين، ثم بصوت المثقفين قالت: فقط إنني، ولأستخدم لغة مهذبة ومجازية، أكاد أن أتبول على نفسي خوفاً، يا أداة التعريف!

وعندما قالت هذا بدأ (لو) يضحك، ثم ضحكت هي أيضاً، ثم تلامست يدها اليسرى مع اليمنى، ثم تشابكا، بينما هما يضحكان، واقترب هو منها وقبّلها واستمرا في الضحك. كانت تشعر بالبرد، وكانت أيضاً متأكدة أنه بين لحظة وأخرى سيظهر

أحدهـم، وسـيقول لهـما أن يرحـلا مـن هنـا، أو سـيبلغ عنهـما بسـبب فعـل فاضـح عـلى سـطح عـام، وفي أثنـاء ذلـك، اسـتمر (لـو) في تقبيلهـا، ولمسـها، حتـى أصبـح فوقهـا. وإذا كانـت في البدايـة تشـعر بالخـوف، أصبـح مـا تشـعر بـه الآن هـو الرعـب. أغمضـت عينيهـا وقالـت لـه: مـاذا تفعـل؟ هـل تفعـل هـذا بالفعـل؟

- أجل يا (شيء)، إذا أردتِ أنتِ. أجل.

لم تسـتطع جويـا أن تجيـب بصوتهـا، حاولـت ولم تسـتطع، أومـأت فقـط، بسرعـة بعضـلات وجههـا المتوتـرة كلهـا، وبطريقـة يفهـم بهـا أنهـا لا تقـول فقـط «أجـل»، لكـن «أجـل، لكـن لا تؤلمنـي أرجـوك»، أو «أجـل واحـترس مـن فضلـك». كل هـذا بتعبـير واحـد عـلى وجههـا، ثـم أغمضـت عينيهـا، كأن عاصفـة قويـة مـن الريـح تقـترب مـن وجههـا، وربمـا هـذا مـا يحـدث بالفعـل. شيء يشـبه عندمـا كانـت تدخـل مـع والديهـا في نفـق مظلـم، وتتوتـر وتخفـي رأسـها بـين المقعديـن، ثـم بعدهـا بفـترة يظهـر نصـف دائـرة مـن الضـوء، صغـيراً في البدايـة، ثـم يكـبر أكـثر فأكـثر، حتـى تجـد نفسـها وقـد خرجـت إلى الضـوء.

وأصبحـت عينـا جويـا الآن تنظـران إلى أعـلى، وفي السـماء، كانـت هنـاك سـحابة عـلى شـكل ورقـة شـجرة، كانـت تشـعر بـأن هـذه الورقـة ترقـد فوقهـا، وبـأن شـيئاً مـا غريبـاً، لكنـه ممتـع، يحـدث، مـؤلم، لكنـه ممتـع. لم تعـد تفهـم أي شيء، لكـن شـعرت بـأن السـماء فقـط فوقهـا... السـماء فقـط.

ومـر وقـت طويـل حتـى إن السـماء بـدأت في الغـروب خلـف المنـازل الأخـيرة، وفي النهايـة، أصبـح كل شيء يميـل إلى اللـون البرتقـالي فوقهـما، وسـاد الصمـت، وكانـت وجنـة جويـا اليـسرى تسـتند إلى صـدر (لـو).

مكثـت جويـا هكـذا، دون أن تكـون لديهـا أي نيـة لتنطـق بـأي كلمـة، ولا حتـى أن تعـود إلى المنـزل، عـلى الأقـل لمـدة عـشر سـنوات

أخـرى، لكـن في الوقـت نفسـه، كانـت تفكـر في أنـه لا بـد أن تكـون هنـاك كلمـة مـا، كلمـة جديـدة تعـبِّر عـن ذلـك الـشيء، عـن ذلـك الوضـع عندمـا تكـون وجنتهـا مسـتندة إلى صـدر أحدهـم بعـد المضاجعـة، وفكـرت إذا كانـت هـذه الكلمـة بـلا وجـود ربمـا تطلـق عليهـا هـي اسـميهما معـاً، وبـدءاً مـن اليـوم، في كل مـرة سـيحدث لهـا أن تضـع وجنتهـا عـلى صـدر (لـو)، أو أي شـخص آخـر، سـتطلق عليـه هـذا.

- محمية.

قالـت فجـأة. وأسـفل في الشـارع كانـت تُسـمع أصـوات الأطفـال وهـم يلعبـون.

- ماذا؟

- محمية. أشعر أنني محمية، هنا، الآن. وأنت كيف تشعر؟

لم يجبهـا (لـو)، رفعـت جويـا وجنتهـا بعـض الـشيء لتفهـم مـن تعبـير وجهـه مـاذا يـدور في رأسـه، وأدركـت عـلى الفـور أن (لـو) بـه شيء مـا.

- هل كل شيء على ما يرام؟

- أجل.

أجاب هو، حتى إذا كان من الواضح تماماً أنه ليس كذلك.

- هل أنت متأكد من أن كل شيء على ما يرام؟ تبدو لي...

- اسـمعي، يجـب أن تذهبـي الآن، الوقـت تأخـر. سـأبقى أنـا هنـا قليـلاً. أوكي؟

43

- فتـاتي العزيـزة، الأمـر يبـدو لي غـير مريـح بالمـرة، غـير مريـح عـلى الإطلاق.

- ماذا تقولين، يا تونيا؟! ربما أراد لحظة بمفرده!

- بالتأكيد، بالتأكيد. ثانيتان بعد أن ضاجعكِ وكان عذباً وحنوناً، ثم يصبح بارداً مثل الثلج. هذا الشخص غير طبيعي، وسبق وقلت لكِ ذلك!

سارت جويا ويداها في جيبها نحو البيت في الظلام الذي هبط بالفعل، وهي تركل الحصى عندما تقابله في أثناء مشيها.

- ثم يجب أن تشرحي لي قصة أنه أراد أن يمكث هناك فوق، دون حتى أن يصحبكِ. هل يُعقل هذا؟

ليست تونيا، تماماً، الصديقة المتخيّلة الأفضل في العالم؛ فجويا تريد أن تركز فقط على الأشياء الجميلة، وعلى واقع أنها أول مرة تختبر فعل الحب في حياتها، وترغب فقط في التفكير في واقع أن هذا حدث فوق أحد الأسطح، وأسفل الغروب، مع فتى يشبه في كل شيء، وتماماً، الفتى الذي طالما تمنته.

- لكن اهدئي قليلاً يا تونيا! ثم إنه قال إننا غداً سنلتقي مرة أخرى في الحديقة. هذه علامة جيدة، أليس كذلك؟

- أنا أعرفكِ، وأعرف أنكِ الآن تريدين فقط أن تفكري في حلمكِ الجميل، لكن أنا أقول لك أن تستعدي؛ لأنه بعد قليل ستصل القرصة التي ستوقظك فجأة!

قالت لها تونيا مرة أخرى، لكن كانت جويا قد توقفت بالفعل عن الاستماع إليها.

44

كان اليوم التالي لليوم الذي فيه مارست فيه جويا فعل الحب للمرة الأولى مليئاً بالسحب. لون رمادي قاتم يغطي السماء، وعواصف صغيرة من الرياح الباردة تحرك الأغصان خارج النافذة.

لا، لم يكن استيقاظاً محبباً.

لكـن السـبب لم يكـن السـماء ولا الريـاح، ولا الأمطـار، التي سـتلحق بهـا بالتأكيـد. السـبب كان تلـك القرصـة. أجـل، تلـك القرصـة التـي تشـعر جويـا باقترابهـا، مـن الاسـتيقاظ المفاجـئ الـذي سـيحدث، مـن ذلـك الحلـم الـذي سـيكف عـن كونـه حلـماً؛ ليـترك مسـاحة للواقـع المعتـاد الأحمـق.

وكان الإعـلان عـن القرصـة هنـاك يقـترب مـن جويـا، ويصـل إليهـا مـع صـوت تونيـا، مـع صـوت المنبـه، عندمـا كانـت تفتـح للتـو عينيهـا المليئتـين بالنـوم، تقـول لهـا: اسـمعي، لكـن... الآن عندمـا أفكـر مـرة أخـرى، أليـس غريبـاً أنـه في المتنـزه لم يحـاول حتـى أن يُقبِّلـك؟

بالتأكيـد، كان سـيكون جميـلاً الاسـتيقاظ مـع أشـعة الشـمس عـلى الوسـادة، والعصافـير تغـرد، ومشـاهد جميلـة أخـرى عـلى نمـط (الأمـيرة والأقـزام السـبعة)، لكـن الحقيقـة هـي أنهـا أغلقـت ذهنهـا يومـاً كامـلاً، والآن عندمـا اسـتيقظ، لا يسـتطيع إلا أن يتسـاءل: إيـه، مـا كل هـذه الفـوضى؟

هـذا حقيقـي، ولـولا أن تونيـا زرعـت فيهـا الشـك، ربمـا لم تكـن جويـا لتلاحـظ تلـك التفصيلـة، بـل، بـل ألم يبـدُ لهـا شـيئاً مبـشراً بالخـير: فتـى لا يهتـم فقـط بتقبيلهـا؟ شـخص يفضِّـل أن يمكـث معهـا سـاعتين في التحـدث والتقـاط الصـور؟ رأت جويـا الأمـر كأنـه سـبب أدعـى لتثـق بـه أكـثر، وأن تفتـح لـه قلبهـا أكـثر، لكـن الآن وقـد أسـكت النـوم كل هـذه الفـوضى مـن الفـرح والرغبـة والاشـتياق والجـوع والعذوبـة للأمـس التـي تجـري في عروقهـا بـدلاً مـن الدمـاء، انطلقـت تونيـا بسلسـلة مـن الأسـئلة اللاذعـة، التـي نزعتهـا مـن الحلـم بقسـوة: ومـاذا إذا لم يكـن قـد قبَّلـكِ خوفـاً مـن أن يـراه أحدهـم؟ وإذا كان قـد أخـذكِ إلى السـطح فقـط؛ لأنـه هـو المـكان الوحيـد الـذي

يمكنـه أن يفعـل مـا أراده في هـدوء؟ وإذا كان قـد اخـترع كل هـذا فقط ليبعـدكِ عـن الأعـين؟ وإذا كان، بينـما كنتـما تسـيران نحـو البنايـة في وسـط المدينـة، يسـير دائمـاً أمامـكِ واضعـاً القلنسـوة عـلى رأسـه، لكيـلا يـراه أحـد بجـوارك؟

- أوه، أوه، أوه، اهدئي يا تونيا، لقد استيقظت للتو!

في إحـدى المـرات، في المدرسـة الابتدائيـة، أعطتهـم المعلمـة صـورة مليئـة بالأشـخاص والحيوانـات والأدوات، وقالـت للجميـع أن ينظـروا إليهـا جيـداً لمـدة دقيقـة، وسـألتهم إذا كان أحدهـم قـد رأى في الداخـل بعـض القطـط. لا، لم تكـن هنـاك قطـط، لكـن المعلمـة قالـت إنـه توجـد قطـط في الصـورة، بـل عـشر بالتحديـد، لكنهـا مختبئـة جيـداً، وكانـت اللعبـة عبـارة عـن العثور عـلى العـشر. كان تدريبـاً يسـاعد عـلى تقويـة القـدرة عـلى الملاحظـة.

الآن، وبعـد مـرور عـشر سـنوات، شـعرت جويـا بالـشيء نفسـه: في البدايـة لم تـرَ ولا واحـدة مـن القطـط، لكـن الآن تشـعر بـأن عليهـا البحـث عنهـا، وكلـما ركـزت، بـرزت واحـدة مـن مـكان مـا.

القــط الأول: كيــف أن (لــو) لم يحــاول إطلاقــاً أن يعطيهــا رقــم تلفونــه؟

القـط الثـاني: هـل يوجـد فتيـة في سـن الثامنـة عـشرة لا يملكـون هاتفـاً نقـالاً، فيـما عداهـا هـي وتونيـا؟

القـط الثالـث: لمـاذا صعـب عليـه إلى هـذه الدرجـة التحـدث عـن والديـه؟ لمـاذا لم يقـل لهـا أيـن يعيـش، وإلى أي مدرسـة يذهـب، ومَـن أصدقـاؤه؟ حسـناً، هـي أيضـاً لم تسـأله قـط، لكنهـا هنـا أمـام (قـط) في كل الأحـوال، بـل وواقـع أنـه لم يتحـدث عـن تلـك الأشـياء أبـداً، الأمـر الـذي يجعلهـا أمـام (قطـط) كثـيرة.

كانــت تتمنــى أن يكــون (لــو) هنــا أمامهــا عــلى الفــور، كانــت تتمنـى أن تقـول لـه كل مـا يـدور في ذهنهـا، وأن تطلـب منـه أن يـشرح

لها مليون شيء تشعر بأنها ليس لديها تفسير كافٍ له.

قالت لتونيا وهي ترتدي ملابسها: يا للضيق، لم يكن ضروريّاً أن تسير الأمور بهذا الشكل!

- بالتأكيد لا.

لم تكن جويا، بالفعل، قد فكرت تقريباً في الحب في سنوات عمرها السبع عشرة، لكنها كانت متأكدة أنها إذا كانت قد فكرت فيه، إذا كانت قد تخيلته، لم تكن ستراه قط كشيء لا بد أن يمنح أحدهم تفسيراً له: فهي لا تعرف أي شيء عن الحب، لكن ما تعرفه أنه لا يحتاج إلى أي تفسير.

- يكفي أن ينظر الحبيب إلى حبيبه، ينظر إليه فقط وسيفهم كل شيء، بل يفهمه حتى دون أن ينظر إليه.

قالت لتونيا، التي كانت في ذلك الوقت تجلس إلى مكتبها وتنظر إليها بينما ترتدي ملابسها.

أجل، لا بد أن تكون هناك القدرة على معرفة ما يحدث بالفعل، معرفته دائماً، حتى من بعيد، حتى إن كانا منفصلين، بشكل مطلق، معرفة من هو الآخر، وماذا يريد، وماذا يفعل، وبماذا يؤمن؛ لأنه لا بد أن يكون مثل النظر إلى لوحة، أو الاستماع إلى أغنية أو قراءة كتاب: إذا كان المرء بحاجة إلى التفسير؛ فهذا يعني أنها ليست قوية، وليست واضحة، وليست حقيقية؛ لتتمكن من شرح نفسها بنفسها.

45

تدخل إلى الفصل، وتجلس في مكانها، ترتدي جويا قلنسوة الكنزة فوق رأسها، وفي نيتها ألا تتبادل كلمة مع أي مخلوق طوال الصباح، بل والأفضل ألا يقترب منها أحد، ولا يحاول أي شكل من الحوار؛ فاليوم لن ينتهي نهاية حسنة.

لكـن مـن الواضـح أنـه عنـد تمنـي ألا يحـدث شيء مـا، تكـون النتيجـة دائمـاً واحـدة: إنـه يحـدث. وتلتقـط أذنـا جويـا بالمصادفـة حـواراً خلـف ظهرهـا، عـلى بُعـد صفـين مـن المقاعـد.

- تخيلي إذا كانت واحدة مثلها لديها فتى!

- إذا كان لديها فتى سيكون إما مدمن مخدرات أو مسنّاً!

- ليس لديها، ليس لديها.

كان الصـوت صـوت جوليـا باتّـا، وكان أول شـعور لديهـا أن تنهـض وتلقـي بأشـيائها عـلى الأرض. والثـاني أن تـصرخ بأعـلى صـوت يقـوى عليـه جسـدها بـأن يهتممـن بمـا يخصهـن، وأنهـا ليسـت مشـكلة أحـد إذا كان لديهـا فتـى أم لا، وأن هنـاك أطفـالاً يعانـون في سريلانـكا، وبائعـي أعضـاء بشريـة في السـودان، وألغامـاً منتـشرة في يوغسـلافيا السـابقة، أي إن هنـاك مليـارات الأشـياء أهـم، لمـاذا يجلسـن ليتناقشـن مـا إذا كانـت جويـا سـبادا لديهـا فتـى أم لا؟

لكـن، في النهايـة، وكـما يحـدث في العـادة، لم تسـتطع جويـا أن تقـول أيّـاً مـن تلـك الأشـياء. ربمـا حـدث هـذا لهـا مليـون مـرة، تكـون لديهـا الرغبـة في أن تقـول شـيئاً مـا، في أن تجيـب، أن تـرد، ولا تجـد الكلـمات. مثلـما هـي الحـال الآن، كان سـيكون سـهلاً جـدّاً، يكفـي أن تقـول شـيئاً، مثـل: «وأنـتن، مـاذا تعلمـن عـن هـذا؟!»، إلا أن جويـا لا تسـتطيع هـذا، لا تخـرج الكلـمات، تسـتطيع فقـط أن تنظـر إليهـن بطريقـة سـيئة، وأن تقمـع نهـر السـباب المترقـب أن ينفجـر في ثـوانٍ قليلـة جـدّاً مـن الغضـب لتكثفـه في نظـرة كراهيـة قاسـية.

الـشيء السـيئ في هـذا الأمـر أنهـا عمليّـاً، عندمـا سـتعود إلى المنـزل، ويكـون الوقـت متأخـراً، سـيأتيها النقـاش الدقيـق والتـام، الـذي كان لا بـد أن تجريـه مـع باتّـا وصديقاتهـا، لتخرسـهن بشـكل حاسـم. توجـد أيضـاً كلمـة لوصـف هـذا: trepverter، كلمـة ياديشـية تعنـي

بالتحديـد: «الإجابـة الصحيحـة التـي تـأتي بعـد فـوات الأوان». وجويـا مـن أولئـك، الذيـن لديهـم دائمـاً الإجابـة الجاهـزة، لكنهـا عندمـا تكـون متوتـرة جـدّاً، مثـل الآن، يتحـول الأمـر إلى trepverter.

كـن هـن الثلاثـة جالسـات هنـاك إلى مقاعدهـن، جلسـن هنـاك بأفـواه مفتوحـة لثـلاث ثـوانٍ، ثـم عندمـا اسـتطاعت جويـا فقـط أن تتنفـس مـن أنفهـا دون أن تقـول شـيئاً، واسـتدارت لتضـع السـماعات في أذنيهـا، نظـرن إلى بعضهـن ثـم هاجمـن مـن جديـد بضحـكات صاخبـة.

46

- ألا ينظفون هذه المرآة قط؟
- السؤال هو، ألا ينظفون قط هذا المرحاض؟!
- هل فتح أحدكم كتاب التاريخ؟
- فتحته أجل، لكن فقط لأتظاهر أمام والدي!
- إذا دعاني لن أعرف أي شيء!
- هل رأيتِ (مايوناجويا) اليوم؟
- من؟
- يبدو أن شيئاً ما ليس على ما يرام.
- مشاكل جادة يا بنات، صدقنني!
- وماذا تتوقعن بعائلة مثل عائلتها!
- الأب مدمن خمر.
- والأم كذلك.
- بل حتى القط الذي لديهم في المنزل أيضاً.
- لقد سمعت أن أبويها منفصلان.
- يقولون إنهما عادا ليعيشا معاً.

- مـن الواضـح أنهـا تشـعر باليـأس الشـديد حتـى إنهـا اخترعـت فتـى لا وجـود لـه!

- لكن، هل رأيتم صورتها في الإطار؟ جميلة بالفعل!

- أجل، من المعروف أن الفنانين جميعهم مجانين.

- سنجد تلك الفتاة يوماً ما بأذن مقطوعة، أؤكد لكم!

- مسكينة.

- لكـن، ألا يجـب أن يكـون هنـاك نـوع مـن الأماكـن المخصصـة لحـالات مثلهـا؟

- أو معالج نفسي، أو شيء ما!

- مدرسـة مقرفـة، ثـم يندهشـون عندمـا يتخـرج فيهـا مجرمـون مختلـون!

- ثـم إننـي، شيء غريـب: بالأمـس رأيتهـا تجلـس عـلى المقعـد في الحديقـة.

- وحدها؟

- وحيـدة تمامـاً. ربمـا كانـت السـاعة الثالثـة، وكانـت تجلـس هنـاك تحـدق في الفـراغ! ثـم لا أدري إذا كانـت قـد جلسـت بمفردهـا كل الوقـت، لكـن في الثالثـة لم يكـن هنـاك أحـد معهـا.

- هي بالتأكيد ليست فرحة من أي نوع.

- أعطني الروج الأحمر.

- أجل أجل، أنا أيضاً يليق بي جدّاً اللون الأحمر.

- لكنكِ تبدين به كالعاهرات!

- بالضبط!

- إذن، لا بـد أن نفعـل شـيئاً مـا مـن أجـل «تلـك التـي ليسـت فرحـة عـلى الإطـلاق» يـا بنـات.

- ماذا؟ نطلب لها شخصاً يُخرج الأرواح الشريرة؟

- لا يا غبية، يمكن أن نحاول أن نعثر لها على فتى!
- لكن من ستكون لديه الجرأة أن يخرج مع واحدة مثلها؟
- لا أعتقد أنها بهذا السوء.
- ربما إذا اغتسلت!
- يا لكن من دنيئات!
- هيا رن الجرس، لنذهب.
- لحظة، لحظة!
- إذا استدعاني في التاريخ لا أعرف شيئاً.

47

- إذن، يا آنسة سبادا، ماذا تريدين أن تسأليني اليوم؟

كان الجـو مُمطـراً في الخـارج، وهكـذا كانـت الفسـحة في الردهـة. تقـف جويـا مسـتندة إلى الجـدار، هـذه المـرة ليـس لديهـا مـا تأكلـه، لقـد نسـيت أيضـاً طعامهـا في المنـزل، إلا أنهـا لم تكـن تشـعر بـأي جـوع.

- هل يمكن أن تكون الأسئلة شخصية يا بروفيسور؟
- بأي معنى؟
- لا أعلم، لكنني لا أريد أن أتجاوز حدودي!
- أتعلمـين، شـخص يُدعـى أوسـكار وايلـد قـال يومـاً مـا: الأسـئلة ليسـت مطلقـاً تجـاوزاً للحـدود، لكـن هكـذا تكـون الإجابـات في بعـض الأحيـان!

ابتسـمت جويـا، وابتسـم أيضـاً البروفيسـور في وسـط تجاعيـده التي تمنحـه عـلى الأقـل عشريـن عامـاً أكـبر مـن سـنه. عـلى سـترته الرماديـة الفاتحـة كانـت تظهـر بقـع الأمطـار، وكانـت جويـا تشـعر برغبـة في أن تلمسـها لتشـعر بالرطوبـة عـلى أطـراف أصابعهـا.

- هـل وقعـت في الحـب مـن قبـل؟ سـألته. وانفجـر الأسـتاذ حرفيّـاً في الضحـك أمامهـا. ضحـك بقـوة حتـى إن الطلبـة في الجـوار التفتـوا جميعهـم نحـوه.

قالت جويا: هل أعتبر ذلك «أجل»؟

أجابهـا هـو، وهـو لا يـزال يضحـك: بـل اعتبريهـا: إذا لم أكـن قـد وقعـت في الحـب لكنـت الآن ميتـاً أو في سـجن مـا.

- إذن، فأنـا كنـت أريـد أن أسـأل حضرتـك... إننـي في الحقيقـة لا أعـرف حتـى مـاذا كنـت أريـد أن أسـأل.

- اسألي فقط يا آنسة، اسألي فقط!

عندئـذٍ تنفسـت جويـا بعمـق وانطلقـت: هـل شـعرت يومـاً أن الشـخص الـذي أمامـك ليـس هـو الشـخص الـذي أمامـك؟

توقف البروفيسور بوفه فجأة عن الضحك: كيف، معذرة؟

- أجـل، أقـول... هـل شـعرت يومـاً بالخـوف مـن أن تكـون مـن النـوع الـذي يخلـق صـورة خاصـة بـك عـن الشـخص الـذي معـك، صـورة، ربمـا لا دخـل لهـا عـلى الإطـلاق بالشـخص الفعـلي؟

نظـر إليهـا البروفيسـور مرتبـكاً بعـض الـشيء، ثـم تقـدم نصـف خطـوة نحوهـا، وقـال لهـا، بصـوت منخفـض: دائمـاً، يـا آنسـة، دائمـاً، لكـن لا تقلقـي! إذا كان الخيـال والحقيقـة لا يتفقـان، سـتدركين ذلـك بسرعـة شـديدة!

48

حسناً، الهدوء، لا داعي للفزع.

بالأمس أيضاً تأخر خمس دقائق، بل، ستّاً.

ربما يكون من نوع الفتية الذين لا يهتمون بالساعة.

نعم، ربما.

لكـن جويـا كان لديهـا الوقـت لتفكـر، وفي تلـك الحـالات تُفضـل ألا يكـون لديهـا أي وقـت؛ لأنـه يكفـي قليـل مـن الوقـت لتعـود إليهـا مـرة أخـرى الشـكوك؛ فهـي تسـتغل أقـل ثغـرة لتظهـر في العـراء.

ست دقائق من التأخير.

كانـت تريـد أن تسـأله عـن كل شيء، أن تفهـم مـرة واحـدة مـاذا يحـدث مـع والديـه، ولا يهـم إذا كان سـيتصرف بطريقـة سـيئة أو حتـى يتظاهـر بالجنـون؛ هـذه المـرة تريـد أن تكتشـفه؛ لأنهـا لا تريـد أن تتقاسـم معـه الأشـياء الجميلـة فقـط، لا تريـد فقـط الزهـور والـورود؛ لأن كل شيء سـيكون مزيفـاً إذا كان كلـه زهـوراً وورودا، وجويـا سـبادا تقـرف من الزهـور والورود.

سبع دقائق من التأخير.

ثـم تريـد أيضـاً أن تنظـر إليـه في عينيـه وأن تسـأله، مبـاشرةً، وتقـول لـه: هـل أنـت متأكـد مـن أنـه ليسـت لـك فتـاة أخـرى؟ فهـي تريـد أن تعـرف - إذا كان بالمصادفـة - ليـس سـوى الذكـر المعتـاد، الـذي عـثر عـلى تلـك السـاذجة، ويرغـب في اسـتغلال الفرصـة.

ثمـاني دقائـق مـن التأخـير. توجـد كلمـة بلغـة أهـل الإسـكيمو لتعـبِّر عـما تشـعر بـه في هـذه اللحظـة: iktsuarpok، التـي تعنـي: الإحبـاط الـذي يشـعر بـه المـرء عندمـا ينتظـر شـخصاً قـد تأخـر. مـن يـدري إذا كان أهـل الإسـكيمو قـد فكـروا أيضـاً في أن يشـتقوا صفـة تشـير إلى «الرغبـة في تحطيـم وجـه شـخص ليـس فقـط متأخـراً، لكنـه قـرر بالفعـل ألا يصـل في ميعـاده». إذا لم تكـن هنـاك، فربمـا اخترعتهـا هـي بعـد قليـل.

ربمـا مـن الأفضـل أن تسـتمع إلى بعـض الموسـيقى حتـى لا تفكـر كثـيراً في الأمـر... شيء مـا يثـير بعـض الضجـة، شيء يخفـض مـن صـوت أفكارهـا. أغنيـة 1979 لفريـق Smashing Pumpkins. أجـل، هـذه سـتفي بالغـرض.

تسع دقائق من التأخير.

- (لو)، أين أنت؟

قالت عندما انتهت الأغنية التي لم تكن كافية لتسكت أفكارها.

قالت: (لو)، إذا لم تظهر هنا أمامي خلال خمس دقائق، أعرف أنك ميت لا محالة.

خمس عشرة دقيقة من التأخير.

عشرون دقيقة.

نصف ساعة.

ساعة.

لا شيء. لن يأتي. لم يأتِ.

نهضت جويا، وانصرفت ببطء، وهي تفكر في أن بوفه قال لها بسرعة، لكنها لم تكن تتخيل أن هذا سيحدث بهذه السرعة.

49

الأنوار مطفأة في داخل المنزل. خبر جيد: أهلها في الخارج. يمكن لجويا أن تذهب بهدوء لتيأس فوق وسادتها، دون أن يجبرها أي شخص على أن تتظاهر بأنها في حالة جيدة.

لكنها بمجرد أن أدارت المفتاح في الباب، وعند دخولها، أدركت أن هناك شيئاً ما ليس على ما يرام: توجد فوضى غريبة؛ أي إنه توجد فوضى أكثر من تلك المعتادة، ولم يأتِ جاكو، القط الشبح؛ ليقابلها كما يفعل تقريباً دائماً، ولا حتى يظهر في أي مكان كأنه مختبئ.

تسير جويا ببطء في المنزل وهي تحاول أن تفهم ماذا حدث، تنير النور وتذهب إلى الصالة، ثم إلى المطبخ، ثم تذهب أيضاً إلى الحجرة الصغيرة لجدتها، وتجد عينيها جاحظتين كأنها مفزوعة.

وهكـذا، تسـير نحـو غرفـة أبويهـا، وهنـاك تـرى أمهـا، تجلـس عـلى ضـوء المصابيـح الخارجيـة، منكمشـة في وضـع الجنـين. ولم تكـن بحاجـة إلى أن تـضيء النـور، ولا إلى أن تقـول لهـا: هـل كل شيء عـلى مـا يـرام؟ لأنهـا كانـت تعلـم بالفعـل أن الـرد هـو «لا»، وأن لا شيء عـلى مـا يـرام، وتعـرف بالفعـل أنـه قـد حـدث مـن جديـد، مـرة أخـرى، كـما يحـدث دائمـاً.

استدارت الأم ورفعت رأسها.

- أهلاً، أنتِ هنا؟ يوجد دجاج في المبرد.

- لا، لست جائعة.

- آسفة على الفوضى في الخارج. كان هناك... على كل حال...

- أعرف بالفعل ماذا كان هناك، لا داعي لأن تقوليه لي.

- لكـن لا، الأمـر ليـس كـما تظنـين أنـتِ، فعـلاً! لقـد كنـت أنـا التـي...

ضغطـت جويـا زر النـور. أغلقـت أمهـا عينيهـا لتحميهـما مـن الضـوء، كان وجهها كلـه أحمـر اللـون. وجنتهـا اليـسرى، بصفـة خاصـة، كانـت عليهـا علامـة، سـبق لجويـا أن رأتهـا مـرات أخـرى عديـدة.

نظـرت جويـا إلى أمهـا دون أن تقـول أي شيء، ازداد فقـط إيقـاع أنفاسـها كأنهـا تشـعر بالفـزع. لا، الفـزع ليـس الكلمـة المناسـبة، لكـن الفـزع والاشـمئزاز معـاً. إذا كان يمكنهـا اخـتراع كلمـة سـتكون فزعـة - مشـمئزة.

- ماذا بكِ يا جروتي؟

- ماذا بي؟ ماذا بي؟

الآن تفتـح أمهـا عينيهـا، والنـور يؤلمهـا أكـثر. تلمـس وجههـا، والمناطـق المصابـة، كأنهـا تتذكـر في تلـك اللحظـة فقـط مـا حـدث. ثـم تقـول فقـط: آه، وتخفـض نظرهـا، ثـم تسـتكمل: لكـن حقـاً يـا جـروتي،

أنـا التـي اسـتفززته. كان هـو فقـط... وأنـا لم يكـن يجـب أن...

أومـأت جويـا بـ«لا» برأسـها غـير مصدقـة، وكان بمكنهـا أن تدفع أي شيء ليكـون مـا تـراه أمامهـا خلفيـة مـسرح مـا، تلـك المصنوعـة مـن الـورق المقـوى؛ لتتمكـن مـن تمزيقهـا، وسـحقها بقدميهـا؛ لـترك مـا تـراه أمامهـا، وجـه أمهـا بتلـك البقعـة المثـيرة للاشـمئزاز، والملاءة التـي لم تتغـير منـذ شـهرين، والـتراب عـلى الطاولـة الجانبيـة، والشـعر المبعـثر لتلـك المـرأة التـي تثـير الشـفقة والرغبـة في الصفـع عـلى وجههـا معـاً؛ صفعهـا عـلى وجههـا أكـثر مـما فعلـه فيهـا أبوهـا. كاتـب السـيناريو والمخـرج أنتجـا عمـلاً لا يمكـن مشـاهدته: حبكـة مقرفـة، والممثلـون أسـوأ. ليـس بسـبب الـضرب ولا الدمـوع، ليـس بسـبب الكحـول، ومـا إلى ذلـك، لكـن لأن كل شيء سـهل التوقـع. هـذا هـو بالتحديـد الـشيء الـذي لا يسـير عـلى مـا يـرام. إن كل شيء يمكـن توقعـه، كل مشـهد يمكـن معرفـة كيـف سـينتهي؛ وهـذا هـو الـشيء المثـير للحـزن، أكـثر شيء محـزن.

- هل أعد لكِ شيئاً؟ هل أكلتِ؟

سـألتها أمهـا، وكل مـا اسـتطاعت جويـا أن تفكـر فيـه هـو أنهـا تريد بالفعـل أن يكـون (لـو) موجـوداً، أو يكـون هنـاك، ربمـا لـو اسـتطاعت فقـط أن تهاتفـه، وأن تحـكي لـه كل شيء، وتقـول لـه ذلـك الـذي رأتـه، وأن تنهـي مسـألة «الأشـياء الجميلـة فقـط» نهائيّـاً، بـل أن تحـضره، وتصحبـه لـيرى الأشـياء السـيئة، وأن تحـاول أن تصـف لـه شـكل عينَـي أمهـا المغلقتـين بسـبب النـور، وذلـك اللـون الموجـود عـلى وجههـا، وكـم هـو وغـد أبوهـا، وكيـف لا تسـتطيع غفـران سـذاجة أمهـا في تصديقـه مـرة أخـرى، بعـد أعـوام يكـرر فيهـا القصـة الغبيـة نفسـها.

إنها تفتقده.

تفتقد فتاها.

لكـن أكـثر مـن ذلـك، تفتقـد أن تُطلعـه عـلى بعـض الأماكـن، التـي لم يأخذهـا إليهـا قـط، وأن تذهـب هـي لـترى الأماكـن التـي أزاحهـا بعيـداً عنهـا.

للمـرة الأولى، بطريقـة تـؤلم لهـا معدتهـا وذراعيهـا وقدميهـا، تشـعر جويـا بأنهـا تريـد (لـو)، تريـده هنـا، وتريـده الآن.

50

يدخل بوفه.

- صبـاح الخـير يـا أولاد. الآن أريـد أن يأخـذ كلٌّ منكـم واحـدة مـن تلـك الأوراق.

يقـول هـذا وهـو يمـر بـين المقاعـد لتوزيعهـا. عندمـا يصـل إليهـا، إلى جويـا، ويضـع لهـا الورقـة، يغمـز لهـا، ثـم يسـتمر في توزيعهـا عـلى بقيـة الفصـل.

يقـول بوفـه، وهـو يقـف أمـام مكتبـه: في أحـد الأبحـاث الإحصائيـة، نتـج أن الأولاد، في الأعـمار بـين الخامسـة عـشرة والخامسـة والعشريـن، يعـرف كل منهـم، في المتوسـط، 800 كلمـة، كل منهـم.

لا يوجـد أي رد فعـل في الفصـل... بـل لا، تثـاءب أحدهـم، وكانـت باتّـا تنظـر في المـرآة الصغـيرة.

- للأسـف لأن الإيطـالي المثقـف يعـرف نحـو 47 ألـف كلمـة. والخطـورة هنـا، أنـه عندمـا تصبحـون أنتـم كبـاراً، سـيختفي عـدد مـن تلـك الكلـمات. سـتنقرض كـما حـدث للبانـدا ووحيـد القـرن.

قال بوفه، وهو ينظر إلى الوجوه الناعسة في الفصل.

سـأل أحدهـم مـن نهايـة الصـف: أسـتاذ، هـل وحيـد القـرن عـلى وشـك الانقـراض؟

إلا أن بوفه لم يجبه.

- هل فهمتم، إذن، ما نحن بصدد عمله اليوم؟

وكانت وجوه الطلبة تقول: «لا، لم نفهم». نظر إليهم بوفه وكان يمكنه أن يغضب أو يتنفس بضيق، وأن يتصرف بالطريقة الكلاسيكية للأساتذة؛ وذلك من خلال تعبير يظهر على وجهه يعني: «يا له من فصل بشع! إنكم أسوأ مَن درستهم، إلخ»، لكن بوفه هو بوفه: لا يفعل ذلك إطلاقاً، بل عندما يتجاوز جهل تلاميذه كل الحدود التي اكتشفها الإنسان، لا يتعامل معهم بطريقة سيئة مطلقاً، لا يسخر منهم، ولا يلقي بنكات لاذعة، بل يبتسم، تقريباً كأب يرى ابنه يسقط متعثّراً دون أن يؤذي نفسه.

- الآن، سنقوم بعمل شيء كالصندوق العالمي للطبيعة[19]، لكن للكلمات. سننقذ بعضها. كل واحد منكم سينقذ كلمة. كلمة سيتبناها كل منكم الآن، وستلتزمون بأن تستخدموها قدر استطاعتكم، وأن تشرحوا معناها لمن يسألكم عنها.

اعترض كازالي: لكن حضرتك لست أستاذ اللغة الإيطالية!

- «بالتأكيد يا سيد كازالي»، أجابه بوفه، وهو يبتسم وينظر إلى زملائه، «لكن هل إذا أهديتك الآن 100 يورو ستقبلها؟».

- بالتأكيد يا أستاذ، هل هذا سؤال!

- حسناً، لكنني لست ورقة يانصيب!

تضحك جويا، لكنها الوحيدة.

- أستاذ! لقد ألقيت عن طريق الخطأ بورقتي!

قال بوتشا، رفيق كازالي على المقعد، وذراعه اليمنى، إذا كان ذلك هو التعبير الأصح، نظراً إلى أن كازالي لا يعطيه سوى اعتبار الإصبع الصغير في قدمه اليسرى.

---

(19) WWF اختصار لـWORLD WIDE FUND FOR NATURE؛ وهي منظمة دولية غير حكومية تعمل على الحفاظ على البيئة.

- حسناً، أيها السيد العزيز بوتشا، هذا يعني في تلك الحالة أن الكلمة التي ستتبناها هي «ثلاث».

- لكن «ثلاث» يعرفونها جميعاً، وليست في طريقها إلى الانقراض!

اعترض بوتشا، الذي لم يكن قد انتبه حتى هذه اللحظة؛ لأن الأستاذ قد فتح دفتر التسجيل. وانطلقت الضحكات، من الجميع هذه المرة.

سأله كازالي: لكن يا أستاذ، ماذا عن معناها؟

- «لنقل هكذا»، أجاب بوفه، بينما يُخرج من الخزانة معجماً ضخماً ويضعه بوضوح على مكتبه، «عندما يتبنى أبوان طفلاً، في رأيك، هل يذهبان لاستقباله في المطار أو يستلمانه من الملجأ، أم يرسله أحدهم لهما إلى المنزل؟».

- ماذا؟

- ستجد مُعجماً، وستبحث عن المعنى!

تنفس كازالي بضيق، والتفت نحو سارا كوستا، جهبذ الفصل، وسألها: ما معنى «الذاتوية؟»، لكن كوستا لم تجبه.

أخذ باقي الفصل، في أثناء ذلك، كلٌّ في قراءة الكلمة المكتوبة على ورقته. بعضهم بدأ في همسها، آخرون سألوا مَن بجوارهم: وأنت ماذا لديك؟ وآخرون أخذوا يرددونها بصوت مرتفع، دون أن يعرفوا بالتحديد بما نطقوا. وهكذا، لبضع ثوانٍ، كانت تُسمع أصوات تقول أشياء، مثل: «يُناصر»، «فصاحة»، «رجعي»، «بوادر»، «تقطير»، «جسيم»، «اشرأبّ»، «وفرة»، إلخ، ووقع ذلك يعجب جويا، حتى إن كانت كلها كلمات لا تعرفها، لكنها كانت تجد مجرد الاستماع إليها جميلاً، ومعرفة أنها موجودة، وأنه توجد أشياء لا تعرفها ويمكنها تعلمها، يوماً ما، وهذا نزع عنها التفكير في (لو) لثوانٍ، أو على الأقل أبعده.

- وحضرتك يا آنسة سبادا، ما كلمتك؟

سـألها بوفـه وهـو يبتسـم، وعندئـذٍ فقـط تكتشـف جويـا أنهـا لم تكـن قـد قرأتهـا بعـد. وهكـذا، تفتـح الورقـة التـي تجـد مكتوبـاً فوقهـا: «يُبهـر».

- «إذن، مـا يجـب عملـه الآن إنقـاذ هـذه الكلمـة مـن الانقـراض. اكتشـفي معناهـا، ثـم اسـتخدميها كلـما اسـتطعتِ!» قـال لهـا بوفـه.

ومـن الصـف الأخـير يقـول بوتشـا: إذن، هـل يجـب عـليَّ أن أردد «ثـلاث» باسـتمرار يـا أسـتاذ؟

51

يُبهـر: فعـل متعـدٍّ، يعنـي ضـوءاً قويّـاً يقـترب مـن العـين ويعـوق الرؤيـة مجازيّـاً؛ بمعنـى الخـداع: بعـض الجـمال يبهـر الذهـن، يسـتحوذ عليـه ببريـق مزيـف. يمكـن أن يكـون مرادفـه: يسـطع أو يخـدع.

يسطع أو يخدع في كلمة واحدة: يبهر.

- بعض الجمال يبهر الذهن، يستحوذ عليه ببريق مزيف.

تسـير جويـا سـبادا في الردهـة، وفي أثنـاء ذلـك تكـرر باسـتمرار «يبهـر»، بصـوت منخفـض، كأنهـا تريـد اسـتيعاب معناهـا بطريقـة أفضـل، وأن تجعلهـا كلمتهـا. وأخـذت تتسـاءل إذا كانـت هـذه الكلمـة قـد وصلـت إليهـا بمحـض المصادفـة، لكـن مـا توصلـت إليـه، بينـما تجـبر نفسـها عـلى تنـاول بعـض المقرمشـات، وتعيـد التفكير في ابتسـامة بوفـه وهـو يقـدم إليهـا الورقـة، هـو نفـي هـذا.

ورأت مـن بعيـد البروفيسـور بوفـه جالسـاً عـلى مقعـد يقـرأ كتابـاً: العـالم كإرادة وتمثيـل. ربمـا هـذه المـرة أخذتـه القـراءة، ونـسي أن يقـوم بطقسـهما اليومـي، فذهبـت هـي إليـه.

- هل يمكن أن أجلس هنا دقيقتين يا أستاذ؟

- بالتأكيد يا آنسة سبادا.
- اليوم كنت أريد أن أسأل حضرتك...
- أجل.
قاطعها هو دون أن يرفع نظره عن الكتاب.
- أجل ماذا؟
_ أجل، من الممكن.
نظرت إليه جويا وهي تقطب حاجبيها.
وهو في هدوء، وعيناه لا تزالان تنظران إلى الكتاب: أجل يمكن أن يبرق شيء بشدة حتى يخدعنا. أي ضوء عندما يزيد على الحد؛ يتسبب في اضطراب في الرؤية.
نظرت إليه جويا بفم مفتوح.
وعيناه لا تزالان فوق الكتاب، أكمل: وأعطيتك هذه الكلمة؛ لأنني أعرف أنكِ مهووسة بالكلمات التي تصعب ترجمتها بكلمة واحدة.
- حقّاً؟
- أجل؛ فهي كلمة تعني الضوء الشديد جدّاً الذي يسبب الألم؛ وهذا أيضاً ممكن؛ ولهذا لا ننظر إلى الشمس مباشرةً؛ لأن هذا يؤلمنا. وليست مصادفة أن الإبهار يمكن أن يتحول إلى تعذيب؛ فالضوء الشديد عن اللازم، والسعادة الزائدة عن اللازم، يمكنهما أيضاً أن يكونا نوعاً من التعذيب.
مكثت جويا هناك، وقد خفضت عينيها، في وسط أصوات الأكل والضحكات. كانت تريد أن تطرح عليه سؤالاً، لكنها لم تجد الكلمات. تعرف أنها تريد أن تسأله عن شيء ما، لكنها لا تعرف ما هو. وفي ذلك الوقت، أغلق بوفه الكتاب، نهض وقال، قبل أن يذهب وهو يصفر: على كل حال، إذا تذكرتِ، كلنا نُخدع،

دائماً، وكل يوم، لكن من الأفضل أن نُخدع بالضوء الشديد وليس بالظلام.

52

أول مكان ذهبت إليه لتبحث عنه هو حانة فيها ركن لرمي السهام.

وصلت إلى هناك وفكرت كم يبدو مختلفاً تماماً في أثناء النهار... الضوء، المسنون الجالسون على الموائد في الخارج ويلعبون الورق.

تدخل بخجل، وتتوجه إلى طاولة البيع؛ حيث توجد فتاة تغطيها الوشوم، منهمكة في تشغيل غسالة الأطباق.

- من فضلك.

- الحمام من هناك، لكن للدخول يجب أن تطلبي!

تقول لها دون حتى أن تلتفت.

- لا، في الحقيقة، أنا هنا لأنني بحاجة إلى معلومة.

الفتاة، التي تبدو كأنها النسخة النسائية من مغني روك، تتنفس بضيق، وتلتفت للمرة الأولى وتنظر إليها في وجهها، ويبدو عليها الضيق.

- ماذا تريدين؟

- أبحث عن... أبحث عن فتى.

- صغيرتي. لستِ الوحيدة، لكن إذا كان لديكِ أمل في العثور عليه في جحر عفن كهذا، سيكون بحثاً عسيراً! هنا لا يوجد غير أرباب المعاشات والمُدمنين!

- لا، في الحقيقة أنا...

- آه، حسناً، أجل، في بعض المرات يكونون أيضاً على المعاش ومُدمنين، لكن يجب أن تكوني محظوظة.

- لا، اعذريني، أنا لم أوضح نفسي جيداً. أعرف مَن الذي أبحث عنه، إنه فتى يأتي إلى هنا من حين إلى آخر ليلعب بالأسهم.

- آه فهمت، لا بد أنه أحد هؤلاء الذين يهربون من المدرسة ويأتون إلى هنا طوال الظهيرة، ويتسببون في ضوضاء لا أتمكن بسببها من وضع الطفلة لتنام. ما اسمه؟

- اسمه لورينزو، لكنهم ينادونه (لو).

- جربي وانظري، ربما يكون أحد هؤلاء المنحوسين هناك.

قالت لها فتاة البار وهي تشير إلى صبية يلعبون بالأسهم في الخارج.

ألقت جويا نظرة، لكنها رأت على الفور أن (لو) ليس بينهم، لكنها لم تكن تتوقع أن تراه، على كل حال.

- لا، ليس هنا، لكنه يأتي إلى هنا في أثناء الليل فقط.

رفعت فتاة البار عينيها نحو السماء. وحتى إن لم تنطق بها، فكان يمكن سماع كل اللعنات التي تمر في ذهنها.

- في الليل.

- أجل.

- إذن، فأنتِ تقولين لي، إذا لم أفهم خطأ، إنه يوجد وغد يأتي إلى هنا في الليل، ويتسلى بأن يلعب بالسهام في حانتي؟

- مم... أجل.

- ولنسمع هذا، هذا الغبي، الذي يحمل أغبى اسم سمعته على الإطلاق، يأتي كثيراً إلى هنا؟

- لا أعلم، لكني أعتقد هذا.

- حسناً، إذن، اصنعي لي معروفاً، وقولي له إنني إذا أمسكت به يلعب في حانتي، ليلاً، فإن الأسهم سأضعها في كل ثقب في جسده!

وبينما تقول هذا كانت تبدو جادة جدّاً، بل لنقل إنها كانت

تبدو كشخص لم يمزح قط في حياته. وفهمت جويا أن الأمر لا يسير على ما يرام، وتأهبت للرحيل، لكنها عندما وصلت إلى الباب توقفت وسألتها مرة أخرى: إذن فحضرتك لم تري قط أي شخص يُدعى لورينزو، أو (لو)، في تلك الأنحاء، في الفترات الأخيرة؟

تنفست فتاة المشرب، كأنها تتمالك أعصابها، ثم أجابتها: لا يا بنيتي. لا يوجد أي وغد يُدعى (لو). على كل حال، ابتعت المكان فقط منذ ستة أشهر. والآن، إذا لم يكن لديكِ مانع، ولن يتسبب في إزعاجك، أرجو أن تغربي عن وجهي.

53

في الحديقة، وفي شوارع وسط المدينة، وعلى سطح المنزل؛ حيث تضاجعا، في كل مكان.

وفي قائمة أرقام الهاتف، لا يوجد أي (فيتا). ربما سيكون الاسم الموجود على قائمة أرقام الهاتف اسم أمه، ولا يوجد أي أمل في أن تعثر على عنوانه.

ولا أثر له أيضاً على مواقع التواصل الاجتماعي. حاولت أن تبحث من خلال الحاسوب في المنزل، عن طريق حساب أمها، على «إنستغرام» و«فيسبوك»، وكل وسائل التواصل الاجتماعي الممكنة. فعلت ذلك في أثناء نومها، لكن لا شيء، لا يوجد أي شخص باسم لورينزو فيتا.

والآن هي هناك في الشارع، على أمل أن تلتقي به مصادفةً في أي مكان، على الرغم من أنها تعرف أن هذا لن يحدث.

جويا سبادا، وقدماها تغليان في حذاءيها من المشي الكثير، وفي كل مرة يبدو هو هناك، في كل فتى يرتدي كنزة بقلنسوة، وجميعهم يكونون (لو) لمدة أقل من ثانية، جميعهم فتاها، ثم

يصبحـون شـخصاً آخـر؛ ذلـك الـذي يقلـب معدتهـا الآن، هـو أن هـذا يجعلهـا تشـعر بأنهـا أغبـى فتـاة عـلى وجـه الأرض، بـل في النظـام الشـمسي، والكـون كلـه.

إلا أنهـا تعـرف أنـه موجـود؛ لقـد رأتـه ولمسـته وقبّلتـه، وشـعرت بـه في داخلهـا. وأيضـاً إذا كان الدليـل الوحيـد عـلى وجـوده هـي تلـك الكنـزة التـي أهداهـا إليهـا، فـإن أدلـة كثـيرة محفـورة عليهـا، ومحفـورة في داخلهـا، عـلى قلبهـا ورئتيهـا؛ فهـو في كل مـكان.

وليسـت هـذه فكـرة جيـدة، خصوصـاً أن جويا تشـعر بأنهـا لا بد أن تكرهـه، لكنهـا لا تسـتطيع ذلـك. هنـاك شيء يحـدث في الثانية السـابقة للكراهيـة. مثـل ذلـك الشـعور بأنهـا تريـده هنـا، وتشـعر بالعطـش والجـوع نحـوه، لطعـم قبلتـه، ولـون عينيـه، لابتسـامته تلـك السـاحرة، وعندمـا يناديهـا (شيء)! ليـده في يدهـا، وعندمـا تكـون السـماء الزرقـاء فـوق رأسـيهما، لقلنسـوته السـوداء، ونكاتـه، لـه هـو نفسـه.

لكنهـا ليسـت المـرة الأولى التـي يحـدث هـذا لهـا. أن تعـرف أن عليهـا أن تشـعر بـشيء مـا، لكنهـا لا تسـتطيع. إنـه الـشيء نفسـه مـع أمهـا. تعـرف أن عليهـا أن تكرههـا بسـبب كل مـا تفعلـه وفعلتـه وسـتفعله، لكـن لا فائـدة. في النهايـة، في الثانيـة السـابقة للكراهيـة، يحـدث دائمـاً شيء آخـر.

وهكـذا، بينـما تسـير وتشـعر بالفعـل بتعـب قدميهـا، أدركـت أنهـا تشـعر بنـوع مـن الحنـين لفـترة مـا قبـل وجـود (لـو)، قبـل أن تعرفـه وتتحـدث معـه وتقبّلـه ويتضاجعـا؛ لأنهـا في تلـك الفـترة السـابقة لم تكـن تشـعر بـأي ألم. لم تكـن بخـير، لكـن عـلى الأقـل لم تشـعر بمعدتهـا مقفولـة هكـذا، ولا بـأي أمـل أحمـق بأنـه خلـف كل كنـزة سـوداء بالقلنسـوة سـتجده. وهـذا الـشيء يغضبهـا حاليـاً.

الآن تشـعر بالغضـب نحـوه، ليـس لأنـه اختفـى، ولا حتـى لأنـه ربمـا كل مـا أراده منهـا أن يحملهـا إلى الفـراش ثـم يتركهـا هنـاك، لكـن

لأنـه جعلهـا تصـدق في وجـود ذلـك الـشيء، أنـه ممكـن، وليـس مجـرد كذبـة اخترعهـا المؤلفـون وكتَّـاب السـيناريو، وأنـه في مـكان مـا، يوجـد شـخص مـا، والآن تلـك الخدعـة الكـبرى، اختبرتهـا جويـا، وتعـرف أنـه لا شيء يمكنـه أن يقـارَن بهـذا. الآن لـن يعـود أي شيء كـما كان، في البدايـة كانـت كل الأشـياء متشـابهة، الآن تعـرف أن هنـاك شـيئاً مـا يمكنـه تحريـك الركـود، هـذا الـشيء بالفعـل موجـود؛ وهـذا هـو مـا يجعـل معدتهـا تعتـصر أكـثر مـن أي شيء، فقـد رأت النـور الـذي أبهرهـا؛ وهذا هـو العـذاب؛ فذلـك الضـوء الشـديد جعلهـا تشـعر فجـأة بالحنـين إلى الظـلام، وتضغـط عـلى أسـنانها، وتنفـخ الهـواء مـن أنفهـا، وتغضـب أكـثر وأكـثر، وانتابتهـا الرغبـة في أن تكيـل اللكـمات لـكل شيء، ولـكل شـخص. وعندئـذٍ بـدأت جويـا، التـي لا تسـتطيع أن تكيـل اللكـمات، في مـا هـو أقـرب لذلـك، أمسـكت بآلـة التصويـر وبـدأت في التقـاط الصـور، بطريقـة عشـوائية، بعصبيـة، وبغضـب، ولم يهمهـا إذا كانـت مـن الوجـه أو مـن الخلـف، أخـذت تضغـط عـلى الـزر وتصـور كل شيء والجميـع، وهـي تسـير، بـل تجـري تقريبـاً. لاحـظ النـاس ذلـك، بعضهـم نظـر إليهـا بغضـب، لكنهـا لم تهتـم، بـل اسـتمرت، وصـورت أخـرى صـوراً بمنزلـة لكـمات ضـد الريـح، حتـى أمسـك شـخص، تقريبـاً في الخمسـين مـن عمـره، يرتـدي ربطـة العنـق ويمسـك بحقيبـة في يـده

- أمسـك ذراعهـا وقـال لهـا: أنـتِ، لمـاذا التقطـتِ لي صـورة؟

أبعدتـه جويـا عنهـا وهربـت، أخـذت تجـري وآلـة التصويـر في يدهـا، وبينـما هـو يصيـح بـشيء مـا، ذهبـت هـي، وفي أثنـاء هروبهـا اسـتمرت في التقـاط الصـور، كلهـا عشـوائية، بالمصادفـة، حتـى وصلـت إلى الميـدان المركـزي، ووجـدت مقعـداً وجلسـت عليـه.

أخذت جويا تتنفس بسرعة.

وبدأت نقطة ماء تسقط من عينها اليسرى، ولم تكن عرقاً.

أسندت رأسها إلى ظهر المقعد، ونظرت إلى أعلى.

ثلاث ثوانٍ.

ثم قالت: كم أنا حمقاء! وهي لا تزال تنظر إلى فوق.

وضعت آلة التصوير في حقيبتها. نهضت وذهبت مباشرةً نحو المبنى الذي كانا فيه معاً.

54

جلست على الأرض فوق السطح، تماماً في المكان الذي رأت فيه منذ يومين، في جزء من الثانية، مخرج النفق.

كان لديها قلم رصاص في يدها وورقة. أخذت تعض القلم الرصاص، وهي تنظر إلى أسطح البنايات الأخرى، وهوائيات التلفزيونات، والأسلاك الكهربائية. وكانت الورقة صفحة نزعتها من مفكرتها.

عندما انتهت من الكتابة، أخرجت عبوة من الألوان الرشاشة كانت قد ذهبت لشرائها منذ خمس دقائق بالنقود القليلة التي كانت في جيبها، ووضعتها في حقيبتها، ثم صعدت إلى فوق. كتبت على الجدار: «إلى لو»، ورسمت سهماً يشير مباشرةً إلى ثقب في الجدار، ووضعت الورقة هناك في الداخل.

ماذا يا أداة التعريف!

أنا لا أعرف ماذا حدث.

ربما خطفك أحدهم وأخفاك في كهف ما أسفل الأرض في انتظار أن يدفع أبواك الفدية، من يدري!

على كل حال، أحتاج إلى أن أتكلم معك. إذا أردت، وإذا كنت ما زلت فتاتك، اتصل بي في المنزل، أو اكتب لي على هذه الورقة.

سلام

جويا

قبـل أن تكتـب «جويـا»، مكثـت 10 دقائـق كاملـة لتفكـر إذا كان يجـب أن تكتـب قبلهـا «فتاتـك»، وخلفهـا فاصلـة. ووضعـت أيضـاً طـرف القلـم الرصـاص عـلى الورقـة عـلى الأقـل سـبع مـرات، دون أن تكتبهـا قـط، ثـم قـررت ألا تضعهـا. حتـى إذا كانـت هـي تشـعر بذلـك، لا تعـرف إذا كانـت كذلـك بالفعـل، وعـلى كل حـال، لم تكـن تريـد أن يعتقـد هـو أنهـا لا تـزال فتاتـه. ليـس بهـذه السـهولة.

وبينـما تضـع الورقـة في الثقـب، فكـرت في أن تلـك الحيـل لا تعجبهـا عـلى الإطـلاق. ربمـا تسـير الأمـور هكـذا بالنسـبة إلى الجميـع، ربمـا هكـذا تسـير الأمـور ببسـاطة، ويجـب أن يتظاهـر المـرء بأنـه يهتـم أقـل مـن الحقيقـة؛ لأنـه إذا أظهـر الاهتـمام الحقيقـي، ربمـا فقـد الطـرف الآخـر اهتمامـه. وبالتأكيـد، هنـاك في أسـفل الآن توجـد آلاف الفتيـات والفتيــة مأخوذيــن بتلــك الطريقــة في التفكــير، ويرســلون رســائل بالهاتــف لأصدقائهــن أو لصديقاتهــم، بهـا عبـارات مثـل: «في رأيـك، مـاذا ينبغـي أن أقـول لهـا؟».

ربمـا هكـذا تسـير الأمـور، لكـن هـذا لم ينجـح في أن يمحـو مـن وجههـا تعبـير ضيـق وإحبـاط، وهـي تعيـد وضـع الورقـة المطويـة في فتحـة الجـدار.

لا، لا تريـد أن تسـير الأمـور هكـذا، عـلى الأقـل بالنسـبة إليهـا. لا تحـب تلـك الألعـاب.

لكـن في الوقـت نفسـه كان لديهـا الشـعور بأنهـا ليسـت بحاجـة إلى ألعـاب. (لـو) سـيقرأ الورقـة، لكنـه لـن يكتـب لهـا. كانـت تشـعر بهـذا.

ربمـا يتقابـلان بالمصادفـة، يومـاً مـا... عندئـذٍ سـيتظاهر كلٌّ منهـما بأنـه لم يـرَ الآخـر، وسـيلتفت كل منهـما إلى الجهـة الأخـرى، وسـيضع كل منهـما عـلى وجهـه تعبـير الـلا مبـالي، ثـم سـيذهب كل منهـما في طريقـه.

هذه هي النهاية.

ألقت جويا نظرة أخيرة على السطح، كأنها تودعه، ورحلت.

55

مرت سبعة أيام.

وإذا أردنـا التصنيـف، كانـت أبشـع سـبعة أيـام في حيـاة جويـا سـبادا، وكان صراعـاً رهيبـاً في التصنيــف، نظـراً إلى الأيــام البشــعة الأخـرى التـي عاشـتها جويـا في حياتهـا، وكان مـن الصعـب أن يكـون هنـاك شيء أبشـع، لكـن (لـو) اسـتطاع ذلـك. عبقـري.

قالـت جويـا وهـي بمفردهـا في الفـراش، تنظـر إلى شاشـة المنبـه التـي تشـير إلى العـاشرة واثنتـي عـشرة دقيقـة مسـاءً: تهـانيَّ يـا (لـو)، لقـد اسـتطعت أن تهـزم الخبيريـن النائمـين عـلى الأريكـة!

ثـم العـاشرة وثـلاث عـشرة، وأربـع عـشرة، وخمـس عـشرة. لا توجـد أي مكالمـات، لا يوجـد أي أثـر.

وفي اليـوم التـالي، عـادت جويـا إلى السـطح بعد الانتهاء من المدرسـة، لم تمـر حتـى عـلى المنـزل. كان المصعـد مُعطـلاً، وصعـدت السـلالم ثـلاث درجـات في الخطـوة الواحـد حتـى الطابـق الأخـير، ووصلـت إلى فـوق وكانـت رئتاهـا، عمليّـاً، في حنجرتهـا، يغرقهـا العـرق، وفي الثقـب كانـت هنـاك ورقـة مطويـة، ورقتهـا، وفي أسـفل كان يوجـد رد:

«لقد أخطأت، أنا آسف.

لم يكـن عـليّ أن أسرع الخطـى بهـذه الطريقـة، لم يكـن عـليّ أن أخدعـكِ.

أنـا أمـر بلحظـة مجنونـة، ربمـا لاحظـتِ هـذا أنـتِ أيضـاً. لا أريـد أن آخـذكِ معـي داخـل ظلامـي. أؤكـد لـكِ أنـه ليـس مكانـاً جميـلاً.

آسف مرة أخرى.

لو».

لم يخطفــوه إذن، ولا يوجــد كهــف أســفل الأرض، ولا فديــة، ولا توجــد موانــع لا يمكــن تجاوزهــا، مثــل المــوت المفاجــئ للأهــل، أو طائــرة ســقطت في وســط حجرتــه. (لــو) كان ببســاطة شــخصاً مثــل أي إنســان آخــر، أو كــما قالــت لهــا تونيــا: وغــد مثــل كل الآخريــن. بــل، وربمــا أســوأ؛ لأنــه مــن بــين كل مَــن كان يمكنــه خداعهــن، إغواؤهــن، ثــم تركهــن بــلا تحفــظ، اختــار الوحيــدة التــي لم تكــن تعــرف أي شيء عــن هــذه الأمــور، وعــن تلــك الألعــاب.

وبهــذا العــذر الســخيف والمثــير للشــفقة: لا أريــد أن آخــذكِ معــي إلى ظلمتــي. كأنهــا هــي، جويــا، لم تكــن تنتظــر أن تقفــز في ظلامــه، وأن تُطلعــه عــلى ظلمتهــا الخاصــة.

لم يكــن الأمــر مثــل سرقــة الحلــوى مــن طفــل. لقــد اختــار (لــو) أن يذهــب ليــسرق الحلــوى مــن طفــل أصــم، أعمــى وقعيــد.

- حيوان.

علقت تونيا.

- هيا، تسلي يا تونيا.

- أتسلى بماذا؟

- بأن تقولي لي «لقد قلت لكِ». إنها فرصتك الكبيرة، لا تضيعيها!

ولكــن حتــى تونيــا لم تشــعر بالرغبــة في التــصرف بقســوة. كانــت جويــا بمفردهــا تفكــر بالفعــل في أنهــا مثلهــا مثــل أي غبيــة.

وكانــت فكــرة «أيّ» تلــك هــي التــي تؤلمهــا أكــثر. أن تكتشــف أنهــا ليســت مختلفــة. كانــت جويــا تشــعر طــوال حياتهــا بأنهــا مختلفــة، لكن أن تكتشــف أنهــا تمامــاً مثــل كل الأخريــات، هــو تقريبــاً مثــل الاشــتراك في مســابقة شــعر، وأن يعتقــد المــرء أنــه كتــب قصيــدة شــعر جميلــة وفريــدة مــن نوعهــا؛ ليصــل إلى هنــاك ويجــد أن جميــع المتســابقين قــد كتبــوا القصيــدة نفســها.

وهكذا أيضاً في تلك الليلة، بعد سبع ليالٍ، تجمدت جويا هناك في فراشها، بالتأكيد تعرف أن هذا سينتهي عاجلاً أو آجلاً، بأنها ستستيقظ ولن تفكر في هذا الأمر، إلا أنها كانت ممددة هناك؛ لتتذوق تلك السعادة اللا متناهية بأن تشعر بأنها استُغلت ثم أُلقي بها.

- لكن...

تسمع صوت تونيا، في لحظة ما، من مكانها المعتاد على الأرض بجوار الفراش.

- ماذا حدث؟ هل قررتِ أن تضايقيني في النهاية؟

- لا، الأمر أنه... أريد القول... ربما كان فلان بالفعل في وضع مزرٍ!

- بالتأكيد. أرى هذا بالفعل، شخص مثله، متورط في عملية دولية لتهريب المخدرات! أو يبحث عنه جواسيس المخابرات الروسية!

- لكن لا. ربما موضوعه هذا مع أبيه شيء جاد بالفعل، ربما فهم أنه يخاطر بأن يعرضكِ للخطر، أو شيء من هذا القبيل! ربما أراد حمايتكِ!

تنهدت جويا سبادا بقوة تجاه السقف، وهي تفكر في أنها في المرة القادمة ستختار صديقة متخيّلة تتركها لتنام في الليل، ثم أصدرت حفيفاً، وهي تنظر إلى السقف: كفى! ونهضت فجأة، ارتدت ملابس سوداء، فتحت باب غرفتها، وكانت عقارب الساعة تشير إلى العاشرة وأربعين دقيقة.

56

ترتدي سترة، وتنزل السلالم على أطراف أصابعها، ممسكةً حذاءيها في يدها. هناك في الصالون والداها في حالة شبه غيبوبة،

والتلفزيـون يعـرض أحـد الأفـلام. تضـع يدهـا عـلى مقبـض البـاب، وتخفضـه بحـذر ببـطء شـديد، ثـم تذهـب إلى الخـارج، نحـو المـشرب.

الوقـت متأخـر، ومـن الصعـب أن يكـون هنـاك، لكـن ربمـا. تشـعر جويـا بأنـه سـيكون هنـاك، لا تعـرف لمـاذا، تشـعر بذلـك فحسـب. وهكـذا تذهـب جريـاً.

عندمـا تصـل عـلى بُعـد مائـة مـتر تتوقـف عـن الجـري. لا تريـد أن يسـمعها، إذا كان هنـاك يلعـب بالأسـهم. تبـدأ بالسـير عـلى أطـراف أصابعهـا، وهـي حريصـة عـلى ألا تطـأ أوراق شـجر أو لحـاء، أو أي شيء يمكـن أن يتسـبب في ضوضـاء.

هـذه المـرة هـو موجـود، تشـعر بذلـك. هـذه المـرة سـتراه، وأخـيراً سـتتمكن مـن أن تسـأله مـاذا يحـدث، وأي المصائـب حلـت عليـه؛ لأنهـا لا تخـاف مـن الظـلام، ربمـا تخـاف مـن أشـياء كثـيرة، لكـن ليـس الظـلام.

ولكـن لـو اكتشـفت أنـه كان بالفعـل يخدعهـا، يمكنهـا أن تغطيـه باللكـمات والصفعـات وتبصـق في وجهـه.

- لأنـه يمكـن أن يحـدث أن يخدعنـا أحـد، وربمـا نسـتطيع أن نتقبـل الألم والخجـل مـن النظـر في المـرآة ورؤيـة أنهـا ليسـت سـوى واحـدة سـقطت مثـل الأخريـات، لكـن عـلى الأقـل يمكنهـا أن تحصـل عـلى بعـض الراحـة عنـد إهانتـه، وربمـا تحطيـم وجهـه واسـتخدامه كهـدف للأسـهم. هـذا مـن حقـي.

قالت هذا لتونيا، في أثناء سيرها.

اقتربـت أكـثر، وعـلى بُعـد عـشرة أمتـار، ثـم عـلى بُعـد خطـوة مـن مدخـل الشرفـة.

ضوضاء، ربما لخطوات.

إنـه هـو، هـي متأكـدة مـن ذلـك. سـمعها تصـل، وهـا هـو الآن يحـاول أن يهـرب مـن الخلـف. عندئـذٍ دخلـت جويـا جريـاً، كأنهـا

تتبعه، خطت بقوة فوق الألواح الخشبية للشرفة، وتجاوزت السور الذي يوجد بعده جهاز اللعب بالأسهم، وبمجرد أن التفتت واثقة بأنه هناك يحاول الهروب، ودون أن تعرف، وجدت نفسها ووجهها على الأرض، وأنفها أفطس في أحد الألواح. ما هذا الذي حدث؟ كيف وقعت؟ لم يكن هنا أي شيء لتتعثر فيه.

ثم سمعت صوتاً يقول من خلفها: آه، أخيراً! أنتظر هذه اللحظة منذ أسبوع!

كان صوت امرأة، وشعرت جويا بأنها تعرف هذا الصوت. رفعت وجهها من الأرض، بشفتيها تغطيهما بالأتربة، ومن يدري بماذا أيضاً، أخذت تنظف نفسها بيديها، والتفتت، ووصل ضوء مصباح مباشرةً إلى عينيها.

57

قال الصوت، الذي تعرفت إليه جويا الآن بالتأكيد: آه، لكن إنها أنتِ! يا... يا للواقعة!

- لماذا، من كان يجب أن أكون؟

- لا أعلم، أنا هنا؛ لأنني أنتظر أحد الذين حطموا جهاز الأسهم. هؤلاء الأوغاد!

رفعت جويا نظرها وكانت المرأة المغطاة بالوشم، صاحبة المشرب، تشير بالضوء تجاه الجهاز وقد تحطم بالكامل.

سألت جويا: لكن متى حدث هذا؟

- الأسبوع الماضي، وصلت في الصباح، وعثرت على هذه الهدية الجميلة، وتذكرت أنكِ قلتِ لي إن هناك أحداً يأتي ليتسلى باللعب هنا ليلاً. وهكذا، منذ أسبوع أنام هنا مختبئة في انتظاره؛ ليتذوق هذه.

قالت هذا ورفعت عصا بيسبول يغطيها الغراء ملتصقة عليها قطع معدنية.

وسألتها جويا: وكيف تعرفين أنني لست أنا من فعل هذا؟

- أعرف هذا لأنني أعرفه. لا يبدو عليكِ أنكِ ممَن يفعلون هذا. أعمل في الحانات منذ عشرين عاماً، ويمكنني أن أميز وجوه الأشخاص.

أجابتها المرأة وهي تمد لها يدها لتساعدها على النهوض، ثم جلست أمام مائدة، وضعت المصباح وأخذت تعبث بشيء ما. اقتربت منها جويا وفهمت أنها تلف سيجارة.

سألتها المرأة: وأنتِ اشرحي لي ماذا جاء بكِ إلى هنا في هذه الساعة من الليل؟

أجابت جويا: إيه...

- آه، فهمت. ما زلتِ خلف ذلك الشخص ذي الاسم الغبي.

لم تقل جويا شيئاً، فالإجابة معروفة.

بدأت المرأة تقول لها وهي تشعل السيجارة: اسمعي، يمكن لأي شخص أن يقول لكِ إنكِ غبية؛ لأنكِ تجرين خلف شخص اختفى، أما أنا فلا!

قالت وهي تنفخ سحباً من الدخان.

- يسعدني هذا؛ لأنني أول من يقول لنفسي هذا.

قالت جويا، التي اندهشت مما خرج للتو من فمها، خصوصاً من واقع أنها تحدثت أمام امرأة لا تعرفها. من يدري، ربما يكون السر في تلك الشرفة السخيفة. ربما تكون مسحورة؛ لذلك تنفتح هي فيها على الغرباء.

- لا يا... قالت المرأة، ثم صمتت لتقول لها اسمها.

- جويا.

- لا يـا جويـا، بالنسـبة إليَّ لسـتِ غبيـة عـلى الإطـلاق، إنـكِ فقـط تتبعـين قلبـك، كـما هـو واضـح، والقلـب ليـس غبيّـاً، حتـى إن كان الجميـع يقولـون لنـا عكـس هـذا. هـل تريديـن؟

سـألتها وهـي تقـدم إليهـا السـيجارة. أشـارت جويـا لا برأسـها، ثـم مـن جديـد، ومـن دون أن تعـرف جيـداً السـبب، حكـت لهـا كل شيء، منـذ اللقـاء الأول في هـذا المـشرب، حتـى الإطـار الـذي أهـداه لهـا، وصـولاً إلى الرسـالة الأخـيرة التـي تركهـا. حذفـت فقـط التفاصيـل الحميمـة، والوصـف الدقيـق لمـا حـدث فـوق السـطح.

في النهايـة، قالـت لهـا صاحبـة المـشرب: آه، ليسـت سـيئة كأول قصة في حياتـك، لنبـدأ عـلى الفـور بوضـع الكرامـة في السـلة، حسـناً جدّاً.

- أنا مخطئة، أليس كذلك؟ سألتها جويا.

- لا، على الإطلاق! كل هذا سيفيدك في أن تفهمي، سترين.

- ماذا؟

- مـن يسـتحق ومـن لا يسـتحق؛ لأنـه سـيكون هنـاك شـخص مـا يسـتحق منـكِ أن تتنـازلي قليـلاً عـن كبريائـك.

- آه فعلاً؟

- بالتأكيـد، ليـس لدرجـة أن تخرجـي في الليـل للبحـث عنـه، لكـن يوجـد.

قالـت المـرأة، وضحكـت جويـا، ثـم ضحكـت المـرأة. ضحكـت جويـا؛ لأنهـا بمجـرد أن حكـت القصـة كلهـا شـعرت بأنهـا خفيفـة بعـض الـشيء، وربمـا ضحكـت المـرأة بسـبب السـيجارة. وكلـما زادت المـرأة في الضحـك، ضحكـت جويـا، ومكثتـا هكـذا تضحـكان هنـاك في الظـلام، وتعـالى صوتاهـما، حتـى إن النـور أضـاء في بعـض المنـازل أمـام البـاب.

- عودوا إلى سباتكم، يا أيها الأموات الأحياء!

صاحت المرأة، وهي تطفئ السيجارة.

- على كل حال اسمي جوفانا، ويمكننا أن نتعامل بلا ألقاب.

قالت وهي تمد إليها يدها.

تصافحتا، ثم نهضت جويا لترحل.

- بمناسبة هذا الشخص، ذي الاسم القصير.

- (لو).

- أجل هو. لقد اشتريت هذا البار منذ ستة أشهر، لكنني فكرت ربما يعرفه المالك السابق؛ الشخص الذي باعه لي. اسمه ماريو بريندا، ويعيش في آخر هذا الشارع؛ ذلك المنزل القديم جدّاً الذي يبدو مهجوراً.

- في رأيك، لا بد أن أذهب إليه؟

- ربما تكتشفين أنه اختفى بهذه الطريقة؛ لأنه بالفعل في كارثة، أو ربما تكتشفين أنه مجرد وغد، لكن من الأفضل أن تنزعي عنكِ أي شك، أليس كذلك؟

58

يشبه المنزل ذلك الذي سكنه نورمان بيتس في فيلم «سايكو»[20]، إلا أنه يبدو أقدم: مرتفع، ضيق، بسقف ذي طرف حادّ، كأن المبنى كله تكثف وضُغط رأسيّاً، وعلى البوابة قرأت جويا لافتة:

الرب يسامح، توبي لا.

وكانت الصورة لكلب دوبرمان، أنيابه واضحة جدّاً، والنظرة المرعبة لكلب مزق للتو ساعي البريد إرباً.

كانت الأعشاب مرتفعة في الحديقة الصغيرة، ربما كانت المرة الأخيرة، التي قطعوها فيها هي عندما مات كيرت كوبان[21].

(20) Phsyco: فيلم رعب أمريكي من إخراج وإنتاج ألفريد هيتشكوك العام 1960.

(21)Kurt Cobain : مغن أمريكي مات العام 1994.

الخلاصـة، لم يبـدُ البيـت مسـكوناً مـن حالتـه السـيئة.

كانـت جويـا عـلى وشـك أن تضغـط الجـرس عندمـا سـمعت كلبـاً صغـيراً ينبـح، لكنـه كان مثـل نبـاح مزيـف، وكان الكلـب في الواقـع نوعـاً مـن الـكلاب الضالـة مغطـى بالشـعر وحجمـه مثـل الجـرو، اقـترب منهـا ووقـف عـلى قدميـه أمـام المدخـل، واسـتمر في النبـاح، كأنهـم قـد خصـوه للتـو.

فكـرت: ربمـا كان كلبـاً آخـر لديهـم، بخـلاف تـوبي الدوبرمـان السـفاح.

مـن يـدري كيـف يمكـن لكلبـين مختلفـين هكـذا في الحجـم أن يتعايشـا؟! تسـاءلت جويـا، بينـما تحييـه، وتربـت عليـه، وأجابهـا الكلـب بـأن هـز ذيلـه ولعـق كـف يدهـا.

- أنت أيها الصغير، كيف حالك؟ وأين صاحبك؟

- اتركي توبي في حاله!

سـمعت صرخـات مـن البـاب، صوتـاً أجـش لمسـن، قريـن مورجـان فريمـان[22]، إلا أنـه أقـصر بكثـير، ولـون بشرتـه أبيـض.

نظـرت جويـا لثانيـة إلى الكلـب الصغـير، الـذي لا يـزال واقفـاً يهـز ذيلـه، ثـم إلى صـورة الدوبرمـان ذي الأنيـاب، ثـم مـرة أخـرى إلى الكلب الصغير.

- قلت لكِ إنني لا أصدق ديانتكم! اتركوني في حالي!

سـبق واعتقـد بعضهـم أنهـا مدمنـة مخـدرات، أو متـشردة، لكـن لم يحـدث لهـا قـط أن اعتقـد أحدهـم أنهـا مـن شـهود يهـوه.

- لا، انتظر، إنه سوء تفاهم، أنا لست من...

- في كل الأحـوال لا يهمنـي؛ فأنـا لا أبتـاع شـيئاً، لا ديانـات، ولا مكانـس كهربائيـة. ولا تلمـسي تـوبي!

(22) Morgan Freeman: ممثل أمريكي.

صاح فيها من جديد وهو يقترب: توبي! تعالَ هنا!

أنـزل الكلـب أذنيـه وذهـب ليختبـئ في سـلة صغـيرة تشـبه عـش الطيـور، بالقـرب مـن سـلالم المدخـل.

قالـت جويـا: أريـد فقـط أن أسـأل سـيادتك عـن معلومـة، حقـاً، ثـم سـأذهب عـلى الفـور، أعدك.

نظـر إليهـا المسـن، ونـزل، وهـو يعـرج بعـض الـشيء، الدرجـات الأخـيرة، ووصـل إلى البوابـة.

- لديَّ طريقتي في التخلص من المندوبين أمثالك، أتعرفين؟

نظـرت إليـه جويـا، لم تفهـم، ثـم أشـار المسـن برأسـه وسـألها: هـل لديـكِ خمسـون يـورو في جيبـك؟

تعـرف جويـا أنـه ليـس لديهـا هـذا المبلـغ، أقـصى شيء عـشرة، وكلها عمـلات معدنيـة، أخرجتهـا، ولم تكَـد تُخرجهـا مـن جيبهـا حتـى أمسـك المسـن بيدهـا وأخـذ العمـلات في يـده بسرعـة وخفـة مقامـر في لاس فيغـاس.

- أنـا الآن أسـمعكِ. إذا فهمـت في النهايـة أنـكِ تريديـن أن تبيعـي لي شـيئاً سـتصبح كل النقـود لي، إذا لم تكـوني كذلـك، سـأعيدها إليـكِ. اتفقنـا؟

ألقـت جويـا نظـرة عـلى النقـود، كانـت شـبه متأكـدة أنهـا لـن تراهـا مـرة أخـرى.

- أوكي، اتفقنا.

- هيا، قولي، ماذا تريدين؟

- سـيادتك كنـت مالـك المشرب الواقـع في آخر الشـارع، BarAonda، أليـس كذلك؟

- أجل، بعته منذ ستة أشهر لمجنونة تغطيها الوشوم.

- حسـناً، كنـت أريـد فقـط أن أسـأل سـيادتك إذا كنـت تعـرف فتـى

كان يلعب دائماً بالأسهم، واسمه لورينزو.

أمال المسن رأسه إلى الخلف: لا، لم أسمع عنه قط.

- «طوله هكذا تقريباً». وأشارت جويا بالطول بيدها. «ويرتدي دائماً كنزة بقلنسوة سوداء، كل الأيام الكنزة نفسها، واسمه لورينزو فيتا».

- قلت لكِ لم أعرف قط شخصاً اسمه لورينزو! وإذا كنت قد سمعته لتذكرت، أنا مُسن، لكنني لست فاقداً للذاكرة!

قال لها، ثم استدار ليتوجه نحو منزله، دون حتى أن تكون لديه النية أن يحييها.

- إحم. ألمحت جويا.

- ماذا أيضاً؟

قال المسن وهو يستدير قليلاً.

- اليوروهات العشرة.

- آه بالفعل.

قال هو، وأخرجها من جيبه، ووضعها في يدها، بإحباط. أخذتها جويا ورحلت. وبعد عشرين متراً، أخرجتها من جيبها لتحصيها، واكتشفت أنها سبعة فقط.

59

لا تعرف لماذا فعلت هذا.

أي إنها يمكن أن تجد مليون سبب وألا تجد سبباً واحداً.

ربما لو كان أبوها هنا الآن وعرف ذلك الذي فعلته للتو، لسألها بإلحاح: ما السبب؟ قولي لي يا جويا؟ ما السبب؟

منذ الأزل وأبوها، كلما فعلت شيئاً خطأ، يسألها، ما السبب. يفعل ذلك في كل مرة، وتفكر جويا في أن المشكلة ليست السبب،

لكـن التفاصيـل. تلـك الأشـياء التـي لا تحظـى باهتـمام كبـير، لكنهـا تغـير الأشـياء. إذا تغـيرت تلـك التفاصيـل، مثـل تغيـير مـكان الفاصلـة في العبـارة، ربمـا غـيرت المعنـى بالكامـل؛ وهـذا مـا تعلمتـه مـن أسـتاذ اللغـة الإيطاليـة.

فالسـبب مثـل نقطـة النهايـة، يكـون دائمـاً في النهايـة، ولا يغـير كثـيراً مـن الأشـياء، لكـن الفواصـل تكـون في الداخـل، وتغـير كل شيء؛ ومـن ثـم لـن تسـتطيع أن تشرح لأبيهـا أي شيء إذا سـألها؛ لأن الأسـباب كثـيرة، لا تنتهـي مطلقـاً.

السـبب أنـه قبـل (لـو) كانـت الأمـور بالنسـبة إليهـا فقـط بيضـاء وسـوداء، وبعـده جـاءت الألـوان. وجـرِّب أن تقـول لمـن شـاهد فيلـماً جميـلاً ملونـاً إنـه لـن يشـاهد سـوى أفـلام «أبيـض وأسـود» لمـا تبقـى مـن حياتـه.

السـبب هـو أن الفتيـة والفتيـات في سـنها يبـدون جميعهـم رائعـين، بـلا همـوم، وغايـة في الجـمال، وواثقـين بأنفسـهم.

السـبب هـو أن الأسـاتذة لا يـدرون كثـيراً عـن الطلبـة، فيـما عـدا بوفـه طبعـاً.

السبب أنه لا يوجد فتى استطاع إضحاكها بهذه الطريقة.

السـبب أنـه ليـس مـن العـدل أن يختفـي فتـى يضحـكك بهـذا الشـكل، قائـلاً: معـذرة، أنـتِ تعرفـين الأمـر؛ فحيـاتي فيهـا مشـكلات معقـدة الآن.

السبب يجب ألا يكون دائماً شرعيّاً، لكنه شيء من هذا القبيل.

السـبب أن جويـا لا تمتلـك مطلقـاً أكـثر مـن عـشرة يوروهـات في جيبهـا – حسـناً - حتـى إذا كانـت النقـود لا تهمهـا، إلا أن هـذه مشـكلة؛ لأنـه في الكوكـب الـذي تعيـش فيـه لا يمكنهـا أن تفعـل كثـيراً بهـذا المبلـغ.

السبب هو تلك الابتسامة الساحرة.

السبب هو أنها لا تستطيع أن تنزع (لو) من ذهنها.

السبب هو أن المقعد والسطح، وتلك الهضبة كلها لا تزال موجودة، أمّا هو فلاَ. من يدري أين هو؟ ربما لم يكن له وجود قط.

السبب هو أن الغضب وليس الدم هو ما يسري في عروقها، وعندما مرت جوليا باتّا خلفها، خلفها تماماً في الميدان، وأمام الجميع، وكانت تتحرك كثيراً، حتى إنها سمعتها وهي تضحك، ولم يكن مهمّاً إذا كانت تضحك عليها أم على شيء آخر، لكنها ضحكت بصوت مسموع، وعندئذٍ قامت جويا، وجرت وراءها، وأمسكتها من شعرها، وقالت لها: ماذا يضحككِ هكذا؟ وجويا في العادة لا تفعل تلك الأشياء، لم تفعلها قط، ربما أرادت بعض المرات أن تفعلها، لكنها لم تجرؤ، أما في هذه المرة فهذا ما حدث، وهي لا تعرف السبب، شدت شعر جوليا باتّا، وجرّتها، أوقعتها أرضاً، ثم رحلت.

السبب هو أن جويا تشعر بأنها تتغير، وهذا لا يعجبها، لا يعجبها على الإطلاق، لكنها على الرغم من ذلك لا تتوقف عن التغير.

السبب هو أنه وسط كل هذه الفوضى، كالمعتاد، وكما يحدث منذ الأزل، تجد جويا نفسها وحيدة، مثلما تعبِّر عن حالتها تلك الكلمة الألمانية، التي لا يمكن ترجمتها بكلمة واحدة waldeinsamkeit، والتي تعني: شعور المرء عندما يكون وحيداً في الغابة؛ لأنه عندما يشعر المرء بأنه وحده في سن السابعة عشرة، ليس مثلما يكون في الثلاثين أو الأربعين أو السبعين، لكنه في كل الأحوال شعور سخيف. فعندما يكون المرء وحده وهو أكبر في

السـن؛ فهـذا معنـاه أنـه ضـد العـالم؛ وهـو شيء سـيئ، لكـن عـلى الأقـل يعـرف مَـن عـدوه، ويذهـب كل منهـما لحـال سـبيله. لكـن أن يكـون المـرء وحـده في سـن السـابعة عـشرة؛ يعنـي عـدم وضـوح أيـن يكمـن العـدو؛ لأن العـدو في هـذه الحالـة يصبـح العـالم، الآخريـن جميعـاً، الأم والأب، جوليـا باتّـا، وكازالي وسـوء الحـظ، الأسـاتذة وكل الأشـياء الأخـرى، لكـن في سـن السـابعة عـشرة يكـون العـدو الأول، قبـل كل شيء وقبـل الجميـع، هـو ذاتـك.

60

في الطابــق الأســفل يســود صمــت غريــب... أو الأفضــل أن نقــول «صمــت مريــب».

إذا سـاد الصمـت منـزل سـبادا في السـابعة مسـاءً؛ فهـذا يعنـي شـيئاً مـن ثلاثـة: إمـا أن أبويهـا غـير موجوديـن، أو أنهـما سـقطا مخموريـن عـلى الأريكـة، أو...

قالت جويا: أتمنى بالفعل ألا يكون هذا.

لا تسـتطيع جويـا أن تفهـم كثـيراً عـن الكبـار؛ عـن هوسـهم بالزمـن الـذي يمـرّ، والتجاعيـد، والشـعر الأبيـض، وعـن مجهوداتهـم المضحكـة في إخفـاء هـذا، وعـن شـعورهم بأنهـم محصنـون ضـد أي نـوع مـن النقـد؛ بسـبب غـير معـروف، عنـد التقـدم في السـن، القلـق الجنـوني تجـاه كيـف يراهـم الآخـرون، بـل هـم أسـوأ بكثـير مـن زملائهـا المراهقـين المتشرديـن.

لكن على الأخص، لا تفهم على الإطلاق ما بهم من تناقض.

فالكبـار نوعيـة خاصـة مـن الكائنـات الإنسـانية؛ فهـم يقولـون عـلى سـبيل المثـال: آه، لكـم أكـره الجبـل! ثـم تجدهـم بعـد يومـين سـعداء ويضحكـون عـلى جبـال الألـب السـويسرية. الكبـار يـرددون دائمـاً أنهـم

لا يريـدون أن يكفـوا عـن الحلـم والسـفر ومـا إلى ذلـك، ثـم تجدهـم وقـد عملـوا موظفـين في بنـك، وعلَّقـوا عـلى الحواجـز التـي تفصـل مكاتبهـم (بوسـتر) لجـزر المالديـف. إنهـم مثـل أولئـك الأطبـاء، الذيـن يضعـون عـشرات اللافتـات، التـي تتحـدث عـن مسـاوئ التدخـين، ثـم تجدهـم يجولـون دائمـاً والسـجائر في أفواههـم.

الكبـار مثـل أبويهـا، يكـره أحدهـما الآخـر، ويقولـون للجميـع إن أحدهـما يكـره الآخـر، ثـم يتضاجعـان في صمـت؛ لأنهـما يخجـلان أن تسـمعهما ابنتهـما، لكـن أيضـاً لأن هـذا الشـعور بالممنـوع يمتعهـما أكـثر.

الكبـار ليسـوا سـوى أطفـال طويـلي القامـة بعـض الـشيء، لكـن في أعماقهـم ليسـوا سـوى أطفـال.

بالنسـبة إلى جويـا، الاسـتماع إلى ذلـك الصمـت أسـوأ مـن صريـر عـشرة آلاف ظفـر عـلى عـشرة آلاف سـبورة؛ ولهـذا تذهـب نحـو الاسـتريو، وتقـرر أن تشـغله عـلى أقـصى درجـة صـوت، وبينـما تضـع يدهـا عـلى زر التشـغيل، رأت فجـأة مـن النافـذة أضـواء زرقـاء، ثـم سـيارة تتوقـف أسـفل منزلهـا.

- اللعنة! قالت.

61

- حضرتك السيد جورجو سبادا؟

- أجل، أنا. هل فعلت شيئاً ما؟

- لا، ليـس حضرتـك. في الحقيقـة نحـن نبحـث عـن ابنتـك. ابنتـك اسـمها جويـا سـبادا، أليـس كذلـك؟

كان الشرطيـان طويـلي القامـة، كل منهـما كان طولـه متريـن تقريبـاً. ربمـا عدلـوا لهـما مقعـدَي السـيارة حتـى لا يلمـس رأسـاهما السـقف.

- إذن، هل جويا سبادا تسكن هنا؟

مـن أعـلى السـلالم، رأت جويـا أباهـا في ملابـس النـوم وقـد تحـول إلى حجـر، وفقـد قدرتـه عـلى النطـق لثانيـة، ثـم التفـت ليطلـق صيحـة مـن صيحاتـه: جوييييـا!

قالـت هـي: أنـا هنـا يـا بابـا، ثـم نزلـت السـلالم، وكانـت كل درجـة تشـبه الصعـود وليـس الهبـوط.

مكـث الشرطيـان طويـلا القامـة أمـام العتبـة، وضعـا في يـد أبي جويـا ورقـة. والآن وقـد اقتربـت أكـثر، رأت أنـه يضـع روب أمهـا. مـن الصعـب التفكـير في لحظـة أكـثر إحراجـاً.

رأتهـم يتحدثـون بصـوت منخفـض، هـما وأبوهـا، وقـد تحـول تعبـير وجهـه في بضـع ثـوانٍ مـن مندهـش جـدّاً إلى غاضـب جـدّاً. تقـدم الشرطيـان قليـلاً مـن المنـزل، نظـرا إلى جويـا وكل منهـما يضـع يديـه خلـف ظهـره.

سألها أبوها، بشعره المبعثر: هل هذا حقيقي يا جويا؟

لم تكـن تحتـاج إلى كثـير لتفهـم عـمّا يتحـدث؛ ولهـذا وصلـت جويـا لتقـف أمامهـم، وأشـارت فقـط برأسـها.

سألها: لماذا فعلتِ هذا؟

حدقـت جويـا في الأرض ولم تقـل شـيئاً. كان صمتـاً يكشـف بوضـوح عـن الشـعور بأنـه لـولا وجـود اثنين مـن ممثـلي النظـام هنـاك أمامهما، لـكان أبوهـا الآن قـد أوسـعها صفعاً.

كمشـهد سـينمائي، وكـما يحـدث في كل لحظـات الصمـت المُخجـل في هـذا المنـزل، ظهـر مـن الـلا شيء في وسـطهم جاكـو؛ القـط الشـبح، وتوقـف هنـاك لينظـر إلى المشـهد، بـلا حركـة. أحـد الشرطيـين، خلـع قبعتـه، وتدخـل: نحـن هنـا لأننـا تلقينـا مكالمـة، ووصلنـا إلى الموقـع، ووجدنـا تلـك الفتـاة في حالـة مـن الانفعـال الشـديد وعليهـا آثـار بعض

الرضوض. هل تؤكدين لنا يا جويا أنكِ مَن فعل هذا؟

جويا، وهي مستمرة في التحديق في الأطراف اللامعة من أحذية الشرطيين، اكتفت بأن تشير بنعم برأسها. واستمر الشرطي.

- حسناً، في طريقنا إلى هنا قمنا ببعض المكالمات، وأعلمونا أن هذه العائلة بالفعل تحت الملاحظة لدى الشؤون الاجتماعية، ونظراً إلى أن الفتاة قد عبَّرت بوضوح عن رغبتها في تقديم بلاغ...

وعندما نطق كلمة «بلاغ» تغير لون وجه أبي جويا على الفور، تقريباً كأن أحدهم ألقى دلواً من الدهان الأبيض على وجهه.

- كنت أقول إنه نظراً إلى أنها ستقدم بلاغاً بالتأكيد، توقعوا إذن مكالمة من هيئة الشؤون الاجتماعية هذه الأيام.

كان وجها الشرطيين هادئين وفي سلام. ربما يكون هذا المشهد بالنسبة إليهما من المشاهد المعتادة، شيئاً مثلما يشعل الفران الفرن، أو يقلب العجينة. وكان الأمر تقريباً كأن أمام المنزل زوجين من وحيدَي القرن يرتديان زي الشرطة.

- نحن هنا فقط للتأكد، لكن يبدو لي أننا بالفعل تأكدنا من كل شيء.

قال أحد وحيدي القرن. وتحجر أبو جويا، يحدق فيها دون أن يقول أي شيء.

ثم قال الآخر: ولهذا سنذهب الآن.

لم يجب الأب. وقف ساكناً كأنه تمثال.

- عمتما مساءً.

قالا بصوت واحد وذهبا.

ومن غرفة المعيشة، حضرت الأم وهي ترتدي روباً آخر. شعرت جويا بنوع من الاشمئزاز الداخلي، ولثوانٍ نسيت البلاغ والشرطيين. وتولى أبوها مهمة إرجاعها إلى الواقع، قائلاً: أتمنى أن يكون الأمر

مجـرد مزحـة!

لم تعـرف جويـا كيـف تجيبـه. كانـت تعـرف أنهـا لا بـد أن تقـول شـيئاً مثـل: «لا، ليسـت مزحـة، لقـد فعلـت ذلـك بالفعـل»، لكنهـا لم تسـتطع النطـق، كأن الطريـق قـد سُـد بزوبعـة الكلـمات، تمامـاً عنـد مدخـل الحنجـرة، مثلـما يحـدث تعرقـل في المـرور وتتوقـف عـشرات السـيارات وتـدق النفـير.

سـألها أبوهـا: هـل ضربـتِ تلـك الفتـاة، في وسـط المدينـة، أمـام شـهود؟

سيارات، زوبعة، نفير.

سألها أبوها: لماذا فعلتِ ذلك يا جويا؟

- جويـا مـاذا حـدث؟ مـاذا بـكِ؟ جويـا تحـدثي مـع أمـك، انظـري إليَّ!

سيارات، زوبعة، نفير.

صرخ الأب: جويا، قولي ماذا فعلتِ! وقولي لماذا!

كانـت ترغـب في أن تقـول لهـما، أجـل. كانـت ترغـب في أن تقـول إن السـبب لم يكـن جوليـا باتّـا، ولا حتـى الضحـكات والسـخرية، لكـن الأمـر كلـه يقبـع في مبـدأ الديناميكيـة الثالـث: «لـكل فعـل رد فعـل مسـاوٍ لـه في المقـدار ومضـاد لـه في الاتجـاه»، هـذا كل مـا في الأمـر، لم تكـن جوليـا ولا رفيقاتهـا، ولم يكـن هـو ولا أمهـا، لقـد آذاهـا «العـالم»، وكان رد فعلهـا هـو أن تؤلمـه، وفي تلـك اللحظـة، كان العـالم أمامهـا هـو جوليـا باتّـا، ليـس إلا، الأمـر بسـيط جـدّاً.

سألتها أمها: جويا يمكنك أن تصارحيني، ماذا حدث لكِ؟

اسـتطاعت جويـا فقـط أن تفكـر في أنهـا لا ترغـب في البـكاء، أي شيء إلا البـكاء، كانـت هنـاك ثمانيـة لـترات تقريبـاً مـن الدمـوع جاهـزة للخـروج، لكنهـا أرادت أن تحبسـها كلهـا في الداخـل. ليـس أمامهـما،

ليس أمام الاثنين الواقفين هناك، ليس أمام أبيها، الذي تطاول بيديه على أمها منذ أسبوع فقط، والآن يشعر بالغضب؛ لأنها فعلت الشيء نفسه مع إحدى زميلاتها في الفصل، وليس أمام أمها العارية أسفل الروب بعد أن انتهت للتو من مضاجعة الرجل الذي ضربها منذ بضعة أيام فقط.

لا، ليس أمامهما.

- جويا!

- جويا!

- جويا!

- جويا، لماذا يا جويا؟ هه؟ ما السبب؟

62

- من واحد إلى عشرة، كم أنتِ في حالة مزرية؟

- لنرَ. مليون يا تونيا؟

- لا بد أن تبكي، استمعي إليَّ. التنفيس عن الغضب سيساعدك. الآن أنتِ وحيدة في حجرتك ويمكنكِ ذلك!

- أعلم، أعلم! لكنني بمجرد أن صعدت إلى هنا، جفت كل دموعي!

- والآن، ماذا ستفعلين إذا أبلغت عنكِ؟ هل ستطلعين القاضي على صورك، لتثبتي له أنكِ لستِ في كامل قواكِ العقلية؟

- إليكِ، بعضها ليس سيئاً على الإطلاق، انظري إلى هذه!

- أجل، أجل، جميلة. لكن ماذا ستفعلين؟

- انتظري لحظة.

- ماذا حدث؟

- انظري هنا! هذه الصورة!

- أوه، اللعنة!
- اللعنة فعلاً!

63

كانت جويا سبادا تجلس فوق الفراش والقط الشبح جاكو بين قدميها وفي يدها آلة التصوير الرقمية، وعلى الشاشة تجري الصور التي التقطتها في تلك الظهيرة التي عادت فيها إلى السطح: عابرون صوَّرتهم عشوائيّاً، وجوه تضحك، ووجوه بلا أي تعبير، كان لديها قليل من كل شيء. الجزء الأكبر منها كان مهزوزاً، وربما لهذا بدت بعض الصور جميلة جدّاً، واندهشت جويا من أنها استطاعت تصوير صور بهذا الجمال بمجرد تحريك العدسة عشوائيّاً. ثم، أمام الصورة السابعة والثلاثين توقفت جويا.

إنه هو.

(لو).

هو بعينه.

كانت الصورة من ضمن تلك الأقل شحوباً. كان هناك في المستوى الأول شخصان بحقيبة، يرتديان ألواناً قاتمة، يسيران ويتحدث كل منهما في هاتفه، وفي الخلفية، على بُعد بضعة أمتار، كان هو يرتدي القلنسوة على رأسه.

وكان ينظر بالتحديد نحوها، نحو العدسة، كأنه يريد أن يقول لها شيئاً ما، يتحدث معها، لكن لم تكن لديه الشجاعة، أو على الأقل هكذا بدا لها.

تساءلت جويا سبادا كيف بحق السماء لم تره، في ذلك اليوم. بالتأكيد، كانت مضطربة بما يكفي. بالتأكيد، في تلك اللحظة بعينها كانت الرؤية منعدمة، لكنه هو كان هناك، ربما على بُعد خمسة أو ستة أمتار منها. وهي لم تره.

لكنه كان هناك.

نهضت جويا من فوق الفراش، ونسيت كل شيء حدث للتو عن الشرطيين والبلاغ والشؤون الاجتماعية. الآن تريد أن تفعل شيئاً واحداً.

64

- أنتِ مرة أخرى! اسمعي، لم تعد لديَّ اليوروهات الثلاثة.

- لا، لست هنا لهذا السبب يا سيد بريدا.

- إذن، ماذا تريدين؟ لقد قلت لكِ إنني لا أعرف ذلك الشخص!

- أعلم، أعلم. أريد فقط أن أطلعك على شيء.

نزل المسن الدرجات الثلاث واقترب. عندئذٍ أخرجت آلة التصوير من حقيبتها، وضغطت على الزر وأعطتها له.

- هذا هو. هو ذلك الفتى هنا. هل رأيته من قبل؟

قرَّب المسن وجهه من الشاشة الرقمية، ورفع نظارتيه إلى جبهته.

- لم أرَه قط في حياتي! والآن اذهبي من هنا!

قال لها هذا، وهو يعطيها آلة التصوير في يدها بحركة فجائية.

- لكن، هل حضرتك متأكد؟ هل نظرت جيداً؟

أصرت هي، وهي تضع مرة أخرى الشاشة أمامه. أما هو دون حتى أن ينظر مرة أخرى، قال لها بصوت خشن، يحمل نبرة تهديد: اسمعي يا آنسة، إذا لم تخرجي حالاً من بوابتي، سأتصل بالشرطة، هل فهمتِ؟

65

- إذن؟ ماذا قال لكِ؟

- طردني بطريقة سيئة. من أي عينة هذا الشخص؟

كانت جويا جالسة عند طاولة المشرب، بينما تعد جوفانا للمرة الثالثة كابوتشينو للسيدة التي أعادته إليها؛ لأنه كله تنقصه الرغوة.

- الآن، سأضع لها رغوة فقط، وأريد أن أرى ماذا ستقول.

قالت وهي تدفع بالبخار المغلي داخل الفنجان السيراميك.

- كنتِ تقولين؟

- كنت أسألك من أي عينة بريدا، أنتِ تعرفينه.

- آه، دعيه وشأنه المسكين. ليست كل صواميله في مكانها المضبوط في عقله. يقولون إنه فقد ابناً شاباً، منذ عشرين عاماً تقريباً، ومنذ ذلك الحين اختل عقليّاً. إنه خطؤه أيضاً أنه لا أحد يتردد على هذا المشرب سوى المسنين المملي...

قالت جوفانا وهي لا تزال تنظر إلى ماكينة القهوة، ولم تكن تدري أن العجوز في ذلك الوقت قد اقتربت من الطاولة لتقول لها: كثير من الرغوة، من فضلك!

واستدارت جوفانا نحوها، ثم همست لجويا: هذا بالتحديد.

وضعت الكابوتشينو على صينية التقديم، وأخذته إلى المائدة. وعندما عادت سألت جويا:

- وأنتِ ماذا ستفعلين، بهذه الأناقة؟

- لديَّ ميعاد في مكتب أحد المحامين، لا بد أن أكون هناك خلال نصف ساعة.

- آه، إذن أنتِ أيضاً لستِ فتاة هادئة تماماً، أليس كذلك؟ هيا، أطلعيني على هذه الصورة!

أخرجت جويا آلة التصوير من حقيبتها، ووضعتها فوق الطاولة. فحصت جوفانا بانتباه الصورة، وهي تتمتم بشيء ما، ثم قالت: أتعرفين؟ هذا الوجه ليس غريباً عليَّ.

- حقّاً؟ هل تعرفينه؟ أتعرفين أين يسكن؟

- لا، لا، لا أعـرف. أعـرف فقـط أنهـا ليسـت المـرة الأولى التـي أراه فيهـا. تلـك العينـان اللتـان تشـبهان اللـوز... هـذا الوجـه الـذي نصفـه لفتـى ماهـر ونصفـه لوغـد.

عـادت العجـوز مـن جديـد لتظهـر خلـف جويـا، ووضعـت يدهـا عـلى الطاولـة: سـيدتي، اسـمحي لي... هـل يمكـن أن تضعـي لي مزيـداً مـن الرغـوة؟

اسـتطاعت جويـا أن تقـرأ عـلى الأقـل اثنـين مـن السـباب الثقيـل عـلى شـفتَي جوفانـا. ابتسـمت، ثـم قالـت لهـا صاحبـة المـشرب: لنفعـل هكـذا، إذا اسـتطعت أن أتذكـر أيـن رأيتـه سـأخبرك. وأنـتِ اتـركي لي رقـم هاتفـك.

66

لم تكـن قـد رأت أباهـا قـط بالسـترة وربطـة العنـق إلا في صـورة الـزواج.

لم تكـن سـوى صـور سـخيفة، مـع مجموعـة مـن الأقـارب، المحرجـين بوضـوح، ويبـدو أنهـم جميعـاً يفكـرون: لا بـد أن أجـد الفرصة المناسـبة لأجـري إلى المنـزل وأشـاهد المباراة!

الوحيـدة، التـي كانـت تبـدو مبتسـمة في تلـك الصـور، هـي أمهـا، كانـت متألقـة، كأنهـا كانـت مقتنعـة أنهـا في أجمـل يـوم في حياتهـا. والـشيء الحزيـن، أنـه ربمـا كان اليـوم الأجمـل بالفعـل في حياتهـا. مـن المؤكـد أنـه كان الأفضـل مـن كل الأيـام التـي تلتـه.

عندمـا كانـت جويـا صغـيرة، كانـت تنظـر كثـيراً إلى ذلـك الألبـوم. كانـت تضعـه في حجرهـا، بعـد أن تحملـه بصعوبـة، وتقلـب الصفحـات وهـي تبتسـم... كان شـيئاً مسـلياً رؤيـة أبويهـا شـابين، وكانـت تبـدو

صـور أشـخاص آخريـن، وليـس هـما، وكانـت هـي تتخيـل في كل مـرة قصصـاً مختلفـة؛ مـرة أنـه الأمـير، الـذي تـزوج عاملـة، أو أنهـا كانـت وارثـة ثريـة وهـو مغـن مُفلـس. عـادةً كانـت خلفيـة تلـك الأفـلام الذهنيـة هـي المشـاجرات الصارخـة بـين الشـخصين بعينيهـما الخالديـن في تلـك الصـور، وكان حمـل جويـا للألبـوم عـلى ركبتيهـا، والتظاهـر بأنهـا تتحـدث مـع أصواتهـما، الطريقـة التـي تصـم بهـا أذنيهـا عـن سـماعهما.

- يمكن أن تنتظرا هنا.

قالـت لهـما سـكرتيرة ترتـدي تنـورة قصـيرة وقميصـاً ونظـارات إطارهـا ضخـم، وهـي أكـثر مـن كونهـا سـكرتيرة محـامٍ كانـت تبـدو موديـل نظـارات تتخـذ وضعـاً لصـورة سـتوضع عـلى كل أغلفـة المجلات النسـائية. قالـت هـذا بابتسـامة رسـمية جـدّاً، وأشـارت إلى مقعديـن مـن الجلـد عـلى يسـارها، ثمنهـما يسـاوي ثمـن كل الأثـاث في منـزل جويـا. في الواقـع، شـعرت بأنهـا داخـل منتجـع صحـي وليـس مكتـب محـامٍ، بتلـك الأرضيـة المصنوعـة مـن الباركيـه والحوائـط مـن خشـب الماهوجنـي اللامـع، والإضـاءة مـن أسـفل ورائحـة الفانيليـا.

بعـد قليـل سـيناديها أحدهـم لتدخـل إلى الحجـرة، التـي سـتكون فيهـا باتّـا ومحاميهـا والاختصاصيـة الاجتماعيـة؛ ليقولـوا لهـا إن البـلاغ أخـذ مجـراه بالفعـل، وإن مسـتقبلها ينتظـر محاكمـة القاصريـن، وتجريـم بسـبب «الرضـوض العنيفـة»، وسـتوصم حياتهـا كلهـا بسـبب لحظـة صغـيرة فقـدت فيهـا صوابهـا.

لهـذا يرتـدي الأب السـترة وربطـة العنـق، لا بـد أن يوحـي للاختصاصيـة الاجتماعيـة أنـه قـد أصبـح شـخصاً يوثـق بـه، نظيفـاً ومهندمـاً. «وهـو الهـدف -فكـرت جويـا - الـذي ولا حتـى بدلـة مـن تصميـم (أرمـاني) ويومـاً كامـلاً في منتجـع للتجميـل سـيكفيان لـه».

- بعد قليل سينادون عليكِ، اجلسي هنا، وأنا سأخرج للحظة.

قال لها أبوها، وهو يشير بيده إشارة التدخين، ثم ابتعد.

- «عليكِ» وليس «علينا».

عندئذٍ جلست جويا وهي تفكر في أنه بعد قليل ستدخل إلى غرفة سيتحدد فيها مصيرها، وأنها كالمعتاد، ستفعل ذلك بمفردها.

67

- تلك القبيحة المقرفة!

استطاعت جويا أن تسمع بوضوح صوت تونيا وهي تقول تلك الكلمات، بل تنطقها بوضوح، بمجرد أن دخلت مكتب المحامي.

- تلك القبيحة المقرفة!

وكانت تونيا تتحدث عن جوليا باتّا؛ زميلة جويا في الفصل، التي حضرت إلى الميعاد مع شاهديها (صديقتيها المقربتين، ربما حضرتا بالتهديد)، وفعلت ذلك بأن وضعت ضمادة على ذراعها وأخرى حول رأسها، كأنها كانت ضحية معركة حربية. بالقرب منها، يسند ذراعها، نظريّاً أبوها، وبالقرب منهما، الاختصاصية الاجتماعية: فتاة في الثلاثين تقريباً، بعلامات التجاعيد على تعبيرات وجهها، وشعرها الطويل مصبوغ باللون الأحمر، وعرفتها جويا، فقد مرت على منزلهم في اليوم التالي للحادثة، وتحدثت معها ومع أبويها.

- لكن أين المحامي؟

سألت تونيا، هناك على العتبة معها (الأب لا يزال في الخارج)، وهي ترى أن الحجرة ليس فيها سوى خمسة أفراد إضافة إلى جويا.

قالت لها الاختصاصية الاجتماعية: تفضلي، ادخلي، استريحي.

تقدمت جويا بخطوات بطيئة، وهي تشتم قليلاً معطر الغرفة، لا توجد فانيليا هنا، بل عسل وقرفة، وجلست أمامهم، وبدا لها كأنها في امتحان التخرج.

سألتها الاختصاصية الاجتماعية: ووالدك؟

- إنه هنا في الخارج، سيصل حالاً.

كان الأشخاص الخمسة الجالسون أمامها ينظرون إليها، تقريباً، كأنهم ينظرون إلى حيوان في حديقة الحيوانات.

استمرت الاختصاصية: حسناً، يمكننا في هذا الوقت أن نتعارف. أنا الاختصاصية الاجتماعية المسؤولة عن حالتكِ. وهكذا، كما تعرفين، أن والد جوليا هو أيضاً محاميها، الدكتور فلافيو باتّا.

علقت تونيا، وهي جالسة بالقرب من جويا: أوكي، أنتِ ضائعة رسميّاً.

في الواقع، لم تكن حركة ألا تذهب إلى المدرسة لأسبوع أذكى حركة في العالم؛ كان لا بد على الأقل أن تتحرى بعض الشيء، أو أن تحاول العثور على بعض المعلومات الضرورية، على سبيل المثال، أن تعرف أن والد الفتاة، التي دفعتها وأوقعتها في وسط الميدان العام، محامٍ في مكتب حوائطه من الماهوجني اللامع، ومُعطر بعطور مختلفة في كل حجرة.

استمرت تونيا: أنتِ لستِ فقط في حالة مزرية، بل انتهى أمركِ في تلك الفضلات الصناعية، من تلك التي تفوح رائحتها على بُعد كيلومترات، وليست رائحة عطرة بالتأكيد.

وهكذا، وحتى إن كان الوضع تماماً كما وصفته صديقتها المتخيّلة، وحتى إذا كانت موجودة أمام شيء ككتيبة الإعدام، دون أثر لأبيها بجوارها؛ لأنه لا يزال في الخارج، مَن يدري؟ ربما لا يجرؤ على الدخول، فإنها فعلت الشيء الأخير، الذي كان يجب أن تفعله

في هـذه اللحظـة، في البدايـة بصـوت خافـت، ثـم بصـوت أقـوى، بـدأت جويـا سـبادا، الجالسـة عـلى ذلـك المقعـد، في الضحـك.

أخـذ الأشـخاص الخمسـة الجالسـون أمامهـا يتبادلـون النظـرات، ثـم يعـودون للنظـر إليهـا، ثـم يتبادلـون النظـرات، غـير قادريـن عـلى قـول شيء.

اسـتمر هـذا المشـهد عـلى الأقـل دقيقـة كاملـة، مـع محاولتـين إسـتراتيجيتين مـن الاختصاصيـة الاجتماعيـة للتغطيـة عـلى الموضـوع، ودسـتة مـن النظـرات شـزراً مـن جهـة المحامـي فلافيـو باتّـا... لم يكـن يبـدو أن أحدهـم لديـه الشـجاعة لأن يتدخـل، حتـى شـعروا بمقبـض البـاب يتحـرك، ثـم دخـل عـلى الفـور أبـو جويـا، وعـلى فمـه كلمـة «معـذرة» عـلى الفـور، إلا أنـه لم يسـتطع حتـى أن ينهيهـا، وهـو عـلى عتبـة البـاب، وهـو ينظـر إلى ابنتـه وهـي تضحـك، ويشـعر بالخجـل، وهـو الـشيء الـذي حـدث مـرات نـادرة في حياتـه.

قـال لهـا أبوهـا، وهـو يقـف بالقـرب منهـا: جويـا، هـل يمكـن معرفـة عـلامَ تضحكـين؟

- لا، لا شيء، آسفة.

أجابت جويا، وهي تمسح دموعها.

وبينـما الأب عـلى وشـك الجلـوس، بـدأت الاختصاصيـة الـكلام: كـما شرحـت بالفعـل للمحامـي وأبي جوليـا، فالوضـع العائـلي لجويـا ليـس مـن أبسـط الأوضـاع، وربمـا تسـبب هـذا الوضـع في توتـر واضطـراب تصعـب السـيطرة عليـه، وأنـا أعتقـد أن هـذا هـو السـبب الوحيـد لـرد الفعـل غـير المسـؤول هـذا.

علقت تونيا: لهذا، ولأن الآنسة باتّا شديدة السفالة والانحطاط أيضاً.

وكادت جويـا تقفـز في ضحكـة أخـرى، لكنهـا هـذه المـرة، لحسـن الحـظ، نجحـت في قمعهـا عـلى الفـور. نظـرت إليهـا صديقتـا باتّـا نظـرة احتقـار وأومأتـا بـلا، تـكاد لا تُـرى، برأسـيهما.

في ذلك الوقت، استمرت الاختصاصية: إن جويا مستاءة جدّاً لما حدث. أليس كذلك يا جويا؟

نظر إليها كل من في الغرفة. أجابت جويا للنظرات، ثم قالت، بلا قناعة شديدة: أجل مستاءة جدّاً.

- تماماً. ولهذا السبب، فكرت في أن أطلب من والد جوليا، الذي بدوره قد استاء جدّاً مما حدث، أن يسحب البلاغ المُقدَّم.

- تماماً، أجل، أن يسحبه؛ فهذه الأشياء يمكن أن نحلها فيما بيننا.

قال والد جويا وهو يشير بيديه ليقول «لنحاول أن نتفق».

- إذا قررنا أن نسحبه...

قال المحامي فلافيو باتّا، محدداً موقفه، وهو يقلد مسرحيّاً حركة اليد التي قام بها للتو والد جويا.

- لن يكون هذا لنحل الأشياء بيننا، كما تقول سيادتك، لكن سنفعل ذلك فقط؛ لأننا نفهم أن ذلك سيؤدي إلى مزيد من المآسي التي تسيء إلى حالة ابنتك!

- حسناً، حسناً، يكفي ألا نضخم الأشياء. في نهاية الأمر، لقد كانت مجرد مشادة بين فتيات!

كان لا بد لجورج سبادا، والد جويا، أن يفكر جديّاً في أن يسجل نفسه في أي مسابقة دولية لـ«ردود غير مناسبة». كان سيحصل بالتأكيد على عدد من الجوائز وميداليات الشرف.

- مشادة بين فتيات؟ لقد قضت ابنتي ليلتها في الطوارئ!

أجاب المحامي، وهو ينهض ويضرب بقبضتيه على المكتب.

وكان وجهه، تقريباً، وجه مَن على وشك أن يغير رأيه في أمر سحب البلاغ. وما إن حاولت الاختصاصية أن تتحدث وتهدئ النفوس، تدخلت جويا، بشكل غير متوقع: لا يا بابا، هو على

حـق. إن مـا فعلتـه أنـا لا يمكـن تبريـره. لقـد فعلـت الـشر بـلا أي سـبب. وإذا كان عليهـم مقاضـاتي؛ فذلـك أقـل مـا يفعلـون. كنـت أنـا سـأقاضي نفـسي لـو كنـت مكانهـم.

علقت تونيا: يا سلام! يا لها من خطبة!

ابتسمت جويا، حتى إن لم يلحظ أحد هذا.

- جوليـا ووالدهـا لا يرغبـان في مقاضاتـك يـا جويـا. إنهـما يرغبـان فقـط في أن تـدركي فداحـة مـا فعلتِـه، وأن تتابعـي المسـيرة معنـا في الشـؤون الاجتماعيـة.

- مسيرة؟

سألتها جويا بصوت منخفض.

- شيء معتـاد. لا بـد أن تقومـي بحـوارات أسـبوعية مـع الاختصاصية النفسـية، التـي ستسـاعدك عـلى أن تجتـازي الفـترة الصعبـة الأكـثر تعقيـداً في حياتـك.

سألت جويا: أسبوعية؟

- رائع! إذن، كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟

تدخل كالمعتاد والد جويا، وهو يستعد للنهوض والرحيل.

علـق سـاخراً المحامـي فلافيـو باتّـا وهـو ينظـر إليـه مبـاشرةً في عينيـه: لا، ليـس كل شيء.

- أجـل يـا سـيد سـبادا. تدخلـت الاختصاصيـة، لقـد طالـب الأسـتاذ والآنسـة باتّـا بوضـوح بـأن تكـون المصروفـات الطبيـة مسـؤوليتكم.

- آه. قال والد جويا، وكم...

أجاب المحامي دون أن يتركه ليكمل: ثمانمائة يورو.

- ثمانمائة؟ ما هذا الهراء الذي تقوله؟

- أحـب أن أذكِّـر سـيادتك، إذا نسـيت، أن البـلاغ، الـذي سنسـحبه، مقـدَّم في ابنتـك، لكـن نظـراً إلى أنهـا قـاصر، فـإن المسـؤولية الكاملـة تقـع عليـك.

نظـر والـد جويـا إليهـا كأنهـا السـبب في كل مصائبـه، وربمـا أيضـاً مصائـب الكوكـب بكاملـه. تنهـد، ثـم نظـر إلى المحامـي وقـال لـه: هـل يمكـن أن ندفـع بالتقسـيط؟

68

توجـد كلمـة يابانيـة معناهـا «هبـة الريـح الأولى البـاردة، التـي تُنبئـك بحلـول الشـتاء» وتُنطـق: كوجـاراشي kogarashi؛ وهـذا ليـس اسـم ريـح مثـل السـيروكو والمسـترال[23]، لكنـه بالتحديـد هبـوب الريـح هنـاك؛ ذلـك الـذي ينبئـك بـأن الصيـف قـد انتهـى، وسـتبدأ الأجـواء القاسـية. الآن، أتى الربيـع، لكـن جويـا، في أثنـاء خروجهـا مـن مكتـب المحامـي مـع أبيهـا، الـذي كان يخلـع ربطـة العنـق، شـعرت عـلى خديهـا بهبـة الريـح تلـك.

لم تكـن تحـب الذهـاب إلى الاختصاصيـين النفسـيين، ليـس بسـببهم هـم، فغالبـاً يكونـون جيديـن، وأحيانـاً لطفـاء أيضـاً. المشـكلة هـي الهـدف. الاختصاصيـون النفسـيون، وفـق مـا رأتـه هـي حتـى الآن، ليـس لديهـم سـوى هـدف ضئيـل جـدّاً.

والمفهـوم غايـة في البسـاطة، في خـلال بضعـة لقـاءات، سـتخرج أسـباب الضيـق التـي يمكـن العثـور عـلى جـزء كبـير منهـا لـدى أبويهـا. حسـناً، رائـع، ممتـاز، لكـن مـاذا يحـدث بعـد ذلـك؟ إن هـي مـن يجـب عليهـا أن تسـتمر في الذهـاب، وأنهـا هـي التـي تذهـب إلى اللقـاءات، وهـي مـن يحتـاج إلى المسـاعدة. تقريبـاً مثـل الشرطـي الـذي يوجـد أمـام خاطـف؛ أحـد أولئـك الملثمـين في أثنـاء خروجـه مـن سرقـة بنـك، وهـو يجـر خلفـه رهينـة، بمجـرد التعـرف إلى الخاطـف، يسـدد الهـدف، ويطلـق الرصـاص عـلى الرهينـة.

(23) يُقال عنها أيضاً الرياح الجنوبية الشرقية والرياح الشمالية (بالترتيب).

ليست هي من يجب أن يذهب إلى تلك الزيارات، هي تشعر أنها سليمة تماماً. غريبة الأطوار، بالتأكيد. فريسة لملايين الانفعالات والتناقضات، حسناً، لكنها سليمة. إن أبويها هما من يحتاجان إلى زيارات، هما المرضى، وهما «الخاطف».

تشعر بالريح الباردة؛ لأن كل شيء يبدو كأنما قد عاد كما كان، لأن الصورة التي قدمتها للمسابقة، لم يبلغوها عنها شيئاً، ولأن هذا الصباح عندما سألت جدتها: اليوم؟ لم تقل شيئاً.

(منذ بضعة أيام، وقبل الذهاب إلى المدرسة، وعندما تذهب إلى الحجرة الصغيرة لتعطي قبلة الصباح لجيمّا، كانت تتبع ذلك الطقس بأن تنظر إليها في عينيها وتقول: اليوم؟ فهي مقتنعة أنه إن عاجلاً أو آجلاً ستقول لها شيئاً، ستعطيها إشارة ما، وأنه في ذلك اليوم سيظهر (لو)، وكل شيء سيعود على ما يرام، لكن حتى هذا الصباح، لا شيء، كوجاراشي).

- جروتي، تلفون.

نادتها أمها من الطابق الأسفل.

نزلت جويا جرياً وأسرعت إلى غرفة الجلوس. ربما لم يكن وقت الكوجاراشي بعد. ربما قرر (لو) أخيراً أن يهاتفها. ربما شيء ما سيستقيم اليوم.

- آلو؟

- لقد عثرت عليه!

لم يكن صوت (لو)، كان صوت امرأة، خشناً بعض الشيء وذكوريّاً.

- جو... جوفانا؟

- تعالي حالاً إلى هنا! لقد تذكرت أين رأيته!

69

وصلت إلى المشرب متقطعة الأنفاس.

سألتها بمجرد أن دخلت: إذن؟ ماذا اكتشفتِ؟

وكانت سيدة الكابوتشينو هناك أيضاً.

- ما هذا؟ ألن تلقي السلام!

- عندكِ حق. آسفة، كيف حالكِ؟ قالت لها وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها، هل رأيتِه؟

- أجل، بطريقة ما. تعالي معي.

أجابتها جوفانا، وهي تشير إليها أن تتبعها إلى المخزن الخلفي. صعدت جويا خلف الطاولة، وحركت ستارة من اللآلئ البلاستيكية، ودخلت إلى غرفة صغيرة مظلمة، مليئة بالزجاجات، ومُعلبات الحلوى، وصناديق من الورق المقوى.

- سأشرح لكِ. قالت لها جوفانا وهي تأخذ صندوق زجاجات فارغاً وتقلبه لتجلس فوقه.

- لديَّ ذاكرة فوتوغرافية غير عادية. تركت المدرسة وأنا صغيرة؛ بسبب حملي في سن السادسة عشرة، لكن كان يكفيني أن ألقي نظرة على الكتب لأحفظ الأشياء. كنت عبقرية صغيرة، أقسم لكِ! على كل حال، عندما أطلعتِني على تلك الصورة، لاحظت على الفور وجهاً مألوفاً بالنسبة إلي.

تسمعها جويا، لكنها في الوقت نفسه تتساءل: لماذا لكي تحكي لها هذه القصة أخذتها إلى المخزن الخلفي؟ فهمست، وهي جالسة على الأرض أمامها: إذن...

- إذن فكرت وفكرت، وتذكرت فجأة أن المسن قد ترك هنا في المخزن صندوقاً مليئاً بالكراكيب... وفي آخره، ماذا وجدت لكِ؟

قالت وقد رفعت من الأرض صندوقاً من الورق المقوى،

وعندئــذٍ فتحتــه ووضعتــه تحــت عينَــي جويــا.

- صورة؟

- أفضل من ذلك بكثير جدّاً.

قالـت جوفانـا وهـي تضحـك وتُخـرج منـه شـيئاً كاللافتـة المصنوعـة باليـد، أو بالتحديـد مسـتطيل مـن الكرتـون، وفوقـه كُتبـت أشـياء كثيرة بقلـم التحديـد، وعـدد مـن الصـور. أخذتهـا جويـا مـن يدهـا وأخـذت تنظـر إليهـا، واضعـةً إياهـا عـلى ركبتيهـا. لم تلحـظ أي شيء غريـب: كانـت لوحـة خاصـة بـدورة لعبـة الأسـهم، وعليهـا كُتبـت بخـط اليـد النقـاط التـي حصـل عليهـا كل لاعـب، وصـور الفائزيـن، ثـم بعـض صـور المجموعـة متفرقـة، ويوجـد أيضـاً الفائـز بـشيء يُدعـى كأس كيوسـكو، مـن الواضـح أنـه الاعـتراف بأكـثر مـن يـشرب في المسـابقة.

قالـت جويـا واللوحـة لا تـزال عـلى ركبتيهـا: لكننـي لا أجـد شـيئاً غريبـاً!

- لكن هل أنتِ غبية أم ماذا؟ انظري إلى أسفل!

تجــول جويــا بنظرهــا في آخــر اللوحــة الكبــيرة وتلاحــظ صــورة مقصوصـة بالمقـص، صـورة شـخص يظهـر فقـط وجهـه، وكان هـو، (لو). إنـه هـو بالتأكيـد، بشـعر أطـول، ووجـه بالتأكيـد أصغـر، لكنـه هـو.

- آه اللعنة.

- تماماً، هذا ما قلته أنا أيضاً!

كانـت الصـورة مؤطـرة بقلـم التحديـد، وكانـت هنـاك بالونـة حـوار كارتونيـة خارجـة مـن فمـه ومكتـوب فيهـا: أنـا فخـور بهـذا المركـز الأخـير، لقـد تعبـت كثـيراً، وعملـت بجهـد شـديد!

قالـت جويـا: «إذن، فقـد كان في المركـز الأخـير!» وهـي تضـع السـبابة فـوق بالونـة الحـوار، وفكـرت في ذلـك الـذي قالـه لهـا في الليلـة الأولى، عـن أنـه إذا نظـر إليـه أحـد وهـو يلعـب يصبـح فاشـلاً.

- بالفعل، وليس هذا كل شيء. انظري ما اسم مَن وصل إلى المركز الأخير!

اقترحت عليها جوفانا، بنصف ابتسامة.

فكرت جويا بينها وبين نفسها «حسناً، بحظي التعس هذا، لنتخيل إذا كان المكتوب اسمه!»، ثم ألقت بعينيها على التصنيف النهائي وصاحت: ما معنى هذا؟

- هذا يعني أن صديقكِ الصغير قص عليكِ كثيراً من الكذبات يا فتاة!

- هنا مكتوب لوكا دي باولو! مَن لوكا دي باولو هذا؟!

قالت جويا بفم مفتوح، وهي تنظر إلى الأسماء العشرين الأخرى في الجدول، لم يكن هناك أي لورينزو، ولا حتى جزءاً من الاسم.

- الأمر في غاية البساطة يا جويا العزيزة. فتاكِ (لو) في الحقيقة ليس اسمه لورينزو، لكن لوكا، ولم يعطكِ اسم العائلة فقط خطأ، لكن اسمه هو أيضاً. يا له من خبيث!

- لكن معذرة، ما دخل الاسم (لو) بالاسم لوكا؟

نهضت جوفانا من فوق الصندوق وذهبت لتجلس على الأرض بالقرب من جويا. ومن المشرب يصل صوت العجوز: يا آنسة، هل يمكن أن تضيفي لي بعض الرغوة في الكابوتشينو؟

- حالاً!

صاحت جوفانا، وفي الوقت نفسه، أخرجت قلماً من جيبها، وبالقلم رسمت دائرة صغيرة على الحرفين الأخيرين من اللقب، ثم قالت لها: في رأيي هكذا اختار اسمه. من الحرفين الأخيرين.

- يا آنسة! الكابوتشينو الذي معي بلا رغوة!

- آاااه!

صاحت جوفانا وهي تنهض لتعود إلى المشرب، وتركت القلم في يد جويا. أعادت جويا رسم الدائرة حول الحرفين الأخيرين من اللقب، وفي الوقت نفسه، فكرت في أن الأمر يمكن أن يصدر من (لو)، أن يختار الحرفين الأخيرين وليس كالجميع، الحروف الأولى. وفي الوقت نفسه، بينما تجلس أرضاً أعادت النظر إلى الجدول والصورة والاسم. عادت جوفانا وجلست مرة أخرى فوق الصندوق.

- أقسم إنني سأقتل تلك العجوز إن عاجلاً أو آجلاً!

سألتها جويا: لكن اسمعي، في رأيك...

- رأيي في ماذا؟

- لماذا يعطيكِ فتى اسماً غير اسمه؟ أقصد ماذا يمكن أن يدفعه إلى هذا؟

- صغيرتي، يبدو لي أن من كان عليه أن يخبركِ، منذ فترة طويلة، عن بعض الأشياء الأساسية فيما يخص عالم الذكور، لم يفعل ذلك كما ينبغي. أتعلمين هذا؟

- هل تقصدين أن...

- اسمعي، لنفعل ذلك، الآن، سأطرح عليكِ سؤالين مباشرين وأنتِ أجيبيني، ما رأيك؟

- اتفقنا، ربما يفيد هذا.

- لنرَ: هل تردد هو بعض الشيء قبل أن يقول لكِ الاسم المزيف؟ أي هل تأخر، وجعلكِ تتمنين هذا؟

- أجل، لكن لماذا...

- ثم، لنرَ... هل بحث دائماً عن أماكن منعزلة؟ هل أراد دائماً ألا يظهر معكِ كثيراً؟

- أجل، لكن...

- السؤال الأخير: هل اختفى قبل أم بعد أن أخذ منكِ أغلى ما لديكِ؟

- أغلى ما لديَّ! ماذا؟

- هل نام معكِ ثم تبخر؟

خفضت جويا رأسها، كأنه يوجد على أرضية المخزن الخلفي للمشرب كثير من القوالب التي عليها ترتيبها، ولم تجب عن هذا السؤال الأخير، لكن كان صمتها في حد ذاته إجابة، وهكذا ختمت جوفانا قائلة: عزيزتي، لديَّ شكوك قوية أن فتاكِ الوسيم الغامض قد لعب بكِ. لنقل إذن إنه أحد أولئك الذين ينتمون إلى نادي من يستحقون أن يمزقه أحدهم جيداً. وفي حالة العثور عليه، اعرفي أنني أتطوع لذلك بكل سرور!

وفي ذلك الوقت، من داخل المشرب، نادت العجوز مرة أخرى، وتظاهرت جوفانا بأنها لا تسمعها. مكثت جويا على الأرض وهي تجز على أسنانها من الغضب والذهول.

يصعب عليها جداً، بالفعل، أن تفكر في أن كل ذلك الذي حدث، الحجارة، والصورة المؤطرة، وكل الأمسيات التي قضياها معاً، فعل هو كل هذا فقط لكي يأخذها إلى الفراش. وهكذا وبينما جوفانا على وشك أن تعود إلى المشرب لتضع مرة أخرى الرغوة للعجوز، نهضت جويا، ولمست ذراعها وسألتها: هل لديكِ دليل تلفون؟

70

- آلو، منزل عائلة دي باولو؟

- أجل، مَن يتكلم؟

- صباح الخير، اسمي جويا سبادا.

- اسـمعي، إذا كانـت مكالمـة تجاريـة، أريـد فقـط أن أقـول لـكِ عـلى الفـور إننـا لا نبتـاع شـيئاً.

- لا، لا، لا تقلقي، ليس شيئاً من هذا. أتصل من أجل لوكا.

-...

- آلو؟ هل لا تزالين معي؟

- تفضلي.

- لا شيء. كنت أريد فقط أن أعرف إذا كان في المنزل.

- من؟

- لوكا، لوكا دي باولو... هل هو في المنزل؟

- هل يمكنكِ أن تقولي لي مرة أخرى مَن أنتِ، من فضلك؟

- اسمي جويا سبادا، وأنا صديقة لوكا، هل هو في المنزل؟

- ما هذا؟ مزحة؟

- لا، على الإطلاق.

- إذا كانـت مزحـة، أحـب أن أقـول لـكِ إنهـا مزحـة ثقيلـة جـدّاً، هـل تعرفـين؟

- لكـن لا، أنـا فقـط أريـد أن أتحـدث دقيقتـين مـع لـوكا. هـل يمكنـكِ أن تعطيـه الهاتـف، أو أن تقـولي لـه فقـط إننـي أتصـل؟ كليك!

71

عـادةً تجـري بهـذه الطريقـة في الطريـق العكـسي، مـن المنـزل إلى المـشرب، لكـن في هـذه المـرة تجـري جويـا بأقـصى سرعـة باتجـاه منزلها.

ستشـغل الحاسـوب العتيـق؛ ذلـك الـذي عندمـا يبـدأ يُحـدث ضوضـاء أكـثر مـن ضوضـاء شـاحنة في حالـة صعـود جبـل، وسـتعثر عليـه. سـتذهب إلى محـركات بحـث «غوغـل» و«ياهـو» وغيرهـما

وكل مكان؛ وهي مستعدة أيضاً للعودة إلى حساب أمها على الـ«فيسبوك»، لكنها يجب أن تعثر عليه.

لا بد أن تعرف السبب، لماذا قال لها اسماً مستعاراً؟ ولماذا اختفى؟ وإذا كان بالفعل في مصيبة ما ويحتاج إليها. لا بد أن تُسكت الأصوات الكثيرة، صوت تونيا، وصوت جوفانا، التي تقدم إليها حلولاً بسيطة، إنه كان يتسلى، أو أن لديه صديقة بالفعل وكان بحاجة إلى التغيير.

- هيه أنتِ! ما حكاية أنكِ تدخلين وتخرجين كما يحلو لكِ؟!

تسمع صوت أبيها وهو يصرخ بمجرد أن تضع قدمها في المنزل، لكن لم تجبه جويا، وأسرعت لتشغيل الحاسوب. وفوق لوحة المفاتيح تجد جاكو القط الشبح نائماً؛ فتضعه برفق فوق الفراش وتضغط زر التشغيل.

يُفتح باب غرفتها بُعنف، ويظهر وجه أبيها، لم يعد يرتدي ربطة العنق، وكان ينظر إليها بغضب.

- لقد طرحت عليكِ سؤالاً!

كان الرد التلقائي لديها هو أن تقول له: «ألا يجب أن تطرق الباب؟»، لكن لون وجهه جعلها تختار نبرات ومحتويات أكثر حذراً.

- أجل، آسفة، لم أسمعك.

- لقد سألتكِ كيف تدخلين وتخرجين من المنزل كما يحلو لكِ؟

وهنا أيضاً أرسل إليها مخها معطيات، مثل: «أنت لم تهتم من قبل بما كنت أفعله، ماذا حدث لتبدأ الآن؟»، لكن نظراً إلى أنها بهذا تخاطر بأن تتلقى العقاب المثالي، مثل أن يقطع الإنترنت، أو أن يصفعها بقوة كما كان يحدث في الماضي، اختارت جويا أن تقول: لقد ذهبت سريعاً إلى إحدى الزميلات لتعطيني بعض الملحوظات

الخاصة ببحث. وفي الواقع، لا بد الآن أن أذهب إلى «غوغل» حتى...

- لن تستطيعي، قطعوا خط التلفون.

- ماذا؟

- ليس خطأي، بل خطأ أمك التي لم تدفع الفاتورة في موعدها! غداً صباحاً سأذهب لأدفعها أنا، لكن قبل أن يعيدوه إلينا سيستغرق الأمر بعض الوقت.

- آه، أوك، إذن سأذهب لأقوم بهذا البح...

حاولت جويا أن تقول، وهي تفكر في الذهاب للبحث عن إجابات في أي مركز إنترنت، إذا كانت لا تزال موجودة.

- لن تذهبي إلى أي مكان، إذا كنتِ قد فعلتِ ما فعلتِه؛ فهذا أيضاً لأنه لا يوجد أحد هنا ليعلمك بعض القواعد. من الآن فصاعداً تغير هذا!

قال أبوها، وهو يغلق الباب ويعود إلى أسفل، دون أن ينتظر أي رد.

وهكذا مكثت جويا بمفردها في الحجرة مع القط وتونيا، وعلى الأقل بعض الأطنان من الشكوك.

وبطريقة عفوية، طبيعية، وواضحة تقريباً، خرجت من جديد لعنتها المفضلة: «كوكب قذر!».

72

المنزل جميل بالفعل. فيلا من تلك الحديثة جدّاً، مصنوعة بدقة، الجدران الخارجية بالأحمر الزاهي، وعلى واجهة موقف السيارات نوع من الموزاييك المصنوع من قطع معدنية على شكل نجوم.

قررت جويا، بعد المدرسة، أنها ستعرج على العنوان، الذي عثرت عليه في قائمة الأمس لدى جوفانا.

- لم يكن يبدو ابن أثرياء.

قالت جويا لتونيا وهي تتوقف لتنظر إلى المنزل.

- ولم يكن يبدو أيضاً كشخص يمكن أن يعطيكِ اسماً مستعاراً.

أجابتها بدقة صديقتها لاعبة الكرة الطائرة، وهي ترفع رأسها قليلاً لتنظر جيداً إلى الجزء الخارجي من المنزل، ثم أضافت: خلال نصف ساعة لا بد أن تكوني لدى المحللة النفسية، تعرفين، أليس كذلك؟

- أعرف، أعرف.

فحصت جويا من الخارج الحديقة المعتنى بها جيداً، وألقت نظرة نحو السور الكبير الذي يحيط بالمنزل، والذي استطاعت من ورائه أن ترى، ضمن أشياء أخرى، حمام سباحة.

أضافت: لديه كل هذه النقود ويرتدي ملابسه دائماً بالطريقة نفسها! حتى تونيا احتارت.

من يدري لماذا يستطيع بعض الأبناء الأغنياء، أحياناً، أن يجعلوا الآخرين يعتقدون أنهم أبناء عمال أو ميكانيكيين؛ أي إن بعضهم يحرص على ذلك بالفعل، أن يبدو على خلاف حقيقته. يجتهد جدّاً في هذا، يذهب إلى المدرسة بأحذية مقطعة، وجينز متسخ، ودائماً التي شيرت نفسه، بينما في المنزل لديه سيارات ثمنها يفوق ثمن شقق، ولديه الوصيفة، والجاكوزي، مقتنعاً أنه يكفي هذا لينزع عن نفسه رخصة الثراء، كأن هناك شيئاً ما يخجل منه.

همست لتونيا: الفقراء لا يريدون أن يظهروا كفقراء، والأغنياء لا يريدون أن يبدوا كأغنياء، في النهاية لا أحد يريد أن يُظهر حقيقته، يا للخداع!

تتمنى جويا سبادا فقط ألا يكون (لو) من هؤلاء، وأن ارتداءه دائماً ملابس متشابهة وقديمة بعض الشيء؛ لأنه يحب ذلك. ربما

سـيؤلمها أكـثر مـن قصـة الاسـم المزيـف أن تشـعر أن الأمـر كلـه كان مجـرد عـرض.

ترن الجرس.

لا يجيب أحد.

ترن الجرس من جديد.

لا أحد.

تضـع للمـرة الثالثـة إصبعهـا عـلى الـزر، وهــي عـلى اسـتعداد لأن ترنـه، عندمـا تـرى خلـف النوافـذ سـتارة تتحـرك، كأن أحدهـم يتلصـص ولا يريـد أن يـراه أحـد. ربمـا تكـون المـرأة التـي أجابـت بالأمـس عـلى الهاتـف، أو ربمـا...

- إذا كان هو، سيكون بالفعل...

- ماذا؟

- لا داعي، لكن ماذا يفعل بحق الجحيم، هل يلعب الاستغماية؟

قالت وهي تنظر نحو الستائر.

أجابت تونيا: يبدو هذا.

عندئـذٍ رنـت جويـا الجـرس مـن جديـد، وهـذه المـرة لفـترة أطـول، وأخـذت تعلـق وتقـول: لـنرَ مـن سـيفوز!

لا شيء، لم يرد أحد. ولم تتحرك الستائر من جديد.

حاولت جويا من جديد، ثلاث، أربع، خمس مرات، لا شيء.

قالـت لتونيـا: هيـا، ربمـا كانـت الأم. ربمـا يكونـون كلهـم مصابـين بالصمم في هـذا المنـزل، أو ربمـا يكونـون كلهـم أوغـاداً، دققـت أكـثر... وابتعدتا.

73

تتشـابه الملصقـات عـلى الحوائـط مـع مواقـف رأتهـا جويـا، بطريقة مـا، خـلال سـنوات عمرهـا السـبع عـشرة: يوجـد ذلـك الخـاص بالعنـف

ضـد القاصريـن؛ وذلـك الخـاص بمدمنـي الخمـور المجهولـين، والزيجـات المتأزمـة، وأخـيراً ذلـك الـذي يدعـو السـيدات ضحايـا العنـف للإبـلاغ عـن أزواجهـن. عمليّـاً، كانـت قصـة حياتهـا موجـودة عـلى الجـدران الأربعـة.

حاولـت جويـا أن تُركـز عـلى الملصقـات، لكـن الرفـاق في صالـة الانتظـار لم يشـعروها بارتيـاح.

يوجـد رجـل في الأربعـين تقريبـاً، يتحـدث بمفـرده، ويهمـس دائمـاً بالعبـارة نفسـها: شيء مـا ليـس عـلى مـا يـرام!

وفتـاة نحيفـة جـدّاً، لكنهـا نحيفـة لدرجـة مخيفـة، تتصفـح مجلـة بهـدوء.

وفتـى لم يفعـل شـيئاً سـوى النهـوض، يـدور بعـض المـرات في صالـة الانتظـار، ثـم يعـود ليجلـس، ثـم ينهـض مـن جديـد.

الوحيـدان اللـذان بطريقـة أو بأخـرى لم يسـببا القلـق، كانـا رجـلاً وامـرأة، هـو في السـبعين تقريبـاً وهـي في الأربعـين تقريبـاً، ربمـا زوجـاً وزوجتـه، جالسـين أمامهـا، لكـن بإمعـان النظـر إليـه يوجـد شيء مـا في نظرتـه لا يعجبهـا، نظـرة غامضـة، كأنـه لم يكـن صادقـاً تمامـاً. يرتـدي ملابـس أنيقـة ويمسـك بيدهـا. أمـا هـي، فتعبيرهـا مُفـرغ تقريبـاً، ضائعـة، ومتعبـة. تبـدو كمـن يشـاهد التلفزيـون، أو مثـل مـن لا يخلـد إلى النـوم طـوال الليـل. عـلى الرغـم مـن أنهـما؛ حيـث هـما، لا يوجـد أي تلفزيـون.

- سـبادا! سـمعتهم ينـادون مـن الداخـل. جـاء دورهـا. نهضـت جويـا.

كانـت تتوقـع المكتـب الكلاسـيكي المكتـظ بنسـخ مـن لوحـات مشـهورة، إلا أنهـا لم تجـد عـلى الجـدران سـوى تصميـمات ورسـومات جديـدة مـن نوعهـا. كانـت هنـاك واحـدة منهـا جميلـة بالفعـل: كان

مرسـوماً فيهـا قلـب كبـير جـدّاً أحمـر اللـون، لكـن إذا اقتربـت منهـا تكتشـف أن خطـوط القلـب مصنوعـة مـن أسـماء أشـخاص ومـدن، مكتوبـة بخـط صغـير جـدّاً.

سألتها الطبيبة الجالسة على مكتبها أمامها: هل تعجبكِ؟

هـي أيضـاً كانـت تتوقعهـا مختلفـة: كانـت فتـاة في الثلاثـين تقريبـاً، فتـاة جميلـة، شـعرها أسـود، ترتـدي النظـارات، لديهـا قصـة شـعر أماميـة، وبعـض النمـش.

- جميعهـا مـن إبـداع صبيـة يشـتغلون بمركـز الصحـة العقليـة. وهـذه التـي تنظريـن إليهـا الآن فـازت في مسـابقة.

- بالتأكيد، كنت سأصوِّت لها أنا أيضاً.

قالت جويا وهي تقترب من اللوحة.

- ماذا يعجبكِ في هذه اللوحة؟

- تعجبنـي لأنـه يقـول لنـا إن قلبـه مصنـوع مـن الآخريـن؛ مـن الأشـخاص الذيـن عرفهـم، مـن الأماكـن التـي زارهـا.

قالت جويا وهي تشير بإصبعها نحو خطوط القلب.

سـألتها الطبيبـة، وهـي تنهـض وتقـترب منهـا بعـض الـشيء: وهـل هـذا جميـل، في رأيـك؟

- لنقل جميل وسيئ.

- آه، سيئ؟

- أن نـترك النـاس ليدخلـوا هكـذا في قلوبنـا يمكنـه أن يكـون سـيئاً جـدّاً، كأننـا لا نقـوم بـأي تفتيـش مـن أي نـوع في مدخـل متحـف غايـة في الأهميـة، مثـل اللوفـر. ففـي لحظـة يمكنـكِ أن تجـدي الجيوكانـدا مسروقة.

تقـترح عليهـا بينـما لا تـزالان تنظـران إلى اللوحـة: لكـن ربمـا قام هو بالتفتيـش، ثـم قـرر، في كل الأحـوال، أن يُدخـل عدداً من الأشـخاص.

- يمكن، لكن انتهى به الأمر في مركز الصحة العقلية.

نقلت المحللة النفسية نظرتها من اللوحة إلى جويا، ثم أفلتت منها ابتسامة، وقالت لها: تفضلي اجلسي.

جلست جويا وهي تنظر بسرعة إلى صورتين مؤطرتين موضوعتين فوق المكتب: الفتاة نفسها مع رجل، أكبر منها بكثير (الأب؟)، ثم صورة أخرى مع طفلة صغيرة (الابنة؟). ولا توجد صورة مع الزوج. لا بد أنها مطلقة، أو متزوجة من شخص أكبر منها. تدور الاختصاصية النفسية حول المكتب لتجلس أمامها.

تقول لها: هل تعرفين أن اسمكِ جميل؟ لديها نغمة في لهجتها لا تبدو إيطالية. روسية ربما!

- أشكرك. تجيبها جويا.

تسألها: إذن، كيف حالك؟

اسمها على البطاقة المُعلقة على القميص: فيروشكا روفيريدو. ربما تكون أجنبية متزوجة من إيطالي، الذي بعد ذلك...

- جويا؟

- أجل؟

- هل تريدين أن تخبريني كيف حالك؟ كيف تشعرين؟

بكل صدق، لم تكن تتوقع أن تطرح عليها سؤالاً من هذا القبيل. كانت مستعدة لشيء مختلف تماماً، كانت تتوقع تلك الاختبارات الغبية ذات الصور المُجردة، وسلسلة لا نهائية من لماذا فعلتِ هذا؟ وكيف هي علاقتك مع أبويكِ؟ وليس مجرد سؤال بسيط، وتافه، وطبيعي جدّاً: كيف حالك؟

ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال أبداً.

إذا صنفوا الأسئلة، التي يرد عليها الناس بكذبة، فسؤال «كيف حالك؟» سيكون بالتأكيد في أول القائمة. لا أحد يجيب عن هذا السؤال مطلقاً قائلاً الحقيقة كلها.

لكـن جويـا لا تعـرف لمـاذا، إلا أنهـا أرادت أن تجيـب بصـدق. واليـوم، الآن، هنـا، كان الـرد الصـادق عليهـا: لسـت بخـير.

نظـرت إليهـا الدكتـورة روفيريـدو، وضمـت شـفتيها لثانيـة، ثـم قالـت: أعلـم هـذا.

لم تعـرف جويـا مـاذا تقـول. لم تكـن تتوقـع حتـى هـذا، ثـم اسـتمرت الدكتـورة بلهجـة روسـية بعـض الـشيء؛ وهـو مـا جعلهـا أكـثر لطفـاً: «كل شيء مقـرف، أليـس كذلـك؟». فكـرت جويـا لحظـة في الأمـر: «لا، ليـس كل شيء مقرفـاً. الحقيقـة...»، حاولـت أن تبـدأ في قـول شيء مـا، لكنهـا فقـدت الكلـمات في الطريـق. كانـت أمامهـا مـن ثانيـة واحـدة، لكنهـا اختفـت.

واستغرق الأمر وقتاً طويلاً لتعثر عليها من جديد.

التزمـت المتخصصـة الصمـت، ولم تتحـدث. انتظـرت حتـى تفعـل جويـا هـذا، وبـدا عليهـا أنهـا حتـى إن لم تسـتطع جويـا ذلـك، لـن تحـدث أي درامـا. وهكـذا توافـر الوقـت لجويـا لتسـمح للكلـمات أن تقـترب منهـا مـن جديـد، وحدهـا. وعندمـا اقتربـت، شـعرت فجـأة بالرغبـة في أن تخرجهـا. لم تكـن تتوقـع هـذا عـلى الإطـلاق، كانـت تعتقـد أنهـا سـتضطر إلى أن تنتزعهـا انتزاعـاً.

- في الحقيقـة ليـس كل شيء مقرفـاً عـلى الإطـلاق؛ بـل، العكـس تمامـاً. أنـا أعلـم أن كل شيء جميـل جـدّاً، هنـاك في الخـارج، لكـن كأنـه جميـل جـدّاً... مـن الخلـف، هـل تفهمينـي؟ في الأسـفل، في الخلـف، مـا وراء ذلـك، يبـدو كأن كل شيء مختبـئ، يبـدو مثـل...

خرجـت منهـا كلـمات مرتبكـة، حتـى هـي لم تكـن تـدري مـاذا تقـول بالتحديـد. نظـرت إليهـا الدكتـورة، دون أن تتحـدث، لكـن بنظـرة تعنـي: تبـدو مثـل؟

- تبـدو كأننـا نعـرف أن كل شيء يمكـن أن يكـون أجمـل مـن هـذا، لكنـه ليـس كذلـك مطلقـاً في نهايـة الأمـر. ليـس مسـتحيلاً؛ فهـو هنـاك،

لكنـه في الخلـف، أو في الأسـفل، لكـن لا يخـرج مطلقـاً، لا يظهـر. لمـاذا لا يظهـر؟

قالـت، دون أن تعـرف أنهـا ربمـا لا تتحـدث فقـط مـع نفسـها، كأن الفاعـل في لمـاذا لا يظهـر؟ هـو شيء آخـر. شـخص آخـر.

تنهدت الدكتورة، وانتظرت بضع ثوانٍ، ثم قالت لها: أعرف.

- تعرفين؟

- أعـرف. هكـذا تسـير الأمـور. أنـتِ عـلى حـق. أنـا أعتقـد أنـكِ فعلـتِ مـا فعلتِـه لتُظهـري ذلـك الـذي لا يظهـر.

- أجل، هذا أيضاً.

- سنتقابل خلال يومين؟ المكان نفسه والساعة نفسها.

قالت جويا وهي تنهض: حسناً.

شيء غريـب، لكنهـا كانـت تفكـر في أن هـذا الـشيء جعلهـا تشـعر بأنهـا أفضـل، عـلى الرغـم مـن أنهـا كانـت متأكـدة مـن العكـس. تتجـه نحـو البـاب، تفتحـه، ثـم تقـول الدكتـورة بصـوت مرتفـع: دي باولـو!

تتسمر جويا، مضطربة داخليّاً من شحنة كهربائية.

سألت الطبيبة: ماذا قلتِ، معذرة؟

أجابت هي: دي باولو، المريضة التالية.

بينـما بالقـرب مـن جويـا يمـر الشـخصان اللـذان رأتهـما مـن قبـل، يمسـك الـزوج والزوجـة كلٌّ بيـد الآخـر.

74

- بالتأكيد مجرد مصادفة!

- لا وجود للمصادفات!

- قال بوفه إن كل شيء يحدث بمحض المصادفة يا تونيا.

- بوفه يدرس فلسفة.

- إذن؟
- الحياة شيء آخر.
- ليس دائماً.
- عندما لا يكون الأمر كذلك؛ لأن الحياة خدعتنا.
- تونيا!
- أقول لكِ إنهما والداه!
- لو؟
- لا، هاري پوتر.
- في هذه الحالة لا أعرف مَن الواقعي أكثر، هو أم هاري.

جويا سبادا تقف خارج مبنى الخدمات الاجتماعية، هناك تتحدث ذهنيّاً مع تونيا، بينما تنتظر أن يُفتح هذا الباب. تتجنب أن تفعل هذا بصوت مرتفع، هذه المرة؛ لأنها تدرك بدورها أن إطار المكان الذي توجد فيه يسمح لأي شخص أن يفكر في أن هناك عطباً ما في رأسها.

تتقدم خطوة إلى الأمام، ثم خطوتين للخلف.

لا تعرف بالتحديد ماذا يجب أن تفعل، عندما يحدث: الفكرة التي راودتها أن توقف على الفور الشخصين وتسألهما إذا كانا يعرفان لوكا، وأن تسمعهما يجيبان: لا، لم نره، ولم نسمع عنه قط، ثم تعود إلى المنزل لتكتئب.

- إذن، لنبدأ من جديد. تسمع صوت تونيا يقول لها، ستكون خطتك أن توقفي اثنين لا تعرفينهما، خارج مركز الخدمات الاجتماعية، لتسأليهما إذا كانا يعرفان شخصاً اسمه لوكا دي باولو؟

في هذه المرة كان الاعتراض ذكيّاً. ربما لا توجد سوى طريقة واحدة لتفهم من خلالها إذا كانا على علاقة به.

75

يُفتح الباب، وعلى وجهها تبدو آثار بكاء شديد. يمسكها هو من ذراعها، بتعبير وجهه الغامض بعض الشيء، وفي ذهن جويا تنطلق على الأقل عشرات من الأفلام الذهنية في وقت واحد: ربما هما هنا لأنها تمر بفترة اكتئاب، أو ربما هي أخته وتعاني من بعض الاضطرابات النفسية، أو ربما متزوجان وعلى وشك الطلاق وهي لا تتحمل هذا، وهو يحاول مساعدتها على اجتياز ذلك.

يخرجان. تلتفت جويا نحو الطريق، وتأخذ المفكرة من حقيبتها وتتظاهر بأنها تلفون؛ لتتمكن من التحدث مع تونيا وتبدو أيضاً طبيعية .

- هل تتبعينهما؟

- يا لكِ من ذكية يا شيرلوك!

- ماذا إذا أدركا؟

- يبدو لي أن لديهما شيئاً آخر يشغلهما. نتمنى فقط ألا يكونا قد جاءا بسيارة!

في ذلك الوقت، اتخذ الشخصان الطريق الرئيس وهي متأبطة ذراعه. يسيران مدة ليست قليلة، دون أن يتبادلا كلمة واحدة.

تصيح جويا: ربما يكون هو مجرد مقدم الرعاية!

- لا، فهو حنون جدّاً.

ثم، عند لحظة ما، يعرجان، تماماً في طريق منزل الأغنياء؛ حيث ذهبت جويا بحثاً عن (لو)؛ ذلك الذي لم يحاول حتى أحد فيه أن يفتح لها.

قالت تونيا بنبرة سعيدة: هل رأيتِ؟

- بالفعل، لا بد أن أقص هذا على بوفه.

لا شك، هو تماماً المنزل. يدخل الرجل والمرأة من البوابة،

وعندما يغلق هو البوابة، يلتفت لينظر لبضع ثوانٍ نحو الطريق، تماماً في اتجاه جويا التي -بالغريزة - تختبئ خلف صندوق القمامة، وتتعثر بإحدى عجلاته لتسقط أرضاً، بينما تنفجر تونيا في الضحك.

76

انتظرت لمدة ساعة وثماني عشرة دقيقة وست وعشرين ثانية، وطوال هذه المدة كانت تونيا تسخر منها؛ لأنها تجلس هناك ملتصقة بصندوق القمامة.

ساعة وثماني عشرة دقيقة وست وعشرون ثانية، وهي تتساءل: أذهب أم لا؟

ساعة وثماني عشرة دقيقة وست وعشرون ثانية من: ثم إذا ذهبت ماذا أفعل؟ أرن الجرس؟ وإذا لم يجبني أحد مثل المرة السابقة؟ وإذا - من النافذة - تعرفا إليَّ من مركز الشؤون الاجتماعية واعتقدا أنني مجنونة؟

لا، لم تكن تلك الساعة والثماني عشرة دقيقة وست وعشرون ثانية ممتعة على الإطلاق.

ولهذه المواقف، لدى جويا منهج: فهي تضع قارئ الـ«إم بي ثري» بطريقة عشوائية، وتضغط زر التشغيل، وعندما، أو إذا، وصل إلى أغنية Born to Run لبروس سبرينجستين[24]؛ فهذا يعني أنها اللحظة المناسبة.

يوجد على قارئ الـ«إم بي ثري» ألف ومائتان وست وثلاثون أغنية. المرة الوحيدة، التي نجحت فيها هذه الطريقة عندما كان عليها أن تقرر إذا كانت تقبل أم لا الدعوة إلى حفل نهاية العام في صالة الرقص المحببة لكازالي ورفاقه، وكانت، تقريباً، أتعس وأبأس أمسية في حياتها كلها.

---

(24) Bruce Springsteen.

على الرغم من ذلك، إلا أنها لا تزال تستخدم هذا الأسلوب. وربما لهذا يصعب على جويا أن تفعل أي شيء.

تقول لها تونيا: ينبغي أن تضعي فقط ست أغنيات في الـ«إم بي ثري».

- اسكتي أنتِ.

وهكذا، خلف الصندوق الكبير، وبعد ساعة وثماني عشرة دقيقة وست وعشرين ثانية، وبعد سبع وعشرين أغنية، لم تكن هي المطلوبة، يحدث شيء ما.

بدأ المصباح الموضوع على قمة البوابة الإلكترونية في الوميض، وبدأت البوابة تُفتح ببطء. عبرت من خلالها سيارة طويلة سوداء لامعة، وفي داخلها السيد، زوج أو أخو السيدة. وبعد ثانيتين، رحلت السيارة، بينما من السماعات تُسمع أغنية كيتي بيري[25]، التي لا تعرف كيف وصلت إلى تلك القائمة، Firework.

وبينما تبتعد السيارة في نهاية الشارع، وبفعل معجزة ما، انطلقت أغنية Born to Run.

صرخت فيها تونيا: هيا يا غبية!

نهضت جويا سبادا، وخرجت من مخبئها، وذهبت نحو البوابة. رنت الجرس مرة، ثم مرتين، ثم ثلاث مرات.

في النهاية، سمعت حركة في السماعة الخارجية: من هناك؟

قال صوت معدني لامرأة.

اقترحت تونيا: لا تقولي لها إنكِ تبحثين عنه، ستغلق الهاتف بالتأكيد!

- مساء الخير... أنا أبحث عن السيدة دي باولو.

- أنا هي. ماذا تحتاجين؟

---

(25) Katy Perry.

- قـولي لهـا إنـكِ مـن الشـؤون الاجتماعيـة، وإن السـيد الـذي كان معهـا نـسي شـيئاً مـا هنـاك.

- أجل، أنا من الشؤون الاجتماعية.. السيد الذي كان معكِ نسي...

- أتقصدين زوجي؟ ماذا نسي؟

لم تعرف جويا كيف تجيب، وأخذت تهز يديها من التوتر.

- يا آنسة؟

- قولي شيئاً!

- نسي... محفظته!

قالـت جويـا، وهـي متوتـرة جـدّاً. كانـت تشـعر بنظـرة تونيـا فوقها، ورأسـها وهـي تشـير بلا!

- شيء غريب، لا يفقدها إطلاقاً.

- إذا أردتِ يمكنني أن أمررها أسفل البوابة.

- حسناً، سأخرج الآن.

77

ترتـدي شـيئاً كالـروب المنـزلي، وتبـدو كمـن اسـتيقظ للتـو، لكـن ربمـا بعـد kp, ثمانمائـة عـام. لا تعـرف جويـا بعـد، بالتحديـد، كيـف تسـألها مـا تريـد، لكنهـا تعـرف أنهـا يجـب أن تسـألها.

قالـت لهـا السـيدة، بطريقـة عنيفـة بعـض الـشيء. شيء بـين الضيـق والغضـب: إذن، أيـن هـذه المحفظـة؟

- في الحقيقة... لست هنا من أجل المحفظة.

- إذا كنـتِ تريديـن أن تبيعـي لي شـيئاً، أقـول لـكِ عـلى الفـور إننـي...

هـا هـي مـن جديـد، الموضـة الجديـدة، التعامـل معهـا كبائعـة تجـول بـين المنـازل.

- لا يا سيدتي، اسمي جويا سبادا، وأنا هنا من أجل لوكا.

- كنت أعرف هذا! كان لا بد أن أعرفه!

قالت هي، متوترة، لكن أيضاً بحزن شديد، ثم استمرت: لهذا لا أفتح الباب لأحد قط إذا رأيت فتية على الباب. لم أعد أحتمل.

لم تفهم جويا جيداً ماذا تريد أن تقول السيدة. ولا حتى تونيا.

- قولي لها إن لديكِ كنزته في المنزل وترغبين في إعادتها.

حاولت أن تقترح عليها صديقتها المتخيّلة.

- في الحقيقة، لديَّ كنزة لوكا في منزلي، وكنت أريد أن أعيدها إليه.

أشارت جويا بصوت مضطرب، وكان لديها أيضاً الشعور بأن المرأة ستنفجر في البكاء بين لحظة وأخرى.

لا، لن تسير الأمور على الإطلاق كما كانت تتوقع.

من وجه السيدة، ومن الطريقة التي بدأت بها المحادثة، والقصة الغريبة للجرس وكل شيء آخر، كانت جويا تتوقع أن تقول لها إنها يمكن أن تحتفظ أيضاً بالكنزة، وإنها لا تريد أن تراها مرة أخرى، أو شيئاً من هذا القبيل. كانت تتوقع كل شيء، إلا ما قالته لها السيدة: تعيدينها.. إلى مَن؟

نظرت جويا إلى تونيا، ونظرت تونيا إلى جويا.

- كنت أريد أن أعيدها إلى لوكا.

فتحت السيدة فمها، وتركته هكذا، مفتوحاً، دون أن تتفوه بكلمة كأنها لا تفهم، قطبت حاجبيها، ونظرت إلى جويا كأنها تتحدث بلغة غريبة، ثم لوهلة تحجر وجهها، في تعبير الدهشة هذا، بينما بدأ النور الأصفر فوق عمود البوابة يومض من جديد، وبدأت البوابة الآلية تُفتح، وكل ما استطاعت السيدة أن تقوله بفم مفتوح هو: إلى... لوكا. وفي ذلك الوقت، دخلت سيارة الزوج

الطريـق الصغـير، ونـزل الرجـل بسرعـة وهـو يجـري نحوهـما بخطـوات ثابتـة.

- مـاذا؟ قـال في اتجـاه جويـا عندمـا كان عـلى بُعـد أمتـار منهـا: مَـن حضرتـك؟ كان الرجـل يتـصرف كأنـه يريـد أن يحمـي زوجتـه مـن شـخص خطـير، وشـعرت جويـا بأنـه إذا وصـل إليهـا سـيُدخلها عـلى الفـور إلى المنـزل دون أن يسـمح لهـا بـأن تسـأل مـا يجـب أن تسـأله. وهكـذا اقتربـت قليـلاً مـن المـرأة وخفضـت صوتهـا، وقالـت لهـا: أجـل، أريـد أن أعيدهـا إلى لـوكا. هـل تعرفـين كيـف يمكننـي العثـور عليـه؟

- يا فتاتي العزيزة!

قالــت المــرأة لحظــة قبــل أن يصــل إليهــا زوجهــا ويأخذهــا إلى الداخــل.

- أنــا لا أعــرف مَــن أنــتِ، وأي كنــزة يمكــن أن تكــون في منزلــك، ولكـن صدقينـي، لا أريـد حتـى أن أعـرف هـذا. أعـرف فقـط أن ابنـي لـوكا مـات منـذ عـشرة أشـهر!

الجزء الثاني

Vybafnout (تشيكي)
القفز خارجاً فجأة والصراخ!

1

درانا في ريدونا: اختفاء شاب في السابعة عشرة.
الأب: ترك خطاب وداع.

كانت الساعة الثامنة والنصف من صباح السبت 21 مايو 2016 عندما أبلغت المدرسة الثانوية «جريجوليتي»، إلكترونيّاً، من خلال رسالة هاتفية، المهندس ماركو دي باولو بغياب ابنه عن المدرسة. الأمر يتعلق بخدمة يقوم بها المعهد، مثلما يحدث في معاهد أخرى كثيرة في إيطاليا، منذ بضعة أعوام: في حالة أي غياب غير معتمد في السجل الإلكتروني لمدرس الساعة الأولى، يرسل الجهاز آليّاً رسالة إلى تلفون الوالدين يبلغهما بعدم حضور الابن إلى المدرسة. ونظراً إلى أن والد الطالب قد اصطحبه بنفسه إلى المدرسة، كما يفعل كل صباح؛ فقد بدأ البحث عنه على الفور: ووفق الشهادات التي جُمعت، يبدو أن الفتى كان قد عانى في الماضي من أزمات اكتئاب، ونوبات فزع، على الرغم من أنها خفتت ظاهريّاً في الفترات الأخيرة؛ ما أدى إلى شكوك بتوقع الأسوأ. أُبلغت المطافي أولاً؛ ثم استُدعيت قوات الشرطة بعد ذلك، وبدأت

على الفور عمليات البحث الأولى لدى المعارف وأصدقاء الصبي. وفي العاشرة تقريباً، كان الاكتشاف الحزين الأول: عثروا أسفل وسادة الشاب على خطاب، من التسريبات الأولية، بدا أنه خطاب وداع حقيقي، أو بالحري الإعلان عن انتحاره الوشيك، الذي أشار فيه أيضاً إلى المكان الذي يمكن فيه العثور على جثة الصبي. وجهت وحدة الشرطة في بوردينوني على الفور البحث إلى مقاطعات ترامونتي العُليا، وترامونتي المنخفضة، خصوصاً مناطق البحيرات؛ الأماكن التي يبدو أنه قد أشار إليها في الخطاب، وأبلغت أقسام تلك المناطق.

في الساعات القادمة سنوافيكم بالتحديث على موقعنا.

اختفاء صبي في ريدونا، وصل التأكيد: كانت رسالة انتحار.

الأب في تصريح لنا: ربما قرر أن ينهي حياته.

بينما تستأنف تحريات الشرطة والحماية المدنية في أقاليم ميدونو، وترامونتي وسيكويلز، صرح أبو الصبي المختفي صباح اليوم من بوردينوني لصحيفتنا أن الخطاب، الذي عثروا عليه أسفل وسادة الابن، كان يتحدث عن نيته الانتحار. ووفق التحقيقات، فإن لوكا دي باولو، البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، توجه في الصباح مثل كل يوم إلى المدرسة، إلى المعهد الثانوي جريجوليتي للحاسوب، واصطحبه أبوه بالسيارة، ثم، وبعد أن تظاهر بأنه دخل إلى المبنى، وصل خفية إلى أقرب محطة للحافلات، وصعد إلى أول حافلة في اتجاه «بيدمونت». وبعد ذلك، وبعد أن بدل الحافلة في مانياجو، انحرف هذه المرة نحو ترامونتي؛ لينزل في محطة بالقرب من بحيرة ريدونا، وهناك سار حتى وصل إلى طريق، مُشار إليه بدقة شديدة في الخطاب المعثور عليه. ومن تلك النقطة – وفق ما أُعلن عنه - ألقى بنفسه في البحيرة؛ بحيرة صناعية عميقة

جـدّاً، تقـع بـين الخليجـين المرتفعـين لـوادي ترامونتينـا. أرقـام الحـوض الصناعـي تتحـدث بوضـوح: ففـي بعـض المناطـق عمقهـا أكـثر مـن سـبعين مـتراً، ومسـاحتها تقريبـاً كيلومـتران مربعـان. منـذ بضـع دقائـق، بـدأت فرقتـان مـن قـوات الغطـس للحمايـة المدنيـة، التـي، في حالـة إذا مـا كانـت هـذه بالفعـل حالـة انتحـار، صرّحـت: نظـراً إلى العمـق الحـالي للبحـيرة نتيجـة الأمطـار الغزيـرة في الأيـام السـابقة، قـد يكـون مـن الأفضـل العـودة في وقـت آخـر.

وفي الساعات القادمة سنوافيكم بالمستجدات.

الشاب المختفي: العثور على حذاء وسوار.

الأب: أجل، إنها تخص لوكا.

ربمـا حـاول الصبـي أن ينتحـر قبـل ذلـك، لكن يرفـض الأبـوان الإدلاء بـأي تصريحـات بهذا الشـأن.

لا تـزال فرقتـا الغطـس تسـتأنفان بحثهـما عـن جثـة الصبـي المُحتمـل انتحـاره، بينـما عـثرت قـوات البحـث في ميدونـو، بالقـرب مـن النقطـة التـي يمكـن أن يكـون قـد ألقـى فيهـا بنفسـه، وفـق مـا أشـار لـوكا بنفسـه في خطـاب الـوداع، عـلى شـيئين يخصـان، بطريقـة شـبه مؤكـدة، شـاباً في السـابعة عـشرة: حـذاء ريـاضي مقـاس 41، وسـوار مـن الجلـد. ووفـق المعلومـات التـي توافـرت لدينـا، فـإن الأب تعـرف إلى أدوات الابـن، ويقـود هـذا الاكتشـاف الآن بشـكل مؤكـد إلى افـتراض الانتحـار. في الواقـع، مـن خـلال لقـاء مراسـلينا مـع بعـض زمـلاء الصبـي يبـدو أن لـوكا، الـذي كان قـد عـانى في المـاضي مـن أزمـات اكتئـاب ونوبـات مـن الفـزع، حـاول أيضـاً منـذ بضعـة أشـهر أن ينتحـر بإلقاء نفسـه مـن شرفة منزلـه؛ ليُنقـل عـلى الفـور إلى الطـوارئ، واسـتطاع الأطبـاء في مستشـفى سـانتا ماريـا ديلـلي أنجيـلي في بوردينـوي إنقـاذه. ولا يـزال اختيـار الصبي للبحـيرات الصناعيـة في ترامونتـي لينفـذ فيهـا مخططـه أمـراً غامضـاً.

وفي الساعات القادمة سنوافيكم بتطورات الحدث.

لوكا: لا شيء حتى الآن.

بعد اثنتي عشرة ساعة وست عمليات غطس، لم تعثر فرقتا الغطس على الجثة. طلب الأبوان صمت الصحافة: اتركونا في آلامنا.

بقايا دراجات بخارية، وسيارات قديمة، وأدوات أخرى متنوعة، استطاع غطاسو الحماية المدنية التعرف إليها في قاع البحيرة، لكن لا يوجد أي أثر بعد لجثة الشاب. إن العادة القبيحة بتحويل مرآة المياه الاصطناعية إلى نوع من مدافن القمامة، في الهواء الطلق هذه المرة، إضافة إلى أضرار ذلك من الناحية البيئية، قد تسببت في صعوبة البحث، موهمة، أكثر من مرة، بأنهم عثروا أخيراً على جثة المنتحر ذي السبعة عشر عاماً.

أعلن والدا الصبي، في الوقت نفسه، أنهما لا يريدان الإدلاء بأي تصريحات أخرى، لكن قبل ذلك أراد الأب أن يقرأ أمامنا تصريحاً: نحن نفهم ضرورة أن تقوم الصحافة بعملها، لكن لا نستطيع أن نتحمل هذا الضغط أكثر من ذلك. ربما إذا كان لدينا جسد لنبكي عليه، لكان كل شيء أكثر سهولةً، لكن عدم العثور عليه يلقي بنا أكثر في براثن الحزن. اتركونا في حزننا.

يُعرف المهندس ماركو دي باولو بأنه شخص شديد التحفظ، وتبعاً لبعض التسريبات، التي جمعناها من الأقارب ومساعدي المهندس، ربما ستنغلق الأسرة الآن في صمت صحفي تام، حتى في حالة العثور على الجثة.

غداً صباحاً مزيد من المستجدات.

لوكا: المجازفة بضرورة انتظار أن تجف البحيرة.

في الوقت نفسه اتُّصل أيضاً بوسيطة روحية.

الدفـاع المـدني: عمليـات البحـث في غايـة الصعوبـة في الوضـع الحـالي للبحـيرة. وفي هـذا الوقـت مـن بـين مستشـاري الشرطـة، توجـد أيضـاً وسـيطة روحيـة.

إن بحـيرات ريدونـا وترامونتـي مشـهورة أيضـاً كوجهـة سـياحية؛ لأنـه خـلال شـهرَي الجفـاف في يوليـو وأغسـطس، عـادةً مـا تحـدث الظاهـرة الغريبـة لظهـور قريـة موفـادا مـن جديـد، التـي غرقـت العـام 1952 في أثنـاء بنـاء السـد؛ ومـن ثـم يجـذب هـذا الأمـرُ السياح والفضوليـين مـن كل أنحـاء العـالم: فمـع جفـاف الميـاه، تعـود أطـلال المنـازل والمبـاني تلـك التـي تُدعـى (المدينـة الأشـباح). للأسـف، في أثنـاء فـترات الخريـف، كثـيرة المطـر، أو مثلـما هـو الحـال في الأسـابيع الأخيرة، ومـع الأمطار الاسـتثنائية، وصلـت البحـيرة إلى عمـق كبـير جـدّاً أدى إلى عرقلـة عمـل الغطاسـين، الذيـن يبحثـون عـن جسـد الشـاب البالـغ مـن العمـر سـبعة عـشر عامـاً، الـذي اختفـى مـن المنـزل السـبت المـاضي. يسـتبعد رجـال الشرطـة حاليـاً أي مسـارات أخـرى؛ فهنـاك الخطـاب؛ حيـث يعلـن الصبـي رغبتـه في الانتحـار (حتـى الآن لم يُعـرف المحتـوى الدقيـق للخطـاب، والأبـوان الآن في حالـة صمـت صحفـي)، وهنـاك معطـى، أكـده أكـثر مـن طـرف، هـو أن لـوكا كان يعـاني بالفعـل منـذ فـترة مـن أزمـات اكتئـاب، أدت بـه منـذ أشـهر قليلـة إلى محاولـة انتحـاره الأولى. في الوقـت نفسـه، وبينـما أعلـن الغطاسـون عـلى المـلأ أنهـم لا يمكنهـم العثـور عـلى الجثـة خـلال فـترة قريبـة، يبـدو أن رجـال الشرطـة قـد لجـؤوا، إضافـة إلى الاستشـارات الخارجيـة، إلى وسـيطة روحيـة: بيرانجيـلا مارتينـي، واسـم الشـهرة (آنجـي)، التـي تعـرف نفسـها بأنهـا (مسـتحضرة أرواح)، أو شـخص قـادر عـلى أن يتصـل بالمتوفـين. لم يبـدُ أن المحققـين أعطـوا مصداقيـة كبـيرة للمـرأة كي تحـدد لهـم بالتدقيـق أيـن يبحثـون، لكنهـم لم يسـتبعدوا أنـه بفضـل «مواهبهـا» الخاصـة اسـتطاعوا أن يحـددوا مسـاحة الغطـس.

«جسد لوكا ليس هنا».

تتحدث الوسيطة الروحية التي اتصلت بها عائلة لوكا.

طوال الأمس سارت الوسيطة آنجي على شواطئ (لاجو ريدونا) في منطقة (ترامونتي)، بحثاً عن «أحاسيس» ممكنة تتعلق بوجود جثة الشاب المختفي السبت الماضي من «بوردينوني». تبعناها من بعيد، حتى لا نتدخل في تلك «الأحاسيس»، وفي مرتين توقفت الوسيطة، أغلقت عينيها ومدت يديها نحو سطح البحيرة، لكن دون نتائج أو عراقيل، ثم، عندما انتهت من فحصها الخاص، أصدرت المرأة حكمها: ليس هنا. وعندما حاورها مراسلنا حول إمكانية أن يكون الصبي لا يزال على قيد الحياة، بينما تصعد إلى سيارة لتعود إلى المنزل، أجابت بيرانجيلا مارتيني بالنفي. قالت لنا بوضوح: لا أعرف إذا كان حيّاً أم ميتاً، لكنه ليس هنا بالتأكيد. في أثناء ذلك، استؤنفت عمليات البحث، التي يقوم بها رجال الحماية المدنية، لكن حتى الآن بلا أي نتائج دالة. الآن، ونظراً إلى عدم وصول أي إشارات عن وجود الصبي في أي أماكن أخرى، بدأت آمال عائلته في العثور عليه حيّاً تخبو أكثر فأكثر.

هذه المرة كانت شبكة الإنترنت تعمل ببطء كالمعتاد، لكنها تعمل. لأول مرة، يقوم الأب بشيء صالح بسداد الفواتير المتأخرة، وعندئذٍ كان يكفي أن تكتب على محرك البحث غوغل (لوكا دي باولو)، وكانت تُفتح أمامها صفحات وصفحات، كلها تشير إلى الأيام الأولى بعد الاختفاء، ثم تتناقص، ثم لم تعثر على أي شيء يعود إلى الأشهر التالية لذلك.

كان جاكو؛ القط الشبح، ينام فوق الفراش، بينما تجلس جويا أمام الكمبيوتر، وعيناها قد احمرتا بسبب التعرض أكثر من اللازم للشاشة، ووجود فوضى لا نهائية في ذهنها. في الخارج، تحول الليل

رويـداً رويـداً إلى فجـر. بينـما تتذكـر جويـا قصـة الحجـارة، والمـكان الـذي اعتـاد (لـو) الذهـاب إليـه مـع أبيـه، القريـة القديمـة التـي توجـد في عمـق البحـيرة. كل هـذا بـدأ يكتسـب معنـى، وفي الوقـت نفسـه، يصبـح أقـل وضوحـاً أيضـاً.

لا تبـدو هـذه هـي الحقيقـة. كل شيء يتخـذ بالنسـبة إليهـا مكونات حلـم مـا. إذا التفتـت فقـط دقيقتـين وفكـرت فيـما حـدث، لا تسـتطيع جويـا أن تجـزم إذا كان قـد حـدث بالفعـل.

أجـل، ربمـا كان كل شيء يحـدث في ذهنهـا فقـط. حـدث كل شيء هنـاك. وبسـبب غريـب، فـإن الصبـي الـذي حلمـت بـه يشـبه تمامـاً آخـر مـات منـذ عـام تقريبـاً.

يفتـح جاكـو؛ القـط الشـبح، عينيـه لثانيتـين، ينظـر إليهـا، ثـم ينـام مـرة أخـرى.

قالت جويا: وهل يمكن ألا يكون هناك شيء حديث؟

وهكـذا، ووجهها تضيئـه شاشـة الحاسـوب، أخـذت تضغـط بعصبية عـلى فـأرة الحاسـوب، واسـتمرت في التنقـل مـن موقـع جريـدة محليـة إلى آخـر، عـلى أمـل، وفي الوقـت نفسـه، خـوف، أن تعـثر عـلى مقالـة تقـول إنهـم عـثروا عـلى جثـة لـوكا في عمـق البحـيرة، إلا أنـه بعـد كثـير مـن البحـث، عندمـا كانـت عيناهـا تُغلقـان بسـبب النعـاس، وصلـت إلى مقالـة لجريـدة «مراسـل فينيتـو»:

الفتى المختفي منذ ثلاثة أشهر

لا يوجد شيء في عمق البحيرة

مثـل كل عـام في فـترات الجفـاف، جفـت بحـيرة ريدونـا، لكـن في عمقهـا لا يوجـد أثـر للـوكا.

اسـتبعد رجـال الدفـاع المـدني الآمـال الباقيـة في العثـور في عمـق البحـيرة عـلى جثـة الشـاب لـوكا دي باولـو؛ الشـاب البالـغ سـبعة عـشر

عاماً من بوردينوني الذي اختفى في 21 مايو الماضي، في اللحظة التي، كما يحدث كل عام، جفت فيها البحيرة بسبب الجفاف. والآن، وقد تقلص العمق جدّاً، وكان يمكن السير بهدوء لمسافات طويلة (فقد بدأ مرة أخرى ظهور المشهد المثير لظهور القرية القديمة الغارقة)، وحتى الآن، لا يوجد أي أثر لرفات الشاب. استطاع المحققون والخبراء - مع الوضع في الاعتبار عثورهم في يوم الاختفاء على شيئين يخصان لوكا - تفسير هذا الموقف الخاص فقط بافتراض (قفز) الجثة بالفعل من السد، ربما جذبتها دوامة ما (وهذا يحدث كثيراً في البحيرة)؛ ومن ثم وصلت الجثة بسرعة إلى العمق، ثم حملتها التيارات من خلال تصريف السد إلى نهر ميدونا، الذي يمكن لتياراته أن تحملها بسهولة إلى كيلومترات بعيدة. ووفق الخبراء، من الناحية الإحصائية، يبدو الأمر مستبعداً، لكنه ليس مستحيلاً، وأن تكون هذه هي الآلية، وإن كان الأمر كذلك، فإن المحيط الذي في داخله لا بد من البحث، الآن، وعلى امتداد ثلاثة أشهر، سيتسع إلى عشرات الكيلومترات المربعة، ما يؤدي إلى أن فرص العثور على الجثة كاملة وإمكان التعرف إليها تصبح شيئاً صعب الحدوث، أقرب إلى الأعجوبة. وفي الوقت نفسه، إذا كان لوكا الآن على قيد الحياة، فقد أكمل أعوامه الثمانية عشر؛ وهو أمر مهم؛ لأنه نظراً إلى أنه في سن النضوج، معناه، في حالة أنه لم يمت بالفعل في البحيرة، أنه ابتعد بمحض إرادته؛ وهو الأمر الذي - وفق القانون - لا يحتم استخدام قوى النظام في البحث؛ فالقانون في الواقع يشير إلى ضرورة مرور عامين قبل الإعلان عن وفاة شخص في حالة اختفائه في ظروف تعرض حياته للخطر، ودون العثور على جثته، لكن نظراً إلى الظروف، لا يتوقع كثيرون العثور على الصبي حيّاً.

ثم، لا شيء.

ذهبت جويا لتقف أمام النافذة. لا توجد أي نجوم في السماء. إذا كانت موجودة، ربما سألتها ماذا يمكنها أن تفعل.

لقد رأت لوكا، لقد تحدثت إليه؛ فهي تعلم أنه حي.

أو على الأقل: تعتقد. الآن، وقد تفتحت السماء نظراً إلى حلول اليوم الجديد، بدأت جويا تسأل نفسها إذا كان هناك احتمال أن تكون قد تخيلت كل شيء. وهكذا أخذت آلة التصوير، فتحتها، وأرادت أن تذهب لترى من جديد صورة (لو)، أن تتذكر وجهه، وأن تتأكد من أنها رأته ولمسته وقبّلته، إلا أن يديها كانتا ترتعشان وذهنها مشوشاً، وهكذا، تزحلقت آلة التصوير من بين أصابعها وسقطت، وانقسمت إلى نصفين. جمعتها جويا، وحاولت أن تضع القطع مكانها مرة أخرى وفتحها مرة أخرى، وحاولت على الأقل عشر مرات، لكن بلا فائدة. في لحظة واحدة؛ وبسبب الخوف والتوتر، فقدت الدليل الوحيد على أنها عرفت (لو).

الآن، لم تعد أفكارها واضحة. الآن، تتساءل ماذا تفعل. حتى وإن كان في داخلها، كانت هناك إجابة لديها بالفعل.

قالت لها تونيا: لكن ما فائدة ذلك؟ ذلك الشخص ميت، وأنتِ فقدتِ عقلك تماماً!

- لا شيء، لن يفيد في شيء. أريد أن أفعل ذلك فحسب.

أجابت جويا وهي تحدق في السماء القاتمة.

- وماذا ستفعلين، ستهربين من المدرسة؟

- أجل.

- كما تشائين! علقت تونيا، وهي تستدير إلى الناحية الأخرى.

2

وصلت إلى المدرسة مبكرة في هذا الصباح.

جلست على رصيف موقف السيارات تنتظر بصبر، وهي نصف مختبئة ببعض السيارات الواقفة، حضور الأستاذ بوفه. وبينما كانت تنتظره، مكثت بضع دقائق مذهولة تستمع إلى تصاعد ضوضاء السيارات والدراجات الآلية، والأصوات الإلكترونية للإشارات، والشاحنات التي تعود إلى الخلف، بينما تزداد بالتدريج، وفكرت كم نحن محظوظون لأننا على قيد الحياة، بل وهي بالفعل ضربة حظ: فهناك من يولد حجراً، والحجارة لا تشعر بشيء؛ ومن ثم ولا حتى هذه الضوضاء، التي هي بالفعل ليست ضوضاء مستحبة، لكنها في نهاية الأمر شيء ما. والمؤكد أنه من الأفضل بكثير سماع شيء ما من عدم السماع على الإطلاق.

ثم وصل البروفيسور بسيارته الرينو 4 القديمة جدّاً؛ كتلة من الحديد الأحمر الباهت، التي يتساءل جميع تلاميذ المدرسة عن أي نوع من السحر الأسود للتقنية يستخدمه ليستطيع أن يدير عجلاتها حتى الآن. ترجل منها، ولاحظ جويا على الفور جالسة على الرصيف أمام مكان سيارته.

- آنسة سبادا!

- صباح الخير يا بروفيسور. أجابته بصوت منخفض في محاولة ألا يلحظها أحد.

أدخل الأستاذ المفتاح في الباب، وصارع بعض الوقت، ثم أغلقه بالمفتاح.

- ماذا حدث؟ هل كانت لديكِ عجلة شديدة في طرح سؤالك اليوم؟

أجابت جويا، وهي تقف وتنظر حولها تتأكد أن لا أحد يراها: نوعاً ما، أجل.

- تفضلي، تحت أمرك، حتى إن لم أكن قد شربت قهوتي بعد.

- لكنني أيضاً ينتابني الفضول لأعرف كيف يمكنك... أقصد كيف يمكن لحضرتك، بسيارة كهذه... لا أقصد أنها لا تعجبني، بل تعجبني سيارتك! فقط أتساءل بعض الشيء، كيف يمكنك أن تفعل هذا، مع وجود كل الناس، الذين يسخرون منها؟

- يا آنسة، السيارة مجرد وسيلة.

- وبالتالي؟

- وبالتالي، أنا فيلسوف، أعرف كيف تسير الأمور، وأميل إلى أن أهتم بالغايات وليس بالوسائل.

أجابها الأستاذ وهو يضرب بعصاه على الأرض.

- هل هذا كل شيء؟ هل انتظرتِ في الصباح الباكر الربيعي فقط لتسأليني عن سيارتي؟

- لا، السؤال الحقيقي، سؤال آخر.

قالت جويا وهي تعض شفتيها.

- أسمعكِ. هل هو سؤال عن القدر، عن الرب، عن الأخلاق؟ عن ماذا؟

- لا، شيء أبسط من هذا بكثير هذه المرة. أنا اليوم لن آتي إلى المدرسة، هل يمكنك أن تخفي غيابي؟

إحدى أكبر المشكلات، التي تشغل ذهن صبية اليوم، تُسمى (السجل الإلكتروني)؛ وهو وسيلة جهنمية تقلل بشكل كبير إمكانية ألا يذهب أحد التلاميذ إلى المدرسة؛ فهو يرسل رسائل إلى الوالدين بشأن الغياب، ويشير إلى أي تصرفات غير عادية، خصوصاً - في حالة جويا - وهي الأسوأ في تزوير التوقيعات في العالم، يستدعيهم إلى مدير المدرسة في اليوم الثالث من الغياب غير المسموح به. فكرت جويا في الرسالة، التي يمكن أن تُرسل إلى أبويها، لكن الآن تحتاج إلى شخص، في الساعة الأخيرة، يمسح بضغطة على زر الحاسوب

غيابها الذي سجله أستاذ الساعة الأولى. من الطبيعي أن شيئاً من هذا القبيل - على الرغم من سهولته الشديدة - يمكن أن يفعله فقط أحد الأساتذة، ومن الطبيعي أن الوحيد الذي يمكن لجويا أن تطلب منه شيئاً كهذا هو أستاذ بوفه. الوحيد، الذي كأقصى رد فعل، سيقول لها «لا» على الفور، ولن يستدعي لعقد اجتماع طارئ ليتناقش في توقيفها أو التسبب في رسوبها أو القبض عليها.

سألها الأستاذ وهو يخفض صوته: أعتقد أنني لم أفهم جيداً ما قلتِه لي. هل تطلبين مني أن أزوِّر في الوثائق الرسمية عبر طرق الاتصال؟

قالت جويا، وهي تومئ بالموافقة وتضم شفتيها: ممم، أعتقد هذا.

- ممتاز، إذن، فقد فهمتك جيداً. إذن، في هذه الحالة سأكون أنا الوسيلة، لكن... هل يمكنني أن أعرف، هذه الوسيلة، لأي غاية ستعمل؟ لأنه إذا كان الأمر هو الحاجة الملحة إلى الابتعاد عن واجب دراسي أو امتحان...

قال لها الأستاذ بقسوة.

- آه، لا، الأمر في غاية البساطة، الغاية هي أنني أريد أن أركب حافلتين، وأذهب حتى بحيرات ترامونتي لأفهم إذا كنت مجنونة أم لا.

3

كانت قد قرأت المقالات مرات عديدة، ورأت هكذا عدداً من الصور، حتى إنه أصبح في إمكانها الوصول إلى المكان الذي ألقى (لو) منه بنفسه. في النهاية، كان يكفي أن تسير جزءاً من الطريق على قدميها، وأن تتخذ المسار الأول على اليسار، ثم تسير عشرين دقيقة بشكل مستقيم.

وهكـذا، وجـدت جويـا نفسـها هنـاك. وجـدت الموقـع الصغـير المغطـى بالحجـارة، الـذي منـه، نظريّـاً، قفـز (لـو) إلى البحـيرة. لا تـزال تغطيـه الزهـور والدببـة المصنوعـة مـن الفـرو، وأظـرف خطابـات، وصـور (لـو)، وأدوات ربمـا تركهـا الأصدقـاء والمعـارف. بعـض الأظـرف كانـت توجـد عليـه عبـارات، مثـل: «سـتظل دائمـاً معنـا»، و«كان قلبـك أكـبر بكثـير مـن عـالم ضيـق بهـذا الشـكل».

كان الموقف، في حقيقة الأمر، كئيباً جدّاً.

عمليّـاً، يعتقـد الجميـع أن (لـو) مـات بالفعـل، ولا يوجـد في العـالم سـوى شـخص واحـد مقتنـع بالعكـس؛ وهـي هـذا الشـخص.

سـألتها تونيـا، الواقفـة عـلى بُعـد بضعـة أمتـار منهـا: هـل يمكـن أن أعـرف لمـاذا أتينـا إلى هنـا؟

- بحثاً عن أجوبة، لكن يبدو لي أننا نعثر على تلك الخاطئة.

أجابـت، وهـي تنظـر حولهـا، لتقـول بعـد ذلـك للبحـيرة: هـل أنـت بالفعـل تحـت هنـاك؟

أصبحـت تونيـا بجوارهـا وذراعاهـا معقودتـان، واسـتمرت في هـز رأسـها، ثـم قالـت: والآن، مـاذا سـنفعل؟

- حسـناً، أنـتِ أيضـاً تعرفـين هـذا. أجابتهـا جويـا وهـي ترفـع عينيهـا عـن البحـيرة: لا يوجـد غـير شيء واحـد يمكننـا عملـه.

4

كانت تتوقع مكاناً مختلفاً تماماً.

أو الأفضـل كانـت تتوقـع أن يكـون «مكانـاً» توجـد فيـه صالـة انتظـار، ثـم في داخلـه سلسـلة مـن الأدوات الغريبـة الـواردة مـن بـلاد أفريقيـة؛ شـمع، وإضـاءة، وسـجاجيد، وبخـور، لكـن وجدتـه مجـرد منـزل، أو الأفضـل أن نقـول شـقة، عاديـة جـدّاً، في حـي تـوري، ليـس بعيـداً جـدّاً عـن المدرسـة.

قالت لها بيرانجيلا، واسم الشهرة آنجي: تفضلي، تفضلي.

كانت سيدة قصيرة وبدينة، تبدو كواحدة من السيدات اللاتي يقابلهن المرء دائماً في الكنيسة أو في السوق. كان لديها شيء كبداية شارب، وعندما رأته جويا كادت أن تلمسه.

- لنجلس في الصالون. قالت لها، وهي تشير إلى الأريكة الجلدية المغطاة بالسيلوفان، وأضافت: من أجل حمايتها من الأتربة، أكره التراب.

ذلك الذي شعرت به جويا كان شيئاً أكثر قليلاً من مجرد خجل بسيط، شعرت بأنها حمقاء بالفعل، وفجأة لم تكن لديها أي رغبة في أن تطرح على السيدة بيرانجيلا، واسم الشهرة آنجي، السؤال الذي جاءت لتطرحه عليها.

- إذن، لنسمع: ماذا أردتِ أن تسأليني؟

- لكن كيف هذا؟ ألستِ الوسيطة الروحية؟ ألا يجب أن تعرفيه بالفعل؟

تمتمت تونيا على عتبة الغرفة. وبمجرد أن تكلمت، تحرك رأس السيدة بيرانجيلا، وقطبت حاجبيها كأنها سمعت شيئاً ما.

سألتها جويا: هل كل شيء على ما يرام؟

قالت لها الوسيطة، وهي لا تزال تحتفظ بنظرتها اليقظة: أجل، أجل، كل شيء بخير، قولي لي كل شيء.

حاولت جويا أن تبدأ: حسناً في الحقيقة...

إلا أنها لم تعثر على الطريقة التي تقول بها ما تريد.

سألتها بيرانجيلا وهي تنظر إلي عينيها مباشرةً، بطريقة مباشرة ومخترقة، حتى إن جويا اضطرت إلى أن تحول نظرتها على الفور: لقد مات لكِ أحد، أليس كذلك؟

- لا، في الحقيقة لا. حاولت جويا أن تقول، لكن نظرة بيرانجيلا،

الشـهيرة بآنجـي، كانـت لا تـزال هنـاك. وهكـذا أضافـت: أي إننـي لا أعـرف.

ابتسـمت بيرانجيـلا بصعوبـة، ونزعـت شـعرة عـلى كنزتهـا، ثـم نظـرت إليهـا مـن جديـد وقالـت: لنفعـل هكـذا: قـولي لي فحسـب، حسـناً؟

- حسناً.

حاولت جويا، لكن لا شيء مرة أخرى.

- إذن!

استحثتها تونيا: هيا! قولي لها!

ومـرة أخـرى أخـذت بيرانجيـلا تنظـر حولهـا في ريبـة. تونيـا موجودة في ذهـن جويـا، لكـن كأنهـا تقـف هنـاك وراء عتبـة غرفـة المعيشـة، كأنهـما أخذتـا تنظـران إلى بعضهـما وتقـولان: مـا هـذا! لقـد أدركـت وجـودك! وهكـذا في النهايـة تشـجعت جويـا وقالـت لهـا: لـوكا، لـوكا دي باولـو.

- آه! علقـت بيرانجيـلا. بعـض دقائـق مـن الصمـت، وأضافـت: مـاذا تريديـن أن تعـرفي عنـه؟

- في الحقيقـة لا أعـرف أنـا أيضـاً. لنقـل إننـي أريـد أن أعـرف إذا كان حيّـاً أم لا.

- لكن هل أنتِ قريبة له؟

- لا، أنا... لا.

- فهمت.

- فهمتِ ماذا؟

- أنتِ فتاته.

- أجـل... لنقـل هـذا، لكـن لمـاذا تقولينهـا في الحـاضر؟ لمـاذا لا تقولـين «كنـتِ فتاتـه»؟ الجميـع يبـدون مقتنعـين بأنـه قـد مـات!

قالت وهي تبتسم: حسناً، ببساطة؛ لأنه بالنسبة إليَّ، هذا الفتى لم يمت!

شعرت جويا بقلبها يصعد فجأة إلى المريء: ماذا تقولين، معذرة؟

- لم يكن في البحيرة، ولم يكن في النهر. أنا أفهم أنه بعد عشرة شهور يمكن أن يكون قد حدث كل شيء، ولكن رأيي أنه لا يزال حيّاً وبصحة جيدة، يا عزيزتي!

- كيف يمكنك التأكد من ذلك؟

- لا أعرف، لا تسأليني. أعرف فقط أن الأمر كذلك بالنسبة إليَّ.

قالت بيرانجيلا، وهي تنهض من فوق الأريكة ببعض الصعوبة. تذهب إلى المطبخ، وتتناول فنجانين من الشاي، وتقدم واحداً إلى جويا.

سألتها: لكن أنتِ لديكِ شيء آخر تقولينه لي، أليس كذلك؟

نظرت جويا إلى تونيا مرة أخرى. من يدري، ربما ليست لها ملامح الوسيطة الحقيقية، لكن يبدو أنها تعرف كيف تقرأ الأفكار، خصوصاً كيف ترى، أو على الأقل تشعر، بوجود تونيا.

- أجل، أعتقد ذلك.

- إذن، تفضلي، أنا أسمعك.

تناولت جويا بعض الشاي، وأخذت نفساً عميقاً، ثم انطلقت وأخرجت كل ما في جعبتها، كل شيء بالكامل: حكت لها عن المشرب، والأسهم، وإصابتها في ركبتها، عن الحجارة واللحظات المظلمة التي كان (لو) يصبح فيها شخصاً آخر، وعن القبلة الأولى، والسطح، والصورة التي محتها خطأً، كل شيء. واستمعت إليها بيرانجيلا، واسم الشهرة آنجي، ومن حين إلى آخر ترشف قليلاً من الشاي، وتنظر إليها، بصبر، وجويا تحاول ألا تهمل أي شيء، أو أي تفصيلة مهمة.

عندما انتهت جويا من الكلام، مر بعض الوقت، ولم يقل أحد أي شيء، حتى تونيا. كانت أصوات السيارات في الشارع تُسمع فقط، وبعض أصوات هبوب الرياح خارج النافذة. لم يكن صمتاً من النوع الثقيل، فقط صمتاً؛ بل كان تقريباً شعوراً محبباً. ثم في النهاية، وعندما لم يكن يبدو حتى إنه يجب على أحد أن يتحدث. قالت بيرانجيلا، الشهيرة بآنجي، فقط: كنزة.

- أجل.

- وهل هي لديكِ في المنزل؟

- أجل، فوق المقعد الآن.

بدأت بيرانجيلا، الشهيرة بآنجي، تسعل. أخذت تسعل بقوة، بقوة شديدة بالفعل. كان سعالاً مخاطيّاً، وخشناً، وكادت جويا، بالغريزة، تنهض وتربت على ظهرها، وكانت على وشك أن تفعل ذلك، عندما توقفت بيرانجيلا، الشهيرة بآنجي، وحدها، بسعلة أخيرة جافة، بعدها رفعت رأسها، وكانت عيناها تلمعان من المجهود، ثم قالت فجأة: كنت أعلم أنه حي!

5

- كيف كانت المدرسة يا جروتي؟

خلعت جويا حذاءيها خلف باب الدخول، وأدركت فقط في هذه اللحظة أنها لم تفكر ماذا ستقول لأبويها بشأن الغياب الصباحي، نظراً إلى أنها قضته في أماكن عديدة، كلها أماكن لم يكن يجب الذهاب إليها.

لحسن الحظ! فإن رقم الهاتف، الذي ترسل عليه المدرسة الرسائل، هو رقم ذلك الهاتف الذي فقدته أمها بعد وصولهما إلى هنا بأيام، في شهر نوفمبر، ثم غيّرت الرقم، وبالتأكيد، لم تهتم

بالذهـاب إلى المدرسـة لـترك الرقـم الجديـد. عـلى كل حـال، في السـاعات التاليـة سـيكون الأسـتاذ بوفـه قـد مسـح غيابهـا، إذن، لـن يكـون عليهـا اخـتراع أي مـبررات!

أجابـت: كالعـادة! قبـل أن تجـري لتغسـل يديهـا وتقبِّـل جدتهـا في حجرتهـا الصغـيرة. ومـن المطبـخ، سـمعت ضوضـاء المـاء الـذي يسـقط عـلى مصفـاة المعكرونـة، ثـم صـوت أمهـا وهـي تقـول لهـا: سـألوا عنـكِ!

وبينـما تغسـل يديهـا، حاولـت ذهنيّـاً أن تتخيـل مـن يمكـن أن يكـون: المدرسـة لا؛ لأن نـبرة الأم سـتكون تهديديـة أكـثر مـن هـذا بكثـير. (لـو)، بالتأكيـد لا. ربمـا جوفانـا. أجـل، ربمـا هـي. ربمـا لديهـا أخبـار أخـرى.

- مـن؟ سـألت جويـا وهـي تخـرج مـن حجـرة الجـدة جيـمّا، التـي كانـت تبـدو لهـا قلقـة بعـض الـشيء اليـوم، كأن لديهـا أفـكاراً سـيئة، كان حاجباهـا ضيقـين، ووجنتاهـا متجهتـين إلى الأسـفل عـلى ارتفـاع شـفتيها.

قالـت لهـا أمهـا، وهـي تضـع عـلى المائـدة طبـق معكرونـة شـهيّاً بالزبـدة، بينـما جويـا تدخـل إلى المطبـخ: المهنـدس دي باولـو، طلـب أن تهاتفيـه.

توقفـت جويـا عـلى البـاب كأنهـا تحجـرت. لم يعطِهـا أبـو (لـو) انطباعـاً جيـداً عـلى الإطـلاق، مـن اللحظـة الأولى التـي رأتـه فيهـا، عندمـا لم تكـن تعـرف حتـى مـن هـو. لم يبـدُ لهـا، بالفطـرة، إنسـاناً جيـداً، ولأنهـا أيضـاً ربطـت عـلى الفـور بينـه وبـين المـرات العديـدة، التـي تـصرف فيهـا (لـو) بطريقـة سـيئة فقـط عنـد الإشـارة إليـه.

سـمعت صـوت تونيـا يقـول خلفهـا: أنـتِ غبيـة بالفعـل! لقـد اتصلـتِ بهـما في منزلهـما، ولا بـد أن لديهـما تلـك الهواتـف التـي

تسـجل الأرقـام المتصلـة!

بالفعـل، صديقتهـا المتخيّلـة عـلى حـق. في نهايـة الأمـر، ارتكبـت الحماقـة.

- ماذا بكِ يا صغيرة؟ هل كل شيء على ما يرام؟

- ألم... ماذا كان يريد؟

- لا أعـرف، لم أفهـم جيـداً، لكـن يبـدو لي أنـه قـال إن لديـكِ كنـزة ابنـه؟ هـل الأمـر كذلـك؟

كانـت نظـرة الأم غريبـة بعـض الـشيء. كان مطبوعـاً عـلى وجههـا نصـف ابتسـامة خبيئـة، وفي الوقـت نفسـه، بـدت راضيـة وفضوليـة.

في الواقـع، عندمـا تفكـر جيـداً أن أمهـا تطهـو مـن أجلهـا، حتـى إن كانـت مجـرد إسـباغيتي بالزبـدة، صعبـة التحضـير جـدّاً، يمكـن أن تصنفـه أمـراً فائقـاً للطبيعـة وليـس مـن الأمـور المعتـادة.

- أجل، معي بالفعل، لكن... لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

- هل تخفين عني شيئاً يا جروتي؟ سألتها أمها وهي تغمز لها.

رائـع. وفـق مـا يبـدو، فقـد قامـت أمهـا بعـدد مـن الرحـلات في ذهنهـا، ونظـراً إلى أنهـا رسـمياً كانـت هـذه هـي المـرة الأولى التـي تسـمع فيهـا اسـم فتـى مرتبـط بابنتهـا، فكـرت أن جويـا، أخـيراً، قـد تحركـت خطواتهـا الأولى في العـالم السـحري لحـب المراهقـة، وفي الواقع؛ وهـو أمـر غريـب، لم تكـن مخطئـة تمامـاً.

- لا يا ماما. إنه مجرد صديق أعارني كنزته.

قالـت، وهـي تتنـاول أول ملعقـة مـن الإسـباغيتي، التـي كانـت تقريبـاً أسـوأ إسـباغيتي أعدتهـا يـد بشريـة.

تتمنـى فقـط ألا تكـون قـد أعطـت لوالـد (لـو) تفاصيـل حـول مـن هـي، واسـم المدرسـة التـي تذهـب إليهـا أو عنوانهـا، لكـن لا، حتـى هـي لـن ترتكـب حماقـة كهـذه.

قالت وهي تبتسم، وتنهض عن المائدة لتذهب وتتناول جعة من المُبرد: مؤكد، مؤكد.

الطريقة الوحيدة للخروج من هذا الموقف المحرج هي أن تحاول أن تغير الموضوع: اسمعي، لكن الجدة... تنظر نظرة غريبة اليوم، هل هي بخير؟

- آه، هيا، لا تحاولي أن تغيري الموضوع يا جروتي. قالت لها أمها وهي تفتح زجاجة الجعة، اعلمي أنني قد أعطيت هذا الشخص عنواننا، هكذا يمكن لهذا الفتى أن يمر ويستعيد كنزته. قالت لها بصوت خبيث، قبل أن تذهب إلى الصالون لتشاهد التلفزيون.

جلست جويا بمفردها، في المطبخ، دون أن تستطيع أن تنهي الإسباغيتي، وليس فقط لأن مذاقها يُذكرها كثيراً بدواب تُركت في الشمس، لكن أيضاً لأنه بمجرد أن خرجت أمها من المطبخ، انطلق آليّاً سؤال نزع عنها كل شهية: والآن، عندما يأتي والد (لو) إلى هنا، ماذا ستقص عليه؟

تحتاج إلى أن تتحدث مع أحد من لحم ودم. ستشعر تونيا بالغيرة، ربما، لكنها تحتاج إلى أن تسمع صوت أحد ليس في داخلها.

6

- هل تعلمين أنني كنت على وشك الاتصال بكِ؟

جلست جويا وجوفانا أسفل تراس الحانة، تقريباً إلى المائدة نفسها التي جلست إليها المرة الأولى مع (لو). هذه المرة كان المكان خالياً تماماً، لم يكن هناك ولا حتى عجوز الكابوتشينو.

سألتها جويا: لتقولي لي؟

- لأقول لكِ إنني تذكرت أن ذلك الفتى كان على صفحات الجرائد، منذ ستة أو سبعة أشهر... لمدة أيام لم يتحدثوا عن شيء

آخـر، ثـم لا شيء، كأن الصمـت سـاد فجـأة.

- إذن... رأيكِ أنتِ...

- إذا كنـتِ تقولـين إنـكِ رأيتِـه، أنـا أصدقـك. بالتأكيـد، لا تبديـن كأعقـل فتـاة في الوجـود، لكـن أنـا أصدقـك!

تنهـدت جويـا بارتيـاح. معرفـة أن هنـاك شـخصاً آخـر في العـالم لا يعدهـا مجنونـة شيء مطمـئن بالتأكيـد.

- لكن إذن... ماذا يجب أن أفعل في رأيك؟

- صغـيرتي، لسـتِ في موقـف جيـد، في هـذه اللحظـة؛ لأنـكِ إذا لم تصرحـي بـكل شيء لـلأب وصحبتـه الجميلـة، ربمـا سـتخاطرين بـأن يختفـي فتـاكِ بالفعـل، ولـن يعـثر عليـه أولئـك أبـداً. ومـن جهـة أخـرى، ربمـا أراد هـو أن يختفـي فقـط، وإذا ذهبـتِ وقلـتِ لهـم، ربمـا عـثروا عليـه، أجـل، لكـن مـن المؤكـد أنـه سيشـعر بالخيانـة مـن جهتـك، وعندئـذٍ لا بـد أيضـاً أن تنسـيه!

كان سـيصعب عليهـا أن تعـبِّر بالكلـمات، بطريقـة أكـثر وضوحـاً، عـن الوضـع المقـزز الـذي وُضعـت فيـه.

- رائع إذن.

- أجـل يـا جويـا، أعلـم أنـكِ وُضعـتِ في ورطـة أكـبر منـكِ. قالـت لهـا جوفانـا، التـي كانـت في ذلـك الوقـت تطـل برأسـها نحـو الطريـق؛ حيـث لمحـت عجـوز الكابوتشـينو ذي الرغـوة الكثـيرة تتقـدم نحـو المـكان بخطـوات بطيئـة جـدّاً.

- أوكي، بماذا تنصحينني؟

- في هـذا الموقـف، أي شيء سـتفعلينه سـتخطئين للأسـف. لا يوجـد سـوى شيء واحـد يمكـن ألا يضعـكِ في مـأزق. قالـت لهـا وهـي متجهـة نحـو منضـدة البيـع.

- ما هو؟

- ببساطة: أن تعثري أنتِ أولاً على صديقك العزيز!

7

توجـد كلمـة يابانيـة؛ KenshO، تقريبـاً تشـير إلى وميـض الضـوء؛ تلـك اللحظـة الوجيـزة جـدّاً التـي فيهـا يبـدو كأنـك استيقظت. عمليّـاً هـي المزيـج بين استنارة ويقظـة، لحظـة، ثانيـة، جميعها مختلطـة معاً.

ثـم هنـاك كلمـة اسـكتلندية؛ Curglaff، تحتـوي بمفردهـا عـلى كل الانفعـالات التـي يشـعر بهـا المـرء عندمـا يدخـل في ميـاه مجمـدة: الصدمـة والخـوف، لكـن في الوقـت نفسـه ذلـك الشـعور بالشـجاعة؛ تلـك الطاقـة التـي تنتـشر بسرعـة مـن عضلات القدمين لترتفـع إلى كل الجسـم.

وفي النهايـة، توجـد كلمـة فرنسـية؛ Retrouvailles، التـي تعنـي ذلـك الانفعـال الشـديد جـدّاً، الـذي يشـعر بـه المـرء عندمـا يعـثر عـلى شـخص بعـد فـترة طويلـة جـدّاً.

تلـك الكلـمات الثـلاث هـي مـا شـعرت بـه جويـا لثـوانٍ بعـد أن صافحـت جوفانـا.

كان انفعـالاً عفويّـاً، فعليّـاً كانـت مدتـه لحظـة فحسـب، كأنـه بـرق ضعـف بعـد ثانيـة وأصبـح ضعيفـاً، لكنـه تسـبب في الهـزة نفسـها في أعصابهـا وعـلى جلدهـا، في عظامهـا، كغطسـة في الميـاه المجمـدة؛ وذلـك الشـعور كان بأنهـا عـثرت عـلى (لـو) بعـد وقـت طويـل.

لا، لم تعـثر عليـه فعليّـاً؛ فهـو ليـس هنـاك في انتظارهـا خـارج البـار بمرطبـان الحـصى. لم يكـن هنـاك أمامهـا، إلا أنـه موجـود، موجـود بالفعـل.

ذلـك الانفعـال بالعثـور عليـه، شـعرت بـه جويـا قويّـاً ومحـدداً؛ لأنهـا شـعرت بأنـه لم يهـرب منهـا. لم تكـن مجـرد كذبـات ذلـك الـذي

كتبه لها على البطاقة المتروكة على السطح. لم يكن يبحث عن الأعذار المعتادة؛ فهو ليس مثل الآخرين. وعلى الرغم من صعوبة تصديق ذلك في البداية، إلا أن المآزق (المصائب - الأزمات)، التي كان يتحدث عنها مصائب حقيقية، إذا كانت أجبرته على الهروب من المنزل، وأن يفعل كل ذلك الذي فعله؛ فهي بالتأكيد أكبر مما يمكن تخيله. وربما ينقص جويا الكثير، إلا القدرة على التخيل.

8

لم تكن الأيام والأسابيع التالية جميلة، مثل تلك اللحظة التي شعرت بها بمجرد أن خرجت من بار جوفانا: جويا سبادا وفي داخلها سر أكبر بكثير من فتاة في السابعة عشرة، ولا توجد أي إشارة أو أثر لـ(لو)، فقط الفكرة التي تتضح أنه ربما هرب، ذهب بعيداً، وربما تبخر، وأنه فعل ذلك بمحض إرادته، وبناءً على خطة صممها بتفاصيلها الدقيقة.

لكن لماذا، إذن، عاد إلى المدينة التي استطاع أن يهرب منها بهذه الصعوبة؟

لم تعرف جويا إجابة عن هذا السؤال.

أسابيع صعبة؛ لأن الهاتف أيضاً رن أكثر من ثلاث مرات، ومن الجهة الأخرى كان والد (لو)؛ ذلك الشخص ذو النظرة التي لم تعجب جويا على الإطلاق، وفي كل مرة كانت جويا ترجو والدتها أن تقول إنها خارج المنزل.

أسابيع صعبة أيضاً مع الاستشارية النفسية، التي خمنت وجود شيء ما غريب، وكانت تقترب كثيراً من أن تدفع جويا إلى أن تُخرج كل ما في جعبتها،

ثم حدث ما حدث في صباح يوم في أبريل.

كانـت جويـا تجلـس في حجـرة جدتهـا، مسـتعدة للذهـاب إلى المدرسـة، أمـام تجعيـدات جيـمّا وصـوت تنفسـها البطـيء والمنهـك.

تمسك جويا بيد جدتها وتسألها: هل سيكون اليوم يا جيمّا؟

وجدّتها، وهـي تنظـر إليهـا بجفنيهـا المتسـعين، كأنهـما فُتحـا فجـأة بضـوء صاعـق، ودون أن تقـول أي شيء، أومـأت برأسـها: أجـل!

9

- إذن، أنـتِ تقولـين لي إنـكِ تصدقـين أن جدتـكِ لديها شيء كالحاسـة السادسة؟

- أجل يا تونيا، لدى جيمّا حاسة سادسة، وسابعة وثامنة أيضاً!

- أنـا لا أريـد أن أفسـد عليـكِ تلـك اللحظـة الشـاعرية، لكنـكِ تدركـين أن جدتـكِ لم تعـد تفهـم شـيئاً منـذ سـنوات، أليـس كذلـك؟

- جيمّا تفهم كل شيء! تفهم أشياء أكثر مني!

- هذا أمر سهل.

- لقـد أومـأت بالإيجـاب برأسـها، لقـد رأيـتِ هـذا بنفسـك. لم تفعـل أي إيمـاءة مفهومـة منـذ زمـن.

- رأيتها، رأيتها، لكن كيف تعتقدين أن اليوم سيحدث شيء ما؟

- لا أعتقد يا تونيا، بل أعرف.

- مـاذا إذن؟ هـل سـتمكثين هنـا لتنتظـري مـا سـيحدث أم سـتفعلين شـيئاً ما؟

- لا أعلـم. أعتقـد أننـي سـأفعل شـيئاً، لا أعـرف مـاذا، لكننـي أعـرف أننـي سـأفهم عندمـا تحـين اللحظة المناسـبة. وسـأرتجل.

- خطة جميلة، أهنئكِ.

- بـل، أتعرفـين مـاذا سـأقول لـكِ؟ أعـرف بالفعـل مـاذا سـأفعل، أعرفـه جيـداً جـدّاً.

- لا تقولي لي إنكِ تريدين...
- أجل.
- لكن هل أنتِ متأكدة؟
- أجل يا تونيا، متأكدة جدّاً.
- احترسي فقط.
- من ماذا؟
- ألم تكن هناك تلك الكلمة الألمانية، التي عثرتِ عليها؛ تلك التي تعني «محاولة إصلاح كل شيء، وبدلاً من ذلك التسبب في كارثة»؟
- لم يكن المعنى هذا بالتحديد، أجل، verschlimmbessern! تعني: «إساءة الوضع في أثناء محاولة تحسينه». كلمة جميلة!
- إذن، احترسي ألا تفعلي «فيرشليمبست»، أو تلك الكلمة.

10

- اهدئي يا جويا، خذي وقتك.

كانت الدكتورة روفيريدو جالسة في مكانها تنظر إلى جويا، بينما كانت تلعب بتحريك قلم.

كانت جويا في الداخل منذ ربع ساعة، وعمليّاً، لم تتلفظ بكلمة واحدة، حتى إن كان من الواضح على وجهها أن لديها مليون شيء تريد أن تقوله؛ والسبب بسيط: فهي تريد أن تخبرها، بل، وقررت بالفعل أنها ستخبرها، لكن في الوقت نفسه تشعر بأنها إذا أشارت فقط بشيء من سيوقفها، وأنها إذا تركت نفسها لتبوح أمام اختصاصية نفسية تعمل لدى الشؤون الاجتماعية بأنها عرفت فتى، ورأته مرات عديدة خلال شهرين، بل ومارسا الحب أيضاً، ثم اكتشفت أن ذلك الفتى تقريباً ميت منذ عام، يمكن أن يعزلوها بشكل جدي.

وسـألت نفسـها: لكـن لمـاذا تجديـن كل هـذه الصعوبـة في أن تفعـلي شـيئاً دون أن تظهـر تلـك الفكـرة الملعونـة، التـي تتسـبب في ثـوانٍ بسـيطة في تراكـم جبـال مـن الشـكوك؟

- جويا؟

إلا أنـه كان هنـاك دافـع محـدد، سـبب مـن أجلـه قـررت أن تقولـه لهـا هـي بالتحديـد؛ وهـو ليـس فقـط أن جدتهـا هـذا الصبـاح بعـد الإفطـار أشـارت إليهـا بعـد شـهور عديـدة مـن «جههـه!»، وليـس فقـط لأنهـا تشـعر بـأن اليـوم سـيحدث شيء مـا، لكـن واقـع أن الدكتـورة التـي تجلـس أمامهـا تتابـع أيضـاً حالـة والـدة (لـو)؛ ومـن ثـم تعـرف تمامـاً مـن هـو (لـو)، ومـاذا حـدث لـه؛ ولذلـك مـن جهـة يمكنهـا أن تمنحهـا أفضـل النصائـح، ومـن الناحيـة الأخـرى سـتمنعها السريـة المهنيـة مـن أن...

- اسمعي، واضح أنكِ تريدين أن تخبريني بشيء ما.

أجـل، ربمـا يمكنهـا أن تفعـل هذا. ربمـا سـيفيدها هذا. ربمـا الدكتورة سـتعطيها نصيحـة أفضـل مـن تلـك التـي نصحتهـا بهـا جوفانـا: «اعـثري عـلى لـو». كأن الأمـر بسـيط... كأنـه أمـر ممكـن.

- جويا؟

تنهـدت جويـا، ثـم فكـرت في جيـمّا وفي إشـارتها الإيجابيـة برأسـها، ثـم قالـت: حسـناً!

- أوه، هيا تشجعي!

11

يـا لـه مـن شـعور جميـل! عندمـا يتخلـص أحدهـم مـن ثقـل مـا. تحتـاج إلى كلمـة، إلى صفـة؛ لتعـبِّر عـن ذلـك الشـعور بالخفـة الـذي يشـعر بـه المـرء عندمـا يُخـرج ثقـلاً عملاقـاً. فكـرت جويـا وهـي تخـرج

من مركز الشؤون الاجتماعية وتعبر الطريق، والأمطار التي تحس، بصعوبة، تبلل وجنتيها. بالتأكيد؛ تلك الكلمة موجودة في لغة أفريقية أو شرقية، أو ربما الألمانية؛ اللغة التي بها تقريباً كلمة لكل شيء. ستبحث عنها، وإذا لم تجدها ستخترعها.

لقد فعلت خيراً حقّا بأن حكت الحكاية كلها.

كانت الاختصاصية متفهمة جدّاً، لم تقاطعها ولا مرة واحدة، ولم تنهض من مكانها لتهاتف الشرطة. في نهاية الأمر، كانت جويا على حق هذه المرة وليست تونيا، ولأول مرة ستكون هي من ستقول لها: قلت لكِ. فقط للحظة في البداية بدا لها أن الدكتورة تنظر إليها بشكل غريب، كأنها طبعت على وجهها بعض الشكوك، ثم مع تطور القصة اختفى ذلك التعبير تماماً.

إضافة إلى أن مَن ذلك الذي لن تنتابه الشكوك أمام قصة من هذا النوع؟

بل وقد عرضت عليها الاختصاصية أن تساعدها في العثور على (لو)، ونصحتها بأن تكتب له رسالة جميلة، طويلة هذه المرة، وبأن تترك له نسخة في كل مكان ذهبا إليه معاً.

الآن، ستعود إلى المنزل وستشكر جيمّا؛ لأن حركة الإيجاب برأسها كانت هي التي جعلتها تفكر في أن تقول للاختصاصية، التي بدورها أعطتها فكرة الخطاب، وبفضل الخطاب ستعثر جويا على (لو).

لم تكن فقط تشعر بذلك. كانت متأكدة من ذلك.

وهكذا، دخلت إلى المنزل مسرعة، متجهة مباشرةً إلى حجرة جدتها، لكن على بُعد مترين سمعت الهاتف يرن، وتوقفت بلا حركة تحدق فيه. منذ بضعة أيام، تعلمت ألا تجيب قط، وأن تترك أمها لتفعل هذا، لا أحد يعرف إذا كان المتصل والد (لو). نزلت الأم السلالم وعيناها ناعستان، ونظرت إليها بضيق، ورفعت السماعة.

- إنه لكِ، المدرسة.

وفي الخطوات الثلاث، التي تفصلها عن الهاتف، فحصت جويا كل الاحتمالات الممكنة التي يمكن بسببها أن تتلقى اتصالاً من المدرسة، بدايةً من اكتشاف هروبها إلى إعلان إيقافها. كل شيء خطر في بالها.

- آ... آلو؟

- آنسة سبادا؟

- مَن يتحدث؟

- أنا سكرتيرة المدرسة. أتصل بكِ لأن صورتكِ وصلت إلى النهائي في مسابقة (ضع نفسك في الإطار)!

- آه.

- يا له من رد فعل متحمس يا آنسة!

- لا، معذرةً. الأمر أنه...

- لا تقلقي. كنا نتصل فقط لنعلمكِ أن الأسبوع القادم، يوم الثلاثاء في الحصة الثالثة، سنُعلن الفائزين في مختلف التصنيفات، ولتعلمي أن سيادتكِ يمكن أن تكوني أحد هؤلاء.

- أشكرك، ألف شكر.

- ليلتك سعيدة... وحظّاً سعيداً يا آنسة!

هذه المرة قرصت جويا نفسها وحدها. لا تتذكر أياماً كثيرة حدثت فيها أشياء كثيرة هكذا، ومتنوعة بهذه الطريقة. لوهلة، بعد أن وضعت سماعة الهاتف، تساءلت إذا لم يكن الأمر كله مجرد حلم، هذه المرة، ثم رن الهاتف من جديد. أمسكت جويا بالسماعة، وهي مقتنعة أن في الجهة الأخرى سكرتيرة المدرسة التي نسيت أن تقول لها شيئاً.

- هأنذا. قالت.

لكـن عـلى الطـرف الآخـر مـن السـلك لم يكـن صـوت السـكرتيرة. كانـت الاختصاصيـة النفسـية التـي قالـت لهـا بصـوت متفائـل: آه، أهـلاً جويـا! هـل يمكـن أن أتحـدث مـع أحـد والديـكِ مـن فضلـك؟

12

- إذن، يؤسـفني اسـتدعاؤكما بهـذه العجلـة، لكـن مـن اللقـاءات الأخـيرة ظهـر تطـور، أعتقـد أنـه مـن المهـم أن أطلعكـما عليـه.

- لا تقلقي يا دكتورة، تفضلي قولي لنا.

- مجنونة، أليس كذلك؟ لطالما عرفت هذا!

- اهدأ يا جورجو! دعها تتحدث!

- بالنسـبة إلى هـذا، قبـل كل شيء، أريـد أن أوضـح أنـه يجـب ألا نرسـم أي خـط لنفصـل بـين مـن نقـول عنهـم «مجانـين»، ومـن نطلـق عليهـم «عاقلـين».

- لنترجم؟ هل ابنتي مجنونة أم لا؟

- لا يـا سـيد سـبادا. ابنتـك ليسـت «مجنونـة»، إلا أننـي الآن أرغـب في أن تدعـاني أشرح جيـداً، بهـدوء.

- معذرة، تفضلي.

- إذن، جويـا فتـاة حساسـة جـدّاً، ومـن المؤكـد أكـثر بكثـير مقارنـةً بالصبيـة الآخريـن في سـنها؛ بمعنـى أن حساسـيتها هـذه تجعلهـا، غالبـاً، غـير متسـامحة مـع العـالم الـذي يحيـط بهـا، لكـن ربمـا كلمـة «غـير متسـامحة» ليسـت الكلمـة الصحيحـة. لا أقصـد أنهـا تظـن نفسـها أفضـل مـن الآخريـن، لكنهـا فقـط لا تسـتطيع أن تتواصـل معهـم؛ لأنـه يكفـي قليـل جـدّاً مـن مصـدر مـا؛ ليُحـدث في داخلهـا جرحـاً. ومـع ذلـك، تتمنـى هـي العـالم الخارجـي، وتبحـث عنـه، لكـن مـا أن يكشـف لهـا حقيقتـه، تشـعر بالخـوف ثـم ترفضـه. ربمـا أيضـاً لهـذا السـبب تلتقـط تلـك الصـور.

- أي صور؟

- ألم ترياها قط؟

- نعلم أنها تلتقط عدداً من الصور، لكن لا، لم نرها قط.

- أنا رأيتها يا جورجو. إنها كلها صور لأشخاص من ظهورهم.

- من ظهورهم؟ أي نوع من الصور هذا؟

- أجـل يـا سـيد سـبادا، جويـا تحـب أن تلتقـط صـور الأشـخاص مـن الخلـف، وتـبرر هـذا التـصرف الغريـب بـأن تقـول إن النـاس عنـد رؤيتهـم مـن هـذه الزاويـة أكـثر صدقـاً، حقيقيـون أكـثر، لكـن لا يمكـن أن ننكـر العنـصر الـذي تحدثـت عنـه الآن؛ وهـو خوفهـا مـن أن تواجـه العـالم كـما هـو.

- لكـن حضرتـك طلبـتِ منـا أن نحـضر إلى هنـا في هـذه السـاعة فقـط لتقـولي لنـا إن ابنتنـا تلتقـط صـوراً غريبـة؟ فعـلاً؟

- لا في الواقـع. هـذا، بطريقـة مـا، سـبب كل شيء. لقـد طلبـت منكـما الحضـور إلى هنـا لأشرح لكـما مـا نتائـج هـذا الرفـض.

- تفضلي.

- في الحقيقـة، ربمـا جويـا تعـاني، منـذ فـترة، مـن الهذيـان؛ لأنهـا مقتنعـة بأنهـا تـرى أشـياء، أو الأفضل أن نقول، أشـخاصاً، غـير موجودين سـوى في ذهنهـا؛ وهـو نـوع مـن مراحـل الانتقـال؛ لأنهـا بينـما مـن ناحيـة تسـتطيع التعـرف إلى عـدم واقعيـة بعـض قناعاتهـا الذهنيـة، مـن جهـة أخـرى، وفي حالـة شـخص معـين، تبـدو مقتنعـة بأنـه حقيقـة واقعـة، تمامـاً كـما هـو حقيقـة بالنسـبة إليَّ وإليكـما مثبـت الـورق هـذا وهـذا الهاتـف.

- شخص من؟ شخصية تُدعى تونيا، أليس كذلك؟

- مَن تونيا الملعونة تلك أيضاً؟

- جورجو!

- لا يا سيدتي، على العكس. بالنسبة إلى تونيا، جويا تعرف تماماً كيف تعترف بأنها ليست حقيقية. المشكلة أنها مقتنعة بأن لديها فتى .

- هل تقولين إن جويا اخترعت لنفسها صديقاً؟

- تماماً، لكن المشكلة أنها لم تخترعه بالمعنى التام للكلمة... بمعنى أن هذا الصبي موجود.

- أنا لم أعد أفهم شيئاً هنا.

- انظرا. هذا الصبي، الذي يُدعى لوكا، في الحقيقة، تقريباً لقي حتفه في شهر مايو السابق، في بحيرة ريدونا. لستما من هذه المنطقة، لكن لمدة أسابيع لم تتحدث الصحف عن شيء آخر.

- لا نقرأ كثيراً الصحف.

- على كل حال، وفق نظريتي، لا بد أن جويا عرفت تلك القصة، بطريقة أو بأخرى، ولا بد أنها أثرت فيها كثيراً، إلى حد أنها في النهاية؛ بسبب دافع لست متأكدة منه حتى الآن، استبعدتها تماماً كأنها لم تسمع بها. والآن، في الفترة الأخيرة، برزت من جزء ما في ذاكرتها بشكل جديد، كأنها منحت حياةً للصبي. المشكلة أن جويا لم تكتفِ بأن سمعت صوته أو رأته، لكن هذيانها اتخذ أشكالاً أكثر تعقيداً.

- هل يمكن أن توضحي أكثر من فضلك؟

- بالتأكيد. جويا تصر على أنها اتصلت به اتصالاً جسديّاً أيضاً، وشرحت لي بالتفصيل رائحته، وملمس جلده، وأيضاً...

- وأيضاً؟

- حسناً، وتفاصيل متعلقة بـ...

- دكتورة، هل تفصحين من فضلك؟

- بعلاقة جنسية.

- هل تريدين أن تقولي لي إن ابنتي مقتنعة بأنها ضاجعت ميتاً؟
- لا يا سيد سبادا، أنا...
- ثم لا يجب أن أفكر في أن ابنتي مجنونة؟
- دكتورة، لكن هل حضرتك متأكدة من أن جويا مقتنعة جدّاً؟ وأنها لا تعرف أن هذا من نسج خيالها؟
- أجل، مقتنعة بالتأكيد. إنها متأكدة من أن الصبي موجود، وأنه لا يزال على قيد الحياة، وأنه فتاها.
- حسناً، لكن ألا تفترضين أيضاً أنه ربما...
- أنه ربما؟
- حسناً، ربما يكون هذا الصبي على قيد الحياة بالفعل، وأن جويا لا تتخيل أي شيء.
- بالتأكيد، حالياً لا يمكنني أيضاً استبعاد ذلك؛ ولهذا السبب أيضاً استدعيتكما إلى هنا؛ لأننا لا بد أن نحاول أن نفهم هذا الأمر معاً، لكن نظراً إلى أن الهلوسة التخيلية عرض خطير، في حالة ما إذا تأكدت نظريتي في الجلسات القادمة؛ فكان عليَّ تحذيركما في الوقت المناسب؛ لأنه في رأيي أن الطريقة الوحيدة ستكون اللجوء إلى علاج بالعقاقير، وستكون بحاجة إلى طبيب نفسي. أقصد لكي تتضح أمامكما كل الاحتمالات الممكنة.
- آه.
- رائع.
- هذا فقط ما تستطيع أن تقوله يا جورجو؟ رائع؟ أليس لديك شيء آخر لتقوله؟
- أجل.
- وما هو؟
- هو أنني سبق وقلت إن ابنتي مجنونة.

13

الساعة السادسة وإحدى وعشرون دقيقة.

جويا سبادا على الفراش. خرج أبواها للتو لمقابلة الاختصاصية النفسية للتحدث معها. نظريّاً، كان لا بد من لقاء أول ليعرفا تطور الوضع، إذن لا غرابة في هذا.

أمام فراشها الحاسوب مفتوح، وفي أسفل، توجد علامة ملف وورد؛ حيث بدأت منذ قليل كتابة خطاب، بدأته بـ(إيه)، ثم (أهلاً لو)، ثم (أهلاً)، وفي النهاية، ظلت مساحة بيضاء فقط.

- جويا، لكن...

سمعت صوت تونيا تقول لها. كانت تجلس أمام الحاسوب، وقدماها فوق المكتب.

- أقول... ألم تشكّي قط، ولو شكّاً جادّاً، أن تلك القصة ربما تكون فقط من نسج خيالك؟

- هل تمزحين؟

قالت بصوت مرتفع، وهي تنظر نحو المكتب؛ حيث تستطيع أن ترى وتسمع تونيا، لكن في الوقت نفسه، وهي تعرف أنه لا وجود لتونيا.

- أتعرفين أنني أفكر في هذا الاحتمال أيضاً؟ لأنه غريب جدّاً أن يختفي (لو) بهذه الطريقة في اللا شيء. وغريب أيضاً أنه في تلك الظهيرة عبر وسط المدينة معكِ ولم يتعرف إليه أحد... في الواقع شيء غريب بالفعل أنه خاطر بأن يسير في طرقات وسط المدينة، وهو يعلم أن أحدهم يمكنه التعرف إليه.

- لكن هل تتذكرين أنه كان يسير دائماً برأس منخفض، وقلنسوته فوق رأسه؟ أي إنه...

توقفت جويا عند منتصف العبارة، لم تكن تعرف كيف تنهيها.

كل شيء يبدو كأنه يؤكد ما تقوله تونيا، كل شيء فيما عدا...

انتظري!

قالـت لهـا جويـا، ثـم نهضـت لتذهـب وتأخـذ حقيبتهـا. فتحتهـا وأخـذت تفتـش في داخلهـا بعنـف، حتـى عـثرت عـلى مفكرتهـا، وفي داخلهـا كان يوجـد خطـاب (لـو). فردتـه، ووضعتـه عـلى المكتـب. الآن، بـدأت تشـعر بأنهـا غريبـة. بـدأت تتنفـس بسرعـة، يوجـد شيء مـا غريـب.

قالت لها تونيا: انظري جيداً.

ونظرت جويا بانتباه إلى خط (لو)، حرف يلي الآخر.

- ما هذا الذي تقولينه؟! أنا مُقلدة خطوط فاشلة!

- هـذا حقيقـي. يبـدو أن خطيكـما متشـابهان بشـكل مبالـغ فيـه، ألا يبـدو لـكِ هـذا؟

ومـن الشـارع، سـمعت جويـا ضوضـاء سـيارة ذويهـا تقـترب وتقـف أسـفل المنزل.

- لا، هذا لا يمكن. أقول لكِ إن هذا لا يمكن!

يُفتـح بـاب المنـزل، ومـن المدخـل يصـل إليهـا صـوت والدتهـا: جـروتي، نحـن في البيـت!

بنبرة معسولة أكثر من المعتاد، مُنغمة تقريباً.

وفجـأة، فهمـت جويـا كل شيء، لقـد اسـتدعتهما الاختصاصيـة النفسـية لتقـول لهـما إنهـا تشـعر بالقلـق لأن ابنتهـما تتخيـل أشـياء، وإنهـا نسـجت في ذهنهـا، ليـس فقـط صديقـة تخيليـة، بـل صديقـاً أيضـاً.

- لكن ماذا عن جوفانا؟ ماذا عن الصورة التي رأتها هي؟

قالـت كمـن عـثر عـلى القشـة الأخـيرة بينـما تسـمع ضوضـاء عـلى الـدرج، ومـن جديـد صـوت أمهـا التـي تناديهـا.

- ربما من كان في الصورة يشبهه فقط؛ بل بالتأكيد. حانت الساعة لكي تبدئي النظر إلى الحقيقة، كان لوكا موجوداً، لكنه مات.

قالت لها تونيا، وبمجرد أن سمعتها تقول هذا، ضربت جويا بقبضتها بقوة على المكتب وصرخت: لا! تماماً بينما يُفتح باب الغرفة، وظهر وجه أمها، التي على الفور نظرت إليها كأنها تنظر إلى مجنونة فريسة للهذيان.

- هل أنتِ بخير يا صغيرتي؟

- أجل يا ماما، أنا بخير! اخرجي من فضلك.

أجابتها وهي تغلق الباب؛ عمليّاً في وجهها.

وبمجرد أن أغلقت الباب، أسندت ظهرها إليه، وأغلقت عينيها، وببطء تركت نفسها لتنزلق إلى أسفل حتى جلست على الأرض. حاولت لبضع ثوانٍ أن تمحو كل شيء، أن تمسح تونيا من الحجرة، كانت تريد الفراغ الشامل. كانت تريد أن تفكر وأن تفهم.

هناك أشياء كثيرة جدّاً تجعلها تعتقد أنها ليست مجنونة. وهناك في داخلها فكرة، وقناعة لا يمكن أن تتخلى عنها بأن (لو) لم يرحل، وأنه في مكان ما ليس بعيداً، وأنه مختبئ يخشى الخروج.

صورة اللوحة الخاصة بالأسهم.

جوفانا، وماريو بريدا.

البحيرة، تماماً تلك البحيرة.

ليست مجنونة، ولا يمكن أن تكون مجنونة. لقد رأت (لو)، تحدثت معه، بل وتبادلا الحب، بحق السماء! لقد شعرت بجلده، بل ولا تزال تشعر به، كأنه مكتوب عليها، وكأنه بخلاف كلمات شعر ريكله توجد أيضاً على ذراعها علامات يديه وقبلاته وأنفاسه. إذا أرادت بالفعل أن تفكر في دليل، في شيء ملموس، لا تستطيع جويا سوى التفكير في هذا؛ تلك اللحظات لهما معاً فوق السطح،

السماء فوق رأسيهما، والضوء الذي رأته في نهاية النفق. إذا لم يكن هذا دليلاً كافياً، ما الدليل إذن؟

خطهما متشابه إلى حد كبير، يحدث هذا.

الحجارة، دبلن.

الكنزة التي أهداها إليها.

بالتأكيد. يمكن لجويا أن تكون قد عثرت عليها في البار، ولعب ذهنها عليها منذ تلك اللحظة هذه المزحة، وجعلها تتخيل كل ما تلا ذلك.

قالت لها أمها من المطبخ: جروتي! هل ستنزلين لتأكلي؟

أجابتها جويا: لست جائعة! بينما تأخذ ورقة وقلماً، وتفكر، بما أن الموقف وصل إلى هذا، هناك شخص واحد فقط، شخص واحد في العالم تثق به، وستسأله هو إذا كانت مجنونة أم أن الآخرين هم المجانين.

وهكذا جلست، وبدأت تكتب.

14

«وضرب فرسه روثينانته وهو يقول هذه العبارة، دون أن يحفل بأقوال حامل سلاحه سنشو، الذي صرخ يؤكد أن هذه طواحين هوائية وليست مردة تلك التي راح يهاجمها. أما هو، فقد رسخ في ذهنه أنها مردة إلى حد جعله لا يسمع صرخات حامل سلاحه سنشو؛ بل ولا يتعرف إلى الحقيقة حينما اقترب منها كل القرب. على عكس هذا، راح يعدو وهو يصيح بصوتٍ مدوٍّ: لا تهربي أيتها المخلوقات الجبانة الخسيسة، فإن من يهاجمك ليس إلا فارساً واحداً»[26].

(26) هذا الجزء من نص «دون كيخوته» لثربانتس، واستعنت هنا بترجمة الأستاذ عبدالرحمن بدوي.

كان الأستاذ بوفه وجويا يجلسان في حديقة المدرسة على إحدى الأرائك، وحولهما كانت ترتفع أصوات الطلبة، فتيات يلتقطن السيلفي، وضوضاء أكياس الشيبس، والضحكات. كانت الشمس ساطعة، لكن كانت هناك أيضاً سحب ضخمة مهددة تقترب من الجبال وتخلق بقعاً قاتمة لتعلن عن رعود وأمطار.

هذا الصباح، ذهبت جويا إلى الأستاذ في صالة المدرسين ووضعت بين يديه خطاباً. عشر صفحات مكتوبة على الوجهين، حكت له فيه كل شيء، بكل التفاصيل. أعجبها أن تكتبه ولم يعجبها ذلك في آنٍ واحد؛ لأنه كان جميلاً أن تعيش تلك اللحظات مرة أخرى، كأنها تعيد بناءها وتخلقها من جديد أمامها، لكن معرفة أنها تمد يديها في محاولة الإمساك بكل شيء، وعدم القدرة على ذلك، لم يكن شعوراً رائعاً.

سألها الأستاذ، بينما يتلصص الأساتذة الآخرون خلفه ويتظاهرون بأنهم لا يسمعون شيئاً: وما هذا؟

- لا شيء، حضرتك اقرأه، إذا استطعت، عندما يسمح لك وقتك، ثم عندما تنتهي منه سأسألك شيئاً، إذا كان هذا لا يزعجك.

كانت جويا تفكر في أن الأستاذ سيستغرق على الأقل شهراً في قراءة كل تلك الصفحات المكتوبة بخط صغير ومتلاصق، لكنه في بداية الفسحة كان بالفعل أمامها، ممسكاً بالأوراق في يد، وفي اليد الأخرى كتاب دون كيخوته دي لا مانتشا.

- لكن... لماذا هذا الكتاب معك؟

- سأقرأ لكِ منه شيئاً، قبل أن أجيب عن سؤالك، إذا لم يضايقك هذا.

وهكذا ها هما جالسان على إحدى الأرائك. البروفيسور يقرأ وجويا لا تفهم لماذا يقرأ لها هذا الشيء، بينما توقفت رغبتها

في أن تسـأله مـا أرادتـه. في نهايـة قـراءة تلـك القصـة، التـي تتحـدث عـن طواحـين الهـواء والعمالقـة، لم تعـد جويـا تتحمـل أكـثر مـن ذلـك، وسـألت الأسـتاذ: إذن؟ مـا رأيـك؟

فكـر بعـض الـشيء قبـل أن يجيبهـا. اسـتغرقه هـذا وقتـاً. كادت جويـا أن تكـرر السـؤال، ثـم سـكتت. في النهايـة، قـال لهـا الأسـتاذ شـيئاً: في رأيـي أنـه موجـود.

مدت جويا رقبتها: كيف؟

- لـوكا هنـا، هـذا الـ(لـو)، الـذي تتحدثـين عنـه، لـه وجـود فعـلي، ليـس فقـط في ذهنـك.

- لماذا تقول هذا؟

- لمـاذا؟... حسـناً، في الحقيقـة لا أعـرف كيـف أقـول لـكِ لمـاذا. في نهايـة الأمـر أجـل، أعـترف أن الأمـر يمكـن أن يكـون ثمـار تخيلاتـك، لكـن هنـاك شـيئاً مـا... لا أعـرف، بالنسـبة إليَّ أنـتِ تصفينـه لي بطريقـة أكـثر مـن جيـدة ليكـون موجـوداً فقـط في خيالـك.

كانـت جويـا هنـاك مبتهجـة بتلـك الكلـمات، وأخـرى ترغـب في أن تكذِّبهـا عـلى الفـور.

- أجـل، لكـن لمـاذا إذن لا يرغـب هـو في إثبـات ذلـك لي؟ لمـاذا يرفـض أن يُظهـر نفسـه؟ لمـاذا اختفـى في الـلا شيء؟

- لا بد أن يشرح هو هذا لكِ، أليس كذلك؟

- لكـن حضرتـك يـا أسـتاذ، ألا يجـب أن تقـف مـع الجانـب العقـلاني؟ ألا يجـب أن تشـجع المنطـق؟ لقـد حكيـت لـك كل هـذه القصـة لتسـاعدني في أن أراهـا بالمنطـق!

وهنـا انفجـر الأسـتاذ، حرفيّـاً، في الضحـك، لكنـه كان يضحـك بقـوة شـديدة، بصوتـه الجميـل الأجـش. وكانـت جويـا تنظـر إليـه دون أن تفهـم كثـيراً.

- المنطـق. هـا هـا هـا! أنـتِ لا تعرفـين كـم مـن الخـدع قـام بهـا هـذا المنطـق المُبـارك! كان سـيمكننا أن نحقـق تطـوراً لا يمكـن تخيلـه في العلـوم والتكنولوجيـا، لكـن بسـبب بعـض الأشـياء، لا يجعلنـا المنطق نتحـرك خطـوة واحـدة إلى الأمـام!

لكن لم تستطع جويا أن تفهم ماذا يريد الأستاذ أن يقول.

- هل تريدين أن تعرفي كيف أرى أنا هذا الأمر؟

- بالتأكيد.

- «سـأخبركِ سرّاً. تعرفينـه، أليـس كذلـك؟» قـال لهـا وهـو يلـوح بالكتـاب الـذي في يـده، وإصبـع السـبابة موضـوع بـين الصفحـات التـي كان يقـرأ منهـا منـذ قليـل. «دون كيخوتـه؛ هـذا المجنـون، الـذي يعتقـد أن طواحـين الهـواء عمالقـة يجـب عليـه هزيمتهـا... إليـكِ، في الحقيقـة، كان هـو عـلى حـق. كانـت بالفعـل عمالقـة، طواحــين الهــواء تلــك. كانــت بالفعــل ســيوفاً تلــك الشــفرات، وكانـت البغـال خيـل حـرب. كان هـو مَـن يـرى الأشـياء بطريقـة صحيحــة!».

خفضــت جويــا عينيهــا وأخــذت تفكــر فيــما قالــه. وضــع هــو الكتـاب أسـفل ذراعـه، ووضـع قبعتـه عـلى رأسـه، وقبـل أن يذهـب، قـال: إن المجانـين الحقيقيـين يـا عزيـزتي هـم مَـن يـرون مـا هـو أمـام أعينهـم فقـط.

15

الفكـرة العبقريـة، الفطريـة Kensho، خطـرت لهـا في أثنـاء درس الفيزيـاء.

كان الموضـوع عـن موجـات الراديـو، وعندئـذٍ بـدأ المـدرس يتحـدث عـن إشـارة واو!

في 15 أغسـطس 1977، كان عـالم الفلـك الأمريـكي جـيري ر. إيهـمان[27] يعمـل عـلى مـشروع بحثـي يهـدف إلى إثبـات وجـود حيـاة في الفضـاء، وبينـما كان يحـاول أن يلتقـط أيضـاً أصغـر الموجـات مـن الفضـاء، وصلـت إشـارة راديـو قويـة جـدّاً، استـمرت أكـثر مـن اثنتـين وسـبعين ثانيـة، مـن حـدود الجنوب-الشرقـي مـن كوكبـة القـوس. أعطـوا تلـك الإشـارة اسـم (إشـارة واو!)؛ لأن عـالم الفلـك صنـع دائـرة كبـيرة حمـراء حـول اللوحـات، التـي طبعهـا مـن الحاسـوب وكتـب بالقـرب منهـا «Wow». حتـى اليـوم، هـذه الإشـارة هـي إحـدى الدلائـل القليلـة الملموسـة، في رأي علـماء مختلفـين، عـلى وجـود حضـارة فضائيـة.

الفكـرة العبقريـة واتتها عندمـا قـال معلـم الفيزيـاء، الـذي لم يكـن يصـدق عـلى الإطـلاق أن تلـك الإشـارة انبعثـت مـن أي شـكل مـن أشـكال الحيـاة، بصـوت هـادئ وتقريبـاً شـاعراً بالملـل - قـال شـيئاً جعل جويـا تنهـض مـن مقعدهـا: «في رأي عـالم الفضـاء الفيزيـائي فرانـك دريـك[28]، هـذه الحضـارة الفضائيـة الافتراضيـة فعلـت ببسـاطة الـشيء الأكـثر منطقيـة: حاولـت أن تبعـث الإشـارة إلى مَـن هـم أكـثر قربـاً؛ لأنهـا إذا أرسـلتها إلى الأبعـد لأنفقـت كثـيراً مـن الطاقـة وخاطـرت أكـثر بالفشـل».

قالـت جويـا، وهـي تنهـض عـن مقعدهـا، وأعـين كل زملائهـا التفتـت إليهـا: لكـن هـذا واضـح!

- آنسـة! يؤسـفني أنـكِ تجديـن دروسي تافهـة إلى هـذه الدرجـة، لكننـي أذكِّـرك بـأن هـذه وجهـة نظـر عـالم فضـاء فيزيـائي مبجـل، الـذي...

(27) Jerry R. Ehman.

(28) Frank Drake.

- لا، لا يا أستاذ، آسفة، لم أكن أتحدث مع حضرتك... هل يمكنني أن أخرج للحظة؟

كيف لم تفكر في هذا من قبل؟ كانت الإشارة آتية من قريب، من قريب جدّاً.

جويا سبادا، شاعرة بأن شيئاً ما يستحوذ عليها، ملأت الردهة بصدى خطواتها المُسرعة المتجهة نحو صالة تقنية المعلومات. الشكر للسماء، وفق منشور للمدير مسموح للتلاميذ أن يدخلوها في أي وقت، فأجهزة الحاسوب مجهزة لتسمح لهم بزيارة مواقع معينة محمية.

هي متأكدة من شيء واحد: مستحيل أن يكون (لو) تمكن من عمل كل هذا بمفرده. لا يمكن لأحد أن يخفي هروبه من المنزل خلف ستار الانتحار دون أن يساعده أحد، لكن مَن يكون هذا الشخص الذي ساعده؟ وكيف يمكن أن يكون فعل ذلك لمدة أحد عشر شهراً دون أن يكتشفه أحد؟ أين يختبئ؟ من الواضح، في المكان الأقرب؛ لأنه بمجرد أن يبتعد أكثر، سيزيد من خطورة أن يكتشفه أحد!

من المؤكد أن شابّاً في عمر الثامنة عشرة لا يمكنه أن يعول نفسه بمفرده، لا يمكنه أن يأكل، ويجول وينام دون أن يثير الشكوك، خصوصاً لا يمكن أن يفعل ذلك دون أن يتحرك من المدينة التي يعرفه ويبحث عنه فيها الجميع.

- إن (لو) لدى أحدهم، منذ عام تقريباً وهو يمكث في منزل شخص ما!

قالت جويا وعيناها تلمعان من انعكاس شاشة الحاسوب الذي بدأت تشغيله، ثم ضغطت على بعض المفاتيح، وحركت الفأرة. فُتحت صفحة لمقالة كانت قد قرأتها من قبل، وخطرت في بالها

عندما شرح الأستاذ نظريات عالم الفضاء الفيزيائي فرانك دريك.

لوكا: البحث مستمر أيضاً في الجوار.

يمكن للشاب البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، الذي اختفى تقريباً منذ شهر ألا يكون قد لقي حتفه في البحيرة. يحاول المحققون إيجاد طرق أخرى.

من مراسلنا - استمرت عمليات البحث عن الشاب، لكن ببطء أكثر مما كان الأمر عليه وقت اختفائه. في الواقع، منذ بضعة أيام، أكمل لوكا أعوامه الثمانية عشر؛ وهو الأمر الذي يحوِّل هروبه المفترَض من المنزل إلى عمل إرادي، وفي تلك الحالة، لن تكون هناك ضرورة لتدخل قوات الشرطة. إضافة إلى ذلك، يوجد في المدرسة تردد في الحديث عن الموضوع: تقريباً لا أحد بين زملاء وأصدقاء لوكا يرغب في الاعتراف بفكرة أن الصبي هرب في الواقع ببساطة؛ بل غرق في بحيرة ريدونا بالقرب من ترامونتي، حتى إنهم في الأيام السابقة نظموا معاً زيارة لمكان الانتحار المزعوم؛ ليتركوا للوكا بعض الذكريات والخطابات والأدوات. لحظة مؤثرة جدّاً، لكن عدم العثور على الجثة يبدو كأنه ترك طرقاً أخرى مفتوحة. جارٍ البحث بين معارف لوكا من الكبار، والوحيدين الذين إن لم يكن الأمر يتعلق بعملية انتحار، لكن بهروب من المنزل، لا بد أنهم منحوه الدعم اللوجستي - دعم الإعاشة - اللازم.

أبعدت جويا عينيها عن الشاشة. الآن توجد تونيا أيضاً هناك معها، تجلس بجوارها، وقالت لها فقط، وهي تحدق فيها:

- اللعنة!

- أنتِ تعتقدين أن...

- أجل، أنا أعتقد أن.

- لكن كيف يمكنكِ أن تكوني بهذه الثقة؟

- لا أعلم، لكنني أعلم فقط أنني متأكدة!

وخرجـت جريـاً مـن غرفـة تقنيـة المعلومـات. الآن تعـرف، الآن تعـرف أيـن (لـو).

16

كانت الخطة في غاية البساطة، على الأقل في نصفها الأول.

سـتدق جوفانـا الجـرس وتخـبره أن لديهـا بعـض الأوراق التـي تحتـاج إلى توقيعـه، وسـتطلب منـه أن تدخـل لأنهـا تريـد أن تسـأله سـؤالين عـن البـار. وبمجـرد أن تدخـل، سـتحاول أن تـترك البـاب مفتوحـاً بعـض الـشيء. بعدهـا بثـوانٍ، ستتسـلق جويـا البوابـة، وتتجنـب الهجـوم العنيـف مـن الكلـب المينـي تـوبي، بـأن تمنحـه عظمـة لتسـكته، وستتسـلل إلى داخـل المنـزل، وسـتضع أيضـاً بيريـه مـن الصـوف ونظـارات مزيفـة، وهكـذا في حالـة مـا إذا رآهـا المُسـن لـن يعرفهـا بسـهولة.

الجـزء الثـاني مـن الخطـة؛ هـو ذلـك الجـزء المبهـم وغـير المحـدد، لكنهـا سـترتجل.

في الواقـع، هـي ليسـت خطـة جيـدة؛ بـل بالأحـرى شيء يُقـال عنـه بالألمانيـة schnapsidee؛ وهـذا يعنـي ذلـك المـشروع العجيـب والسـخيف الـذي يخطـر في بـال شـخص عندمـا يكـون مخمـوراً، والـذي ينتهـي دائمـاً بإيقـاع المـرء في المتاعـب. في العـادة، يرتبـط بإرسـال رسـالة فيهـا أخطـاء نحوية في الليـل، يعـترف فيهـا الشـخص بحبـه الأبـدي لشـخص مـا؛ وبسـببها، تُكتـب كلمـة النهايـة لـكل أمـل، لكـن في هـذه المـرة يتعلـق الأمـر بغـزو منـزل المسـن ماريـو بريـدا، بحثـاً عـن الغرفـة، التـي في رأي جويـا، يختبـئ فيهـا (لـو).

أجـل بـلا شـك، فهـي schnapsidee؛ بـل وهـي أسـوأ خطـة خطـرت لجويـا في حياتهـا.

في الواقع، وافقت جوفانا على مساعدتها، بعد ساعة من التوسل إليها ركوعاً على ركبتيها، فقط بشرط أنه إذا حدث شيء ما، لا بد أن تقول جويا إنها فعلت هذا بمفردها. ستساعدها، لكنها لا تريد أن تتورط. وكان لديها حق في هذا، فلديها ابنان تعتني بهما، وبار ترغب في الاستمرار في إدارته، ومحاولة عمل ذلك بسجل إجرامي غير نظيف شيء قاسٍ في الواقع.

- ماذا تريدين؟ لا بد أنها فواتير قديمة أخرى!

تأفف المُسن أمام الباب.

- صباح الخير يا سيد ماريو، لقد أحضرت لك بعض الأشياء للتوقيع، وكنت أريد أيضاً أن أطرح عليك بعض الأسئلة بخصوص السخان. هل يمكن أن أدخل؟

سعل السيد بريدا، ونظر حوله، ثم أشار بيده لجوفانا بالدخول. غمزت جوفانا بعينها وهي تنظر إلى يمينها، مباشرةً إلى جويا، المختبئة مرة أخرى خلف صندوق القمامة.

هناك كلمة فرنسية تعبِّر عما تمر به الآن: Frisson؛ وهي تقريباً خليط الانفعالات والمشاعر، مثل الخوف والإثارة والرغبة والرعشة وغيرها. شيء جميل أن توجد في الحياة كلمة تعبِّر عن الخوف والرغبة معاً. تقريباً يحدث دائماً أن يكون الخوف مصاحباً للرغبة، بالقياس نفسه، عندما تحدث الأشياء الجميلة بالفعل.

وتشعر جويا أيضاً أنها في الخلاط في هذه اللحظة. الآن حيث هي، على وشك ارتكاب جريمتين، وورطت معها شخصاً آخر أيضاً، ولم تعد متأكدة تماماً من أن (لو) يختبئ في هذا المنزل.

لكن اسمعي... وإذا كنتِ مخطئة؟ همست لها تونيا، وهي على ركبتيها بجوارها.

لست مخطئة. شيء غريب جداً أن المُسن قال إنه لم يره قط، حتى بعد أن أطلعته على الصورة. إذا كان موجوداً على تلك اللوحة؛ ذلك لأنه كان زبوناً دائماً، لا بد أنه كان يعرفه! لماذا يقول لي إنه لم يره قط في حياته؟ ثم فكري في إشارة واو! لا يمكن لـ(لو) أن يبتعد كثيراً عن مخبئه، وأنا أعتقد أنه هو والمسن أصدقاء... أتتذكرين أن جوفانا كانت قد ذكرت أن المُسن قد فقد ابناً و...

نعم نعم، فهمت، لكن... إذا كنتِ مخطئة؟

إيه، إذا كنت مخطئة... يمكن أن نقع في بعض المتاعب.

فقط بعض؟

جوفانا الآن في الداخل. تخرج جويا من خلف صندوق القمامة، وعلى الفور تفهم أنها ليست موهوبة في هذا، نظراً إلى أنها في أثناء نهوضها تضرب عن طريق الخطأ الذراع وترفع غطاء الصندوق، وتسقط فوق رأسها علبة بيتزا ضخمة من الورق المقوى توجد في داخلها - بطبيعة الحال - فتات كثيرة مُحمرة اللون.

عندئذٍ تميز بوضوح تام ضحكات تونيا، وأيضاً إصبع السبابة الذي يشير نحو قطعة بيتزا علقت بين شعرها.

لكن أليس من المفروض أن تكوني في صفي؟

آسفة، آسفة، لكن كان شيئاً جميلاً للغاية!

تنزع جويا الوسخ من فوقها، ثم تقترب من السور الذي يحد حديقة المُسن. تلقي بعظمة لتوبي، لكنه لا يتحرك، بل وينظر إليها بالفعل مكشراً عن أنيابه.

«توبينو؟ ألا ترى أنني ألقيت إليك بالعظمة؟» قالت له وهي تهمس، على ركبتيها، من بين الألواح الخشبية للسور، واستمر الكلب في التكشير، دون حتى أن يهتم بالعظمة الشهية التي أحضرتها له جويا.

«لا بد أن أقول إن خطتكِ تسير بنجاح ساحق!» علقت تونيا.

«اخـرسي وسـاعديني أفضـل!» تـصرخ فيهـا، وقـد نسـيت أنهـا عـلى بُعـد عـشرة سـنتيمترات مـن كلـب صغـير، بـل ونسـيت الغرابـة الشـديدة للـكلاب بهـذا الحجـم، التـي تتمثـل في أنهـا تنبـح بشـكل هسـتيري مـع أي اسـتفزاز خارجـي.

في الواقـع، بـدأ تـوبي الصغـير يـصرخ مـع نباحـه الحـاد كأن النـيران الاحتفاليـة قـد انفجـرت، ويقفـز إلى أعـلى؛ إلى حـد أنـه كان عـلى وشـك أن يتسـلق السـور.

وكنتيجـة منطقيـة، فتـح المُسـن بريـدا البـاب، وخـرج: تـوبي! مـاذا حـدث يـا تـوبي!

حاولـت جويـا عـلى الفـور أن تفـرد جسـدها عـلى الأرض حتـى لا يراهـا؛ وهـي تغـرس وجههـا وسـط الأعشـاب القليلـة الموجـودة هنـاك بالقـرب مـن السـور، لكـن أثبتـت تقنيـة النعامـة فشـلها الذريـع؛ لأن المُسـن لاحـظ عـلى الفـور شـيئاً غريبـاً وصرخ في اتجاههـا: إيـه؟ مـن هنـاك؟

نهضت جويا سبادا بملابسها المتسخة بالعشب فجأة.

صباح الخير، أنا...

لكـن لم تسـتطع أن تجـد بسرعـة تبريـراً واضحـاً لواقـع أنهـا كانـت منـذ ثانيـة واحـدة عـلى الأرض أمـام منزلـه كأنهـا جنـدي في تدريـب حـربي، وكان كل مـا تتمنـاه بشـدة ألا يتعـرف إليهـا.

آه، هـل عـثرت عليهـا أخـيراً؟ وصـل صـوت جوفانـا مـن خلـف ظهـر المسـن، لقـد اسـتغرق الأمـر بعـض الوقـت.

عـثرت عـلى مـاذا؟ هـل تعرفـان بعضكـما؟ سـألها بريـدا وهـو يربـت عـلى تـوبي، الـذي كان في ذلـك الوقـت قـد جـرى بـين قدميـه ليأخـذ الجائـزة التـي اسـتحقها لأنـه قـام بواجبـه ككلـب حراسـة.

آه، أجل، فهي...

أنـا أعمـل معهـا في البـار. أكملـت جويـا العبـارة في محاولـة لتغيـير صوتهـا إلى صـوت متقطـع.

ومـاذا فقـدتِ؟ عقلـك عـلى مـا يبـدو؟ قـال المُسـن بينـما تـوبي يهـرب مـن بـين قدميـه لأنـه أخـيراً، بعـد بعـض الوقـت، رأى العظمـة الشـهية في وسـط الحديقـة!

حسـناً، المهـم أن تكـوني عـثرتِ عليهـا! قالـت لهـا جوفانـا، وهـي تغمـز لهـا، ثـم تسـتأنف بسـؤال: لكـن ألم تكـوني بحاجـة إلى الذهـاب إلى المرحـاض؟

ممـم... أجـل! لا بـد أن أذهـب، بـل وسـأجري إلى الحانـة الآن، فلـم أعـد أحتمـل.

أجل، اجري إلى الحانة أفضل.

قـال لهـا بريـدا، لكـن تتدخـل جوفانـا عـلى الفـور: هيـا يـا سـيد بريـدا، لا تتـصرف بهمجيـة كعادتـك. ألا تـرى أنهـا تُعـاني؟ هيـا، دعهـا تسـتخدم حمامـك لدقيقتـين!

ينظـر المُسـن شـزراً إلى جوفانـا، التـي في المقابـل تبتسـم لـه ابتسـامة ملائكيـة، ثـم، وبينـما جويـا تضغـط عـلى عينيهـا وهـي تصـلي أن يقـول أجـل، يشـير بيـده ويتأفـف: تفضـلي ادخـلي، لكـن أسرعـي، ولا تضايقينـي إذا وجـدتِ كل شيء متسـخاً.

17

«والآن، ماذا؟»

«آه يـا تونيـا، الآن... الآن يجـب أن أكـون بالشـجاعة الكافيـة لأخـرج مـن هـذا الحـمام وأذهـب إلى الطابـق الأول دون أن يسـمعني أحـد!»

«أنتِ!»

«أجل، أنا!»

«التـي لا تسـتطيع حتـى الخـروج مـن خلـف صناديـق القمامـة دون أن تتسـبب في كارثـة؟»

«شيء جميل أن تكون لدى صديقات المرء ثقة كبيرة به!»

تتحـدث جويـا مـع صديقتهـا الافتراضيـة داخـل الحـمام، الـذي ربمـا يكـون أقـذر حـمام في كل شـمال إيطاليـا، خصوصـاً أنـه توجد في قاعـدة المرحـاض بقـع صفـراء؛ وتلـك بمفردهـا تثـير في جويـا غثيانـاً خطـيراً.

اسمعي! سيأتي هو بعد قليل ليطرق الباب.

أعلم. اتركيني أفكر.

قالـت لهـا جويـا وهـي تنظـر حولهـا بعصبيـة، عـلى أمـل أن تجـد شـيئاً بـين الأدوات الموجـودة داخـل الحـمام الأقـذر عـلى الإطـلاق في شـمال إيطاليـا، أي شيء يمنحهـا أي أفـكار، كأنهـا ليـس لديهـا مـا يكفيهـا مـن أفـكار، فمـع البحـث عـن حـل، بـدأت جويـا تفكـر أيضـاً في احتماليـة أن تكـون مخطئـة، وأن تكـون فعلـت schnapsidee؛ لأنهـا إذا جـرت إلى الطابـق الأول ولم تعـثر عـلى أثـر لـ(لـو)...

لحظة واحدة. قالت لتونيا.

ماذا؟

يوجد هنا روب حمام! ألا ترين؟ بل اثنان أيضاً.

وماذا في ذلك؟

لكـن كيـف إذن! هـل يبـدو لـكِ أن شـخصاً يـترك حمامـه بهـذه القـذارة، سـيهتم بـأن يحتفـظ لنفسـه بـروبَي حـمام نظيفـين هكـذا؟ قالـت لتونيـا، وعيناهـا تلمعـان.

- أوكي، لنقـل إنـه الآن في أعـلى. كيـف سـيمكنك الذهـاب دون أن يمسـك بـكِ؟

في الواقـع، هــذا حقيقــي. في الأفــلام يفعلــون ذلــك دائمــاً، تلــك الأشـياء... يدخلـون إلى المنـازل، يسرقـون، ويبحثـون، ويقلبـون الأشـياء، ويـرى المـرء هنـاك دائماً عمليـات سـهلة جـدّاً، لكـن الآن، وبينـما توجـد جويـا في منـزل السـيد ماريـو بريـدا، تُـدرك أنـه يكفـي أن تقـترف أي شيء ليكتشـفها. يـا لحماقـة الأفـلام والأوهـام المزيفـة التـي تنشرهـا!

إذن لنفكـر. إن بـاب المدخـل موجـود هنـا أمـام الحـمام، عـلى بُعـد متريـن. قالـت لتونيـا.

حسناً.

من المطبخ، لا يمكن رؤية باب المدخل.

- حسـناً، لكـن الآن أسرعـي، لقـد أمضيـتِ هنـا في الداخـل خمـس أو سـت دقائـق.

- إذن، سـأخرج مـن الحـمام، أفتـح البـاب بسرعـة، وأحييهـما بصوت مرتفـع، أغلـق البـاب بقـوة، ثـم عـلى الفـور أقفـز بسرعـة عـلى السـلالم الموجـودة هنا!

لن تستطيعي أبداً.

بل سأستطيع.

لا لن تستطيعي.

لا تهتـم جويـا كثـيراً بكلـمات تونيـا، مقتنعـة أكـثر مـن أي وقـت مـضى بإمكاناتهـا، تمسـك بمقبـض الحـمام، مسـتعدة لأن تنفـذ عمليّـاً خطتهـا الرائعـة.

ثـم، وبمجـرد أن تفتـح البـاب، تجـد المسـن أمامهـا واقفـاً، كأنـه كان ينتظرهـا منـذ مـدة، لكـن لم تكـن المفاجـأة في أنهـا رأتـه هنـاك أمامهـا، بنظرتـه الهمجيـة المعتـادة، لكـن لأنـه قـال لهـا: تعـالي، سـآخذكِ أنـا.

في البدايـة، لم تفهـم جويـا، أو الأفضـل أن نقـول إن جـزءاً صغـيراً جـدّاً مـن عقلهـا فهـم، لكـن كان يبـدو لهـا مسـتحيلاً أنـه يقـول هـذا بالفعـل.

معذرة؟

تعـالي معـي، فقـد فهمـت أنـكِ فهمـتِ. قـال لهـا، ثـم التفـت واتجـه نحـو الـدرج. صعـد ببـطء، مـع جويـا خلفـه عـن بُعـد، بينـما كان الخشـب تحـت أقدامـه يطقطـق، وفي الهـواء تتصاعـد رائحـة الصـوف الرطـب، وربمـا آثـار روائـح جرابـا.

بمجـرد أن وصـلا إلى الطابـق الأول، توقـف المُسـن، والتفـت ونظـر إليهـا مبـاشرةً، ثـم قـال: إذا حاولـتِ فقـط أن تقـولي لأحـد إنـه هنـا، لتعلمـي أنـه ربمـا سـيكون آخـر شيء سـتفعلينه في حياتـك.

اكتفـت جويـا بـأن بلعـت ريقهـا وأجابـت: أوكي، ثـم أومـأ المُسـن وابتسـم لهـا، ووضـع أذنـه عـلى البـاب الأول عـلى اليسـار، وقـال: يسـمع موسـيقى بذلـك الـشيء.

سـألته جويـا: بذلـك الـشيء. وكانـت أنفاسـها تتسـارع قليـلاً. ثـم فتـح البـاب، واقتربـت جويـا، وكان هـو هنـاك.

ممـدداً عـلى فـراش، والسـماعتان في أذنيـه، وعينـاه مغمضتـان، وصنـدوق الحجـارة موضـوع فـوق الطاولـة الجانبيـة بجـواره. كان (لـو) هنـاك، ولم يـدرك أي شيء.

قال لها المُسن: سأترككما بمفردكما.

ثـم عـاد ليأخـذ طريـق الـدرج. وعندمـا كان عـلى وشـك النـزول، نـادى جويـا: إيـه! قـال لهـا، وعندمـا التفتـت جويـا، أشـار إليهـا بيديـه بإشـارتين لا يمكـن إسـاءة فهمهـا: الأولى بـأن وضـع السـبابة عـلى شـفتيه، كأنـه يقـول لهـا: الصمـت، أوصيـكِ! والثانيـة اليـد التـي تقطـع الرقبـة كأنهـا سـكين.

18

(لو). إنه هو، هناك.

كانـت جويـا سـبادا قـد تخيلـت عـلى الأقـل ألـف مـرة اللحظـة

التـي سـيظهر فيهـا مـن جديـد، حتـى إن كانـت الأماكـن، التـي كان يحـدث هـذا فيهـا، تتغـير دائمـاً - البـار، السـطح، الكنيسـة الصغـيرة - وفي كل مـرة، كانـت هـي تفعـل الـشيء نفسـه: تجـري نحـوه وتوسـعه لكـمات. وعـادةً، كـما يحـدث في الحيـاة، عندمـا كانـت جويـا تتخيـل شـيئاً مـا، لم يكـن في نهايـة الأمـر يحـدث بتلـك الطريقـة مطلقـاً، أو بهـذه الطريقـة عـلى الإطـلاق: تمامـاً كـما حـدث منـذ خمـس دقائـق مـع الخطـة الدقيقـة جـدّاً لتدخـل إلى منـزل المُسـن، فقـد صنعـت في ذهنهـا مشـهداً، كانـت تـراه بالفعـل، ثـم جـاءت الحيـاة لتخدعهـا، كأن تغيـير الأوراق الموضوعـة عـلى المائـدة شيء ممتـع، تقريبـاً كـما يحـدث عندمـا يعطـي مخـرج لممثليـه أدواراً ليحفظوهـا عـن ظهـر قلـب، ثـم يجعلهـم يمثلـون شـيئاً آخـر، لكـن ليـس فقـط بـأن يغـيّروا في بعـض الدعابـات، لكـن بـأن يمثلـوا في فيلـم مختلـف تمامـاً، بسـينوغرافيا مختلفـة، وشـخصيات لم يروهـا قـط، ومشـاهد مُعـدة عشـوائيّاً. إذن، جويـا، بينـما كانـت تتخيـل اللحظـة، التـي سـيظهر فيهـا لـوكا مـن جديـد، كانـت تعـرف بالفعـل أن الأمـر سـيظل دائمـاً عـلى مسـتوى الخيـال، وأن لا شيء سـيكون مشـابهاً لذلـك الـذي تصورتـه في ذهنهـا.

إلا أن هـذه المرة، ولأول مـرة، اسـتطاعت جويـا أن تغتنـم الفرصـة، ليـس بطريقـة مطلقـة، لكـن حصلـت عـلى مـا تصورتـه، عـلى نصفـه عـلى الأقـل، الجـزء الثـاني.

كان الجـزء الأول مختلفـاً تمامـاً. (لـو) ممـدد عـلى الفـراش في تلـك الحجـرة الصغـيرة، عينـاه مغمضتـان، والغرفـة شـبه مظلمـة، وكانـت جويـا تقـف أمامـه، وفي أسـفل، كانـت تسـمع أصـوات جوفانـا والمُسـن؛ وذلـك التعبـير الهـادئ؛ وتلـك الابتسـامة المُسـالمة، وتحـاول جويـا أن تفهـم مـن القليـل الـذي يُسـمع مـن السـماعات إلى أي أغنيـة يسـتمع، وبـدا لهـا أنهـا شيء مـا تعرفـه، لكنهـا لم تعـرف مـاذا، إلا أنهـا مكثـت

ثابتـة، وهـي تكتـم تقريبـاً أنفاسـها، حتـى إن كانـت تتسـارع بطريقـة تلقائيـة.

وقفت دقيقتين تقريباً، ولم يحدث شيء.

إلا أنها في هاتـين الدقيقتـين فعلـت ذلـك، الـذي لم تكـن تصـدق أنها ستتمكن مـن عملـه - ربما لأنها لم تكـن تصـدق قـط أن (لـو) سـيكون هنـاك بالفعـل، في منـزل المالـك القديـم للبـار، عـلى بُعـد خطوتـين مـن حيـث رأتـه دائمـاً - وألا تفعـل أي شيء. ستنظر إليـه فحسـب، وتفكـر في هاتـين الشـفتين الكبيرتـين، والضحكـة التـي لم ترهـا منـذ قـرون - كانـت أسـابيع، لكنهـا كانـت قرونـاً - وفي كميـة مـن الانفعـالات المتراكمـة، التـي لا يمكـن ترجمتهـا وتشـعر بهـا كلهـا معـاً - ustsura ustsura؛ وهـي كلمـة تعنـي باليابانيـة «عندمـا لا يعلـم المـرء إذا كان نائمـاً أم مسـتيقظاً»؛ geborgenheit، التـي تعنـي بالألمانيـة «ذلـك الشـعور بالأمـان، الـذي يمنحـه لـك البقـاء بالقـرب مـن شـخص تحبـه»؛ gigil، التـي تعنـي بلغـة تجالـوج الفليبينيـة «الرغبـة في إيـذاء أحـد مـن شـدة الرغبـة في لمسـه أو خنقـه أو الشـعور بـه»، ومشـاعر أخـرى كثـيرة جـدّاً - وإذا بهـا تسـتمع مـن جديـد إلى الأغنيـة التـي تتعـالى مـن سـماعتيه، وفجـأة يبـدو لهـا أنهـا عرفتهـا، أجـل، هـي بالتحديـد؛ فهـي أغنيـة Breathe؛ الأغنيـة الثانيـة في ألبـوم The Dark Side of the Moon - هـو (لـو) هنـا أمامهـا ويسـتمع إلى البينـك فلويـد، وإذا كان يسـتمع إليهـم هـذا معنـاه أنـه يفكـر فيهـا - وعندمـا تعرفـت إليهـا، هـا هـو يفتـح عينيـه وينظـر إليهـا، وعندئـذٍ قفـزت هـي فوقـه، والآن أجـل، أخـيراً أوسـعته لكـماً، حـاول هـو الإمسـاك بهـا وأن يوقـف رسـغيها، لكنهـا اسـتمرت في ضربـه بقـوة أكـبر حتـى طـارت السـماعات أرضـاً، وحتـى آلمتـه بالفعـل، وشـعرت بـأن وجنتيـه تلامسـان وجنتيهـا، ودموعهـا تتسـاقط لأول مـرة في حياتهـا أمـام شـخص آخـر.

19

- كفى! يا (شيء)! توقفي!

كان الصوت المتكتم لـ(لو) يحاول بكل الطرق أن يوقف غضب جويا، التي انفجرت مرة واحدة، وبكل ما في داخلها من افتقاد، الذي يمكن فقط لمن فقد بالفعل شخصاً ما أن يتعرف إليه. وفي الغرفة شبه المعتمة، وعلى ذلك الفراش، وقد قضت أسابيع وأسابيع من دونه، بضحكات السخرية خلفها، وموظفي الشؤون الاجتماعية، وعبوات البيرة الفارغة التي يتركها أبواها في أنحاء المنزل، ليالي بلا نوم وعينيها تنظران إلى السقف وإلى كل مكان، إلى أعلى وإلى الأمام، إلى أسفل وإلى الداخل، والخوف من أنها لن تلمس أبداً مرة أخرى السعادة التي جربتها وفقدتها في اللحظة نفسها: كان كل شيء هناك، كان كل شيء في تلك الغرفة.

- سأشرح لكِ كل شيء، اتفقنا؟ قال لها هو من جديد، بينما يمسك بها بقوة، وبينما جزء من أغنية بينك فلويد يصل من السماعتين.

- هذا المساء، حسناً؟ هنا لا يمكننا التحدث. هذا المساء في البار. سأراكِ هناك، وسأخبركِ بكل شيء.

20

- من أين تريدينني أن أبدأ؟ من أول الحكاية؟

لم يكن من السهل عليها أن تحصل من والديها على إذن بالخروج، نظراً إلى البرد الشديد، الذي يأتي من كل مكان، ونظراً إلى أن الجميع مقتنع أن جويا لديها أكثر من صامولة في غير محلها في مخها.

كان الشيء الأكثر صعوبة هو أن تمتنع عن أن تقول للجميع إنها الآن تعرف أين (لو)، وإنها لديها الأدلة، وإن الآخرين هم

الذيـن لا يـرون مـا تـراه هـي، وليسـت هـي التـي تـرى أشـياء لا وجـود لهـا، إلا أنهـا لم تسـتطع ذلـك؛ فهـذا سر لا أحـد يعرفـه، ولا يجـب أن يعرفـه أحـد، والأسرار لا تُبـاح.

- ألا يمكن أن أطرح عليك أنا الأسئلة وأنت تجيبني؟ سألته جويا.

كانـا كالعـادة جالسـين أمـام مائدتهـما في البـار، في الجـزء القريـب مـن الشرفـة الـذي لا يمكـن أن يـراه أحـد، وفـوق المائـدة كانـت توجـد حقيبـة جويـا، والمرطبـان المـليء بالحجـارة الخـاص بـ(لـو). منـذ بضعـة أيـام، تغـيرت السـاعة؛ ولذلـك غربـت الشـمس منـذ قليـل، ولا يـزال يوجـد أنـاس في الطريـق.

قـال هـو، وهـو يمـد لهـا يديـه: لنذهـب يـا (شيء)، لنذهـب إلى الكنيسـة الصغـيرة؛ حيـث يمكـن أن نمكـث في هـدوء أكـثر. وبيـده شـدها إلى أعـلى، إلا أنـه شـدها بقـوة فاصطدمـت بـه، واقتربـت منـه جـدّاً. أخـذ ينظـر إليهـا وهـي تنظـر إليـه. كان بينهـما سـنتيمتر واحـد، وربمـا أقـل.

قال لها: مر وقت طويل على تلك المرة.

- سـبعة وعـشرون يومـاً، وثـلاث سـاعات وخمـس عـشرة دقيقـة، وثلاثـون ثانيـة. فكـرت هـي، ثـم أجابـت: أجـل، بعـض الوقـت.

وقفـا سـاكنين بعـض الوقـت هنـاك، ثـم هـي، عندمـا لم تعـد تتحمـل، وكان كل مـا تتمنـاه هـو ألا يضيـع الوقـت الـذي فصلهـما عـن تلـك المـرة الأخـيرة التـي تبـادلا فيهـا القبـلات، وألا يضيـع وقـت أكـثر مـن تلـك الأيـام السـبعة والعشريـن والسـاعات الثـلاث والدقائـق الخمـس عـشرة والثـواني الثلاثـين، قالـت لـه: لنذهـب؟

21

وفي الكنيسـة الصغـيرة، كان العشـب قـد قُطـع تـوّاً، وكانـت هنـاك رائحـة منعشـة، والأحـواض مليئـة بالزهـور، التـي كانـت بينهـا زهـور

مارجريـت كبـيرة. وعندمـا مـرا بجوارهـا، انحنـى (لـو) كأنـه عـلى وشـك أن يقطفهـا، ثـم تركهـا وابتسـم.

- من واحد إلى عشرة، إلى أي حد أنتِ غاضبة يا (شيء)؟

- حسـناً، الآن فقـط مليـون، لكـن هنـاك لحظـات لم تكـن هنـاك أرقـام في الوجـود يمكـن أن تصـف درجـة غضبـي. أجابتـه بينما يجلسـان معـاً عـلى الأرض، ويديـران ظهريهـما إلى الجـدار، كالمعتـاد. شيء غريـب، لكـن كل الغضـب، وكل تلـك الرغبـة في أن تجعلـه يدفـع ثمـن مـا فعلـه، أو عـلى الأقـل أن تعبـس بعـض الـشيء في وجهـه، وهـو مـا، اللعنـة! مـن حقهـا أن تفعلـه، تبـدو جميعهـا تبخـرت في الهـواء في اللحظـة، التـي عـادا فيهـا ليجلسـا هنـاك؛ لتـترك في مكانهـا فقـط رغبتهـا في أن تكـون معـه كـما كانـت، ينطلقـان في حماقاتهـما، ويضحـكان ويتحدثـان ويقبِّـل أحدهـما الآخـر، وأن يكونـا (لـو) و(جويـا) مـن جديد، كأن شـيئاً لم يحـدث. سـبعة وعـشرون يومـاً تبـدو كأنهـا دقيقـة مضـت، حتـى إن كانـت كل دقيقـة مـن تلـك الأيـام السـبعة والعشرين اسـتمرت دهـوراً.

قال هو: لكن هناك مشكلة صغيرة.

- ما هي؟

- إننـي لا أعـرف إذا كنـتِ سـتصدقينني؛ لأنـه في العـادة لا تحـدث هـذه الأشـياء. أقصـد أنهـا لا تحـدث فعـلاً.

- وهل أنت شبح؟

لحقهـا (لـو) بضربـة عـلى جنبها كأنـه يقـول «لا تنطقـي بحماقات»، ثـم قـال: هـل يبـدو لـكِ أن الأشـباح يمكنهـا أن تفعـل مـا فعلنـاه نحـن على السـطح؟

- لا، لا أعتقـد هـذا طبعـاً، حتـى إن كنـت لا أمانـع أن أكـرر هـذا مـع شـبح لـورد بايـرون.

- من؟

- شاعر من القرن التاسع عشر.

- كان وسيماً؟

- لا تقـل لي إنـك تشـعر بالغـيرة مـن شـخص ميـت، ثـم دُفـن في اليونـان تقريبـاً مـن مائتـي عـام!

- هل أنتِ غبية؟

- لا، أنا جويا.

نظـر إليهـا نظـرة سـيئة جـدّاً؛ تلـك النظـرة التـي تعنـي في اللغـة العالميـة مـا معنـاه: يـا لهـا مـن نكتـة سـخيفة.

- تقنيّاً، كانت تلك نكتة Jayus.

- كانت ماذا؟

- jayus، كلمـة بالإندونيسـية تعنـي أنهـا مضحكـة؛ لأنهـا سـيئة جـدّاً إلى حـد أن تُضحـك. قالـت لـه جويـا.

- إذن، كان وسيماً ذلك الشاعر، شاعر القرن التاسع عشر؟

- لا، لكن كانت له جاذبيته.

- آه، إذن مثلي، لكن من دون الوسامة.

- أجل، لنقُل مثلك، لكن جذاباً.

تمتـم، ثـم نظـر إليهـا متظاهـراً بالابتسـام. وابتسـمت هـي لـه، ثـم قالـت: متـى سـتبدأ في أن تحـكي لي كل شيء؟

- في رأيك، لماذا أتحدث معكِ في أشياء أخرى منذ نصف ساعة؟

- أنـت تعـرف أننـا لا يمكننـا أن نتكلـم في تفاهـات إلى الأبـد، أليـس كذلك؟

- إذا أردتِ ذلك، أجل.

- أجـل، لكـن إذا فعلـت ذلـك لمـدة أطـول سـتخاطر بشـحنة أخـرى مـن اللكـمات.

- بالمناسبة، لقد آلمتِني في تلك المرة، أتعرفين هذا؟

- (لو)؟
- أعتقد أنني أصبت بكدمات هنا.
- (لو)؟
- ماذا تفعلين، ملاكمة تايلاندية؟ مصارعة يونانية - رومانية؟
- (لو)؟
- قولي لي.
- احكِ لي ما حدث، حالاً!

تنهد وهو يضم شفتيه وينظر إلى جويا، لكن ليس إلى عينيها، ربما كانت نظرته إلى وجنتيها.

- حسناً، لكن قبل أي شيء يجب أن تعديني بشيء. بل بشيئين. قال لها.
- لنسمع.
- أنا سأتحدث، وأنتِ ستصمتين.
- ما نوع الوعد الغبي هذا؟
- لا تسأليني أي سؤال، ولا تقاطعيني حتى النهاية، ثم اسأليني عن كل ما ترغبين فيه، لكن أولاً اتركيني لأحكي كل شيء.

كانت جويا تريد أن تقول له إن هذا لا يمكن، وإنها لا يعجبها ما يطلبه على الإطلاق، وإنه سيكون تقريباً من المستحيل أن تمتنع عن الكلام، لكن رغبتها في المعرفة كانت أقوى بكثير، عندئذٍ قالت له فقط: حسناً. والشرط الثاني؟

- الشرط الثاني مفروغ منه.
- لا يجب أن أقول هذا لأحد.
- تماماً، لكن هذا أمر غاية في الجدية؛ لأنني أعرف بالفعل أنكِ سترغبين في أن تفعلي هذا. ربما لمصلحتي، ولمساعدتي. سيخطر في بالك أن تذهبي لتتحدثي في هذا مع أحد؛ ولهذا يجب أن تعديني.

- لقد فعلت هذا.
- لا، لا بد أن تقولي هذا، بفمك الجميل هذا.
- أقول ماذا؟
- قولي: لن أقول، على الإطلاق، أي شيء، لأي شخص.
- هذا أمر غبي، لكنك تعلم أنني...
- قولي هذا!
- أوكي.
- أحسنتِ.
- لن أقول...
- هيا.
- على الإطلاق، أي شيء، لأحد.
- شكراً يا (شيء).

22

مرت طائرة فوق رأسيهما، وتابعت أعينهما أضواءها.
- عندما كنت صغيراً، كنا نلعب أنا وأمي لعبة. بدأ (لو).
- ما دخل هذا، الآن؟ سألته جويا.
- إيه، ألم نقل لا أسئلة؟ التفت ونظر إليها بغضب شديد.
- أنت تتذكر أنني فتاة، أليس كذلك؟
- أجل، لكنكِ وعدتِ.
- آسفة. ثم جلست في وضع مريح، كانت تعلم بالفعل أنه سيكون من الصعب عليها الالتزام به.
- كنت أقول، كنا نلعب هذه اللعبة، بينما كانت هي تستعد للخروج وأنا في الحمام معها، كنا نرسم على المرآة. أنتِ تعلمين، فبعد الحمام يتراكم البخار على سطح المرآة، وهكذا كنا نحن

الاثنين نرسم منازل، وسيارات، وكرات... وتخيلي، هكذا علمتني أن أكتب. كانت هي تكتب الحرف على المرآة، وكنت أنا لا بد أن أنقله، ثم كنا نقرؤه معاً. ربما بدأ كل شيء عندما أدركت أنني كنت دائماً أقضي كثيراً من الوقت مع أمي، وإذا كان يجب أن أفكر في الذكريات السعيدة، لم تكن هناك واحدة، ولا حتى نصف واحدة، كان هو أيضاً موجوداً فيها.

صمت. كانت جويا تعض لسانها في فمها.

- الشيء الجميل أن هذا حدث فجأة؛ أي بسرعة شديدة جدّاً. قبل ذلك بفترة، كان يبدو لي أن كل شيء على ما يرام، ثم فجأة «بوم»! لم يعودا يتصافحان حتى، وتوقفت هي حتى عن الابتسام، وكنت أنا ألعب في غرفتي بما يخصني.

كانت جويا تريد أن تطرح عليه سؤالاً غبيّاً بسيطاً: كم كان عمرك؟ لكنها لم تستطع، وعندئذٍ اكتفت بتمني أن يكون هو لطيفاً ويقول لها هذا قبل أن تصاب بأزمة عصبية.

- وكنا نسكن في ذلك المسكن الكبير جدّاً، وفجأة أصبح ذلك المنزل فارغاً؛ حيث كل صوت فيه يتسبب في صدى يثير الجنون، وكانا هما يتجنب أحدهما الآخر، أمر سهل التنفيذ في منزل كهذا، وكنت أنا أشعر أنه هو السبب، هل تفهمين؟ أنه شيء فعله هو.

لم تستطع جويا أن تتحمل. يمكن أن تموت إذا لم يقل لها كم كان عمره في تلك الفترة. وهكذا ضربت بقوة على فمها بيد، وباليد الأخرى أمسكت بذراعه، كأنها تقول له: «اصمت للحظة»، ثم أخذت قلمها ومفكرتها من الحقيبة، وكتبت: كم كان عمرك؟

- آه، آسف، معكِ حق، اثني عشر، كان عمري اثني عشر عاماً.

ابتسمت جويا، وتنفست، كأنها كتمت أنفاسها، وقالت له بعينيها: شكراً.

- لكـن كنـت أعـرف أنـه كان يريـدني مثلـه تماماً، إلا أننـي في الوقـت نفسـه كنـت مختلفـاً تمامـاً، وكان هـو يُفهمنـي أن هـذا الأمـر لا يعجبـه... ثـم أنـا، كـرد فعـل، وأعلـم أنني أخطـأت، بـدأت أقـوم متعمـداً بـكل مـا يخالفـه، بـأن أفعـل عكـس مـا كان يتوقعـه منـي، ومـا كان يتمنـاه؛ فهـو كان يحـب كـرة القـدم كثـيراً والرياضـات الجماعيـة، أمـا بالنسـبة إليَّ، فكانـت أقصى رياضـة هـي رمـي الأسـهم، كان هـو يفكـر فقـط في النقـود والعمـل، وأنـا أفكـر فقـط في سـماع الموسـيقى والجلـوس وحـدي... وهكـذا، بعـد أن كانـت علاقتنـا في البدايـة ليسـت مثاليـة، لنتخيـل كيـف أصبحـت بعـد هـذا. بـدأ معـي نوعـاً مـن العـذاب، عـذاب الصمـت... لم يكـن يقـول لي سـوى «أهـلاً»، وأحيانـاً ولا حتـى ذلـك.

كانـت جويـا تحـاول أن تتخيـل المشـهد؛ ذلـك الصمـت طويـل المـدى؛ تلـك «الضوضـاء، الخاليـة مـن الكلـمات»، وفي ذلـك المنـزل المتسـع.

- كنـت وقتهـا صغـيراً، ولم يكـن في إمـكاني أن أفهـم بعـض الأشـياء. أقصـد أنني كنـت أيضـاً أفهمهـا، إلا أننـي لم أكـن أدرك أنني أفهمهـا. في نهايـة الأمـر، قبـل المراهقـة، كنـت قـد فكـرت فقـط أنـه منفصـل عنـا بعـض الـشيء، ولا شيء أكـثر مـن ذلـك... كنـت أعيـد التفكـير في كيـف كان يأخـذني معـه بعـض الآحـاد إلى هنـاك، إلى القريـة الأشـباح... في الأيـام، التـي كانـت البحـيرة فيهـا جافـة، كنـا نذهـب أنـا وهـو لـنرى القريـة، التـي تظهـر مـن جديـد في عمـق الـوادي، وكنـت أسـأل نفسي كيـف توقـف فجـأة عـن أن يفعـل ذلـك، لمـاذا لم يعـد يأخـذني إلى هنـاك، وفي الوقـت نفسـه، كان يمكـث كثـيراً بعيـداً عـن المنـزل، في البدايـة لأيـام، ثـم لأسـابيع، كان يختفـي، ولم أعـد أراه، وعندئـذٍ في النهايـة بـدأت أفهـم أنـه عـلى وشـك أن يتركنـا، وبـدأت أفعـل تلـك

الأشـياء التـي تسـببت في رسـوبي كل تلـك المـرات.

كانـت جويـا عـلى وشـك أن تتكلـم، لكنهـا عضـت لسـانها عـلى الفـور. المفكـرة والقلـم. كتبـت:

- كل تلك المرات... كم مرة؟

- تلك الأشياء... أي أشياء؟

- لـن تصدقـي، لكـن... مرتـين، مـرة في الصـف الثـاني الإعـدادي، ومـرة في الثالـث. واقـع أننـي لم أكـن أسـتطيع التركيـز... كنـت أحـاول بالفعـل، لكـن لم يكـن هنـاك شيء يثبـت في رأسي، كأن كل شيء يغطيـه الضبـاب، هـل تفهمـين؟ كانـت هنـاك أيضـاً لحظـة فكـرت فيهـا أننـي غبـي، وأنهـا مشـكلتي. ثـم لـنرَ... السـؤال الثـاني.. آه: كنـت أجيـب بطريقـة سـيئة عـلى المدرسـين، أحطـم الأشـياء، لكـن ليـس لأجـذب الانتبـاه، أتعرفـين؟ كان شـيئاً لا يهمنـي، بالعكـس، لم أكـن أرغـب في شيء سـوى أن يتركـوني وحـدي قليـلاً، بعيـداً... ولم تكـن أيضـاً نـزوات صبـي مدلـل كـما كان الجميـع يقـول... إننـي كنـت أفعـل ذلـك بالفعـل بدافـع الغضـب؛ لأنهـا كانـت الطريقـة الوحيـدة، التـي أفـرغ فيهـا واقـع أننـي أشـعر بغبـائي، شـخص عاجـز.

قاومـت جويـا رغبتهـا في إيقافـه وسـؤاله عـن أشـياء أخـرى، حتـى إن كانـت قـد تراكمـت في داخلهـا بالفعـل المئـات منهـا.

- وهكـذا، أخـذ أبي بالتدريـج يبتعـد، أخـذ يغيـب أكـثر عـن المنـزل، وفي غيابـه، كانـت أمـي تسـتغل الفرصـة لتقـول لي كـم الأشـياء السـيئة التـي فعلهـا أيضـاً لهـا، وكيـف أن كل مـا يحـدث خطـؤه، إذا كانـا سـيتركان بعضهـما، وإذا لم تعـد هـي قـادرة عـلى الابتسـام. وبعـد ذلـك في فـترات عودتـه إلى المنـزل، كان عـذاب الصمـت يبـدأ، وكنـت أنـا أرتكـب أشـياء أسـوأ، وأتحـول مـع الوقـت إلى ذلـك الصبـي الإشـكالي، حتـى ذلـك اليـوم الـذي أفهمنـي فيـه أحدهـم بطريقـة حاسـمة أننـي

علـى حـق، وأن أبي كان شـخصاً خطـيراً.

- خطير؟ قالت جويا وهي تتشبث بمفكرتها بقوة.

- أعلـم، قلـت لـكِ إنهـا سـتكون قصـة لا يمكـن تصديقهـا، لكـن يجـب أن تسـمعيني حتـى النهايـة.

أومـأت جويـا بالإيجـاب دون أن تتفـوه بكلمـة، إلا أنهـا الآن شـعرت ببعـض الخـوف مـن ذلـك الرجـل الـذي يبحـث عنهـا منـذ أسـبوعين.

- كان أبي متغيبـاً منـذ فـترة، وفي يـوم أخذتنـي أمي معها، وأجلسـتني في الصالـون، وأعلنـت لي أنهـا لا بـد أن تخـبرني أمـراً مهـمّاً. فكـرت أنهـا عـلى وشـك أن تخـبرني بالخـبر الرسـمي للطـلاق. وحتـى تلـك اللحظـة، كانـت تقـول لي رأيهـا فيـه، ولم تفقـد قـط توازنهـا إلى هـذه الدرجـة... وبصراحـة، شـعرت بأننـي مرتـاح بالفعـل؛ لأننـي كنـت أتمنـى السـاعة التـي سـينفصلان فيهـا، فلـم أعـد أحتمـل ذلـك الوضـع، إلا أن أمـي قالـت لي شـيئاً لم أكـن أتوقعـه إطلاقـاً.

مـرت طائـرة أخـرى فوقهـما، إلا أنهـا كانـت أقـرب، هكـذا غطـى هديرهـا تمامـاً عـلى صـوت (لـو).

صرخـت جويـا، بينـما كانـت الطائـرة تمـر فوقهـما: مـاذا قلـت؟ لم أفهـم؟

انتظـر (لـو) ابتعـاد الطائـرة بالدرجـة الكافيـة، ثـم كـرر، ببـطء أكثر، وبوضـوح أكـثر مـن المـرة الأولى: قلـت إن أمـي، في ذلـك اليـوم، أعلنـت لي أن أبي لم يكـن هـو أبي الحقيقـي.

- كان يداخلنـي شـك في هـذا الأمـر؛ أي، في الحقيقـة، لا يوجـد في العـالم شـخص أكـثر اختلافـاً عنـي مـن أبي؛ فنحـن لا نتشـابه في أي شيء. لم يكـن الأمـر يتعلـق فقـط بتشـابه الملامـح، لكـن بـكل شيء آخـر. لم أتمكـن مـن تخيـل نقيضـين أكـثر منـي أنـا وهـو.

نظرت إليه جويا في أسى واندهاش في الوقت نفسه، وفمها نصف مفتوح.

- ماذا حدث؟ لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟

- هيـا، هيـا أكمـل! ثـم مـاذا؟ مـاذا يعنـي أنـه ليـس أبـاك؟ ومـن كان أبـوك؟

ابتسم (لو)، وأمسك بحجر في يده، وألقى به بعيداً:

- كانـت أمـي عـلى وشـك أن تقـول لي، ثـم بينـما نتحـدث عـاد هـو. عـاد وبـدأ في الشـجار والـصراخ... أرسـلاني إلى حجـرتي، وكنـت أنـا مـن فـوق أسـمع صراخهـما وأرفـع مـن صـوت الموسـيقى، إلا أننـي كنـت أشـعر بالسـعادة في داخـلي؛ لأن... أتفهمـين؟ لأننـي لم أكـن ابنـه، شيء غريـب، كان لا بـد أن أشـعر بالحـزن والإحبـاط، إلا أننـي كنـت أكـثر إنسـان يشـعر بالسـعادةً عـلى وجـه الأرض؛ لأن لـديَّ الدليـل عـلى أننـي لا شـأن لي بـه!

- ثم ماذا؟ ماذا حدث؟ هل عرفت عندئذٍ مَن أبوك الحقيقي؟

- عندمـا انتهيـا مـن الشـجار، سـاد الصمـت مـن جديـد، لكـن هـذه المـرة كان أكـثر ثقـلاً. كنـت أفكـر أنـه الآن فهـم أننـي عرفـت، وأنـه سـيمنعها مـن أن تقـول لي مـن هـو أبي الحقيقـي، وهكـذا، عندمـا أوجـد معهـا، كان هـو أيضـاً يوجـد بالقـرب منـا، وكنـت أرى أنهـا تريـد أن تنتهـي مـن حكايـة كل شيء، لكنهـا لا تسـتطيع، وهكـذا كانـت تتظاهـر، وتتحدث معـي عـن تفاهـات، وكنـت أنـا أريـد فقـط أن أعـرف مـا هـذه القصـة و...

بـدأت كلـمات (لـو) ترتبـك، وصوتـه ينخفـض، كأنهـا تنحـشر في حنجرتـه. قرَّبـت جويـا يدهـا مـن يـده ببـطء، غـير واثقـة إذا كان يمكنهـا هـذا أم لا، لكنهـا في النهايـة أمسـكت بهـا، وضغطـت عليهـا، غـير عابئـة بـرد فعلـه السـيئ، فسـألها هـو: هـل تصدقيننـي يـا جويـا؟

لم تفكر جويا لنصف ثانية وأجابت: أجل.

- وهكـذا في صبـاح اليـوم التـالي، أتذكـر جيـداً لأنني كنت قـد بلغت الخامسـة عـشرة، وبـدأت تظهـر بعـض الشـعيرات في وجهـي، وكنـت

أريـد أن أحلـق مثـل الكبـار، وأن أسـتخدم معجـون الحلاقـة والشـفرة، وكل شيء. بـدأت المياه السـاخنة تتدفـق، وبـدأ معهـا بالتدريـج البخـار يغطـي المـرآة، ورأيـت بعـض الحـروف تظهـر، وكانـت هـذه الحـروف تشـكل كلمـة...

- كلمة؟

- لوكا. كانت الحروف تشكل معاً كلمة لوكا.

- لكن لوكا... لوكا هو اسمك، أليس كذلك؟ سألته جويا.

- أجـل لـوكا هـو اسـمي يـا (شيء). هـل تريديـن أن تشـعريني بالضيـق أكـثر لأننـي أعطيتـك اسـماً مختلفـاً؟

- لا، إنني...

- عـلى كل حـال، قـرأت (لـوكا) عـلى المـرآة، وفهمـت عـلى الفـور مـن كان، وشـعرت بـأن أمـي اضطـرت إلى أن تفعـل ذلـك؛ لأنهـا لم تكـن ترغـب في أن يعـرف أبي أنهـا قالـت لي... وهكـذا قـررت أن أمسـح المكتـوب، وأن أكتـب أنـا شـيئاً عـلى المـرآة، هـذه المـرة، لأفهـم مـاذا، بحـق السـماء، تريـد أن تقـول لي.

- وماذا كتبت؟

- علامـة اسـتفهام. فقـط علامـة اسـتفهام. وفي اليـوم التـالي، ظهـر مـن جديـد اسـمي، لكـن هـذه المـرة تسـبقه كلـمات أخـرى.

- ماذا؟ أي كلمات؟

- «كان يُدعـى». عـلى المـرآة في اليـوم التـالي كُتـب: «كان يُدعـى لـوكا».

في الأيـام التاليـة، كنـا أنـا وأمـي نتصرف بشـكل طبيعـي جـدّاً أمامه، ونتحـدث عـن الأشـياء العاديـة والمدرسـة، لكـن في الوقـت نفسـه، كنـا بدأنـا نتحـدث بصـوت خفيـض، في حجـرتي أو في أي مـكان آخـر. كنـت أنـا أطـرح عليهـا الأسـئلة وهـي تجيبنـي. وحكـت لي كل شيء. قالـت

لي إن أبي الحقيقـي كان فتاهـا قبـل أن تتـزوج، وإنـه مـات في حـادث، ثـم تعرفـت إليـه هـو، ذلـك الـذي يعتقـد الجميـع أنـه أبي، وأنـه وافـق عـلى الـزواج بهـا عـلى الرغـم مـن معرفتـه أنهـا حبـلى مـن آخـر.

- وأنت؟ بماذا شعرت، بعد أن اكتشفت كل تلك الأشياء؟

- لا أعـرف فعـلاً بمـا كنـت أشـعر... بالتأكيـد شـعرت بـالألم، لكـن في الوقـت نفسـه... أتعرفـين؟ واقـع أننـي كنـت أشـعر دائمـاً بأننـي لا أعجـب أبي، وفكـرة شـعوري بأننـي مختلـف كثـيراً عنـه... أصبـح كل شيء لـه معنـى، هـل تفهمـين؟

أومـأت جويـا بالإيجـاب برأسـها، ولوهلـة تمنـت لـو اسـتطاعت أن تعـود بالزمـن، وأن تكـون معـه هنـاك، وأن تكـون عرفتـه وقتهـا، في تلـك الفـترة؛ لتتمكـن مـن مساعدته؛ لتفعـل شـيئاً مـا، حتـى إن كانـت تعـرف حـق المعرفـة أنـه في تلـك الأمـور ليـس أمـام المـرء كثـير يمكـن عملـه.

- المشـكلة كانـت أننـي لم أكـن حتـى أسـتطيع أن أتخيـل إلى أي مـدى يمكـن لهـذا الرجـل أن يكـون مجرمـاً... عـلى الرغـم مـن إدراكي لذلـك، لكننـي لم أكـن أعـرف، إلى أي مـدى، لكـن سرعـان مـا اكتشـفت هـذا و... انتظـري!

- أنتظر ماذا؟

- لا بـد في البدايـة أن أطـرح عليـكِ سـؤالاً مهـمّاً. قـال لهـا هـذا وأمسـك بيدهـا.

- كل الأسئلة التي تريدها.

- لا، هو سؤال واحد فقط. هل تصدقينني حتى الآن؟

في الواقـع، عـلى الرغـم مـن أن ذلـك، الـذي يحكيـه لهـا (لـو)، بعيـد تمـام البُعـد عـن الواقـع، ربمـا يميـل أكـثر إلى كونـه شـيئاً مـن الخيـال العلمـي، فإنـه يحكيـه بشـكل واثـق ومـليء بالتفاصيـل، فلـم تسـتطع

جويـا ألا تصدقــه؛ فهــو لم تكــن لديــه لحظــة تــردد، دقيــق ومتقــد الذهــن وهــو يتكلــم، عــلى الرغــم مــن أن مــا يصفــه لهــا يشــبه بطريقــة أو بأخــرى فيلــماً.

- أجل، بالتأكيد، أص...

- لا؛ لأنــه إذا كان ذلــك الــذي قلتــه لــكِ حتــى الآن يبــدو لــكِ غريبــاً بعــض الــشيء، أؤكــد لــكِ أن مــا أنــا عــلى وشــك أن أقولــه أكــثر غرابــة.

- أنا مستعدة.

- كانــت أمــي منــذ بضعــة أيــام غريبــة الأطــوار... أغــرب مــن المعتــاد، أقصــد. وكان لا يــزال لــديَّ عــدد مــن الأســئلة، التــي أرغــب في طرحهــا عليهــا، وكنــت أنتظــر بتوتــر كل لحظــة يمكننــي فيهــا أن أوجــد بمفــردي معهــا، إلا أنــه كان يبــدو أنــه لا توجــد أي فرصــة. وهكــذا، بعــد فــترة، لم تكــن تقــول لي فيهــا شــيئاً، قــررت أن أســتخدم مــرة أخــرى المــرآة، وكتبــت لهــا: «مــاذا إذن؟»، تمامــاً مثــل المــرات الأولى، وفي اليــوم التــالي، بعــد أن تصاعــد البخــار، وجــدت شــيئاً لم أكــن لأتوقعــه حتــى مــن خــلال أفــكاري الأكــثر جنونــاً. كان مكتوبــاً أنــه...

تجمــد لــوكا، وبــدأ يرتعــش مــن الخــوف؛ خــوف حقيقــي، وفي الوقــت نفســه مــن الغضــب، ويضغــط عــلى أســنانه، ولم تكــن لــدى جويــا الشــجاعة لتقــول أي شيء، لم يكــن أمامهــا ســوى انتظــار أن ينتهــي مــن عبارتــه.

ثــم بعــد فــترة ليســت بقصــيرة، عــاد (لــو) ليكمــل بمفــرده: كان مكتوبــاً أنــه يريــد أن يؤذينــي.

- وهنــا كان رد فعــلي ســيئاً بالفعــل، أســوأ رد فعــل حتــى تلــك اللحظــة، أمســكت بحاملــة الصابــون المصنوعــة مــن الســيراميك الموضوعــة بجــوار الحــوض، وقذفتهــا عــلى المــرآة وحطمتهــا تمامــاً، هــي والعبــارة المقــززة المكتوبــة فوقهــا: «يريــد أن يؤذيــك»، دمرتهــا تمامــاً،

وسـقط كثـير مـن شـظاياها فوقـي، وأنـا في أثنـاء محاولتـي نزعهـا جرحـت نفسي، ووصلـت سيارة الإسـعاف. هـل تفهمـين؟ الإسـعاف في منـزلي، وأنـا كنـت وقتهـا فقـدت القـدرة عـلى السـيطرة وأخـذت أصرخ بأشـياء كثـيرة، ولا أعـرف حتـى مـا الـذي قلتـه في تلـك اللحظـات، أعرف فقـط أنـه منـذ تلـك اللحظـة ازدادت الأمـور قسـوة؛ لأن الجميـع كان يفكـر في أننـي مجنـون، وأننـي كنـت أقـول إن أبي خطـير، وإنـه يريـد أن يؤذينـي، ولم يكـن أحـد يصدقنـي، وهـو شيء بشـع عندمـا تعرفـين أنـكِ الوحيـدة التـي تعرفـين الحقيقـة ولا أحـد يصدقـك.

لم تكـن جويـا بحاجـة إلى أن تقـول أي شيء، نظـرت إليـه فقـط لتُفهمـه أنهـا تعـرف بالتحديـد عـما يتحـدث.

- أليست لديكِ كلمة عجيبة من كلماتك لهذا الأمر؟

- كلمة لنقول ماذا؟

- لهذا الأمر، إنك الوحيد الذي تعرف الحقيقة ولا أحد يصدقك.

- كلمـة لا، لكـن كانـت هنـاك تلـك الشـخصية في هومـيروس، لا أعـرف إذا كنـت درسـتها في المدرسـة، كاسـاندرا.

- لا، ومن هي؟

- كانـت عرافـة، إلا أنهـم لعنوهـا؛ لهـذا كان محكومـاً عليهـا أن تتنبـأ بالحقيقـة وألا يصدقهـا أحـد إطلاقـاً.

- بالضبط، تماماً مثلي.

- لكـن لمـاذا، هـل حـدث هـذا بالفعـل؟ هـل حـاول بالفعـل أن يؤذيـك؟

تنفـس (لـو) نفسـاً عميقـاً، ثـم أجـاب، ليـس بصوتـه، لكـن بعينيـه ورأسـه، وقـال «أجـل».

- إذا كنـت قـد أفلحـتِ في العثـور عـليَّ؛ فهـذا بالتأكيـد لأنـكِ اسـتعلمتِ عـن بعـض الأشـياء، أليـس كذلـك؟ وإذا كنتِ قد اسـتعلمتِ؛

فأنتِ بالتأكيد قد قرأتِ على صفحات الجرائد أنني قبل أن أختفي ببضعة أشهر كنت قد حاولت... أن أنهي حياتي، أم لا؟

- أجل، في الواقع قرأت هذا.

- قبلها منذ فترة طويلة كان يراودني الحلم نفسه في كل ليلة... هو يتبعني في المنزل في الليل، كان يلاحقني وأنا أهرب منه، فقط في الحلم لم أكن أستطيع مطلقاً أن أخرج من المنزل... كنت أصل إلى الشرفة التي لدينا في الطابق الأول، وأحاول أن أفتح بابها، لكن لا أنجح، وهو يلحق بي، ثم كنت أستيقظ دائماً. كنت أعتقد أنها كوابيس طبيعية جداً، أتعرفين... بشعة، لكنها ليست سوى كوابيس، إلا أنه في ذلك اليوم...

من جديد، تحشرج الصوت في حنجرته.

مكثت جويا هناك، بفم نصف مفتوح وحلق جاف.

- في ذلك اليوم، كنا بمفردنا في المنزل أنا وهو، بعد الظهيرة، وبدأ هو يتحدث معي، بعد قرن تقريباً، بدأ يقول لي أشياء عن أمي؛ أشياء غير مستحبة، وهكذا تصرفت بطريقة سيئة، وقلت له أن يخرس، وربما أيضاً ارتفع صوتي بعض الشيء؛ وهو الأمر الذي دفعه إلى أن يصفعني صفعة قوية جداً، وسقطت أرضاً... نظرت إليه في عينيه، وكان وجهه غاضباً وكان يشبه، يشبه تماماً، في كل شيء، ذلك الذي في الحلم... وعلى الرغم من الصفعة، وأنني كنت على الأرض، إلا أنه استمر في أن يقول لي كل شيء، وكان واضحاً جداً أنه خرج عن صوابه، وهكذا نهضت وحاولت الابتعاد لأذهب إلى غرفتي، إلا أنه جاء خلفي، وأخذ يصرخ: «تعالَ هنا»، وأخذت أنا أجري مبتعداً.

- لكن... على صفحات الجرائد كان مكتوباً أنك...

- أعرف ما كان مكتوباً، أنني حاولت بالفعل الانتحار، لكن

في الواقـع سـار الأمـر بطريقـة مختلفـة؛ فـما حـدث أنـه تبعنـي إلى أعـلى، وعندئـذٍ مثلـما حـدث في الحلـم، أخـذت أجـري وذهبـت نحـو الشرفـة، لا أعـرف لماذا فعلـت ذلـك... في الحلـم لم يكـن البـاب اللعـين يُفتـح عـلى الإطـلاق، إلا أننـي ذهبـت إلى هنـاك، لكـن في هـذه المـرة فُتـح البـاب، وخرجـت، وأتى هـو خلفـي، وعندئـذٍ اسـتدرت... ثـم لا أتذكـر أي شيء، سـوى أننـي اسـتيقظت في المستشـفى، في الليـل، وكتفـي مكسـورة ورأسي مُضمـد.

وكانـت جويـا لا تـزال هنـاك، بفمهـا نصـف المفتـوح، ولم تسـتطع سـوى أن تقـول: لكـن، إذن...

- إذن كان هـو. كان هـو مـن أسـقطني إلى أسـفل. ربمـا لم يفعـل ذلـك قصـداً، لا أعـرف، لكنـه كان هـو، يـا جويـا، لم أكـن أنـا! فقـط خـرج هـو منهـا بسـهولة نظـراً إلى كل المشـاكل التـي ارتكبتهـا قبلهـا، واسـتطاع أن يقنـع الجميـع أننـي ألقيـت بنفـسي.

الآن، لم تعـد جويـا تعـرف مـاذا يمكنهـا أن تقـول. الـشيء الوحيـد الـذي أرادت ربمـا أن تعـترف بـه، أجـل، في العـالم يوجـد أحـد لـه أب أسـوأ بعـض الـشيء مـن أبيهـا؛ فأبوهـا لم يفعـل شـيئاً سـوى أنـه صفعهـا بعـض المـرات، وأصابهـا بجـرح أسـفل أذنهـا، لكنـه لم يحـاول قـط أن يقتلهـا ويحـول كل شيء إلى محاولـة انتحـار.

- هـل فهمـتِ الآن لماذا كنـت أتـصرف بطريقـة سـيئة جـدّاً عندمـا كنـا نقـترب مـن هـذا الموضـوع؟

23

مـر الوقـت دون أن يـدركا ذلـك. بـدأت سـحب صغـيرة عـلى اسـتحياء في التجـوال في السـماء، بـين أشـعة القمـر الـذي يظهـر بالـكاد فـوق الجبـال.

كان لدى جويا على الأقل مليون سؤال لتسأله له، لكن اقتربت الساعة من الحادية عشرة، وتعرف أنه لم يعد هناك متسع من الوقت.

كانت تريد أن تسأله، بالأخص، ماذا يدور في ذهنه، الآن، وإذا كان يفكر في أنه سيستطيع المكوث مختبئاً لدى المسن لوقت أطول، أو إذا كانت لديه أي فكرة أخرى، ثم كانت تريد أن تعرف منه عنه؛ عن المسن، ولماذا هو بالتحديد، ثم تريد أن تسأله ماذا عليها هي أن تفعل، كيف يجب عليها أن تتحرك، أيضاً لأنه منذ أسبوعين وأبوه - أو ذلك الشخص الذي يعتقد الجميع أنه أبوه - يبحث عنها؛ لأنها أخطأت وذهبت إلى منزله وقالت لأمه عن الكنزة. كل هذه الأشياء كانت تريد أن تسأله عنها، إلا أن ما حدث هو أنها أسندت رأسها إلى كتفه، ومكثت هناك، دون أن تقول أي شيء.

قال لها: أتمنى جدّاً أن تصدقيني.

قالت هي: أصدقك بالتأكيد.

بالتأكيد تصدقه. لقد رأت نظرة أبيه، ولم تعجبها على الفور، وتعرف جيداً جدّاً كيف يمكن أن يكون أبواه، وأن الكراهية، أحياناً، يمكنها أن تولد بأكثر الطرق المختلفة، وأنه تكفي بضع ثوانٍ لتعمي بما يكفي ليفعل المرء أشياء لم يكن أحد يتوقعها قط.

سألته: والآن، ماذا ستفعل؟

- الآن في الحقيقة أريد أن أفعل شيئاً واحداً فقط.

- وما هو؟

أمسك (لو) بوجهها بين يديه، واقترب منها، ومنحها قبلة طويلة جدّاً، قبلة جعلت جويا تنسى أنها ليس لديها متسع من الوقت، ثم ابتعد وقال لها: أريد أن آتي لأنام معكِ.

24

- أتعرفين، في تلك الأسابيع، كنت أفكر كل يوم في الشيء نفسه.
- ماذا يا (لو)؟
- شيء غبـي، أعـرف، لكـن كان سـؤالاً أود أن أطرحـه عليـكِ في اليـوم الأخـير الـذي تقابلنـا فيـه، ولم أفعـل، وهكـذا كان يعـود دائمـاً إلى ذهنـي.
- ماذا؟
- تلك الكلمات التي تكتبينها في مفكرتك.
- أجل، قل لي.
- ما الكلمة المفضلة من بينها كلها؟
- هـل تـدرك أن هـذا كأنـك تسـألني مـا أغنيتـك المفضلـة لبينـك فلويـد، حقّـاً؟ توجـد خمسـون واحـدة تقريبـاً هـي المفضلـة بالنسـبة إليَّ، كيـف يمكننـي الاختيـار؟
- حسناً، لكن ستكون هناك واحدة هي الأقرب إلى قلبك.
- لم أفكر في هذا من قبل، فعلاً.
- ربما يمكنك أن تفكري الآن؟
- Magari[29].
- هل هذه هي الكلمة؟ لماذا؟
- إنهـا مـن الكلـمات الإيطاليـة القليلـة، التـي يصعـب ترجمتهـا في لغـات أخـرى.
- فعلاً؟
- أجل، بالفعل، أو على الأقل وفق معلوماتي.
- ولماذا تعجبك إلى هذا الحد؟

(29) نترجمها أحياناً إلى: يا ليت أو ربما (وفق السياق).

- ربما لأنني قرأت أنها في الحقيقة، في البداية، كانت تعني باليونانية «فرحاً»، أو ربما لأنك بستة حروف فقط يمكنك أن تقول: «فقط إذا كان هذا الشيء حقيقيّاً».

- وهل هذا يعجبك؟

- يعجبني جدّاً؛ لأنه في كل مرة أستخدمها تخلق لي عالماً غير موجود، لكن ليته كان موجوداً.

- يا ليت.

- أجل، يا ليت.

25

إلى الخنازير الطائرة...

جويا سبادا، في الليلة، التي تنام فيها للمرة الأولى مع صبي، تفكر في لحظة ما في «الخنازير الطائرة». وفكرت فيها أيضاً؛ لأنها عندما كانا هناك، هو يتسلق الشجرة أمام بنايتهم، وبعد أن فتحت له النافذة وأدخلته، وبعد أن كتما ضحكاتهما، بينما تصل إليهما من أسفل أصوات طلقات الرصاص من فيلم يدور بأعلى صوت، وأبواها بالفعل غائبان عن الوعي فوق الأريكة، وبعد ذلك، مع انعكاس ضوء مصابيح الشارع على وجهيهما الغارقين في العرق والمضطربين، وقبلاتهما المتسارعة، وملابسهما الملقاة على الأرض، وبعد أن اقترب أحدهما من الآخر، شعرت هي بأن وجوده ملتصقاً بها هو مكانه، خطرت في بالها تلك الأغنية.

ربما قليلون يعرفون، لكن كتبت فرقة بينك فلويد، مرة، أغنية حب .

أجل، هذه الفرقة التي تتميز بأغنياتها ذات الخمس عشرة دقيقة، والكلمات المثقفة للغاية والمجازات المتشابكة. أجل هم،

كتبـوا أغنيـة حـب رائعـة الجـمال.

كان اســمها Pigs on the Wing، عنوانهــا أيضــاً يتحــدث عــن الخنازيــر الطائــرة، وتقــول شــيئاً بديعــاً بالفعــل:

إذا لم يكن يهمك أمري،

وإذا لم تكن تهمني،

لكنا ضعنا، بعيداً، نسير في خطوط متعرجة،

بين الملل والألم،

ربما نتلاقى، أحياناً تحت الأمطار،

ونحن نسأل أنفسنا على مَن، بين الأغبياء، نلقي بالملامة.

بينما نحاول أن نحتمي من الخنازير الطائرة.

للأغـاني القـدرة، أحيانـاً، عـلى أن تطلعنـا عـلى مـن نحـن، مـاذا نفعـل، ومـاذا نريـد، وأن تطلعنـا عليـه بالكلـمات الدقيقـة؛ تلـك التـي طالمـا تمنينـا لـو اسـتخدمناها نحـن، وتقـوم بذلـك بطريقـة بارعـة، إلى حـد أن المـرء يظـن أحيانـاً أن المغنـي لم يكتبهـا، لكـن قـام هـو بذلـك، وأن الكلـمات كلماتـه هـو. أجمـل الأغنيـات، حتـى إن كنـا نعـرف أن هــذا مســتحيل، تبــدو دائمــاً مثــل النقــل الحــرفي، وأغنيــة الخنازيــر الطائـرة هـي أكـثر عمليـة نقـل حـرفي؛ لأنهـا في سـبعة أبيـات، تحـكي قصتهـما، وتعـبِّر بـكل دقـة، تـكاد تكـون دق جـراح محـترف جراحيـة، عـما تشـعر بـه جويـا في تلـك اللحظـة - عـلى الرغـم مـن أن روجـر ووتـرز كتبهـا العـام 1976 لزوجتـه الجديـدة ليـدي كارولـين كريسـتي - فـإن ذلـك الإحسـاس، الـذي يشـعر بـه الشـخص عندمـا يجـد أنـه كان يكفــي، قليــل جــدّاً ليتغــير كل شيء، أنهــما إذا لم يكونــا قــد التقيــا، في ذلـك المسـاء، تمامـاً بتلـك الطريقـة؛ لكانـا لا يـزالان يـشردان في طـرق متعرجـة، متأرجحـين بـين الملـل والأمـل، وربمـا كانـا سـيلتقيان أيضـاً، من حـين إلى آخـر، دون أن يعرفـا أنهـما اللـذان تلامسـا، بصعوبـة، في تلـك

الأمطـار، سـيقضيان حياتيهـما كلهـا يسـألان ذنـب مـن يـا تُـرى، وعـلى مـن يمكنهـما إلقـاء اللـوم مـن بـين الأوغـاد، عـلى أبويهـما، أم المدرسـين، عـلى سـوء الحـظ، أم عـلى الجميـع، وسـيقضيان مـا تبقـى مـن حياتيهـما وأعينهـما تنظـر إلى أسـفل، تائهـين في التفاهـات، ويحترسـان مـن الخنازيـر التـي تطـير.

لأن هنـاك في الخـارج - تعـرف جويـا هـذا وتـراه كل يـوم - العـالم مـليء بأنـاس لا يفعلـون شـيئاً سـوى النظـر إلى الخنازيـر الطائـرة. ويفعـل قليلـون جـدّاً هـذا بنوايـا حسـنة، وربمـا يكـون شـخصاً واحـداً فقـط، نظـراً إلى أنـه لا يسـتطيع النـوم.

مثل حالها هي، الآن.

لا تستطيع جويا النوم، حتى شروق الشمس.

قضيـا بقيـة ليلتهـما وهـما يضحـكان بصـوت منخفـض، وأصابـع أيديهـما متشـابكة في مقابـل الضـوء. حكايـات (لـو)، وكيـف اسـتطاعت جويـا العثـور عليـه، قصـة الكنـزة ومـا إلى ذلـك، ومـا تكتبـه عـلى يدهـا ويبهـت رويـداً رويـداً. تحدثـا أيضـاً عـن جوائـز المسـابقة، التي سـيُعلَن عنهـا في الغـد، وعـن بوفـه، والحجـارة، والشـعور بخـوف غريـب - ليـس جديـداً، لكنـه كان كافيـاً لـكي يبـدو لهـا كأنهـا المـرة الأولى - ألا تعجبـه، ألا تطلعـه عـلى جسـدها، لكـن في الوقـت نفسـه الرغبـة في أن تفعـل ذلـك - الخـوف والرغبـة معـاً Frisson - وكانـت بقيـة الليـل مثـل قضائهـا مـع كتـب جميلـة بالفعـل، عندمـا تكتشـف أنهـا تعجبهـا جـدّاً؛ فتبـدأ جويـا في قراءتهـا بإيقـاع أبطـأ، وتتمنـى في الوقـت نفسـه ألا ينقـضي الليـل وألا يطلـع النهـار.

قال لها: ألا يطلع أبداً.

- ماذا؟ سألته، وهي على وشك أن تنام.

- سيكون جميلاً ألا يطلع النهار أبداً.

أغمضا أعينهما، وهي تضع وجنتها على صدره، تماماً في اللحظة التي بدأت أنوار الصباح الأولى تتسلل من النافذة.

وبعدها بساعتين، عندما استيقظت جويا، لم يكن (لو) موجوداً، بحثت بلا جدوى، على الوسادة، على المكتب، على رسالة ما، وشعرت بعض الشيء بالألم عندما رأت أنه لم يترك لها أي شيء، حتى وصلت إلى الحمام لتغتسل، واقتربت من المرآة فوق الحوض، وبالبخار الذي غطاه اكتشفت أن كل شيء يظهر كأنه مكتوب بفعل السحر:

كانت ليلة جميلة تغلفها الرقة.

ملحوظة: لتسحقيهم جميعاً اليوم!

26

- من المؤكد أن الموضوع صعب.

- ماذا يا حلوة؟

- أن تصدقي كل هذا، اللعنة، كم هو صعب.

- إيه، بالفعل.

- لكن تلك الأشياء لا تحدث في الواقع يا تونيا. تحدث في الأفلام، لكن ليس في الواقع.

- ماذا تقصدين، دفعه من الشرفة؟

- لا.

- ادعاءه الموت؟

- لا.

- الأب؟

- لا.

- ماذا إذن؟

- أن تتقابلي مع شخص يجعلك تختبرين كل هذه المشاعر.

27

- لكن، إذن، احكي لي كيف انتهى الأمر لدى المُسن؟

- أجل، لكن يجب ألا تقولي أي شيء لأي أحد على الإطلاق!

- لقد قلت لكِ بالفعل، لن أفتح فمي!

كانت جوفانا ترفع المقاعد من فوق الموائد، ولا تزال ستائر الحانة مُسدلة. خرجت جويا من المنزل، هذا الصباح، أبكر من المعتاد، ولم تنم سوى ساعتين؛ لتفطر، لكن بالأخص؛ لأنها عندما صافحتها بالأمس، هددتها جوفانا بالقتل إذا لم تحضر على الفور لتخبرها على الأقل بشيء ما.

- لكن قلتِ لي أنتِ إنه قد فقد ابناً شاباً. وفي الفترة الأخيرة، قبل أن يختفي (لو)، كانا قد أصبحا صديقين مقربين؛ أي، كان (لو) يقضي الساعات الطويلة هنا في البار، وأيضاً في منزل المُسن. كانا يلعبان بالأسهم معاً، وكان يبوح له بما يضايقه، والمُسن بدوره كان سعيداً لأنه يبدو له... أنتِ تعرفين.

- فهمت، يبدو له أنه بصحبة ابنه، لكن كيف عرض عليه أن يستضيفه؟ ألم تكن هذه مجازفة كبيرة منه؟

- في البداية أجل، لكن تعرفين أن (لو) أصبح في سن الرشد على الفور، والأشياء تغيرت. لم يعودوا يبحثون عنه. وكان المُسن، في الواقع، هو من عرض عليه الأمر.

- لا يمكن!

قالت جوفانا وهي تنظف منضدة المشرب.

- أجل؛ لأنه عندما عاد (لو) من المستشفى عقب مسألة القفز

من النافذة، كان خائفاً من أن يحدث هذا مرة أخرى، وأن يحاول أبوه أن يؤذيه. عندئذٍ قال له بريدا: بمجرد أن تكمل أعوامك الثمانية عشر، سأستضيفك بكل سرور.

نظرت جوفانا إلى جويا بتعجب، متشككة: أجل، لكن (لو) اختلق موضوع البحيرة هذا قبل أن يكمل أعوامه الثمانية عشر.

- لم يكن بوسعه التحمل أكثر. كان يشعر بالخوف منه؛ الخوف الشديد، وكانت فكرته أن يتسبب في الذعر للجميع، ولأبيه أيضاً، وأن يبتعد عن المنزل لبضعة أيام ويعود. أجل، اعترف هو أيضاً بأنه تصرف خسيس، لكنه قال إنها بدت له، في تلك اللحظة، الوسيلة الوحيدة ليخرج من هذا الموقف.

علقت جوفانا وهي ترفع الستائر: وسيلة وحيدة ملعونة.

- ربما يمكن أيضاً أن تكون مفهومة... أن يكون للمرء أب يرغب في قتله، إلا أن الأيام بدأت تمر ولم يستطع أن يعود، وفضَّل أن يمكث مختبئاً، ويخرج فقط مرة في الأسبوع، مساءً؛ ليلعب بالأسهم، أو ليذهب بعض المرات ليلاً إلى الكنيسة الصغيرة؛ حيث لا يمكن لأحد أن يراه، وكان مستريحاً هكذا، وبالنسبة إلى المُسن أيضاً... ثم...

- ثم؟

- ثم قابلني.

- أوكي، أوكي، لنقل إن الموضوع في مجمله غريب بعض الشيء؛ بل غريب جدّاً، لكن يمكن أن يمر، وهناك شيء واحد غير مقنع بالمرة.

- ما هو؟

- إنه قال لكِ، لأكثر من شهر، كذبة أنه لا يمكنه الخروج في الصباح، وكنتما تتقابلان فقط في المساء هنا في الخارج، حسناً؟

- أجل.

- كيـف إذن خطـر في بالـه، في تلـك الظهـيرة، أن يخـرج معـكِ إلى المتنـزه، ثـم أيضـاً أن يسـير في وسـط المدينـة؟ أي إنـه خاطـر بكثـير فعـلاً!

- لا أدري إذا كان يحـاول التملـق أم مـاذا، لكنـه أعطـاني تفسـيراً أيضـاً لهـذا.

- آه، فهمت.

- فهمتِ ماذا؟

- قـال لـكِ إنـه فعـل ذلـك مـن أجلـكِ أنـتِ. قالـت جوفانـا وهـي تقلـد نـبرة صـوت (أمـير الأحـلام) في الأفـلام الرومانسـية.

- لا، ليـس بالتحديـد. كان أمـراً أكـثر اسـتفاضة، متملـق مـن الطـراز الأول.

- أي؟

- قـال لي إنـه قـد فعـل ذلـك «حتـى لا يفقـدني». أجابـت جويـا، وهـي تقلـد بدورهـا أمـير الأحـلام. ضحكتـا، ثـم نهضـت جويـا لتذهـب إلى المدرسـة. وفي أثنـاء خروجهـا مـن البـاب، نـادت عليهـا جوفانـا، وقالـت لهـا: احـترسي، إذا ظهـر ذلـك؟

- ذلك من؟

- الأب. أما زال يبحث عنكِ من أجل قصة الكنزة؟

28

لم تفز جويا سبادا بشيء قط من قبل.

في الألعـاب الرياضيـة المتوسـطة فاشـلة تمامـاً. تفلـح فقـط في تلـك التـي لا يوجـد فيهـا كثـير مـن التشـتت، والتـي تكـون مـن العوامـل الكارثيـة لمـن يعـاني، مثلهـا، مـن تزايـد في النشـاط التخيـلي؛ لذلـك، ونظـراً إلى أن الرياضـات كلهـا تتطلـب كثـيراً مـن التركيـز وعـدم

التشـتت؛ فالـشيء الوحيـد الـذي تسـتطيعه بعـض الـشيء هـو الجـري، إلا أنهـا، حتـى في الجـري، العيـب الوحيـد أنهـا لا تحبـه. عندمـا تكـون في مسـابقة مـا، حتـى إن كان فقـط مجـرد اختبـار في صالـة الألعـاب الرياضيـة في السـاعة المخصصـة للرياضـة، تـرى أن هنـاك فتيـات خلفهـا، ويضايقهـا هـذا. تبـدأ في التفكـير كـم أن هـذا مؤسـف لهـن، وكـم سيشـعرن بـالأسى إذا وصلـن المتسـابقات الأخـيرات، وهكـذا تبطئ هـي لتتركهـن يعـبرن أمامهـا.

وهكـذا، في النهايـة، حتـى إن كانـت سريعـة نوعـاً مـا، تصـل الأخـيرة دائمـاً. وليسـت مصادفـة، إذن، إذا كانـوا نسـبوا إليهـا اسـم (مايوناجويا).

عندمـا يخـسر المـرء طـوال حياتـه، ففـي اليـوم الـذي سـيفوز فيـه بـشيء مـا، وإن كانـت الجائـزة هديـة أُعيـد تدويرهـا أو أداة مـن أدوات المطبـخ، يحـدث لـه شيء مـا، بالتأكيـد، يشـعر بالرضـا، يشـعر أيضـاً بالتقديـر، والاعـتراف بـه، لكـن هنـاك شـيئاً بالفعـل يتغـير في الداخـل؛ وذلـك الـذي يتغـير هـو (المنظـور)؛ إذ يبـدأ عندئـذٍ في النظـر إلى الأشـياء بطريقـة مختلفـة، لكـن ليـس فقـط الأشـياء؛ بـل ينظـر إلى نفسـه أيضـاً بطريقـة مختلفـة، ويبـدأ عندئـذٍ في أن يقـول لنفسـه: إذن، أنـا أيضـاً يمكننـي.

كانـت صالـة الرياضـة ممتلئـة ومزدحمـة، يوجـد فيهـا كل تلاميـذ الثانـوي في مدرسـة ليوبـاردي مايورانـا. وبـين طلبـة الكلاسـيكي والعلمي والاجتماعـي، سـيكونون نحـو ألـف طالـب، كلهـم هنـاك مـن أجـل توزيـع جائـزة مسـابقة «ضـع نفسـك في الإطـار». لم تكـن جويـا تفكـر أنهـم بهـذا العـدد الكبـير، في المدرسـة التـي وفـدت منهـا عددهـم تقريبـاً أقـل مـن النصـف.

قالـت للأسـتاذ بوفـه، بينـما كانـت جالسـة في الصـف الأخـير بجـواره: أتعـرف، لـن أتضايـق إذا فـزت؛ أي سـتكون وسـيلة لأثبـت

للجميع أنني أساوي شيئاً ما، أليس كذلك؟ كما أخبرتني حضرتك: سأصعد بعض الشيء إلى أعلى لكي لا يلقي بي أحدهم إلى أسفل.

كان الأستاذ بوفه، وهو يسند ذقنه إلى عصاه الخشبية، يتأمل الطلبة الذين ينخز أحدهم الآخر ويتقاذفون الورق: يمكنك لمرة أن تجربي رعشة النجاح يا آنسة.

- لكن مَن ذا الذي يهتم بالنجاح؟ الجميع لا يهمه سوى هذا النجاح. أنا لا أريد أن أحصل على «النجاح». قالت له، وهي تصنع إشارتَي التنصيص بأصابعها.

رفع بوفه ذقنه عن عصاه، التفت نحو جويا، وابتسم: أتعرفين، هناك سوء فهم كبير فيما يتعلق بالنجاح. الجميع يعتقد أنه بفضل ذلك يحبك الجميع، ويقدِّرك، ويطلب توقيعك في الطريق، وأتفق معكِ أن التطلع إلى النجاح عادةً ما يرتبط بشيء تافه أو سطحي. الطلبة الذين يريدون أن يصبحوا لاعبي كرة، الطالبات اللاتي يرغبن في العمل كعارضات أزياء.

- أو صانعات محتوى يعرضن آخر الصيحات.

- ماذا؟

- لا توجد فتاة في هذه الأيام ترغب في العمل كعارضة أزياء. الغالبية، التي تتحدث عنها حضرتك، يردن أن يصبحن صانعات محتوى لآخر الصيحات.

- أوه، هذا أمر جديد عليَّ! على أي حال، النجاح ليس أمراً سيئاً على الإطلاق. لا أحد يتوقف عند الكلمة، أتعرفين؟ كلمة نجاح هي بالفعل كلمة جميلة جدّاً.

- فعلاً، لماذا؟

- لأن النجاح ليس هو السير على البساط الأحمر، ويلتصق

بــكِ البابـاراتــزي (مصــورو المشـاهير)، لكــن النجـاح في لغتنـا[30] هــو اسـم فعـل[31]، إنـه فعـل يقـول ببسـاطة: لقـد حـدث! شيء مـا قـد حـدث. إن هـذا الـشيء ممكـن! إنـه الدليـل عـلى أنـه يمكـن تحقيـق أشـياء، قيـادة الحيـاة حيـث تريدينهـا أنـتِ. إن النجـاح يمكــن أن يكمـن في تمكـن المـرء مـن زراعـة بسـتان جميـل، أو طـلاء منزلـه باللــون الــذي يريــده، أو اسـتطاعته التجـوال في أوروبـا سـيراً عـلى الأقـدام. النجـاح ليـس إلا إنجـاز الأشـياء. اسـتعدي؛ لأنـه يمكننـي أن أرى بوضـوح شـديد أنـكِ سـتنجزين كثـيراً مـن الأشـياء.

- «والآن، إذا أمكــن لحضورنـا أن يتكـرم ويلتـزم بعـض الصمـت». صرخ مديـر المدرسـة سـباتارو في الميكروفـون، «والآن، أدعـو إلى المـسرح المتسـابقين الثلاثـة، الذيـن وصلـوا إلى نهـائي فئـة التصويـر!».

نهضـت جويـا بالفعـل، وعـبرت مـن أمـام الأسـتاذ لتتوجـه نحـو المـسرح الصغـير المُعـد لهـذه المناسـبة، وعندمـا كانـت تقريبـاً في نهايـة صـف المقاعـد، شـعرت بضربـة عصـا مرتـين عـلى قدمهـا اليـسرى، التفتـت ورأت الأسـتاذ يغمـز لهـا.

- حسـناً، هـا هـم الثلاثـة هنـا! كيـف حالكـم؟ متحمسـون؟ قـال لهـم ناظـر المدرسـة ومكـبر الصـوت في يـده. كان الفائـزان الآخـران ولداً وبنتـاً، ومعهـما جويـا، التـي لم تسـتطع أن تمنـع نفسـها مـن التفكـير في شيء آخـر، حتـى في هـذه المناسـبة، ولم تـرد عـن سـؤال مديـر المدرسـة؛ لأنهـا كانـت تسـأل نفسـها كيـف، عـلى الرغـم مـن أنهـما اثنتـان مـن الإنـاث وذكـر، قـال الأسـتاذ: «متحمسـون»، جمـع مذكـر.

- آنسـة سـبادا، ألا تشـعرين بالفـرح الشـديد؟ حضرتـك وافـدة جديـدة عـلى مدرسـتنا، وهـا أنـتِ تصلـين إلى نهـائي مسـابقتنا.

(30) (في لغتنا) إضافة من المترجمة لتوضيح التفسير التالي للكلمة، والذي يعتمد على معنى الكلمة في اللغة الإيطالية.

(31) نجاح باللغة الإيطالية successo هو اسم فعل من succedere، الذي يعني: يحدث، يتمّ، يتحقق.

- من؟ أنا؟ قالت جويا كأنها استيقظت فقط في تلك اللحظة.

ضحك الأولاد الجالسون إلى مقاعدهم، لكن هذه المرة لم تكن ضحكة سخرية مثل تلك التي اعتادتها... بدت تقريباً ضحكة استمتاع حقيقية. شيء عجيب كيف يتغير المنظور عندما يكون المرء في جهة الفائزين.

- حسناً، إذن الآن نقترب من الإعلان عن الفائز الأول في تلك الفئة. قال المدير، وهو يشير إلى أحد المدرسين الجالسين على المسرح أن يتقدم، «ولهذا سأستدعي بجواري أستاذ مادة الفنون، أستاذنا العظيم فلوريان»!

صحب تصفيق متواضع نهوض المدرس، بينما دعا المدير بإشارة مَن وصلوا إلى النهائي ليتقدموا خطوتين إلى الأمام. وهنا، وعندما تقدمت خطوتين إلى الأمام، رأته... ففي نهاية الصالة، وبالقرب من مخرج الطوارئ، رأته هو.

والد (لو)، يقف هناك، عاقداً ذراعيه.

29

- أترون يا أولاد، التصوير فن، يخطئ الجميع الاعتقاد بأنه يرتبط إلى حد كبير بالحظ. كثيرون يعتقدون أنه لالتقاط صورة جميلة من الضروري التقاط اللحظة المناسبة؛ ومن ثم يمكن لجزء من الثانية أن يحدد الفارق بين صورة فنية وأخرى عادية جدّاً. هذا مفهوم خاطئ. ليس المصور الماهر هو المحظوظ الذي يلتقط اللحظة المناسبة، لكن المصور الماهر هو ذلك الذي يبحث، وجرب مرات عديدة حتى وصل إلى تلك اللحظة المناسبة، عندئذٍ يعرف كيف يلتقطها بلا تردد؛ ولهذا قررنا أننا لا نحتاج إلى أن نتشاور كثيراً لنمنح جائزة أفضل صورة لهذا العام.

يصل صوت أستاذ الفنون إلى أذنَي جويا كأنه يأتي من مسافة بعيدة، مثل ذلك الذي لحافلة الدعاية من وراء النافذة في أمسيات الصيف، إلا أن هذه المرة، كان بعد شرودها السهل لا يحتاج إلى كثير، هذه المرة المشكلة ذلك الشخص الواقف في نهاية الصالة؛ ذلك الذي ينظر إليها، بالتحديد إليها، بنظرة جادة، وحاسمة، تكاد تحمل تهديداً. كان سيتسبب لها هذا في الخوف، حتى إن لم تكن تعلم ما تعرفه هي عنه، وإذا لم تكن تعلم أيضاً أنه في هذه اللحظة يبحث عنها، من بين الجميع، يبحث عنها هي.

- حسناً. قال أستاذ الفنون، بابتسامة عريضة، يسعدني كثيراً الآن أن أعلن أن الفائز بالجائزة هو...

عادت جويا مرة أخرى إلى صوت الأستاذ؛ لتدرك فقط أنه في هذه المرة أيضاً استخدم المُذكر؛ ومن ثم فقد قال ضمنيّاً مَن فاز بالجائزة. وهكذا غيرت نظرتها لبعض الأمتار يساراً؛ حيث يجلس البروفيسور بوفه، ونظرت إليه نظرة معبّرة جدّاً تعني: حسناً، لقد حاولت، ووصلت على كل حال بين الثلاثة الأوائل.

- جويا سبادا، بصورتها التي تحمل عنوان «الجنازة».

بدأ التصفيق بطيئاً في البداية، ثم بالتدريج أصبح أكثر حماساً، إعلان الأستاذ للفائز. أصبح وجه جويا أحمر إلى حد أنه كان من الصعب تمييز ما عليه من نمش، ومن الصف الأخير، نهض الأستاذ بوفه متقدماً يحييها واقفاً داعماً لها، وتصحب تحياته: أحسنتِ! رائع! التي جعلت جميع الطلبة يلتفتون نحوه.

سلم المدير سباتارو إلى جويا لوحة وظرفاً فيه مبلغ خمسمائة يورو لتبتاع بها آلة تصوير جديدة، وابتسمت جويا، منفعلة، وهي تضغط على يدَي الفائزين الآخرين، وهي تنظر راضية إلى وجوه الجمهور في الصالة.

كانـت تشـعر بأنهـا في أحسـن الأحـوال، حتـى إنهـا نسـيت لمـدة دقيقتـين أن في نهايـة صالـة الرياضـة يوجـد شـخص سـيأتي للبحـث عنهـا بعـد قليـل.

30

كانـت قـد تخيلـت كثـيراً، منـذ أن رأتـه للمـرة الأولى هنـاك أمـام بوابـة منـزل (لـو)، اللحظـة التـي فيهـا سـيظهر «الأب»، بـل وكانـت متأكـدة مـن أنهـا، إن عاجـلاً أم آجـلاً، سـتجده هنـاك أمـام منزلهـا، هنـاك في انتظارهـا، لكـن لم تتخيـل أنـه سـيقف في نهايـة صالـة الرياضة في أثنـاء توزيـع جوائـز مسـابقة «ضـع نفسـك في الإطـار».

الآن، وهــي تعلــم كل مــا تعلمــه، هنــاك قليــل لتقولــه. كانــت غبيـة وحمقـاء ومتهـورة؛ لأنهـا ذهبـت إلى منزلهـما لتتحـدث مـع الأم وتسـألها كل تلـك الأسـئلة. بالتأكيـد، إذا لم تفعـل ذلـك، ربمـا لم تكـن لـترى (لـو) مـرة أخـرى، لكـن عـلى الأقـل الآن ليسـت لديهـا مشـكلة أن تـدرك وجـود الأب، وأن تحـترس مـع كل كلمـة سـتخرج مـن فمهـا.

بمجـرد أن اسـتلمت الجائـزة، وشـكرت المديـر والأسـاتذة، جـرت جويـا إلى الحـمام لتغسـل وجههـا. ولحسـن حظهـا! لم يكـن توزيـع الجوائـز طويـلاً جـدّاً، وبعـد قليـل سـيرن الجـرس الأخـير؛ لأن مقاومتهـا الآن أصبحـت محـدودة.

هنـا لا بـد مـن الهـدوء والتأمـل والتركيـز؛ لا بـد أن تفكـر فيـما سـتقوله لـه عندمـا يظهـر مـرة أخـرى أمامهـا؛ لا بـد أن تبنـي لـه قصـة جميلـة متماسـكة، وتكررهـا في ذهنهـا حتـى تحفرهـا في ذاكرتهـا. لا يجـب أن يكـون هنـاك أي تلعثـم أو تـردد في حكايتهـا.

قبضتان من المياه فوق وجهها، ونظرة إلى المرآة.

- إذن، أجـل، لـديَّ الكنـزة، كان (لـو) قـد أعطاهـا لي منـذ عـام مضى،

عندما كنت ما زلت أقيم في المدينة الأخرى. كنا قد تقابلنا مصادفة يوماً ما، عندما كنت في زيارة لبعض أقاربي، وهكذا، عندما عدت إلى هنا، لم أكن أعرف أنه قد توفي؛ ولهذا حزنت كثيراً عندما قالت لي أمه ما حدث.

تتحدث مع تونيا، حتى إن كان ذلك أمام مرآة حمام المدرسة.

تُعلق تونيا، وهي تجلس بجوار الحوض، بينما تنظر إلى أظافرها: ليست جيدة بالدرجة الكافية يا حلوة.

قبضتان أخريان من المياه على وجهها.

- إذن، حقا، لديَّ كنزته. كان (لو) قد أعطاها لي العام الماضي. لا بد أن هناك سوء تفاهم حدث مع والدته؛ فأنا كنت أعرف جيداً جدّاً أنه لم يعد موجوداً.

- سيكتشفك هكذا. بالتأكيد، سيكتشف.

قالت لها تونيا، وهي تومئ بـ(لا) برأسها.

ألقت جويا برأسها إلى أسفل على الحوض، وهذه المرة جعلت المياه تجري مباشرةً على وجهها، وهي تستخدم يدها. وهكذا عندما رفعت رأسها كانت عيناها مغلقتين، ورموشها تغطيها المياه، وأنفاسها متسارعة. وعندما فتحت عينيها ونظرت إلى المرآة، رأت خلفها انعكاس شخص ما.

صرخت جويا فزعاً، والتفتت فجأة، وكادت تجلس في الحوض.

هو، أبو (لو)، يقف عند مدخل الحمام.

31

قال هو، بصوت هادئ: آسف... لم أقصد أن أفزعك.

- لكن... هذا... هذا حمام الفتيات!

قالت جويا وظهرها يلمس المرآة، وإذا كان في استطاعتها

لتخطتهـا إلى الجانـب الآخـر مـن الحائـط.

- أنـتِ محقـة، أنـا آسـف، لكننـي رأيتـكِ تدخلـين منـذ نحـو خمـس دقائـق... كنـت أريـد أن أنتظـركِ هنـا في الخـارج، ثـم فكـرت أنـكِ ربمـا لا تشـعرين بخـير، فأتيـت لأتأكـد.

كان صوتـه هادئـاً، يـكاد يكـون عذبـاً. ربمـا، فكـرت جويـا، هـذا هـو مـا يخيـف فيـه، واقـع أنـه يبـدو شـخصاً هادئـاً ومهذبـاً، عـلى الرغـم مـن أنـه في الحقيقـة عكـس هـذا تمامـاً.

- أنا بخير، بخير. إذا أردت يمكنك انتظاري في الخارج!

قالت جويا، دون أن تنزل عن حافة الحوض.

- حسناً، أرجو أن تقبلي اعتذاري. خذي وقتك.

قال هو، وهو يخرج مستاءً.

لم يكـن الوضـع مثاليـا. إلى الآن لم تكـن لديهـا فكـرة واضحـة في ذهنهـا عـما سـتقصه عليـه، مـاذا سـتقول لـه عـن تلـك الكنـزة، وكيـف حصلـت عليهـا، ولمـاذا تحدثـت عنهـا مـع زوجتـه، وهـو الآن في الخـارج في انتظارهـا.

إذا كان الأمر بيدها، لحبست نفسها في الحمام حتى الليل.

- الآن اهـدئي. همسـت جويـا. أعتقـد أن قصـة أننـي كنـت أعـرف جيـداً أن (لـو) مـات، وحـدث سـوء تفاهـم بينـي وبـين أمـه، قصـة جيـدة جـدّاً. لكـن الكنـزة؟ متـى أعطاهـا لي؟ ولمـاذا؟

- قولي له الحقيقة وكفى. قالت تونيا وهي تهز كتفيها.

- لا أستطيع. لقد وعدت (لو). أنا لا أحنث بوعودي!

نظـرت جويـا إلى السـاعة. بقيـت دقيقـة عـلى الجـرس الأخـير، وعلى نهايـة اليوم الـدراسي.

- لكـن بالتأكيـد! لقـد أهداهـا هـو لي، (لـو)، في أحـد الأيـام التـي لا أتذكـر متـى كانـت. وضعتهـا في الخزانـة، وفقـط منـذ بضعـة أيـام

تذكـرت أنهـا معـي، وفكـرت... وفكـرت أنهـا ربمـا ستسـعد زوجتـه باسـتعادتها!

- اذهبي يا حلوة، ها هو بانتظارك! يمكنك ذلك.

حشتها تونيـا، لكـن بتلـك النـبرة في صوتهـا التـي تعنـي في الحقيقـة: لـن تنجحـي أبـداً في هـذا.

جففـت جويـا وجههـا وخرجـت مـن الحـمام، وكان هـو هنـاك جالسـاً عـلى مقعـد وينظـر إلى هاتفـه النقـال. وشـعرت فجـأة بفـزع أكـثر عندمـا رفـع نظرتـه وابتسـم لهـا، بـكل هـدوء، عـلى عكـس تمامـاً مـا يجـب أن يكـون عليـه داخليّـاً.

نهـض، وتقـدم نحوهـا، وفي هـذه اللحظـة، رن الجـرس. وعـلى الأقـل خـرج نحـو ألـف طالـب مسرعـين مـن صالـة الرياضـة: أحاطـت بهـما موجـة فجائيـة، ومـن بينهـا كانـت تسـمع عبـارات، مثـل: أحسـنتِ يـا سـبادا، صـورة جميلـة وعظيمـة. موجـة بمرورهـا كانـت تدفعهـا هـي، لكـن حريصـة عـلى ألا تلمسـه هـو، بينـما يقـف، عـلى بُعـد بضـع خطـوات مـن جويـا، ويحـدق في عينيهـا.

32

- ماذا كنت ترغب في أن تقوله لي؟

فرغت الردهة، تاركةً إياهما وحدهما، تقريباً.

- حسـناً، قبـل كل شيء، كانـت لـديَّ بعـض الأسـئلة لأطرحهـا عليـكِ. أتعرفـين، بـدا لنـا غريبـاً بعـض الـشيء أنـكِ...

- لكـن لا بـد أن أعـود إلى المنـزل. حضرتـك تعـرف، ينتظـرني أبـواي. قاطعتـه جويـا.

- إذا أردتِ يمكننـي أن أصحبـكِ بالسـيارة، وهكـذا تصلـين أيضـاً بسرعـة. قـال هـو، بطريقـة مهذبـة إلى درجـة تثـير الغثيـان.

- لا، لا داعـي لهـذا، سـأذهب بمفـردي. حاولـت جويـا أن تتملـص، حتـى إذا عرفـت أنهـا لـن تنجـح في هـذا.

وبالفعـل، هيـا، لا داعـي للمجامـلات، لا يوجـد أي إزعـاج لي، ثـم إن والدتـك تـكاد تكـون صديقـة الآن، مـع كل المـرات التـي فيهـا تحدثـت معهـا عـلى الهاتـف.

في النهايـة، لم يتبـقَ لجويـا سـوى أن تقـول: لا بـأس. وتذهـب إلى فصلهـا لتحـضر كتبهـا وحقيبتهـا.

خرجـا إلى موقـف السـيارات. كانـت الشـمس قويـة جـدّاً، وتسـبب الضـوء القـوي في أن أغلقـت عينيهـا. لم يقـولا أي شيء حتـى ركبـا السـيارة.

وبمجرد أن دخلاها، أغلق هو زر الغلق المركزي.

وبدأ، بعد أن أدار المحرك وتحرك: إذن... جويا، أليس كذلك؟

- أجل.

- إنـه اسـم جميـل، أتعرفـين؟ لـن تصدقينـي، لكـن إذا كنـا قـد رزقنـا بفتـاة لكنـت أطلقـت عليهـا هـذا الاسـم.

- إذا كنـا؟ سـألت جويـا، شـاعرةً بالنـدم عـلى الفـور. وسـمعت تونيـا الجالسـة في الخلـف وهـي تنعتهـا بالحمقـاء بسـبب ذلـك السؤال، فلقـد قالـت لـه بالفعـل إنهـا تعـرف أن لـوكا ليـس ابنـه، إلا أنـه التفـت، نظـر إليهـا لثانيتـين، لكنـه بعـد ذلـك اسـتمر في الحديـث بصـوت هـادئ. ربمـا أفلتـت مـن هـذا، ربمـا لم يفهـم.

- أجل، أقصد بدلاً من لوكا.

- آه، فهمت.

- لسـتِ سـوى غبيـة، كان الأفضـل أن تقـولي لـه: «اسـمع، أنـا أعـرف أن (لـو) ليـس ابنك».

همست لها تونيا في أذنها.

كان والد (لو) يقود بثقة، لكن كان يسير ببطء غريب، أقل بكثير من الحدود الموضوعة للسرعة، تقريباً كأنه يريد أن يُطيل هذه الرحلة بالسيارة قدر استطاعته، ثم استكمل: كان لوكا ولداً ماهراً، بالفعل، لم يفهمه سوى قليلين. فعل أشياء كثيرة غير حسنة، لكنه فعلها لأنه كان متألماً، وهذه هي الحقيقة.

- كان؟

سألته جويا، مندهشة. هذه المرة كان السؤال شرعيّاً.

- ربما تظنين أنني مجنون، لكنني منذ فترة وأنا أتحدث عنه دائماً في الماضي، ليس لأنني متأكد من موته... لا أعلم كيف أشرح لكِ هذا، من جهة أفعل ذلك؛ لأنني أعلم أن هناك احتمالات قليلة جدّاً أن يكون على قيد الحياة؛ ولذلك أريد أن... أعتاد الفكرة. أتعلمين؟ أخفف من وطأة الصدمة، ومن جهة أخرى، هي تقريباً طريقة متشائمة لمعالجة الموقف، كأنني أشعر بأن التحدث عنه كأنه لا يزال موجوداً يجلب سوء الحظ.

جويا، وهي تجلس داخل تلك السيارة ذات المقاعد الجلدية، شديدة النظافة، واللامعة، لديها لأول مرة شعور غريب بالضياع. في الواقع الرجل الذي يجلس بجوارها، في محل السائق، هو نفسه الذي في ذلك اليوم أعطاها الانطباع بأنه شخص غامض، وربما أيضاً خطير بعض الشيء؛ وهو نفسه الذي دفع (لو) ليسقط من الشرفة مخاطراً بقتله، الآن وهي في داخل السيارة معه، شعرت بشعور مختلف تماماً. يبدو لها فقط رجلاً متألماً يعاني منذ فترة طويلة.

استكمل: إذن، كيف أتيتِ إلى منزلنا لتعيدي إلينا كنزته؟ ولماذا أعطاها لكِ؟ ومتى؟

سألها، مرة واحدة، بنبرة عادية، لكن بأسئلة لا يمكن إلا أن تُشعرها بأنها في تحقيق.

- الآن الأمر كله في يدكِ. قالت لها تونيا من المقعد الخلفي.

لا توجد قصص. لا بد أن تلتقط أنفاسها، وأن تلفظ بكل شيء، لا بد أن تكون مباشرة ولا مجال للخطأ، لا مجال للوقفات ولا للتأملات، لا بد أن تقول ذلك كأنه أكثر شيء طبيعي في العالم.

- لكن كيف يمكنكِ أن تبدي هادئة، وأنتِ ستنطقين بسلسلة من الكذبات المتتالية؟ سألتها تونيا.

وهكذا فجأة خطرت لجويا فكرة. ستقول كذبة، أجل، لكن مؤسسة على الحقيقة. وهكذا سيكون من السهل عليها أن تبدو مقنعة، وربما سيكون لديها بعض الأمل في أن تدفعه إلى أن يتوقف عن طرح الأسئلة. في النهاية، استعدت وانطلقت، كله في نَفَس واحد: أعطاها هو لي في إحدى الأمسيات، هناك في الحانة؛ حيث كان يذهب ليلعب بالأسهم. هكذا تعارفنا ونحن نلعب معاً. في ذلك المساء، كنت أشعر بالبرد، وعرض هو أن يعيرني إياها، ثم لا بد أنني وضعتها لتُغسل، وفي نهاية الأمر؛ تسببت أمي في فوضى، أجل، في الواقع وضعتها في عمق إحدى الخزانات، وعثرت عليها فقط منذ بضعة أيام.

انتهت جويا من الكلام، وانتظرت، وهي تعقد أصابعها، جلباً للحظ، في ذهنها. قال هو فقط: آه. وهكذا دخلت هي بالعبارة الختامية: تذكرت لمن كانت، وفكرت أنه ربما ستحبان استرجاعها، لهذا أتيت إليكما.

فكر والد (لو) في الأمر، كأنه يحاول أن يضع القطع معاً ويصلها ببعضها.

- لكن زوجتي قالت لي... أقصد، عندما عدتِ إلى المنزل كانت مضطربة جدّاً، وقالت لي إنكِ تحدثتِ عن (لو) كأنكِ قابلتِه أخيراً؛ ولهذا أتيت لأبحث عنكِ.

شعرت جويا بقلبها يدق بشدة.

- اهدئي، قاومي. إذا بدا عليكِ التشكك الآن ستضيعين.

قالـت، وهـي تحـاول أن تسـتجمع عـلى قـدر اسـتطاعتها صـوت شـخص شـارد: أعتقـد أن الأمـر لم يكـن سـوى سـوء فهـم، أنـا لم... أريـد أن أقـول... لم أتحـدث معهـا بهـذه الطريقـة. أعتقـد أننـا لم نفهـم بعضنـا، ليـس إلا.

أوقف هو السيارة. كانا بالفعل أمام منزلها. أغلق الموتور.

- أتعرفـين؟ إنهـا قصـة سـيئة جـدّاً، وأن نجـد أنفسـنا حتـى الآن، وبعـد شـهور، ونحـن لا نعـرف.. أنـا لا تـزال لـديَّ بعـض القـوة، أمـا زوجتـي... لا بـد مـن التعامـل معهـا بحـرص شـديد؛ فهـي امـرأة هشـة، يكفـي قليـل جـدّاً ليحطمهـا.

- أعتـذر إذا كنـت قـد تسـببت لهـا بـأي فهـم خاطـئ بسـبب مـا قلتـه.

قالت جويا بصوت منخفض.

كانـت نظرتـه جـادة جـدّاً، ويكسـوها بعـض الحـزن. بـدأت جويـا الآن تشـعر ببعـض الذنـب أيضـاً.

سألته: هل هناك شيء يمكن أن أفعله لتسامحاني؟

- لم تفعـلي أي شيء لنسـامحك عليـه، اهـدئي. أجابهـا هـو، وهـو يضـع إحـدى يديـه عـلى المقـود، والأخـرى عـلى المفتـاح، لكـن إذا أمكنـكِ، مـري عـلى منزلنـا، وأحـضري الكنـزة، ربمـا تجلـب لنـا الحـظ، ربمـا ستسـاعد في إعادتـه.

33

كانـت جويـا قـد أحصـت منهـا تقريبـاً عشريـن في حياتهـا، لكنهـا كانـت متأكـدة مـن أنهـا أكـثر مـن ذلـك بكثـير.

تلـك الأقـوال المأثـورة والأمثـال، التـي لا تتوافـق بـأي حـال مـن الأحـوال مـع الحقيقـة؛ تلـك التـي عندمـا تسـمعها تقـول لنفسـك: أجـل، بالتأكيـد. «مَـن يعمـل بمفـرده ينجـز عمـل ثلاثـة»... إذا أمكننـا البـدء بهـذا، مـاذا يعنـي أن بنـاء الأهرامـات كان ممكنـاً بثلـث عـدد العبيـد؟ أو أن فِرَق الـروك المكونـة مـن ثلاثـة أشـخاص، مثـل Green day، أو فريـق Blink 182، كان يكفـي أن تكـون مـن عنـصر واحـد فقـط، نظـراً إلى أن مَـن يعمـل بمفـرده ينجـز عمـل ثلاثـة؟

مَـن ينجـز عمـلاً بمفـرده، يجـب أن يتـصرف بطريقتـه، وسـينجز الكثـير بالفعـل إذا اسـتطاع أن ينجـز مـا عليـه، كفـرد. هـذه هـي الحقيقـة

ثـم: «مَـن يعِـش يـرَ كثـيراً» مـن يـدري؟ يمكـن للمـرء أن يعيـش أيضـاً مائـة عـام، وفي نهايـة الأمـر، لا ينجـح في فهـم أي شيء. يمكـن لـكل شيء أن يظـل معلقـاً إلى الأبـد. «مَـن يعِـش يـرَ كثـيراً» ليـس فقـط مثـلاً خاطئـاً، لكنـه أيضـاً دعايـة خادعـة: مَـن يعِـش ربمـا، ويـا ليـت، إذا كانـت عينـاه مفتوحتـين ولديـه بعـض الحـظ، يمكنـه أيضـاً أن يـرى شـيئاً مـا صغـيراً، ربمـا أشـعة ضئيلـة مـن الضـوء إذا سـار كل شيء عـلى مـا يـرام؛ هـذه هـي الحقيقـة.

ثـم: «الـرداء لا يصنـع الراهـب». هـذا القـول بالفعـل مُبالَـغ فيـه بشـدة. مَـن فكَّـر في تلـك الحماقـة لا بـد أنـه كان يعيـش في مجتمـع يرتـدي كل مَـن فيـه ثيـاب الرهبـان؛ ولهـذا مـن الصعـب إدراك مَـن هـو الراهـب ومَـن لا. في هـذا المجتمـع الآن، الـذي تعيـش فيـه جويـا، الـرداء يصنـع الراهـب والراهبـة والأسـاقفة وأيضـاً الشمامسـة؛ هـذه هـي الحقيقـة.

وفي النهايـة: «الليـل يجلـب النصيحـة». الليـل لا يجلـب النصيحـة... الليـل يلقـي أمامـك بأطنـان مـن الأفـكار والمخـاوف والتسـاؤلات

والشكوك والكوابيس، ومَن يدري ماذا أيضاً؟ وحتى إن جلست هناك تفتش بين كل تلك الأشياء، فهراء أن يُقال إنك يمكن أن تعثر بينها على نصيحة.

هذه هي الحقيقة.

- هل أنتِ متأكدة من أنكِ تصرفتِ جيداً بأن قلتِ تلك الأشياء للأب؟

سألتها تونيا، التي كانت تجلس على الأرض بجوار الفراش.

- لكن ألا تنامين مطلقاً؟

- إن الأصدقاء المتخيّلين لا يذهبون مطلقاً إلى الفراش، إلا في حالة أن تخترعي أنتِ صديقاً متخيّلاً يشبه جيريد ليتو بالضبط وتقدميه لي، في تلك الحالة سأنام بالتأكيد، بكل سرور، معه.

وفي الطابق السفلي، كان والداها هناك مستيقظين يشاهدان فيلماً بصوت يصلح لصالات متعددة. نظراً إلى أنهما ربما ناما طوال الظهيرة، الآن لا يشعران بالنعاس. ربما على جويا أن تضع لافتات وتوزعها في المنزل، مكتوباً عليها: لديكما ابنة يجب أن تذهب إلى المدرسة كل صباح؛ لأنه يبدو أنهما لا يتذكران هذا.

- عموماً، يمكن أن يكون الوضع أسوأ من ذلك. قالت لها تونيا.

- بالفعل؟

- إذا استطاع أبواكِ أن يبتاعا تلفزيوناً بسماعات أقوى من هذه.

وضحكت جويا.

لحسن الحظ أن تونيا موجودة. بخلاف جنونها في أنها تتحدث معها، كانت ستصبح بالفعل مجنونة لولا وجود تونيا في بعض الأحيان.

للأسف حتى هي لا تستطيع أن تساعدها كثيراً هذه المرة. ربما يمكنها أن تطفئ الأفكار، أحياناً، لكن هناك ذلك الشيء الذي

تشعر به الآن، في مقدمة الحنجرة، منذ عصر هذا اليوم، والذي يزداد مع مرور الوقت. يوجد تجلط لشيء ما، لا تعرف ما هو، يعوق تنفسها، ويؤلمها حتى عند البلع.

لكنها تعرف جيداً ما هو، إلا أنها لا تريد أن تصرح به.

إنه الخوف... فهي خائفة من أن تكون أخطأت فيما يتعلق بـ(لو).

بدا لها الأب اليوم شخصاً بعيداً تمام البُعد عن الخطير، أو عن أن يكون شخصاً قادراً على أن يتسبب في أي أذى. ومن الكلمات القليلة التي قالها، فهمت أنه يفتقد ابنه كثيراً، الذي كان ولداً متألماً، وبحاجة إلى المساعدة.

أما بالنسبة إلى (لو)... كلما فكرت بدت لها قصته غريبة مليئة بالقطع الناقصة، وكلما فكرت في تلك القطع، عادت إلى ذهنها تلك اللحظات التي يصبح فيها هو غريباً، هناك عند الكنيسة الصغيرة، عندما يبدو، لخمس دقائق فقط، شخصاً مختلفاً تماماً... عندما يصبح (لو) (لو) الآخر.

إذا كان الأمر كذلك، و(لو) يعاني من شيء، ماذا يجب على جويا أن تفعل؟ هل تخبر الأب؛ ومن ثم تنكث العهد؟ أو تترك كل شيء كما هو؟ في حالة منهما ستفقده بالتأكيد؛ لأنه لن يسامحها أبداً لأنها كشفت سره، لكن في الحالة الأخرى... في الحالة الأخرى، لا تعرف. كم يمكن أن يستمر ذلك الأمر مخفيّاً؟ وكم سيستمر الوضع بينهما كما هو الآن؟

وذلك دون أن تضع في الحسبان أنها إذا تكلمت، فإن (لو) بمجرد أن يكتشف أنها أخلت بالتعاهد، سيمنحها وجهه الآخر، وسيصبح معها، وليس مع الآخرين، (لو) الآخر، وعندما يصبح (لو) الآخر لا توجد مساحة لقول كثير؛ فهو مخيف.

وفجـأة بـدأ وجـه (لـو) يتحـول إلى اثنـين، ليـس فقـط وجهـاً يظهـر أحيانـاً وأخـرى لا، الآن تشـعر جويـا بأنهـما وجهـان ممكنـان، لا يسـتطيع المـرء أن يميـز أيهـما الوجـه الحقيقـي.

حتـى الآن، كان ذلـك الوجـه يظهـر ويختفـي في خمـس دقائـق، وحتـى إذا، منـذ أن ظهـر هـو ذلـك المسـاء في الحانـة، أشـياء كثـيرة قـد حدثـت يمكـن أن تُشـعرها بالقلـق، فـإن عينيـه وابتسـامته وقبلاتـه تطـرد دائمـاً عنهـا تلـك الأفـكار، وكل قلـق، وكل جـرس إنـذار، لكـن الوضـع مختلـف الآن، وتسـتطيع الآن تقريبـاً أن تـراه وقـد أصبـح ذلـك الـشيء الآخـر، عندمـا يتوقـف عـن أن يصبـح (لـو)، فتاهـا، ويصبـح شـخصاً آخـر لا يمكـن سـوى الشـعور بالخـوف تجاهـه.

تذهب جويا إلى الحمام، تُشعرها تلك الأفكار بالتوتر.

تسألها تونيا: هل تريدين أن تتقيأي؟ هل تريدين أن أمسك بجبهتك؟

- بالتأكيـد، كيـف لا، حتـى إن كنـت أحتـاج إلى هذا؛ فالمـرء لا يعرف كثـيراً مـن الأصدقـاء المتخيّلـين الذيـن بإمكانهم الإمسـاك بجبهته.

غسـلت جويـا وجههـا، وشربـت مـن الصنبـور عـلى الأقـل نصـف لتر مـن المـاء، وفرشـت أسـنانها، وبـدأ كل شيء يعـود إلى الهـدوء، لكـن بعد ذلـك، عندمـا فتحـت بـاب الحـمام وأغلقـت مفتـاح النـور، وفي الأسـفل أغلـق أهلهـا التلفزيـون، وحـل الصمـت التـام، فجـأة شـعرت بأنفاسـها تختنـق. راودهـا شـعور سـيئ جعلهـا تبطـئ الخطـى لتصـل إلى غرفتهـا.

عندما فتحت الباب، وجدته هناك، على الفراش، يربت على القط.

قال لها: أهلاً يا (شيء).

34

- أراكِ غريبة.

- لكن لا، كل شيء على ما يرام.

- وأنا أريكة.

- في الحقيقة أنت مريح.

- هل ستقولين لي ماذا بكِ؟

- لا شيء، فقــط كل هــذه القصــة... أحتــاج إلى بعــض الوقــت... لأعتادهــا، هــل تفهــم؟

- جويا، لا أريد أن يؤلمكِ أي شيء.

- لقد ناديتني باسمي؟

- من حين إلى آخر يفلت مني يا (شيء).

- على كل حال، لا يوجد شيء. ربما أحتاج فقط إلى بعض الوقت.

- لكــن، هــل أنــتِ متأكــدة أنــكِ بخــير؟ منــذ قليــل، ونحــن معــاً، بــدا لي كأنــكِ...

- بدا لك كأنني؟

- لا أعــرف، كانــت هنــاك لحظــات شــعرت فيهــا أنــكِ تفكريــن في شيء آخــر.

- لا، كل شيء على ما يرام.

- اللعنــة يــا جويــا، اليــوم تبديــن كأنــكِ نهــر فائــض، أليــس كذلــك؟ حــاولي ألا تتكلمــي كثــيراً، فبإمكانــك إغراقــي!

- لو قلت لك إنني هكذا بعض الشيء.

- أجــل. فهمــت. أريــد فقــط أن تصفــي لي مــاذا تعنــين بقولــكِ «بعــض الــشيء»، أنــتِ التــي لديــكِ دائمــاً كلمــة لــكل شيء!

- ربمــا هــذه المــرة ولا حتــى أنــا لــديَّ الكلــمات الصحيحــة. أتعلــم، لا يحــدث للمــرء كل يــوم أن يجــد نفســه ممــدداً في الفــراش بجــوار شــخص لا يجــب أن يتحــدث عنــه مــع أحــد.

- حسناً، حسناً، آسف. لم أكن أريد أن ألحّ أكثر من اللازم.

- ثم اليوم حدث أن...

- ماذا؟

- حسـنـاً، اليـوم رأيـت أبـاك يـا (لـو). لقـد أتى إلى المدرسـة في أثنـاء حفلـة توزيـع الجوائـز. كان هنـاك ينتظـرني. حـضر مـن أجـل قصـة الكنـزة.

- اللعنـة يـا جويـا، وكـم مـن الوقـت كنـتِ تريديـن الانتظـار حتـى تقـولي لي هـذا؟

- آسفة، كان لا بد أن أقول لك ذلك على الفور.

- فعلاً، متأكدة؟ أنا كنت سأنتظر شهراً آخر.

- لقد اعتذرت لك!

- وكيف بدا لكِ؟ ما الانطباع الذي تركه عندكِ؟

- لم نتحـدث كثـيراً لهـذه الدرجـة، إلا أنـه بـدا لي مهذبـاً جـدّاً، وشـخصاً مسـالماً جـدّاً.

- هـو تمامـاً. ذلـك القنـاع المطمـئن. احـترسي، لقـد خـدع أشـخاصاً كثيريـن بهـذه الطريقـة.

- وماذا عنك يا (لو)؟

- ماذا عني؟

- ألم يخامرك قط أدنى شك أن أباك ربما لا يكون كما تراه أنت؟

- آه، سحقا.

- ماذا؟

- خدعكِ.

- ماذا تريد أن تقول؟

- لقـد قـال لـكِ إننـي أنـا المصـاب بـازدواج في الشـخصية، وأنـتِ صدقتِـه.

- لكن لا، لم يقل لي أي شيء، أنا سألتك فقط.

- لم تعودي تصدقينني! ولهذا أنتِ غريبة هكذا.

- (لـو) ضـع نفسـك في مـكاني! تـأتي أنـت وتقـول لي قصـة عجيبـة، أعجـب مـن أي شيء آخـر، أنـا فقـط أحتـاج إلى بعـض الوقـت لـكي...

- أجـل، لكـن انظـري إليَّ! المسـيني! هـل أبـدو لـكِ مجنونـاً؟ قـولي لي، هـل أبـدو لـكِ مجنونـاً؟

- لكن لماذا تقول لي هذا الآن!

- لقـد وعدتِنـي، تذكـري هـذا. لا تحنثـي بوعـدك، وإلا لـن ترينـي أبـداً.

- (لو) ماذا بك الآن؟ لماذا تفعل هذا؟ إلى أين أنت ذاهب؟

- سأرحل، سأرحل بعيداً. أحتاج إلى أن أكون بمفردي.

- لكن لا، لنتحدث، ممكن؟ حاول أن تشرح لي، ساعدني!

- جويـا، لا يوجـد كثـير لأشرحــه هنــا؛ إمــا أن تأخــذي صفــه أو صفـــي. والآن أنـــتِ تقولـــين لي بـــكل وضـــوح في أي صـــف أنـــتِ.

- لكـن مـا هـذا الـذي تقولـه! أنـا أريـد أن أكـون معـك! أريـدك أنـت!

- لا أعرف يا جويا، لم أعد أعرف أي شيء. الآن سأرحل، سلام.

- (لو)!

-...

- (لو)!

35

- وحضرتك، ما رأيك يا آنسة؟

قال في لحظة ما الأستاذ بوفه وهو ينظر إلى جويا.

حاولـت هـي كل شيء، التركيـز والانتبـاه، إلا أنهـا بعـد عـشر ثـوانٍ مـن الـدرس فقـدت الاتصـال مـع كوكـب الأرض، وانتقلـت كلهـا إلى كوكـب (لـو).

- مـاذا، معـذرة؟ حاولـت أن تقـول، لكـن وجهها كان وجـه شـخص استـيقظ للتـو.

- كنت أقول، ما رأي حضرتك في هذه القصة؟

- يـا أسـتاذ، مايوناجويـا لديهـا صديـق؛ ولهـذا لم تعـد تتابـع حضرتـك! قـال كازالي مـن آخـر الفصـل، إلا أن الفصـل هـذه المـرة لم يضحـك، ولم يدعمـه أحـد، وكانـت هـذه المـرة الأولى، عـلى الإطـلاق، منـذ أن التحقـت جويـا بتلـك المدرسـة.

سـأل الأسـتاذ وهـو يعقـد ذراعيـه: مـاذا سـميت زميلتـك يـا سـيد كازالي؟

- إنـه اسـمها يـا أسـتاذ! الجميـع يطلـق عليهـا هـذا الاسـم! أجـاب كازالي باحثـاً عـن الموافقـة في عيـون زملائـه. بوتشـا فقـط، تابعـه الأبدي هـو مـن أومـأ بالإيجـاب.

- لا، ليـس هـذا اسـمها يـا كازالي. هيـا، انطـق اسـمها الحقيقـي، وإلا سـأضع لـك ثلاثـة جميلـة في الدفـتر.

- أستاذ ، لكن حضرتك لا يمكن أن تعطيني ثلاثة فقط لأنني...

- لا، لا أعتقد أن هذا اسمها، أليس كذلك؟

أظلـم وجـه كازالي تمامـاً، وبصـوت رفيـع جـدّاً قـال: جويـا، اسـمها جويـا.

- أحسنت يا كازالي. يعجبني هذا.

قـال البروفيسـور ثـم التفـت إلى جويـا: حسـناً يـا آنسـة سـبادا، إذا كنـتِ بالفعـل قـد دخلـتِ إلى تلـك الغابـة الرائعـة - وفي الوقـت نفسـه البشـعة - التـي يسـمونها الحـب، لا يمكـن ألا تهتمـي بالقصـة التـي نتحـدث عنهـا اليـوم؛ لأن في داخـل تلـك القصـة يوجـد كل الحـب.

- أسـتاذ، لكـن إذا كنـا نتحـدث عـن شـخصية تصل عـذراء إلى الـزواج؛ فعـلى مـا يبـدو لي نحـن أمـام قصـة خيـال علمـي! قـال بوتشـا مـن مكانـه. وضحـك الفصل.

تـصرف بوفـه كأنـه لم يسـمع، واسـتمر: إذن، كـما قلنـا، سـايكي[32] كانـت هنـاك، وحيـدة، في ذلـك القـصر رائـع الجـمال، الـذي لا تسـكنه سـوى أصـوات ووصيفـات خفيـات. كان هـذا عالمهـا، الآن، وبـلا شـك، بـدأت تشـعر بأنهـا مسـتريحة هنـاك في الداخـل. في الوقـت نفسـه، تنتظـر وتتسـاءل أيـن عريسـها، وكيـف تأخـر كل هـذا الوقـت ليريهـا نفسـه؟ افهمـوا جيـداً، كانـت الزيجـات، التـي لا يتعـرف الأزواج فيها إلى بعضهـم سـوى أمـام المذبـح، كثـيرة، لكـن سـايكي أول فتـاة في التاريـخ تجـد نفسـها متزوجـة بالفعـل مـن شـخص لم تكـن رأتـه قـط. حتـى وصـل إليهـا في ليلـة مـا، فجـأة، وجدتـه هنـاك، في حجرتهـا، معهـا. الحـب شـخصيّاً، إيـروس، عريسـها، وفي لحظـة كان أسـفل أغطيتهـا.

- سـيناامان معـاً! قـال كازالي بعـد أن وضـع يـده عـلى فمـه. وفي هـذه المـرة، ضحـك الفصـل ضحكـة اسـتهزاء.

أكمـل بوفـه مبتسـماً: بالتأكيـد يـا كازالي، لكـن في الظـلام التـام. كان يمكـن أن تلمسـه سـايكي، وأن تسـمع صوتـه، وكانـت في أثنـاء الليـل تختـبر كل المشـاعر والانفعـالات الأكـثر جـمالاً التـي شـعرت بهـا، لكـن لم يكـن في إمكانهـا رؤيتـه. إذا نظـرت إليـه ولـو لثانيـة فقـط، لانفـك السـحر، ورحـل عنهـا هـو إلى الأبـد.

بـدأت جويـا تشـعر بالنـدم؛ لأنهـا لم تسـمع القصـة منـذ البدايـة؛ لأنهـا أيضـاً إذا أزالـت الأسـماء العبثيـة والقـصر بـارع الجـمال؛ فهـو عمليّـاً يتحـدث عنهـا.

أخـذ بوفـه يسـير بـين المقاعـد واسـتمر، وهـو ينظـر مـن حـين إلى آخـر في عينَـي تلميـذ مختلـف: سـايكي لم تكـن تسـتطيع حتـى أن تصـدق، كل هـذا الحـب، وكل هـذا الجـمال، ولا يمكنهـا حتـى أن تـراه، ولا حتـى عـلى ضـوء ضعيـف لشـمعة. كانـت الليـالي تمـر مثـل الثـواني،

(32) أسطورة كيوبيد وسايكي أو بسيكي.

والشـك في وجـود كذبـة مـا بـدأ يتزايـد، وأخواتهـا هنـاك يقلـن لهـا إن هنـاك شـيئاً مـا مثـيراً للشـكوك: احـترسي... يمكـن أن يكـون شـيطاناً أو نصاباً، لا تثقـي بـه. وبـدأت هـي تفكـر وتفتـح ذلـك الجـزء الآخـر مـن ذهنهـا: في الواقـع يوجـد عـدد مـن الأشـياء الغريبـة، أنـتن عـلى حـق، لم أعـد أثـق مطلقـاً. قالـت سـايكي. إن مـا أشـعر بـه جميـل؛ بـل رائـع الجـمال، لكننـي لم أعـد أثـق. إلا أن الحـب قـال لهـا: لا ضـوء. لا بـد أن يظـل وجهـي مجهـولاً بالنسـبة إليـكِ. إنـه الثمـن والـشرط مقابـل الحـب! لم تكـن هنـاك طـرق أخـرى، إمـا الظـلام أو لا شيء، خصوصـاً أنـه حذرهـا: إذا لم تلتزمـي بالوعـد، سـتكونين أنـتِ مَـن يعـاني.

أجل، إنه يتحدث بالفعل عنها، عن جويا.

- في رأيكـم، مـاذا كان خطـأ سـايكي؟ سـألهم البروفيسـور. ارتفعـت بعـض الأيـدي.

- في رأيـي، لقـد تصرفـت تصرفـاً حسـناً: أن نثـق شيء جميـل، لكـن ألا نثـق أجمـل. قالـت باتّـا.

- ربمـا كان عليهـا الانتظـار بعـض الوقـت. أن تسـتمتع أقصـد. همسـت فتـاة أخـرى وهـي تبتسـم.

- ربمـا كان عليهـا أن تتفـق عـلى كل شيء بوضـوح مـع ذلـك الـشيء، كيوبيـد. تجـرأ كازالي وقـال.

عندمـا انتهـوا جميعـاً مـن قـول مـا يفكـرون بـه، رفعـت جويـا يدهـا.

- أجل يا آنسة سبادا؟

- لم أفهم ما الشيء السيئ الذي فعلته.

- أرأيـتِ أنـه كان مـن الأفضـل الاسـتماع إلى القصـة منـذ البدايـة؟ عمومـاً، فعلـت ذلـك الأمـر السـيئ، فتحـت النـور.

- أهذا كل شيء؟

- أجـل يـا آنسـة سـبادا، هـذا كل شيء. في إحـدى الليـالي، وبينـما ينـام كيوبيـد في سـلام في الفـراش، أخـذت مصباحـاً وأشـعلته لـتراه؛ لتتأكـد أنـه ليـس وحشـاً ولا قاتـلاً، كـما قالـت لهـا أخواتهـا، لكـن كان هـذا كل شيء، الـذي لم يكـن أي شيء. كان خطـأ سـايكي، هـل تفهمـن؟ أن تفكـر في أن تأخـذ النـور حيـث الظـلام. أن تفكـر في أنهـا يمكـن أن تنظـر إلى الحـب بعينَـي العقـل؛ لأنهـما عالمـان متوازيـان، لا يمكـن أن يتقاطعـا أبـداً. لا يمكـن أن تفكـر أنـك يمكنـك أن تفهـم، أو تقـرأ أو تفـسر أو تمنـح تفسـيرات منطقيـة. ليـس هنـاك. ربمـا في أماكـن كثـيرة أخـرى، لكـن ليـس هنـاك.

الصمـت التـام في الفصـل. الأنفـاس فقـط، وصـوت حفيـف أوراق الأشـجار في الخـارج. ترفـع جويـا يدهـا مـن جديـد: ومـاذا حـدث بعـد ذلـك؟ مـاذا فعـل كيوبيـد؟

- حسـناً، سـقطت مـن المصبـاح الزيتـي نقطـة زيـت مغليـة عـن طريـق الخطـأ عـلى كتـف الإلـه الرومـاني، واسـتيقظ هـو. عندمـا اكتشـف أنهـا حنثـت بالوعـد، هـرب بعيـداً ولم يعـد قـط.

36

- لماذا تنظرين إليَّ بهذه الطريقة السيئة يا آنسة؟

- حضرتك تعرف لماذا؟

- معذرة، ماذا؟

- كنـت حضرتـك! حضرتـك مَـن قلـت لي عـن كل تلـك القصـص، عن ذلـك الفعـل «يُبهـر»، حضرتـك مـن قلـت لي إنـه مـن الأفضـل أن يعمينا الضـوء وليـس الظـلام. والآن تتحـدث عـن ذلـك الشيء؟

- أخشى أنني لا أفهم بالضبط ما تقولين، أتعرفين؟

- لقـد ذهبـت خلـف كلماتـك، ربمـا لا تعـرف هـذا، لكننـي تبعـت

ما قلت لي أن أفعله. والآن، أكتشف أن ما أعتقده نوراً ليس نوراً، وأنه في الحقيقة كله ظلام، وأن خطئي أنني أشعلت النور. أنا الآن لم أعد أفهم أي شيء!

- هل ربما تحاولين أن تقولي لي، ما معناه، إنكِ لديكِ مشكلة في مواجهة الظلام؟

- لا، أحاول أن أقول لحضرتك إنك كان لا بد أن تقول لي هذا من قبل، وأن تضعه في التعليمات، وتحذر الناس، أن مَن يرغب في الضوء عليه أيضاً أن يُمسك أيضاً بكل هذا الظلام!

- آه، فهمت الآن.

- كان لا بد أن تقولوه لنا على الفور، جميعكم، وليس أن تخترعوا لنا كمية من الحكايات الخرافية لكي تجعلونا نعتقد أشياء غير حقيقية؛ لأن الأمر بهذه الطريقة ليس سوى خدعة.

- لديكِ حق. يمكنني فقط أن أقول لكِ إنّك على حقّ. كل واحد منا يستحق أن تُقال له الحقيقة العارية والقاسية، دون أن ينتظر أن تحوِّل الحياة له الحكايات إلى كذبات.

- آه؛ لأن الأمر بالفعل هو كذلك، في الواقع. كانت كلها كذبات. في النهاية ينتصر الظلام.

- لا، بالعكس، ما يحدث هو العكس. لكن، كما قلتِ سيادتك؛ لكي ينتصر النور، لا بد في البداية أن نقبل الحقيقة، القاسية بعض الشيء في استيعابها.

- التي هي؟

- اسمعي يا آنسة، آينشتاين وبوهر قضيا أعواماً كل منهما يريد أن يكون المحق، فكانا يتبادلان الخطابات ويتناقشان، أحدهما يقول إنه عندما نتحدث عن الضوء لا توجد يقينيات، لكن افتراضات فقط، والآخر الذي كان يريد، بل تقريباً يُطالب، بأن يكون هناك

تفسير أبسط، لكن في النهاية لا نزال جميعاً عند النقطة نفسها، حتى بعد مرور مائة عام، نعلم كل شيء عن الضوء، لكننا لا نعرف حتى الآن ما الذي يوجد بين فوتون وآخر، وأين ينتهي، ويمكننا فقط أن نعتمد على افتراضات ولا توجد أي يقينيات.

- لا توجد على الإطلاق؟

- لا! وليس لأن العلم لم يحاول، لكن لأنه لا يستطيع، بهذه البساطة: لا يستطيع. وهذه هي الحقيقة التي يصعب استيعابها.

- وما هي؟

- أن كل ضوء يحمل قلباً من الظلام.

37

- لكن، هل أنتِ مقتنعة بذلك الذي ستفعلينه؟

- بالتأكيد لا يا تونيا! هل أبدو لكِ مقتنعة؟

- اللعنة، ماذا تفعلين هنا إذن، بهذه الكنزة في يدك؟

- أنتظر الاستنارة.

تقف جويا ومعها تونيا، في الشارع القريب من منزل (لو). كانت تشعر ببعض الاستياء؛ لأن عليها أن تُعيد كنزة (لو)، خصوصاً لأنها بذلك لن تستطيع أن تُخرجها من خزانتها وتشمها، كما تفعل على الأقل عشر مرات في اليوم.

قالت لها تونيا: إذن تحركي!

- أنتِ تعرفين، إذا عبرت الطريق، ورننت ذلك الجرس، ربما أشعلت النور عن طريق الخطأ، وحنث بوعدي، ولن أراه بعد ذلك أبداً، لكن إذا مكثت هنا، يمكنني أن أترك الأمور كما هي عليه، وأستمر في رؤية (لو) في الخفاء.

- بالتأكيد، حتى يكتشفه أحدهم، أو حتى تفشي جوفانا سركما.

- على الأقل سيستمر الأمر بعض الوقت.

- لكن ربما أمكنكِ...

- يمكنني؟

اقتربت منها تونيا كأنها تريد أن تسر في أذنها: أتعرفين، يمكنكِ ببساطة أن تدخلي إلى هناك، وتتحدثي بعض الوقت مع الأب، وتفهمي المزيد، نظراً إلى أن الوضع كما هو الآن غير مفهوم بالمرة!

- أحسنتِ، في نهاية الأمر، سيكون مجرد إخلال بسيط بالاتفاق! ولست مجبرة على أن أقول له أين ابنه!

- بالضبط!

- أوكي، إذن، الآن سأضع مُشغل الأغاني، وبمجرد أن تبدأ Born to Run، سأذهب لأرن الجرس.

بدأت الأغنية الأولى، ولم تكن Born to Run: ومَن يهتم! سأذهب على الرغم من ذلك.

قالت جويا وعبرت الطريق.

38

المنزل لامع من الداخل. مزهريات من الخزف الصيني، والأثاث من الخشب اللامع، تبدو إطارات اللوحات كأنها خرجت لتوها من غسالة اللوحات.

- تفضلي اجلسي. قال هو، وهو يشير إلى أريكة، يدفع شكل نسيجها المرء إلى الخوف من مجرد لمسها. تشكره جويا وتجلس، وهي تضع الكنزة فوق مسند الذراع.

- زوجتي في أعلى، تستريح، وكما قلت لكِ؛ فهي من يعاني أكثر من هذا الوضع.

قال لها، وهو يتحدث بصوت منخفض، كما يحدث عندما لا يرغب أحدهم في إيقاظ الأطفال، ثم وقعت عيناه على الكنزة: آه، هذه هي الكنزة المشهورة إذن؟ أتعرفين أنه يبدو لي أنني لم أرها قط؟

قدمتها جويا إليه، وهي تفكر في: «يالمصيبة!» وتُدرك على الفور أنه سيكون من الصعب كتمان كل ما تفكر فيه.

حاولت أن تقول: «ربما لم يكن يرتديها كثيراً». بنبرة صوت بها درجة من القناعة التي تميل، نوعاً ما، إلى مستوى «ولا أنا أيضاً أصدق هذا».

الملعونة تونيا، استطاعت أن تقنعها بأن ترن ذلك الجرس. الآن تجد جويا نفسها مثل سايكي في تلك القصة التي حكاها البروفيسور بوفه، مع أقل خطأ ستُسقط نقطة الزيت المغلي، وسيختفي مفعول السحر إلى الأبد. وهكذا سألته: آسفة، هل يمكنني أن أذهب لثانية إلى الحمام؟

كانت بحاجة إلى أن تتنفس للحظة، أن تركز بطريقة أفضل. تريد معرفة الحقيقة عن (لو)، لكن في الوقت نفسه لا تريد أن تحنث بوعدها.

- بالتأكيد، في هذا الاتجاه، على اليمين. أجابها الأب، أو (الأب). هو في النهاية.

وبمجرد أن أغلقت الباب بالمفتاح، نظرت جويا بانتباه إلى المرآة. لا تعرف إذا كان هذا هو الحمام، الذي كان (لو) يتواصل مع أمه من خلاله، لكنها أخذت تفحصه على الرغم من ذلك، محاولةً في انعكاسه أن تقرأ شيئاً ما، أن تفهم. ثم، لكي تبرر واقع أنها دخلت إلى هناك منذ فترة، دفقت المياه على الرغم من أنها لم تستخدم المرحاض.

عندما خرجت، سمعت ضوضاء غريبة. كانت آتية من الصالون؛ حيث كان يجلس والد (لو). في البداية، بدا لها شيء، ثم فكرت أنه لا يمكن أن يكون ذلك الشيء، لكن عندما اقتربت، اكتشفت أنه بالفعل ما فكرت فيه، فقد كان ينتحب. كأنه يبكي، لكنه يحاول أن يمنع نفسه. لم تعرف جويا ماذا تفعل. أن تقف مكانها، وتنتظر حتى ينتهي، أم تذهب إلى هناك وتتظاهر باللا شيء.

لم تكن رأت قط شخصاً كبيراً يبكي؛ رجلاً بالتحديد. شيء غريب. رؤية رجل ناضج يبكي تتسبب في شيء من فقدان التوازن، تحرك المرء من مركزه، كأنها تنزع عنه اليقينيات، حتى إن كنت لا تعرفه، حتى إن لم تعرف من هو، عندما يرى المرء رجلاً يبكي يشعر كأن هناك زلزلة صغيرة أسفل قدميه. وشعرت جويا مرة أخرى بذلك الضياع، حتى مع معرفتها له من الناحية العملية.

قال لها هو، وهو يمسح أنفه: تعالي، تفضلي.

دخلت جويا إلى الصالون ببطء. وعلى المائدة وجدت كوبين وزجاجة مياه.

- هل عثرتِ على الحمام؟ كل شيء على ما يرام؟

- أجل، شكراً. كل شيء على ما يرام.

جلست جويا. نظر والد (لو) نحو النافذة وعيناه حمراوان. لم يكن تعبير وجهه حزيناً فقط، لكن بدت أشياء كثيرة فوق ذلك الوجه، بدا من بينها الحزن، الشيء الوحيد الذي تمكنت من فهمه.

قال، وهو يجفف وجهه بالمنديل: اعذريني، من حين إلى آخر يتزعزع الجدار بعض الشيء.

لم تقل جويا أي شيء، لم تكن تعرف ماذا يجب أن تقول.

- أتعرفين، أنا مهندس، وهنا دوري أن أكون الجدار الحامل.

زوجتـي مريضـة مرضـاً عصبيّـاً، ويجـب أن أصحبهـا إلى الاختصاصيـة النفسـية كل يومـين؛ فهـي تحتـاج إلى عـلاج باسـتمرار.

حاولت جويا أن تقول: لا تحتاج إلى أن تفسر لي، أنا...

- لا، عـلى العكـس. أريـد أن أقـول هـذا لـكِ أنـتِ. تبديـن لي فتـاة ذكيـة. لا أدري كيـف أقـول هـذا، لكننـي أرى أنـكِ كنـتِ تحبينـه. مكتـوب في عينيـكِ أنكـما كنتـما مُقربـين؛ ولهـذا أريـدكِ أن تعـرفي مـا حـدث.

- ما حدث بعد لوكا...

- لا، لا... الذي حدث قبل؛ وذلك لأننا نشعر كلانا بشيء من الذنب.

راقبتـه جويـا، وراقبـت كتفيـه المسـتقيمتين، والطريقـة التـي يطـوي بهـا المنديـل الـذي في يـده. كان يبـدو كالطفـل! مـن جهـة، كان ذلـك يخيفهـا أكثر؛ ذلـك الرجـل، ومـن جهـة أخـرى، كانـت ترغـب فقـط في أن تذهـب إلى هنـاك لتحتضنـه.

- في الحقيقـة، أنـا لسـت الأب الطبيعـي للـوكا. ربمـا فهمـتِ، هنـاك فـرق سـن كبـير بينـي وبـين زوجتـي. كانـت مرتبطـة بشـاب، قبـل أن نتـزوج، وكانـت حبـلى منـه، ثـم في شـهرها الثـاني، تـوفي هـو في حـادث... وتعارفنـا قبـل شـهرين مـن إنجـاب لـوكا، ووقعنـا في الحـب عـلى الفـور. كنـت أريـد أن أتزوجهـا وأعـترف بلـوكا ابنـاً لي، لم أهتـم؛ فلقـد أحببتهـا عـلى الفـور، وأحببتـه هـو أيضـاً. الـشيء الوحيـد الـذي طلبتـه منهـا هـو أن تنتظـر حتـى يصبـح لـوكا كبـيراً بالدرجـة الكافيـة حتـى تقـول لـه، وأن نقـول لـه هـذا معـاً. ومـن هنـا أيضـاً، منـذ هـذا «التعاهـد» الـذي عقدنـاه، بـدأت أولى المشـكلات.

يتمخـط الرجـل، ثـم يمسـح بمنديلـه أسـفل عينـه اليمنـى، بينـما بـدأت جويـا ذهنيّـاً تقـارن بـين القصتـين، وتضعهـما الواحـدة بجـوار الأخـرى. وألا تفهـم أي شيء.

- أجـل؛ لأنــه بالنسـبة إليهـا أصبـح لـوكا جاهـزاً بالفعـل في سـن عـشر سـنوات... وربمـا هـذا كان حقيقيّـاً، لا أعلـم... كان صبيّـاً ناضجـاً جـدّاً وحساسـاً. اعترضـت أنـا، وهكـذا بدأنـا نتشـاجر، في البدايـة عـلى هـذا الأمـر، ثـم عـلى أشـياء أخـرى. أتعرفـين، ربمـا وُجـدت مشـكلات أخـرى في تلـك الفـترة، لكـن هكـذا بـدأ كل شيء، حتـى إن لـوكا اسـتطاع أن يفهـم أن هنـاك شـيئاً مـا ليـس عـلى مـا يـرام بينـي وبـين أمـه، وعندئــذٍ بــدأ يرتكــب أفعــالاً غريبــة. كانــت ردود فعلــه لا يمكــن تفسـيرها، ولحظـات لا يمكـن تهدئتـه إلا بصعوبـة، يتحـول مـن شـخص طيـب ولطيـف وخفيـف الظـل إلى شـخص لا يمكنـك التعـرف إليـه لفـترات وجيـزة جـدّاً يبـدو فيهـا كصبـي آخـر تمامـاً. وهكـذا، بالاتفـاق مـع مدرسـيه، قررنـا أن نصحبـه إلى اختصاصيـة نفسـية؛ نفسـها التـي تذهـب إليهـا زوجتـي حاليـاً. وبعـد مقابـلات عـدة، حدَّثتنـا هـي عـن هـذا الـشيء، وتلـك الأعـراض... PAS.

- PAS؟ سألت جويا وهي ممسكة بالكوب.

- طبيعـي أنـكِ لا تعرفينهـا، لا أحـد يصـدق تلـك الحالـة، ولا أحـد يتحـدث عنهـا، مـع أن الجميـع يجـب أن يعـرف مـا هـي الــPAS؛ اختصــار للاســم الإنجليــزي؛ وهــو Parental Alienation Sydrom؛ وهـي أعـراض التغـرب عـن الأبويـن. عمليّـاً وبالاختصـار، هـو اضطـراب في العلاقـات العائليـة يـؤدي إلى رفـض الابـن لأحـد الأبويـن. وعندمـا يصـاب بـه المـرء، يبـدأ في رفـض أي علاقـة لـه سـواء مـع أبيـه أم أمـه، ويتطـور بعـد ذلـك إلى أفـكار بارانويـا (اضطهـاد وشـك) عنـه أو عنهـا.

شـعرت جويـا بقلبهـا بـدأ يـدق بقـوة شـديدة، وهـي تفكـر في قصـة (لـو)، بالقـرب مـن الكنيسـة الصغـيرة، في الليلـة التـي عـثرت عليـه فيهـا، وكيـف أن القصتـين تتطابقـان تمامـاً، إلا أنهـما في الوقـت ذاتـه بدأتـا في أن تصبحـا مختلفتـين تمامـاً.

- إنـه اضطـراب لم يقبلـه كل الخـبراء بعـد، كثـيرون لا يصدقـون حتـى إنـه مـرض حقيقـي، ويصورونـه كنـوع مـن أنـواع الكـرب، يُصـاب بـه أبنـاء الوالديـن المنفصلـين، ويبـدأ عندمـا يبـدأ أحـد الأبويـن، كـما تعلمـين، في التحـدث بسـوء وإلحـاح عـن الآخـر في غيابـه، وأن يحمِّلـه الأخطـاء... والصبيـة المصابـون بـه يحـدث أن شـيئاً مـا ينطلـق لديهـم، نوعـاً مـن أنـواع الرفـض، في البدايـة يظهـر كنـوع مـن رفـض التعامـل، ثـم بالتدريـج يبـدأ باكتسـاب...

- لكنكما لستما...

- منفصلـين؟ لا. لكـن في تلـك الفـترة كنـا عـلى وشـك الانفصـال. كنـا دائمـاً في حالـة حـرب، نقـول لبعضنـا أشـياء بشـعة، وبالتأكيـد، لم يكـن هـذا سـهلاً عـلى لـوكا، في تلـك الأشـهر. اسـتمر الموضـوع طويـلاً؛ ولنتجنـب أن نؤلمـه أكـثر، اتفقنـا أن الـشيء الأفضـل في لحظـات الأزمـة الحالكـة أن أتغيـب أنـا عـن المنـزل. المشـكلة أنهـا، زوجتـي... أتعرفـين، بـلا أي نيـة شريـرة، لكـن ربمـا لتفضفـض معـه، أخـذت تحدثـه بطريقـة سـيئة عنـي، وكانـت لـ(لـوكا) مـع والدتـه تلـك العلاقـة الخاصـة... وربمـا أضفنـا إلى ذلـك، كـما قالـت لنـا الاختصاصيـة، أنـه شـعر بأننـي خنتـه، نظـراً إلى أننـي أمكـث بعيـداً، وفكّـر أننـي أريـد أن أهجـره، ومَـن يـدري مـاذا فجَّـر هـذا في داخلـه.

كانـت جويـا تسـتمع إلى كلـمات الرجـل وهـي تبتلـع ريقهـا مـن حـين إلى آخـر. وتشـعر بـ(لـو)، مـع كل كلمـة يقولهـا، وهـو يبتعـد خطـوة بعيـداً عنهـا.

- أتعرفـين... بـدا لنـا شـيئاً غريبـاً؛ مرضـاً غـير معـروف، وواقـع أننا في نهايـة الأمـر لم ننفصـل... في نهايـة الأمـر، لم نصـدق تلـك الاختصاصيـة؛ فقـد نصحنـا بهـا مدرسـو (لـوكا)، وكانـت مـن الشـؤون الاجتماعيـة، وتبـدو لنـا عديمـة الخـبرة، وفضَّلنـا أن نلجـأ إلى متخصـص في عيـادة

خاصة، الذي قال لنا على الفور إن هذا المرض PAS لا وجود له، وإننا لا بد أن نبحث عن المشكلات في مكان آخر. وليس فقط التشخيص لم يكن صحيحاً، بل ربما يوجد خلف ذلك شيء آخر، صدمة ما لم نستطع فهمها قط.

بدأ صوت والد (لو) ينخفض بينما يقول هذا، وبدأ تقريباً يرتعش إلى حد أنه لم يستطع أن ينهي العبارة. انتظرت جويا بعض الثواني، ثم قالت: صدمة ما؟

- أجل، لا بد أن شيئاً آخر حدث، أثر فيه، لكن هذا الشيء الآخر لم ننجح قط في اكتشافه؛ لأنه هو... أجل، أقصد، رحل مبكراً جدّاً.

- وهل حاولتما أن تخمنا ماذا يمكن أن يكون؟

- أجل، تحدثنا كثيراً أيضاً مع الاختصاصية التي عدنا إليها، لكن لا شيء. لهذا الأمر نحتاج إليه هو، هو فقط من يمكنه أن يقوله لنا.

توقف والد (لو)، رشف رشفة كبيرة من الماء، بينما لم تستطع جويا ألا تفكر في (لو) محبوساً في حجرة في منزل المُسن، الآن بالتحديد، بينما يتحدث الاثنان معاً. لا بد أن يكون هنا، الآن، وأن يسألاه: ماذا يمكن أن تكون تلك الصدمة التي يتحدث عنها أبوه؟ لم يشِر (لو) قط إلى شيء من هذا النوع، لم يشِر إلى أي حدث أدى إلى ذلك وقع قبل أن يعرف عن أبيه الحقيقي. هل حدث شيء بالفعل أم أنه مجرد افتراض من والديه؟ توجد أشياء كثيرة غير واضحة في هذا الأمر، نسخ كثيرة من القصة نفسها، وللأسف لا توجد سوى وسيلة وحيدة لاكتشاف النسخة الحقيقية.

في ذلك الوقت، بدأ والد (لو) يستكمل حكايته: وما حدث أنه بسبب هذا المرض ازدادت العلاقة بيني وبين لوكا سوءاً، حتى إنه

توقف عن التحدث معي تماماً، وبدأ يتصرف كأنني غير موجود، وكان عمره لا يتجاوز الخامسة عشرة، هل تصدقين هذا؟

شعرت جويا أن شيئاً ما يتأرجح في داخلها. لم تعد تفهم ما هي، بالفعل، الحقيقة. بدأت تشعر ببعض الدوار.

شربت بعض الماء، بينما بدأت أنفاسها تتسارع.

- وهذا دون أن نتحدث عن المدرسة، وعن سوء وضعه إلى حد كبير فيها. كانت نتائجه في المرحلة الابتدائية دائماً بين المتفوقين، لكن فجأة، في تلك الفترة، لم يستطع حتى أن يحل مسألة حساب، ولا أن يحفظ صفحة تاريخ، كأن تلك المشكلة بدأت تتسبب في تعطيل شيء ما في رأسه.

قال هو ووجهه يعبِّر عن عدم تصديقه.

- لكن الاختصاصي الاجتماعي الجديد لم...

- لا، تخيلي. لقد قلل دائماً من حجم المشكلة التي أخذت تتفاقم بشدة عندما أصبح رفضه لي شديداً جدّاً إلى حد...

عرفت جويا بالفعل ما هو على وشك أن يقوله، وشعرت أنها ترتعش.

-لم يعد يراني كأب له.

فجأة، شعرت جويا بالاحتياج الملحّ للعودة إلى الحمام؛ لتأخذ دقيقة تستريح فيها وتتنفس، وتغسل وجهها، وتحاول أن تفهم أي شيء. يبدو أنه لم يلحظ تعبير الضيق على وجهها، واستأنف:

- هنا أخطأت زوجتي؛ ولهذا أيضاً حالتها بهذا السوء الآن؛ فشعورها بالذنب يمنعها من النوم؛ لأنها في أحد الأيام، يوم كنت فيه أنا بعيداً لبعض الوقت، بدأت هي تحدِّثه بسوء عني.

لم تكن لدى جويا الشجاعة لأن تقول أي شيء، أو تطلب أي شيء؛ لأنها أيضاً بطريقة أو بأخرى تعرف بالفعل ما هو على وشك أن يقوله.

- وفي لحظـة مـا، أفلـت منهـا الأمـر، وقالـت لـه... قالـت لـه إننـي لسـت أبـاه الحقيقـي؛ ولهـذا عندمـا عـدت تشـاجرنا بغضـب شـديد... كانـت هـي تفكـر في أنهـا بهـذه الطريقـة تصلـح كل شيء، اعتقـدت أنـه إذا عـرف الحقيقـة سـيرتاح، وخفيـةً عنـي، بـدأت تخـبره بـكل شيء، ومَـن كان أبـوه الحقيقـي.

فكـرت جويـا في تلـك الأم المسـتلقية الآن فـوق الفـراش، وربمـا تشـعر بالنعـاس الشـديد، وفي ذلـك الخطـأ الـذي لا يمكـن غفرانـه الـذي فعلتـه وهـي تظـن أنهـا تفعـل الصالـح، وفي الوقـت نفسـه كـم تشـعر الآن بالاشـمئزاز مـن نفسـها لارتكابهـا ذلـك الخطـأ.

- وبدايـةً مـن هنـا بـدأ الجحيـم. سـاءت حالـة لـوكا تمامـاً؛ لأن رفضـه الآن أصبـح لـه دافـع، هـل تفهمـين؟ الآن كان لديـه حـق بالفعـل أن يفكـر في أننـي لسـت أبـاه! كأنـه شيء حقيقـي بالفعـل.

نظـرت جويـا إليـه متشـككة، ليسـت واثقـة بأنهـا فهمـت مـاذا يقصـد الآن.

- مَـن أبـوك؟ الـذي جلبـك إلى العـالم أم الـذي رأى لحظـة مـيلادك، وأخـذك مـن يـدك ليعلِّمـك السـير، والـذي وضـع في علبـة صغـيرة سـنَّك الأولى؟ مـن أبـوك؟ ذلـك الـذي أنفـه يشـبه أنفـك، أم الشـخص الـذي كان دائمـاً بجـوارك عندمـا احتجـت إليـه؟

أومـأت جويـا بالموافقـة، وهـي تشـعر فجـأة بـأن أسـتاذ الفلسـفة، الـذي عرفتـه فقـط منـذ بضعـة أشـهر، بالنسـبة إليهـا هـو أب أكـثر مـن أبيهـا الحقيقـي.

- أعلـم أن الوقـت متأخـر الآن لأفكـر في هـذه الأشـياء، وأسـتطيع أن أقولهـا لـكِ أنـتِ فقـط؛ لأننـي إذا قلتهـا الآن لزوجتـي سـتزداد حالتهـا سـوءاً، لكـن... كنـت أنـا قـد طلبـت منهـا ألا تقـول لـه شـيئاً؛ لأنهـا ليسـت اللحظـة المناسـبة بعـد، ولا بـد أن ننتظـر حتـى يصبـح قويّـاً بمـا يكفـي،

لكنها كانت واثقة جدّاً، ومقتنعة، وكانت تعتقد أنه إذا عرف الحقيقة سيضع الأشياء في نصابها داخله، وسيعيد تنظيم كل شيء. أتفهمين؟ لكن ما حدث هو العكس تماماً، بدأ يراني عدوه، وكان يعتقد أنه في خطر، وبأنني أريد أن... يا إلهي، يصعب عليَّ حتى أن أنطق بها.

- فهمت. حاولت جويا أن تساعده.

- بأي معنى فهمتِ؟ وكيف يمكنكِ أن تفهمي؟

توقفت جويا عن التنفس. ابتلعت ريقها. سلكت صوتها، ثم حاولت أن تقول: لا أعرف، من الذي تحكيه لي، ربما... ربما اعتقد أنك تريد أن تؤذيه؟

- أجل، بالضبط، ودخل لوكا هكذا في المرحلة الثالثة.

- المرحلة الثالثة؟

- كانت المتخصصة قد شرحت لنا أن هذا المرض له ثلاث مراحل، وفي تلك الأصعب، تبدأ تظهر أعراض بارانويا حقيقية، فيبدأ الذي يعاني منه في رؤية أشياء غير موجودة؛ فهو - لا أعلم كيف - لا بد أنه فكر في أنني أفكر في أن أؤذيه و...

عندئذٍ نهضت جويا وجرت إلى الحمام، دون أن تقول شيئاً سوى: آسفة.

جلست في الداخل خمس دقائق كاملة، خمس دقائق لا تعرف فيها ماذا تفعل.

ربما تلك الكتابة على المرآة؛ تلك التي قالت له فيها الأم إن أباه يريد أن يؤذيه، لم تحدث قط في الواقع. رآها هو فقط، ثم كسر المرآة وجرح نفسه، لكن هل يمكن بالفعل الوصول إلى هذه الدرجة، الوصول إلى الجنون بسبب الوالدين؟

أجل، ربما يحدث هذا، بل، وقد سألت جويا نفسها هذا السؤال أكثر من مرة، كيف أنها حتى الآن لم تُجن؟ ما الذي

أنقذها من الثقب الأسود الذي تطلعت إليه أكثر من مرة، والذي كانت تكفي دفعة بسيطة لتُسقطها في داخله؟

ربما الصور. ربما الكلمات التي تدونها في مفكرتها. ربما تونيا، أو الموسيقى، ربما تكون تلك الأشياء جميعاً، كلها معاً، منعتها من السقوط في الهوة. ربما لم يعثر (لو) قط على الشيء الذي يمكنه إنقاذه. ربما.

إلا أن جويا، في داخل ذلك الحمام، لم تعد تعرف ماذا تفعل. ليس أنها لا تعرف؛ بل تعرف جيداً جدّاً، لكنه أصعب شيء في العالم. أسقطت سايكي عن طريق الخطأ نقطة الزيت المغلية على جلد كيوبيد، وهكذا بإيقاظه بطُل السحر. أما هي الآن، فستفعل ذلك متعمدة، وبكل وعيها، لا بد لها أن تحنث بوعدها معه. لأن (لو) مريض، ويحتاج إلى مساعدة، ويحتاج إلى أن يفهم أن أباه الحقيقي ليس ذلك الشخص المدفون في مكان ما، لكن ذلك السيد ذا العينين اللامعتين، والمنديل المبلل بالدموع في حجرة المعيشة في منزله، لا بد أن يعود ويعيد البسمة من جديد إلى أمه.

- لكن (لو) لن يأتي مرة أخرى ليراني.

- أعلم هذا يا حلوة.

- لن تكون هناك حجارة، ولا مباريات أسهم، ولا حتى أمسيات في الكنيسة الصغيرة.

- بالفعل.

تقف جويا أمام المرآة، وصديقتها تجلس فوق المرحاض، وتمر الثواني.

- تونيا.

- قولي لي يا حلوة.

- ماذا يجب أن أفعل، اللعنة؟

-لا أعلم يا حلوة. الأمر يتوقف على ماذا تريدين.

- أنا أريد (لو).

- إذن لا تقولي أي شيء لأبيه.

- لكنني أيضاً أريده بخير.

- إذن، اذهبي إلى هناك، وقولي له أين يختبئ.

- لا يوجد حل وسط، أليس كذلك؟

- أخشى أنه لا يوجد يا حلوة.

- شيء يحسِّن من حال (لو)، ويجعله أيضاً يظل معي.

- ربما عندما يشفى.

- إذا شُفي، تقصدين.

ثـم، بينـما كانـت تجلـس أمـام المـرآة تتحـدث مـع صديقتهـا المتخيّلـة، تذكـرت جويـا شـيئاً مـا. تذكـرت القصـة التـي حكاهـا (لـو) لهـا؛ تلـك الخاصـة بمدينة الأشـباح، في أعـماق البحـيرة. وعندمـا تذكرتها، فهمـت الإجابـة التـي عرفتهـا منـذ البدايـة؛ لأنهـا كانـت تعـرف دائمـاً مـا يجـب عليهـا عملـه.

- اللعنة، كان هو من قال لي!

- من هو يا حلوة؟

- (لـو)، هـو الـذي قـال لي بالفعـل مـا الـذي يجـب أن أفعلـه. قالـت جويا.

أي اختيـار سـتقوم بـه، شـخص مـا سـيتألم. لا مفـر هـذه المـرة: إنـه أحـد تلـك المواقـف، التـي مـن المسـتحيل فيهـا ألا يتـألم أحـد. الأب، الأم، هـي، (لـو)، لا بـد أن أحدهـم سـيتألم مـن أي قـرار سـتتخذه جويـا عندمـا تخـرج مـن ذلـك الحـمام.

سـواء اختـارت ألا تقـول أي شيء، أم أن تقـول كل شيء، لكنـه في تلـك القصـة التـي حكاهـا لهـا، أغـرق الـرب المدينـة الشـبح، ليـس لأن

شـعبها كان يتسـبب في أذى أشـخاص آخريـن؛ بـل لأنـه مسـتحيل ألا يحـدث. كان الـرب غاضبـاً مـن سـكان القريـة الشـبح؛ لأنهـم توقفـوا عـن المحاولـة، وتوقفـوا عـن أن يصدقـوا بإمكانيـة هـذا.

هـي لا تسـتطيع أن تفعـل كـما فعـل شـعب تلـك المدينـة القابعـة في عمـق البحـيرة. لا بـد أن تذهـب إلى هنـاك وتقـول مـا تعرفـه، تسـاعد والـد (لـو) في أن يعـثر عـلى ابنـه، في أن يعالجـه؛ لأن (لـو) لـن يكـون بخـير أبـداً إذا لم يحـل كل تلـك الفـوضى التـي خلَّفهـا وراءه. كان يمكـن بالتأكيـد لجويـا أن تطيـل لبعـض الوقـت هـذه الحيـاة السريـة ولقاءاتهـما فـوق بجـوار الكنيسـة الصغـيرة، والقبـلات ومـا إلى ذلـك، لكـن هـذا لـن يكـون صوابـاً، سـيكون تصرفـاً أنانيّـاً، ولـن تنتـج عنـه إلا سـعادتها هـي.

لا، إن جويـا هـي الفتـاة التـي، مـن صغرهـا، عندمـا كانـوا يسـألونها: «مـاذا تريديـن أن تفعـلي عندمـا تكبريـن؟» كانـت تجيبهـم دائمـاً الإجابـة نفسـها: أن أسـعد أحدهـم.

توجـد أشـياء قليلـة تعرفهـا جويـا؛ أشـياء متأكـدة منهـا وسـتكون دائمـاً متأكـدة منهـا. شـيئان أو ثلاثـة. وواحـد مـن تلـك الأشـياء أن أسـوأ شيء يحـدث عندمـا يكـبر المـرء أنـه يخـون الطفـل الـذي كانـه.

إن مـا يجـب عليهـا عملـه؛ الـشيء الصـواب، يكمـن كلـه في قصـة القريـة الشـبح.

وكان (لـو)، في إحـدى الليـالي الأولى، التـي تعارفـا فيهـا، مَـن قـصَّ عليهـا مـاذا يجـب عليهـا أن تفعـل، ومـا سـتفعله.

الجزء الثالث

Besa (ألباني)

وعد لا يمكن نكثه؛ كلمة شرف، أن يتمسك المرء بقسمه.

1

إيه يا أداة التعريف...

مـرت الآن أيـام عـدة، منـذ تلـك الليلـة الأخـيرة في منـزلي (أوكي، ربمـا ليـس هـذا الوقـت لأن أتظاهـر بأننـي لا أعـرف: مـرت عـشرة أيـام، وسـاعة وسـت دقائـق).

أجـل، إذا حسـبتها جيـداً سـتكون قـد فهمت أن السـاعة الخامسـة صباحـاً وأنـا أكتـب إليـك. سـيكون مـن الجميـل أن أسـتطيع القـول إننـي شـخص صباحـي، وأحـب الاسـتيقاظ مبكـراً لأمـلأ الأوراق بالحـبر، لكـن في الحقيقـة أنـا والنـوم لا نتفـق كثـيراً في الفـترة الأخـيرة. لنقـل إن أحدنـا يتجنـب الآخـر.

قالـوا لي إنـك لم تعـد تريـد أن تعرفنـي. في الحقيقـة، كانـوا في غاية الدبلوماسـية، قالـوا لي إنـك حاليـاً تفضِّـل ألا تتحـدث مـع أحـد، لكـن مـن الطريقـة التـي حدثـوني بهـا، فهمـت أن هـذا هـو المقصود.

حسـناً، لقـد فكـرت أنـه ربمـا يمكننـا أن نصـل إلى حـل وسـط: سـأكتب أنـا إليـك، وهـم سـيحملون إليـك مـا أكتبـه، ويمكنـك أن تضعـه هنـاك في أحـد الأدراج القريبـة مـن الفـراش؛ لأننـي أتخيـل أنّ لديـك طاولـة جانبيـة بالقـرب مـن فراشـك في ذلـك المـكان، ثـم

عندما تشعر ببعض الفضول، ربما، وتريد أن تعرف ماذا يحدث في هذه المنطقة، أو تشعر فقط بالرغبة في أن تسمع صوتي على شكل كلمات ملقاة هناك على تلك الأوراق بذلك القلم البيك المعضعض، ربما وقتها يمكنك أن تفتح الأظرف وتقرأ، ثم تعود من جديد بهدوء إلى رغبتك في ألا تراني أبداً.

هل نفعل هذا؟

2

إيه يا (لو)...

قال لي والداك إنك لست في أحسن حالاتك في ذلك المكان، وبطبيعة الحال ليست لديك الرغبة في رؤية «أحد».

لا أدري إذا كانت هذه رسالة مُشفرة لي، لتقول لي إنك تتذكر عندما سألتك إذا كان اسمك (ولا أحد).

سأتظاهر بأنها كذلك، وسأكتب إليك؛ والسبب أنني لا أستطيع أن أكفّ عن ذلك؛ ولأنني أيضاً عندما أكتب إليك، على الأقل في الفترة التي فيها أكتب إليك، أنت هنا؛ ولهذا أيضاً أكتب ببطء شديد، وأخط الحروف بعناية واهتمام، وهكذا تمكث فترة أطول هنا معي.

أصبحنا في فصل الصيف تقريباً.

ليس الصيف فصلي المفضل، تعجبني أكثر الفصول التي لا تحمل اسماً، من نوع تلك الفترة التي تقع بين شهرَي أبريل ومايو، والتي تُعد جزءاً من فصل الربيع، لكنها تبدو كأنها فصل داخل فصل آخر أكبر؛ فالأيام تبدو للعين أطول، ويسود الشعور بأن هناك شيئاً ما انتهى، وشيئاً آخر لم يبدأ بعد. وأعشق شهر سبتمبر، وللدقة أكثر، آخر أسبوع من شهر سبتمبر. نظراً إلى أن

الكلـمات، التـي لا وجـود لهـا تعجبنـي، لا بـد أن أمنـح أيضـاً اسـماً لهـذا الأسـبوع، وأن أجعلـه مهـمّاً في أهميـة فصـل كامـل؛ لأن هنـاك في داخلـه يوجـد كل شيء، أجـزاء مـن الصيـف، وأجـزاء مـن الخريـف وأحيانـاً مـن الشـتاء أيضـاً؛ لأنهـا أيضـاً الفـترة التـي فيهـا تُخطـط وتفكـر مـاذا تفعـل طيلـة السـنة كلهـا، وكل شيء يبـدو لـك ممكنـاً، عـلى الرغـم مـن أن الأمـر لا يكـون هكـذا. لكـن مَـن يهتـم؟

ثـم هنـاك أيضـاً الفصـول التـي تقـع بـين الفصـول، مثـل شـهرَي أبريـل وسـبتمبر، تعجبنـي كثـيراً أيضـاً؛ لأنهـا تلـك التـي تحتـوي عـلى turadh أكـثر. والمقصـود بتلـك الكلمـة، بالنسـبة إليـك أنـت يـا مـن تحـب إيرلنـدا، بلغـة الغـال هـي تلـك الأشـعة مـن الأزرق الداكـن جـدّاً، التـي تتشـكل بـين السـحب بعـد العاصفـة. أنـا أعشـق الــ turadh، يمكننـي أن أمكـث ناظـرةً إليهـا لسـاعات.

سـألت عـن أخبـارك، لكننـي لم أحصـل عـلى الكثـير. الـشيء الوحيـد الـذي قيـل لي إنهـما رأيـاك شـارداً، وإنـك تشـعر بالضيـاع حيـث أنـت الآن.

في إحـدى المـرات، فقـدت مفاتيـح المنـزل، كان عمـري ثلاثـة عـشر عامـاً، وكنـت أعـرف أننـي إذا عـدت إلى المنـزل لأبي، سـيلصقني في الجـدار، وعندئـذٍ حاولـت أن أجـرب تقنيـة أن أعيـد خطـواتي؛ وهكـذا بـدأت مـن حيـث كنـت، وأخـذت أعيـد التفكـير في كل مـا فعلتـه، وعندئـذٍ أعـدت بنـاء الترتيـب، الـذي كان: المدرسـة – المنـزل – أكلـت - الواجبـات في المكتبـة، وفجـأة، وقتهـا تذكـرت أننـي في أثنـاء وجودي في المكتبـة ذهبـت إلى الحـمام، وربمـا سـقطت منـي مفاتيحـي هنـاك.

ربمـا نحتـاج إلى أن نفعـل ذلـك في كل مـرة نفقـد فيهـا شـيئاً: أن نعـود إلى الخلـف، ونحـاول أن نكتشـف متـى بالتحديـد فقدنـاه. لا أعلـم، لكـن يمكـن أن تجـرب هـذا.

أتعرف، أنا أيضاً، جاءت لحظة فيها شعرت بالضياع.

ولست أنا فقط؛ بل بدأ الجميع يقولها لي، إنني على وشك أن أفقد نفسي، وكان غريباً لأنه كان حقيقيّاً، في تلك اللحظة ضعت، وكان ذلك بالتحديد في الليلة التي قابلتك فيها، وبالنسبة إليَّ بدا لي أنني عثرت على شيء ما، اللعنة، لأول مرة في حياتي تعرفت على فتى، وتحدثنا معاً، وبدا لي أنه يتحدث مع الجزء الخفي عني، بدا لي كأنه يعيدني إلى الاتصال مع ذلك الجزء؛ ذلك الجزء الجميل الذي لم يكن أحد قد رآه، ولا حتى أنا، في نفسي، بعد.

أحياناً عندما تفقد نفسك لا يمكنك أن تعثر عليها بمفردك. ربما في تلك المرات لا بد أن تترك لأحد آخر العثور عليك. أنت هناك عثرت عليَّ، وربما، مَن يعرف، ربما أكون قد عثرت عليك أنا أيضاً. على الأقل أحب أن أفكر في الأمر بهذه الطريقة.

حضن.

جويا.

ملحوظة: آه، هل تعرف أنني أصبحت ماهرة في لعبة الأسهم؟ الآن أستطيع ألا أسدد على الجدار مرة من مرتين!

3

سلام...

لم أخبرك بهذا من قبل، لكن لديَّ صديقة متخيّلة اسمها تونيا. طويلة القامة، وتتحدث بلهجة جنوبية بعض الشيء، وتلعب الكرة الطائرة. شخصية سوقية، تقول الأشياء دائماً في الوجه كما هي، لا مشكلات لديها، والشيء الذي يعجبني فيها أنها تسألني أسئلة كثيرة. أجل، لديَّ صديقة متخيّلة تلعب

الكرة الطائرة، ومن حين إلى آخر تبدأ في سؤالي. وهل تعرف ما السؤال الذي تطرحه عليَّ من حين إلى آخر؟

تسألني عنك.

أجل، ربما نكون جالستين هناك على المقعد في المتنزه، أو هناك في غرفتي، وتسألني: كيف هو؟ وتقصدك أنت. عندئذٍ في كل مرة لا بد أن أمنحها إجابة مختلفة.

هل تعرفين ماذا تفعل الكلاب عندما لا تراكِ فترة ثم تحتفي بكِ وتقفز عليكِ من كل الاتجاهات وذيلها يتحرك بسرعة شديدة؟ هل تتذكرين كيف يمكنها أن تُشعرك؟ أجل، مهم، عندما تفعل ذلك؟ إذن، (لو) يُشعرني بهذا في كل مرة أراه فيها.

هكذا أجيبها.

هل تحضرك أيضاً عندما تنصتين إلى الصمت في الليل، ويعجبك هذا لأن الصمت شيء نادر، على الأخص في منزلي؛ فأنتِ تكونين هناك، تحاولين التركيز، والاستمتاع بكل ذلك الصمت، ثم يحدث فجأة أن يتوقف المبرد عن أزيزه، وهنا فقط تُدركين أن ذلك، الذي مر عليكِ، لم يكن هو الصمت الحقيقي، وأن الصمت الحقيقي هو ما تنتظرينه الآن؟ إذن، (لو) هو اللحظة التي فيها يتوقف المُبرد؛ ذلك الصمت الذي عندما يحدث يجعلكِ تُدركين معنى الصمت الحقيقي.

هكذا أجيبها.

وهل تتذكرين عندما يخترعون شيئاً جديداً، مثل الهاتف النقال على سبيل المثال؟ عندما وُلدت أنا، قالت لي أمي إنه لم يكن أحد يمتلكه؛ الأغنياء فقط كان لديهم هاتف نقال، وكان بحجم مقلاة المطبخ، ولم يكن في الإمكان وضعه في الجيب، وكان ثقيلاً جدّاً، حتى تحول خلال أعوام قليلة إلى شيء يمتلكه الجميع، وعندئذٍ كان

قليلـون حتـى وقـت قريـب مـضى يمكنهم أن يعيشـوا، جيـداً جـدّاً، دون هاتـف نقـال، وكانـوا يسـتطيعون عمـل كل شيء بـلا أي مشـكلات مـن دون تلـك الأشـياء، فجـأة أدركـوا أنهـم لا يمكنهـم الحيـاة بـلا هاتـف نقـال، ويصبحـون عصبيـين ومتوتريـن، ويشـعرون بالعجـز؛ وهـو شيء عجيـب؛ لأنهـم فقـط قبـل ذلـك ببضعـة أعـوام لم يكونـوا يشـعرون بذلـك الاحتيـاج. إليـك، أنـا أيضـاً في النهايـة رأيـت (لـو)؛ وهـذا مـا حـدث لي، لم أكـن أشـعر قـط بحاجـة إلى هاتـف نقـال، وكنـت أعتقـد أننـي يمكنني الحيـاة جيـداً جـدّاً مـن دونـه، بـل إننـي عشـت أفضـل جـدّاً مـن دونـه، إلا أنـه بمجـرد أن وضعـه أحدهـم في يـدي، وقابلتـه، حـدث شيء كالسـحر، وبـدا لي أننـي لا يمكننـي الاسـتغناء عنـه.

أجل، هكذا أجيب صديقتي المتخيّلة عندما تسألني عنك.

سلام ياneach-gaoil .

(أجل، إنها بالغيلية)...

(لا، لن أخبرك ماذا تعني).

4

أعلـم أننـي خنـت عهدنـا، وأعلـم أننـي فعلـت شـيئاً بسـببه لا تريـد أن تـراني أبـداً، وأعلـم أن الوعـد شيء مهـم؛ وهكـذا أيضـاً كـما أعلـم أن هـذه الخطابـات التـي أكتبهـا إليـك منـذ شـهر تقريبـاً ينتهـي أمرهـا مبـاشرةً في سـلة المهمـلات، لكننـي أعتقـد أنـه لا بـد أن تعـرف بعـض الأشـياء، إذا كان هنـاك احتـمال ولـو ضئيـلاً أنـك تقـرأ هـذه الخطابـات، فأنـا أعتقـد أنـه مـن الصـواب أن تعـرف:

1. أنني أفتقدك.

2. عندمـا قـررت أن أذهـب وأقـول لأبيـك أيـن تختبـئ، كنـت أعلـم جيـداً جـدّاً أننـي أخاطـر بـألا أراك مـرة أخـرى أبـداً.

3. لست شخصاً عاديّاً، ولست مثل الصديق الذي يسكن بجوارنا، والذي إذا لم أرَك، ربما أستاء بعض الشيء أو أبكي قليلاً وينتهي الأمر عند هذا الحد.

4. لا، أنت هو السبب الذي من أجله أضحك بلا سبب، أنت أول فيلم أشاهده بالألوان بعد أعوام من سينما الأبيض والأسود، أنت هو الهواء المشبع بالكهرباء قبل الثلج، أنت الريح التي تجعل الكيس يلف في ذلك المشهد من فيلم (الجمال الأمريكي)، أنت رائحة الخبز الساخن الخارج للتو من الفرن، أنت الصخرة التي تقفز على سطح البحيرة، وإيدي فيدر عندما يدخل فجأة بينما روجو ووترز يغني Comfortably Numb؛ ليغني القرار على الهواء، بينما لا يفهم الجمهور شيئاً بعد ذلك، أنت نقطة الشمع التي تسقط من الشمعة، وعلامة الوسادة على الوجنة، أنت رائحة النظافة والانتعاش بعد غسيل الأسنان، أنت تلك القنبلة من الأمطار التي تصل بعد يوم قاتم وترطب كل شيء، أنت.

5. أنت neach-gaoil بالنسبة إليَّ، وأعلم أنك لا تعرف ماذا تعني، لكن يكفي أن تعرف أنها شيء مهم جدّاً، فهي...

6. ثم أنت لا تعلم أنني ذهبت إلى هناك، إلى العيادة حيث أنت، أو الشيء الذي لا أعرف اسمه، في ذلك المكان الذي يوجد فيه عدد ممن لا يشعرون أنهم بخير و...

7. تحدثت مع فتاة، تقريباً عمرها ثلاثون عاماً، وكانت تبتسم وتبدو أنها في أحسن حال، وقالت لي إنها في هذا المكان منذ ستة أعوام، وهل تعرف؟ قالت لي إنها هناك منذ أن مات طفلها، طفل عمره سنتان، مات غريقاً، وإنها منذ تلك اللحظة لم تعد تشعر بأنها بخير، لا تستطيع العمل، ولا فعل أي شيء؛ ولذلك

بعد أن تحدثت إليها فكرت: «آه، بالفعل».

8. فكرت أنني فعلت، في نهاية الأمر، شيئاً جيداً، حتى إن كنت قد فقدتك إلى الأبد، فعلت شيئاً جيداً؛ لأنني رأيت أباك ولم يكن بخير، وفقدان ابن شيء يمكن أن يتسبب في جنون الأشخاص، وأنت ابنه؛ ولذلك أنا سعيدة أنني قلت له عن مكانك، ويمكنني أن أعيد ما فعلته الآن وعلى الفور.

هذه هي إذن الأشياء الثمانية، التي أرى أنك لا بد أن تعرفها.

والآن أحييك يا أداة التعريف.

جويا.

5

- ما الأخبار؟ أي جديد؟

كانت جويا تجلس أمام طاولة البار، وأمامها كابوتشينو وبريوش بالتوت.

- لا، لا شيء على الإطلاق، إلا أن الأب قال لي إنه أصبح أفضل بعض الشيء، وإنهم بالتدريج بدآ في التحدث.

- حسناً! ألستِ سعيدة؟ سألتها جوفانا، التي تتباهى بوشم جديد، ثعبان ملون يلف حول معصمها. لم تجبها جويا بالكلام، لكن بتعبير بوجهها يقول لجوفانا: لا، أنتِ تعلمين أنني لست سعيدة، وكيف يمكنني أن أكون سعيدة؟

قالت جويا بصوت بطيء، بينما تشرب الكابوتشينو: أتعرفين، كنت أظن أنه عندما سيبدأ في التحسن...

- آه، فهمت، سيرغب في لحظة ما أن يراكِ.

أومأت جويا. ومن التلفزيون المُعلق في أعلى كانت تُسمع موسيقى الإعلانات، وفي الشرفة كانت توجد على الأقل خمس

موائـد مشـغولة، أخـيراً بـدأ البـار يزدحـم.

- أعتقـد أن هنـاك شـيئاً مـا ربمـا لم تفكـري فيـه قـط، لكـن لا أعلـم إذا كان يجب علـيَّ أنـا أن أقولـه لـكِ. قالـت لهـا جوفانـا وهـي تمـلأ صينيـة بالعصائـر والقهـوة.

- أي، مـن واحـد إلى عـشرة، كـم هـو سـيئ هـذا الـشيء؟ سـألتها جويـا، التـي كانـت تعلـم بالفعـل أن هـذا لـن يعجبهـا.

- سـآخذ الصينيـة وأقولـه لـكِ، مـن واحـد إلى عـشرة سـيكون سـيئاً بدرجـة مائة.

وبينـما تمضـغ البريـوش، تفكـر جويـا في أنهـا في أثنـاء هـذا الشـهر فحصـت كل الاحتـمالات؛ ولذلـك لا شيء مـن الـذي يمكـن لجوفانـا أن تقولـه لهـا سـيصيبها بالدهشـة، لكنهـا عندمـا عـادت إلى الطاولـة، ومـن مجـرد نظرتهـا، عرفـت بالفعـل أنهـا لا بـد أن تعيـد حسـاباتها.

قالـت لهـا: جويـا، ربمـا لم تقيِّمـي بالدرجـة الكافيـة ذلـك الـشيء، الـذي سـنطلق عليـه «مرضـه».

أتعرفـين، لقـد قابلـت عـدداً مـن الرجـال الذيـن يوجـد شيء مـا لا يسـتقيم في رؤوسـهم، بـل ولأكـون صادقـة، أعتقـد أننـي لم أقابـل سـوى رجـال هنـاك خلـل مـا في رؤوسـهم، وهنـاك درس تعلمتـه مـن الجميـع هـو التـالي.

نظرت جويا إلى جوفانا وجوفانا إلى جويا.

- أي درس؟

- أحيانـاً يبحـث الرجـال عنـا، عندمـا لا يكونـون عـلى مـا يـرام، ولمجـرد أنهـم ليسـوا عـلى مـا يـرام، ثـم، عندمـا يعـبرون تلـك المرحلة، ويعـود كل شيء إلى صوابـه، وربمـا يكـون ذلـك قـد حـدث بفضلـكِ أنـتِ التـي أخرجتِـه مـن الحفـرة التـي سـقط فيهـا، يرحلـون بعيـداً.

6

تقريباً قال لها الجميع ألا تفعل ذلك.

جوفانا، والاختصاصية، وتونيا، والجميع. حتى الجدة جيمّا، عندما أخبرتها عن ذلك الذي تريد أن تفعله، كان وجهها غريباً. ربما لم يكن هذا يعني شيئاً، لكن بدا لها كأنها تريد أن تقول لها بلهجتها، عندما كانت تتحدث: يا للغباء!

ذلك الذي لم يفهمه أحد أن جويا لم تكن تريد أن تفعل ذلك لتعيد (لو) إليها بطرق ملتوية، ولا أن ترسل إليه رسالة، أو من يدري ماذا. كانت تريد أن تفعله فقط لتفهم؛ ولتضع القطعة الأخيرة التي تنقص في مكانها.

- من؟

- أنا جويا، كنت قد اتصلت من قبل من...

- تفضلي تفضلي، سأفتح لكِ.

الآن تعرف الطريق. في الحقيقة، كان يجب عليها أن تذهب حتى قبل هذا، نظراً إلى أن والد (لو) قد توسل إليها كثيراً أن تمر لتزورهما في كل مرة كانت تتصل به لتسأل عن الأخبار.

كان يقول لها دائماً: تعالي لزيارتنا، لكن لم تكن جويا تشعر بعد برغبتها في الذهاب. لم تكن لديها ذكريات حسنة مع ذلك المنزل.

إلا أنها في هذه المرة حسمت أمرها: تشجعت، واتصلت لتخبرهما أنها ستمر. وضعت حذاءيها، وربتت على جيمّا، ورحلت. والآن كانت تقف هناك، ورنت الجرس للتو.

بعد بضع ثوانٍ من الانتظار، فُتحت البوابة، ثم ها هي جويا، أخيراً، تقف أمام والدة (لو).

7

في أحـد الأيـام، دخـل الأسـتاذ بوفـه إلى الفصـل بميـزان ضخـم؛ أحـد تلـك الموازيـن القديمـة، مصنـوع كلـه مـن المعـدن، بأطبـاق مـن النحـاس معلقـة عـلى سلاسـل، ثـم أعطـى لـكل طالـب حجـراً، جميعهـا تقريبـاً متسـاوية في الـوزن. وفي النهايـة قـال: الآن سـأحكي لكـم قصـة سيكون فيهـا شـخص طيـب وآخـر شريـر، وسـأترك لكـم الميـزان هنـا، ثـم عندمـا ترغبـون، يمكنكـم أن تأتـوا إلى هنـا وتضعـوا حجركـم في أحـد الصحنـين، في الصحـن الـذي يخـص مَـن تظنـون أنـه الطيـب في القصـة.

لم يطـرح أي منهـم أي سـؤال؛ فقـد كان الأمـر يبـدو في غايـة الوضـوح.

- حسـناً. كان يـا مـكان نجـار عليـه كثـير مـن الديـون؛ وليتمكـن مـن سـدادها كان يمـضي السـاعات الطويلـة وهـو يعمـل في ورشـته. كان يوجـد بـين المقاشـط والمطـارق والمسـامير والـبرادي في تلـك الورشـة الصغـيرة نحـو خمـس عـشرة سـاعة يوميّـاً، ويكـسر، حرفيّـاً، ظهـره، إلا أن هـذا النجـار كان لديـه ابـن كبـير، عمـره عـشرون سـنة، يجلـس طـوال اليـوم في المنـزل دون أن يفعـل أي شيء، ولم يذهـب قـط ليسـاعد أبـاه في ورشـته. كان الأب غاضبـاً جـدّاً منـه، وفي المسـاء يلومـه لأنـه لا يذهـب لمسـاعدته، إلا أنـه في كل الأحـوال يعـد لـه العشـاء ويـأكلان معـاً.

وهنا، توقف الأستاذ، ولم يعد يتحدث.

- أهذا كل شيء؟ هل انتهت القصة هنا؟ سأل أحد زملائها.

- أجل، هذا كل شيء.

نهـض كل الأولاد، وذهبـوا ليضعـوا جميعـاً حجارتهـم في الصحـن نفسـه؛ صحـن الأب.

وعلى الفور، رجحت الكفة لصالحه، وعاد كل الأولاد إلى أماكنهم.

- آه، لا. قال بعد ذلك البروفيسور بوفه، نسيت أن أقول لكم شيئاً .

- ماذا يا أستاذ؟

- إن ابن النجار لم يكن يستطيع أن يذهب ليعمل؛ لأنه كان مريضاً جدّاً، وكان مجبراً على البقاء في الفراش، ولا يستطيع حتى أن ينهض من مكانه.

عندئذٍ بدأ الفصل في الاعتراض وأن يقول: لكن لا يا أستاذ! هذا لا يصح! وسأل أحدهم إذا كان يمكنه أن يذهب ليحرك الحجر من مكانه.

- بالتأكيد، يمكن للمرء دائماً أن يغيّر رأيه، أليس كذلك؟ أجابهم الأستاذ، عندئذٍ قاموا جميعاً وذهب كل منهم ليحرك حجره ويضعه في الكفة الأخرى. الآن أصبحت كفة الميزان تميل ناحية جانب الابن.

وهنا انتظر الأستاذ عندما عادوا جميعاً إلى أماكنهم، ثم بدأ من جديد: آه، والآن عندما أفكر مرة أخرى، أجد أنني نسيت أمراً آخر! قال، ومن جديد اعترض الفصل، لكن هذه المرة بطريقة أشد من السابقة. إن الابن هو مَن تسبب في كل الديون، فقد أنفق نقود أبيه قبل ذلك بفترة، ثم أصابه المرض بسبب الحياة المنحلة التي عاشها بتلك النقود. يكفي هذا، أعدكم أنني لن أغيّر القصة بعد الآن!

عندئذٍ قام الفصل، دون حتى أن يسأل، وذهب للمرة الثالثة ليضع كل منهم حجره الصغير، وقد حكموا بالإجماع أن الأب هو الطيب، والابن هو السيئ.

- إن درس اليوم عن الأخلاق، عن الصواب والخطأ. ما الذي أردت أن أريكم إياه، في رأيكم؟

- إننا يجب ألا نثق بالأساتذة أبداً. قال كازالي. وضحك الفصل كله والأستاذ معهم.

- أجل، ربما. لكن الأهم من ذلك أريد أن أطلعكم كيف أن هناك قاعدتين كبيرتين للأخلاق؛ اثنتين فقط، غاية في البساطة. الأولى بالطبع صعبة، صعبة على نحو مؤذٍ، وهي أن نقول إن هذا الصواب هنا والخطأ هناك. دائماً، في كل المواقف، حتى في تلك التي تبدو لكم في غاية الوضوح، لا يمكن أن يكون الصواب كله هنا، والخطأ كله هناك. في الواقع توجد القاعدة الثانية، تلي تلك على الفور.

توقف الأستاذ، والتفت، وبدأ يأخذ الحجارة من الكفة، الواحد تلو الآخر، ويلقي بها على الأرض أمام الفصل كله. وفي النهاية، وفي خلفية ضوضاء الحجارة، التي كانت تتساقط على الأرض، قال: والقاعدة الثانية: لا تحكموا على حياة الآخرين، إلا إذا اضطررتم إلى ذلك، لكن بما أنكم لستم «آلهة»، ولستم قضاة، إذن تجنبوا أن تفعلوا ذلك قدر استطاعتكم.

8

عندما فتحت أم (لو) الباب، بدت مختلفة تماماً عما تتذكره جويا... ترتدي ثوباً طويلاً بورود، كان شعرها مُنسدلاً ووجهها مضيئاً. تبدو كأنها عادت إلى الخلف عشر سنوات في شهر واحد.

- تفضلي، تفضلي. ادخلي. أخيراً يمكننا أن نتعارف كما ينبغي. قالت لها وهي تصحبها إلى الداخل.

حتى المنزل يبدو مختلفاً: أقل تحديداً، وأقل كمالاً، يوجد كثير من الفوضى مقارنةً بالمرة الأخيرة التي رأته فيها جويا،

والغريـب أنـه بـدا لهـا بهـذه الطريقـة أجمـل، أكـثر ترحيبـاً. المـرة الأخـرى كان هنـاك بعـض التوتـر أينـما وضعـت يدهـا، لكـن الآن تشـعر براحـة أكـثر.

- لم يتوقف زوجي عن التحدث عنكِ، أتعرفين؟

- واو، فأنا مشهورة إذن.

لم يجلسـا عـلى أريكـة غرفـة الجلـوس، لحسـن الحـظ! لكـن في الحديقـة الخلفيـة. كان متنزهـاً كبـيراً تملـؤه الأشـجار وفيـه مقصـورة معدنيـة، أسـفلها مقعـدان لونهـما أبيـض مـن الخشـب القديـم.

لم تسـتطع تحديـد الانطبـاع الـذي تتركـه لديهـا تلـك المـرأة، الآن وهـي تراهـا أمامهـا. مؤكـد أنهـا كرهتهـا، كرهتهـا كثـيراً؛ لأنهـا تسـببت في إيـلام (لـو)؛ ولأن (لـو) لم يعـد يريـد التحـدث معهـا، فكأنهـا قـد تسـببت في أذاهـا هـي أيضـاً. أو ربمـا، أكـثر مـن كونهـا تكرهـا، أرادت أن تفعـل ذلـك، ثـم في نهايـة الأمـر نفـذت القاعـدة الأخلاقيـة الثانيـة التـي علَّمهـا لهـا بوفـه، خصوصـاً أنهـا في كل مـرة تحـاول ذلـك، تعـود إلى ذهنهـا صورتهـا وهـي تسـير منحنيـة في أثنـاء عودتهـا مـن الشـؤون الاجتماعيـة في تلـك الظهـيرة... في كل مـرة تـرى مـن جديـد تلـك الخطـوة البطيئـة وهـي تسـتند إلى زوجهـا. والآن تجدهـا هنـاك أمامهـا، بتلـك الابتسـامة التـي تشـبه كثـيراً ابتسـامة الناجـين مـن الغـرق، أو الناجـين مـن الحـرب.

قالت لها: لديَّ شيء لكِ.

همست جويا متشككة: لي... لي أنا؟

- في الحقيقـة، هـو لـديَّ منـذ بضعـة أيـام، كنـت أريـد أن أجلبـه لـكِ في المنـزل، لكـن نظـراً إلى أنـكِ اتصلـتِ... أجابتهـا أم (لـو) وهـي تنهـض، وعـادت إلى داخـل المنـزل، واختفـت خلـف السـتائر، ثـم بعـد بضـع ثـوانٍ عـادت مـن جديـد لتجلـس أمامهـا.

وفي يدها كانت تمسك بظرف مغلق بإحكام. في الخارج كانت مكتوبة كلمة واحدة: (شيء). عندما فتحته، وجدت جويا في الداخل حجراً صغيراً جدّاً، وقطعة من الحصى، وورقة مكتوباً عليها بخط صغير متشابك.

- أعطاه لي، وقال لي أن أعطيه لكِ.

9

مرحباً يا (شيء)...

لم تكوني تتوقعين ذلك، صح؟

أجل، إذا كان سؤالك هو: هل ما زلت غاضباً منكِ، فالإجابة هي نعم.

لا، إذا كان سؤالك هل لديَّ النية لأن أظل غاضباً للأبد، فالإجابة هي لا. في نهاية الأمر، جزء من العمل الذي أقوم به هنا، أو أغلبيته، يهدف بالتحديد إلى أن أفهم كم يساعدني البقاء هنا.

لكن أريد أن أحكي لكِ شيئين، حتى تستطيعي أن تقبلي وتفهمي ما سأقوله لكِ في نهاية خطابي.

الشيء الأول أنني هنا استطعت أن أفهم أشياء كثيرة، أشياء كثيرة عن نفسي لم أكن أعرف عنها شيئاً، عن عائلتي، وأبوَي، وعني أنا وأنتِ أيضاً.

أتعرفين، هنا لا بد أن أتقابل كل يوم مع طبيب، ويجب أن أتناول أيضاً بعض النقاط من شيء شفاف ومذاقه بشع كأنه عصير فاكهة حامض. في البداية، لم أكن أريدها على الإطلاق، لكن بالتدريج شعرت بأنها تجعلني أشعر ببعض السعادة؛ ومن ثم الآن آخذها، لكنني لم أكن أريد أن أحدِّثك عن هذا.

كنت أريد أن أخبركِ أنني بالتحدث مع هذا الطبيب اكتشفت شيئاً مهمّاً ربما يكون السبب في كل هذا؛ هو شيء سيئ حدث لي وأنا صغير، وربما، كما تقولين أنتِ، هو المكان الذي فيه فقدت مفاتيح المنزل (أجل، قرأت خطاباتك. لا، ليس على الفور، فعلت ذلك عندما شعرت بالرغبة في أن أفعل ذلك كما قلتِ أنتِ، لكنني قرأتها).

اليوم، الذي فقدت فيه مفتاح المنزل، كانت الشمس فيه رائعة الجمال، هل تحضرك فترات بعد الظهيرة، التي تظهر فيها الشمس بعد صباح مليء بالأمطار؟ كانت فترة بعد الظهيرة، وأنا في طريق عودتي من تدريب كرة القدم. كان عمري أحد عشر عاماً، وتعرفين، في تلك المرحلة، التي فيها كنت أريد أن أثبت لوالدي أنني أحب الرياضة، لكن في ذلك اليوم، بالتحديد، كنت أدركت أنني أكرهها بشدة، وأنني لا أصلح لذلك على الإطلاق؛ وهكذا تظاهرت بأنني أشعر بألم في كاحلي، وعدت إلى المنزل مبكراً بدراجتي، إلا أنه، بطبيعة الحال، لم يكن بإمكاني العودة مباشرةً إلى المنزل، وإلا سيسألانني أن أفسر لماذا عدت مبكراً من التدريب؛ وهكذا أخذت دراجتي وذهبت إلى الحقول البعيدة بعض الشيء عن منزلنا، وهناك يمر نهر ميدونا؛ النهر نفسه الذي بالقرب من الجبل يشكل البحيرة التي توجد فيها المدينة الشبح. باختصار، وبينما أنا في المسارات وسط حقول الذرة على دراجتي، سمعت ضوضاء واقتربت، وهناك، وفي نهاية حقل الذرة، وبجوار بعض النباتات، رأيت سيارة أبي، وهو في الداخل، ومعه امرأة، امرأة شابة، وكانا عاريين، بالتأكيد تفهمين. في ذلك اليوم، لم يدرك أبي أي شيء، ولم يعلم أنني رأيته.

يقول الطبيب إنني ألقيت بهذا الشيء في عمق صندوق ما، ووضعته في أسفل في المخزن، لكن من هنا بدأ كل شيء في

الانهيـار، حجـراً بعـد الآخـر، لكـن كل شيء تحطـم منـذ هـذه اللحظة؛ لأن أمـي أيضـاً اكتشـفت أن أبي يخونهـا؛ لهـذا بـدأت تحدِّثنـي عنـه بسـوء، بينـما في داخـلي، في عمـق ذلـك الصنـدوق المخـزون، كنـت أكرهـه بالفعـل.

ومن هنا، انطلق كل شيء. ومن هنا فقدت مفاتيحي.

أجـل، أعلـم أننـي غاضـب منـكِ، لكـن لا بـد أن أشـكركِ أيضاً لأنه بفضـل ذلـك الـشيء الـذي قلتِـه لي أنـتِ عـن تلـك المفاتيـح حسـمت أمـري، وبفضـل ذلـك الـذي كتبتِـه لي اكتشـفت أيـن فقدتهـا.

شيء، أنا لا أعرف إذا كنت سأشفى.

شيء، أنـا لا أعلـم إذا كنـت سـأصل أم لا إلى سـلام مـع أبي لهـذا، ومـع أمـي لمـا تـلى هـذا. ربمـا سـيحدث، هنـا يقولـون ذلـك.

لكـن الفكـرة أننـي لم أعـد أرغـب في البقـاء هنـا، أتفهمـين؟ لا تعجبنـي فكـرة أن يـؤذي النـاس أناسـاً آخريـن. أريـد أن أبـدأ مـن الصفـر. أريـد أن أعـود إلى تلـك المدينـة الشـبح، أريـد أن أنطلـق مـن هنـاك، قبـل أن تبتلعهـا الميـاه، أريـد أن أبـدأ بالتنفـس، وقـد فهمـت أننـي أسـتطيع أن أفعـل هـذا فقـط بالابتعـاد عـن هنـا، بالابتعـاد عـن الجميـع.

أجـل، وإذا كان السـؤال الـذي تسـألينه الآن: حتـى عنـكِ؟ فالإجابة هـي أجل.

أتعرفـين، شيء آخـر مـن الأشـياء التـي فهمتهـا مـن وجـودي هنـا أننـي حقيقـي، حقيقـي، حقيقـي، وضَعـي كل (حقيقـي) ترغبـين فيهـا، لا يمكننـي أن أكـون وغـداً وأنانيّـاً إلى حـد أن أصحبـكِ معـي داخـل بعـض الأنفـاق، التـي أجـد نفسـي فيهـا كثـيراً؛ لأنني أسـتطيع أن أرى، وأنـا في مـكاني هـذا، أنهـا ليسـت مشـكلتي فقـط، لكنـه شيء مُعـدٍ، إنـه مـرض معـدٍ يمكـن أن يطالـك أيضـاً. سـيكون كمـن

لديه مرض يمكن نقله بسهولة، وأسمح لنفسي ببساطة أن أنقله للآخرين، لأنني بوجودي معهم فقط أشعر أنني في حال أفضل.

عندما كنا بمفردنا أنا وأنتِ، والعالم بعيداً كل البعد عنا، كأننا داخل طائرة تطير على ارتفاع ثمانية آلاف متر، أنا وأنتِ فقط، ولا يوجد ظلام، كان الظلام بعيداً في حاله، يلمسني من حين إلى آخر ثم يرحل على الفور. المشكلة أنني فهمت أنه لا يمكن العيش دائماً داخل تلك الطائرة، وأنه لا بد من النزول إن عاجلاً أم آجلاً، وأنه لا بد لي أن أتحاسب أنا والظلام.

إليكِ، أنا لا أريد أن آخذكِ داخل ذلك الظلام.

لا، لا أريد أن أكون هذا النوع من الأشخاص. لا أريد أن أكون مثلهم، لا أريد أن أفكر في نفسي فحسب. لا أريد أن ألوِّثكِ.

ربما لا يهمني الآخرون كثيراً، لكن أنتِ لا. لا يمكنني أبداً أن أفعل هذا بكِ. إليكِ سآتي فقط في اليوم الذي أكون واثقاً تمام الثقة بأنني خارج هذا الظلام، وبأنني لن أتسبب في أي شيء يؤذيكِ.

لكن هذا لن يحدث أبداً، حتى إن أكد الأطباء عكس هذا.

قريباً سأخرج من هنا.

وإذا وافق الأطباء، سأذهب مع أبوَي إلى مكان ما؛ فلورنسا على ما أعتقد. يريدان أن نبني علاقة ما، أن نقضي بعض الوقت معاً.

من جهة، أشعر بالغضب منهما، ومن جهة أخرى، أشعر بالامتنان أيضاً من جهتهما؛ لأنه من الواضح أنهما يفعلان المستحيل ليصلحا ما انقطع.

المشكلة أن هناك أشياء لا يمكن إصلاحها. الحجارة، بمجرد أن تضربيها بقوة على الأرض وتحطميها، لا يمكن أن تعود مرة أخرى

كـما كانـت، لا يمكـن إصلاحهـا، تصبـح شـيئاً آخـر؛ حجـارة أخـرى، بقصـة أخـرى.

لهذا سأفعل هذا.

عندمـا سـنكون هنـاك، سـآخذ خفيـةً بطاقـة الائتـمان الخاصـة بـأبي، وسأسـحب منهـا مـا أسـتطيع مـن نقـود، وسـأرحل.

سـأذهب إلى المـكان الوحيـد، الـذي يمكننـي أن أطلـق عليـه، أخـيراً، منـزلي؛

ولذلك فهذا هو خطابي للوداع، لكِ أنتِ.

لأقـول لـكِ شـكراً عـلى إهدائـك لتلـك اللحظـات التـي كانـت الأجمـل، وأنـكِ وضعـتِ لي عـلى الأرض مـا يكفـي مـن حجـارة لأعـثر مـن جديـد، إذا لم يكـن عـلى الطريـق إلى منـزلي، عـلى الأقـل عـلى الطريـق الـذي لا بـد أن أتخـذه.

سلاماً يا (شيء).

لو

الجزء الأخير

(بعد ذلك بشهر)

Ming-gat (إندونيسية)

الرحيل دون وداع

1

هنـاك فتـاة تقـف عـلى سـطح إحـدى بنايـات وسـط المدينـة عنـد الغـروب في أحـد أيـام شـهر يوليـو، أحـد تلـك الأيـام الطويلـة جـدّاً، والشـمس فوقهـا مليئـة بالخطـوط الحمـراء والبرتقاليـة.

بـين يديهـا ورقـة، قرأتهـا مـرات وأعـادت قراءتهـا مليـون مـرة، كلمتهـا الأخـيرة مكونـة مـن حرفـين، كانـا بالنسـبة إليهـا حتـى وقـت قريـب مجـرد أداة تعريـف، لكنهـا الآن أصبحـت كل الحـب الـذي اختبرتـه في حياتهـا.

هنـاك أيضـاً حجـر صغـير، قطعـة مـن الحـصى، تضعهـا في جيـب سروالهـا، قبـل أن تطـوي الورقـة.

ويوجـد أسـتاذ ينتظرهـا في منزلـه، بينـما يمـلأ حقيبـة صغـيرة بملابـس وكتـب: ومـن حـين إلى آخـر يرفـع سروالاً أو قميصـاً؛ ليضـع بـدلاً منـه كتبـاً أخـرى.

هنـاك مُسـن يجلـس أمـام مائـدة في مطبـخ منزلـه القديـم، بالقـرب منـه يجلـس كلـب صغـير جـدّاً، أمامـه صـورة بالأبيـض والأسـود لشـاب، وفي يـده يمسـك بكـوب مـن البرانـدي الإيطـالي.

هنـاك أيضـاً كلمـة باللغـة الرومانيـة مـن ثلاثـة حـروف فقـط، وبهـذه الحـروف الثلاثـة فقـط تسـتطيع أن تعبِّر عـن فكـرة لا يكفـي كتـاب واحـد أن يصفهـا كلهـا، والكلمـة هـي dor، التـي تعنـي «المعانـاة التـي يمكـن الشـعور بهـا بسـبب الانفصـال عـن الحبيـب».

هنـاك امـرأة تغطيهـا الوشـوم تقـف عـلى قدميهـا خلـف طاولـة بـار، تهمـس بسـباب وحدهـا، بينـما للمـرة الألـف، تضيـف الرغـوة إلى كـوب الكابتشـينو لامـرأة عجـوز.

وتوجـد أغنيـة لبينـك فلويـد اسـمها «ليتـك كنـت هنـا»[33]، وتتحـدث عـن شـخصين بعيديـن؛ واحـدة مـن الاثنـين تقـول في لحظـة مـا إن المسـافة روحـان ضائعتـان يسـبحان في حـوض للأسـماك.

يوجـد أب يسـير بجـوار ابنـه، في البدايـة عنـد مطلـع الجسر القديـم[34]، ومـن حـين إلى آخـر، ينظـر إليـه ويبتسـم؛ لأنـه لم يكـن يتخيـل قـط أنهـما سـيتمكنان مـن السـير معـاً.

توجـد امـرأة عجـوز تغطيهـا تجاعيـد فائقـة الجـمال، في داخـل حجـرة صغـيرة أسـفل سـلم في شـقة مـن شـقق المنـازل الشـعبية، وفي أذنيهـا سـماعتان تُرسـلان أغـاني أوبـرا قديمـة.

يوجد قط قفز من اللا مكان، ودمّر للتو الصورة المؤطرة نفسها.

داخـل تلـك الصـورة كان يوجـد رجـل وامـرأة وطفلـة. الطفلـة تمسـك في يدهـا آلـة تصويـر لعبـة، وتبتسـم.

وتوجـد الفتـاة نفسـها، واقفـة عـلى السـطح، ممسـكة بتلـك الورقـة بـين يديهـا، وهـا هـي تنتهـي مـن طيهـا وتصنـع منهـا طائـرة صغـيرة.

وهـا هـي تبتسـم وهـي تنظـر إليهـا، وتسـتعد لتلقيهـا مبـاشرةً نحـو الشـمس.

---

(33) Wish you were here – Pink Floyd.

(34) Ponte Vecchio.

وفي النهاية، ها هي تفعل ذلك.

2

- منظر جميل من هنا.

- شكراً.

- أتخيل أن حضرتك تقضي اليوم كله في هذه الشرفة يا بروفيسور.

- أجل أغلب الأوقات.

- حتى في الصيف؟

- في الصيف، أغلق هذا المنزل، وأذهب في جولة حول العالم. وأعتقد أنني هذا العام سأذهب إلى بريطانيا.

- لماذا بريطانيا؟

- اللون الأحمر. هناك الأفضل، حتى إن لم يكن كثيرون يعرفون هذا.

- تقصد البيرة؟

- لا، أقصد النساء، لكن البيرة أيضاً.

- آه.

- لماذا هذه الزيارة يا آنسة سبادا؟

- أولاً لأشكرك.

- لكن على ماذا؟

- لأنك ساعدت على نجاحي. أعرف أنك لن تعترف بهذا أبداً، لكنني مستعدة لأن أقسم إنني مدينة لك بهذا.

- لا، اهدئي، سأعترف بهذا بكل سرور يا عزيزتي: فبدرجاتك، التي حصلتِ عليها في العلوم والفيزياء والرياضيات، كانوا بالتأكيد سيجعلونكِ ترسبين، ودون أن يفكروا مرتين!

- إذن، أشكرك، حقاً.

- ثم؟ هناك شيء آخر، أليس كذلك؟

- بـلى، يوجـد شيء آخـر. شيء كالسـؤال، لكننـي لا أعـرف إذا كان سـؤالاً بالفعـل، وأريـد أن أخـبرك بـشيء مـا.

- كلي آذان صاغية.

- لقد قرأتها كلها، تلك القصة.

- أي قصة؟

- قصة الاثنين؛ سايكي وكيوبيد.

- آه حسناً. إذن؟ ماذا استخلصتِ منها؟

- استخلصت أن كل هذا في رأيي هراء فارغ.

- معذرة؟

- أجـل؛ تلـك القصـة، التـي قلتهـا حضرتـك أيضـاً، إن الحـب هـو شيء يتـم في الظـلام، وإنـه لا يحـب أن يكـون فيـه نـور العقـل، هـو كأننـا نقـول إن الحـب جنـون، أليـس كذلـك؟ في النهايـة هـذا هـو المغـزى.

- أعتقد أن الأمر يتعلق بهذا أيضاً، أجل.

- حسناً، كل هذا كذب.

- أفهم، لكن على الأقل يمكنك أن تشرحي لي لماذا؟

- الجميـع يـصر عـلى هـذا المفهـوم، سـواء الأغـاني أم الأفـلام، أن الحـب جنـون، ويبـدو دائمـاً أنـه عندمـا يقـع اثنـان في الحـب يفقـدان عقليهـما تمامـاً، ويرتكبـان أشـياء عجيبـة، أو يفقـدان القـدرة الكاملـة عـلى الفهـم؛ أي يظـلان تمامـاً في الظـلام، بـلا أي ضـوء، تعميهـما الشـهوة ومـا إلى ذلـك.

- وحضرتك لا تصدقين أن الأمر كذلك. صحيح؟

- لا، ليـس كذلـك، ولا حتـى بعـض الـشيء. ليـس الأمـر هـو عندمـا يحـب المـرء يمـرض: بـل عندمـا يحـب المـرء يشـفى. إنهـم الآخـرون؛ أولئـك الذيـن لا يحبـون، هـم المصابـون بالجنـون؛ المخبولـون. إن مـن يحـب؛ مـن يحبـون حقّـاً، هـم الأصحـاء، الأصحـاء الوحيـدون في عـالم المجانـين.

- أتعرفـين أننـي في السـنوات الحاديـة والسـبعين مـن عمـري لم أرَ الأمـر

قـط بهـذه الطريقـة؟

- حقّاً؟

- نعم، قط.

- محظـوظ؛ لأننـي أنـا جربـت ذلـك الـشيء، أجـل، أعـرف أنـه لم يسـتمر وقتـاً طويـلاً، وربمـا تريـد أن تضحـك لذلـك، لكـن بالنسـبة إليَّ كان الأمـر كأنـه اسـتمر أعوامـاً، وجربـت ذلـك الـشيء عندمـا كان ضـوءاً فقـط وكان مجـرد ظـلام، وحتـى إن اسـتمر الظـلام طويـلاً، ولا يـزال حتـى الآن مسـتمراً، إلا أننـي أعلـم شـيئاً واحـداً، أشـهره، أننـي قبـل هـذا لم أكـن بخـير عـلى الإطـلاق، وأننـي قبـل ذلـك لم أكـن أنـا بالفعـل، ربمـا مـن حـين إلى آخـر أقـترب مـن نفـسي، لكـن لم أكـن ذلـك الشـخص، أعتقـدت أننـي كذلـك، لكـن بـدأت أكـون نفـسي بالفعـل فقـط عندمـا وصـل هـو، دون أن يفعـل أي شيء، لم يقلـب الجبـال، لكـن كفـاني وجـوده، هـذا مـا فعلـه، وُجـد، وبوجـوده وُجـدت أنـا أيضـاً، وعـثرت أخـيراً عـلى نفـسي؛ تلـك التـي لم أكـن أعـرف عـن وجودهـا، لكنهـا كانـت دائمـاً موجـودة.

- يا إلهي!

- أجل.

- كان أبوليوس سيفخر بكِ.

- وحضرتك؟

- أنا؟

- أجـل، مـاذا تقـول لي عـن كل هـذه القصـة؟ هـل مـا زلـت تؤمـن بـأن الحـب هـو أن نطفـئ النـور؟

- هل تريدين رأيي المخلص؟ الحقيقة؟

- أجل.

- الحقيقـة يـا جويـا، بعـد كل مـا قصصتِـه عـليَّ حـول أن الحـب هـو أن نطفـئ الضـوء، أفكـر في شيء واحـد فقـط.

- وما هو؟

- أن هذه كذبة كبيرة جدّاً.

3

بحث عنكِ والد ذلك الفتى، سيتصل مرة أخرى في التاسعة.

عند عودتها إلى المنزل، وجدت جويا ورقة ملصقة على المُبرد.

على كل حال، كانت تعرف ماذا حدث بالفعل. كانت تنتظر ربما شيئاً أكثر دراما من هذا، على سبيل المثال أن تستقبلها أمه وهي تبكي، يائسة؛ لأن (لو) هرب من جديد؛ لأنها بالفعل ليست بحاجة إلى أن تهاتف المهندس دي باولو لتعرف ما حدث.

- هل تظنين أنه فعلها؟

- حسناً يا تونيا، هل تستطيعين أن تتخيلي سبباً آخر من أجله سيتصل بي الأب في المساء من فلورنسا؟

- ربما كان يريد فقط أن يحييكِ.

- طبعاً، طبعاً.

فتحت جويا سبادا المُبرد، وأخرجت الجبن الشرائح والمايونيز والطماطم، وأعدت لنفسها شطيرة، ستأكلها بمفردها في المطبخ. ربما ذهب أبواها إلى بار ما، أخيراً، ومع وصول المرتبات الأولى، يخرجان أكثر، حتى إذا كانا يعودان مبكراً جدّاً.

- في رأيك، أين ذهب الآن؟

- حسناً، يبدو لي الأمر واضحاً جدّاً يا تونيا.

- إلى إيرلندا؟

- ربما هو الآن بمفرده في المطار، أو في سيارة أجرة. على كل حال، أجل، سيذهب إلى هناك.

- وهل ستقولين لأبيه؟

- لا، هـذه المـرة لا. هـذه المـرة لم يرحـل لأنـه متـألم؛ هـذه المـرة رحـل لأنـه شـفي.

انتهـت جويـا مـن تنـاول الشـطيرة، وشربـت بعـض المـاء، ودخلـت لتسـتلقي عـلى الفـراش، وفي أقـل مـن دقيقتـين، غطـت في نـوم عميـق. لم تشـعر حتـى، أسـفل في غرفـة المعيشـة، بالتلفـون وهـو يـرن في التاسـعة تماماً.

4

- تحييكـم السـكرتيرة الإلكترونيـة لمنـزل سـبادا. اتركـوا رسـالتكم بعـد الصفـارة.

- جويـا، مسـاء الخـير، أنـا والـد لـوكا. آسـف إذا كنـت أتصـل في هـذه السـاعة، لكـن... حـدث مـن جديـد ولا أعلـم بمَـن أتصـل. ربمـا يمكنـكِ أن تسـاعديني... اختفـى لـوكا اليـوم، مـرة أخـرى... كنـا في أحـد مقاهـي وسـط المدينـة، وبمجـرد أن شردنـا نحـن الاثنـين لثـوانٍ لم نجـده، اختفـى وسـط الزحـام. المشـكلة أنـه أخـذ بطاقـات الائتـمان الخاصـة بي معـه. صدقينـي نحـن في حالـة شـديدة مـن اليـأس، لم نكـن نتوقـع ذلـك عـلى الإطـلاق، فقـد كان هادئـاً جـدّاً في تلـك الفـترة. أرجـوكِ، أبلغينـي إذا سـمعتِ أو عرفـتِ أي شيء.

5

- لكنكِ كنتِ تعرفين هذا بالفعل؟

- أجل، لكن أرجوكِ، لا تقولي هذا لأحد، أوكي؟

كانـت جويـا سـبادا تجلـس إلى مائدتهـا في البـار، وأمامهـا جوفانـا، التـي كانـت تحمـل بـين يديهـا طفلـة صغـيرة، ومـن حـين إلى آخـر تطعمهـا ملعقـة مـن عصـير الفواكـه.

سـألتها جويـا: مـا اسـمها؟ وأطلعتهـا جوفانـا عـلى أحـد الوشـوم الموجـودة

على ذراعها؛ حيث كُتب أندريا.

- اسم جميل! أحب الأسماء التي تصلح للذكر وللأنثى! قالت جويا وهي تبتسم.

- والآن، ماذا ستفعلين؟ هل ستقولين لأبيه أين هو؟

- لا، لا أعتقد. هذه المرة سأترك الأمر؛ لأنني أيضاً ربما أعرف الدولة فقط، ولا أعرف بالتحديد أين هو.

وضعت جوفانا في فم الطفلة ملعقة أخرى كبيرة من العصير، وأكلتها بسعادة، وجمعت بالملعقة نقطة عصير سقطت على شفتها، ودون أن تنظر إليها سألتها: وأنتِ كيف حالك؟

- هكذا. أجابتها وهي تنظر إلى الشفتين الصغيرتين للطفلة.

- إيه، أعلم ذلك. أنتِ لا تعرفين كم من المرات حدث لي هذا، لكن هل أستطيع أن أقول لكِ شيئاً، ربما أفادك؟

نظرت جويا إلى أندريا الصغيرة، التي كانت تنظر إلى أمها بعينين متسعتين، وأجابت: بالتأكيد.

- سينتهي.

- إيه؟

- سينتهي. الشيء الذي كنت أريد أن أقوله لكِ أن الأمر سينتهي. الآن يبدو لكِ ذلك مستحيلاً، لكن صدقيني بعد فترة من الزمن، عندما لا تتوقعين ذلك على الإطلاق، ستتوقفين عن التفكير في هذا.

ابتسمت جويا سبادا، وفي ذلك الوقت، كانت تفكر أنها لا تريده أن ينتهي، بل بالعكس، أن ينتهي هذا الأمر هو الشيء الأخير الذي تريده في العالم؛ فهي لا تريد أن تنسى، ولا تريد أن تتوقف عن التفكير فيه؛ لأنه حتى إن كان ذلك يؤلمها بشدة؛ لأنها تُدرك أنه في اليوم الذي سينتهي هذا فيه، سيكون اليوم الذي لن يعني شيئاً بالنسبة إليها؛ وهذا معناه أن تلك الصفحة في الكتاب لن يعود لها وجود، وأنها ستكون مُزقت

في الخفـاء، بالميـزة التـي لا يمكـن إغفالهـا أنهـا لـن تُفاجـئ نفسـها وهـي تبـكي عـلى فراشـها بينـما تسـتمع إلى أغنيـة الخنازيـر الطائـرة، بالتأكيـد، أيضـاً ومـع الفائـدة الجانبيـة الإيجابيـة بأنهـا ستسـتطيع أن تفكـر في شيء آخـر بخـلاف تلـك الابتسـامة اللعينـة؛ وذلـك الصـوت الـذي كان يقـول لهـا «أهـلاً يـا شيء»، أو ذلـك المرطبـان الغبـي المـليء بالحجـارة. بالتأكيـد، لكـن أيضـاً أن تبقـى مرتبطـة، في كل ثانيـة لعينـة، بتلـك الذكريـات هـو الـشيء الـذي يعـصر معدتهـا، ولا ترغـب جويـا في أن تتخـلى عنـه؛ لأنهـا فقدتـه، أجـل، لكـن سـيحدث هـذا فقـط عندمـا لـن تعـود تلـك الذكريـات موجـودة، فقـط عندمـا سـتعود إلى الخلـف في الكتـاب، وسـتجد الصفحـة ممزقـة، عندئـذٍ فقـط سـتعرف أنهـا فقدتـه بالفعـل.

كانـت تريـد أن تقـول لهـا هـذا، أن تقـول كل تلـك الأشـياء لجوفانـا، بينـما تمسـك طفلتهـا بـين يديهـا وتُطعمهـا، لكـن في النهايـة اكتفـت بـأن تبتسـم، وأن تربـت عليهـا برقـة وتقـول لهـا: أشـكرك.

6

- اتصل والد ذلك الصبي.

- آه، وماذا قال؟

- كان يائساً جدّاً، وقال إنهم لا يستطيعون العثور عليه قط.

- إيه، أعلم.

- مسكين هذا الصبي، في سنه هذه ولديه كل تلك المشكلات!

- بالفعل.

- وأنـتِ ليسـت لديـكِ أي فكـرة أيـن ذهـب؟ لأن الأب مقتنـع تماماً أنـه إذا كان هنـاك شـخص يمكنـه أن يعـرف، سـيكون هـذا الشـخص هـو أنـتِ.

- لا يا ماما، فعلاً، لا أعرف.

7

تأتي كثيراً جويا سبادا إلى هنا، هنا في البار، عندما يكون مغلقاً ليلاً.

فبعض الأماكن مثل الصور، إلا أنها ثلاثية الأبعاد... صور يمكنها الدخول فيها، ولمس سطح الموائد، والاستماع إلى صرير الألواح الخشبية أسفل قدميها، واستنشاق رائحة الرطوبة التي تجعلها تشعر كأنها في منزلها.

بالتأكيد، لا بد فقط من تجاوز الجزء الصعب؛ تلك الأمطار القليلة قبل المدخل، التي، حتى بإجبار نفسها، لا تستطيع جويا أن تتخلى عن إبطاء الخطى، أملاً في سماع صوت الأسهم وهي تُطلق على الهدف «طق!».

كانت هناك فترة نجحت فيها بطريقة أو بأخرى في أن تعيد إنتاج مفعول السحر من جديد، بأن تكرر بالحرف كل ما حدث في الليلة التي قابلته فيها المرة الأولى: بما في ذلك أن ترتدي الملابس نفسها، وأن تخرج جرياً من المنزل. لم يفدها ذلك في شيء سوى شعورها بالغباء وجعلها تعود بعد الساعة الثالثة.

اقترحت عليها تونيا: ربما سيكون من الأفضل أن تتوقفي عن الحضور إلى هنا.

- لكن لا، في نهاية الأمر، هنا أشعر براحة.

ثم، فجأة سمعت ضوضاء، كأن هناك خطوات في الشارع. نهضت جويا ببطء، وذهبت إلى ركن مظلم، وهي تحاول أن تسترق السمع من الناحية التي يأتي منها.

لا شيء، بعد قليل ابتعدت الخطوات.

- مايوناجويا، حانت ساعة العودة إلى المنزل. قالت لها تونيا، أو على الأقل اخترعي لي صديقاً متخيّلاً، هكذا أهتم أنا به بينما أنتِ تجلسين هنا بين ذكرياتك الجميلة!

عـادت جويـا إلى المنـزل مـع تونيـا في الظـلام، وكانـت في ذلـك الوقـت تفكـر في سـايكي، التـي اسـتطاعت، بعـد آلاف المحـاولات في النهايـة، الحصـول عـلى نهايتهـا السـعيدة، وعـادت مـرة أخـرى إلى كيوبيـد، لكـن بالنسـبة إليهـا، جويـا، لـن تكـون النهايـة السـعيدة هـي العـودة إلى المنـزل والعثـور عـلى أبويهـا مسـتلقيين عـلى الأريكـة، شـبه نائمـين، «أو مسـتيقظين، لكـن نصـف مخمورَيـن»، كانـت تفكـر وهـي تضـع المفتـاح في ثقـب البـاب.

عندمـا دخلـت اكتشـفت أنهـا كانـت عـلى حـق؛ فأبواهـا هنـاك، وأعينهما مغلقـة وفماهـما مفتوحـان، عـلى الأريكـة، والتلفزيـون يعمـل؛ إذا أطفأتـه سيسـتيقظان؛ ولذلـك كل مـا فعلتـه أنهـا خفضـت الصـوت بعـض الـشيء.

كان جاكـو؛ القـط الشـبح، داخـل الحجـرة الصغـيرة لجدتها، حبسـاه هناك، ربمـا ليتجنبـا أن يدمـر شـيئاً كـما يفعـل عـادةً. فتحـت لـه جويـا البـاب، ورأته يهـرع إلى الخـارج، ثـم اختفـى في بضـع ثـوانٍ.

صعدت الدرج وذهبت إلى الحمام.

ومثـل كل مسـاء، تبـدأ بطقـس الميـاه السـاخنة، تتركهـا لتسـيل وتنتظـر البخـار، ثـم تنظـر إلى المـرآة.

لا شيء أيضاً هذه المرة.

تفكر: يا لي من غبية!

تغلق الصنبور، وتجفف يديها، وتطفئ النور.

عندمـا فتحـت بـاب الحـمام لتذهـب إلى حجرتهـا، سـمعت في الأسـفل في حجـرة المعيشـة أن التلفزيـون أُغلـق، وغـرق المنـزل في صمـت تـام، حتـى صـوت المُـبرد لم يعـد مسـموعاً.

ثـم، بعـد خطوتـين في الردهـة، شـعرت بـشيء مـا أسـفل قدميهـا، كأن أحدهـم تـرك لآلـئ تسـقط منـه ولم يجمعهـا. أشـعلت الضـوء، واكتشـفت أنهـا حجـارة صغـيرة؛ حـصى صغـيرة جـدّاً. أخـذت تجمعهـا واحـدة تلـو الأخـرى، وتنظـر إليهـا مقابـل الضـوء، بـدت لهـا كلهـا شـبيهة بتلـك التـي

عـثرت عليهـا في الظـرف الـذي أرسـله إليهـا (لـو)؛ ذلـك الـذي مـع الخطـاب الـذي حوَّلتـه إلى طائـرة ورقيـة وألقتـه مـن فـوق ناطحـة السـحاب. وعندمـا نظـرت إليـه، أدركـت للمـرة الأولى أنـه نـوع الحـصى نفسـه الموجـود أسـفل الشـجرة الموجـودة أمـام نافـذة منزلهـا.

إذن، لا بـد أن (لـو) احتفـظ بتلـك الحـصى، وربمـا وضعهـا بـين الحجـارة الأخـرى في مرطبانـه، ثـم وضعهـا لهـا في المظـروف، لكـن لمـاذا؟ ولمـاذا تمتلـئ الردهـة بالحـصى الآن؟ ترفـع جويـا حاجبيهـا ولا تفهـم جيـداً مـاذا يحـدث. تتحـرك خطوتـين ببـطء، وتحـاول في الوقـت نفسـه اسـتراق السـمع ربمـا تسـمع أي صـوت، لكـن لا شيء، الصمـت فقـط.

تغلـق ضـوء الردهـة، وتفتـح بـاب غرفتهـا، وتجـد أشـعة القمـر تـضيء وسـادتها.

هنـاك مـن يسـتند إلى فراشـها؛ شـخص يضـع يديـه خلـف رأسـه، ويوجـد بجـواره مرطبـان مـليء بالحجـارة عـلى الطاولـة الجانبيـة، ويقـول لها مبتسـماً: أهـلاً يـا (شيء).

قاموس الكلمات، التي لا تمكن ترجمتها بكلمة واحدة لجويا سبادا

(بترتيب عشوائي تماماً)

Komorebi (كلمـة يابانيـة): ذلـك التأثـير الخـاص للضـوء عندمـا تتخلـل أشـعة الشـمس أوراق الأشـجار.

PoCemuCka (كلمة روسية): شخص يسأل ويتساءل كثيراً جدّاً.

Fernweh (كلمة ألمانية): الحنين للأماكن البعيدة، والرغبة في السفر.

Shu (كلمة صينية): أن يضع الآخر في قلبه.

Iktsuarpok (لغـة شـعب الإسـكيمو): الإحبـاط الـذي يشـعر بـه المـرء

عندما ينتظر أحداً متأخراً عن ميعاده.

Waldeinsamkeit (كلمة ألمانية): المشاعر التي تنتاب المرء كأنه بمفرده في غابة.

Mamihlapinatapai (لغة يامانا): لعبة النظرات بين شخصين يتبادلان الإعجاب، وكلٌّ منهما يريد أن يتقدم الخطوة الأولى، لكن يشعر بالخوف.

Ilunga (اللغة التشيلوبا): شخص يغفر في المرة الأولى، ويتسامح في المرة الثانية، لكنه لا يعرف الرحمة في الثالثة.

Won (اللغة الكورية): صعوبة أن يتخلى شخص عن وهم لينظر مباشرةً إلى الواقع.

Luftmensch (لغة الياديش): مَن يحلم دائماً أحلام اليقظة.

Verschlimmbessern (لغة ألمانية): أن يزيد المرء الموقف سوءاً في أثناء محاولة إصلاحه.

Yakamoz (اللغة التركية): انعكاس القمر على المياه.

Cafuné (لغة برتغالية): تحريك الأصابع على شعر المحبوب.

Geborgenheit (اللغة الألمانية): الشعور بالأمان الذي يشعر به المرء في أثناء وجوده مع المحبوب.

Gezelligheid (اللغة الهولندية): الدفء الذي يشعر به المرء بوجوده مع من يحب.

Dor (باللغة الرومانية): الألم بسبب الانفصال عن المحبوب.

Begadang (اللغة الإندونيسية): المكوث مستيقظين طوال الليل للتحدث.

Oodal (اللغة التاميل): الغضب الظاهري الذي يتظاهر به المحبون بعد الشجار.

Retrouvailles (اللغة الفرنسية): فرح لقاء الشخص المحبوب بعد

الابتعـاد (البعـاد - الانفصـال) لمـدة طويلـة.

Hoppípolla (آيسلندي): القفز في تجمعات المياه.

Cwtch (لغـة ويلـز): ليـس حضنـاً بسـيطاً، لكنـه حضـن مـليء بالمشـاعر؛ حضـن يصبـح مكانـاً آمنـاً؛ ذلـك المـكان الـذي يشـعر فيـه بأنـه في بيتـه، بـين ذراعَـي الشـخص المحبـوب.

Akili (لغـة هـاواي): تلـك اللحظـة عندمـا يعطيـك شـخص إرشـادات للطريـق أو يـشرح لـك كيـف يمكـن أن تصـل إلى مـكان مـا، لكنـك تنـسى كل شيء بعـد أن تشـكره وتبـدأ السـير.

Trepverte (لغـة اليـاديـش): تعنـي حرفيّـاً «كلـمات الـدرج»، وتصـف الإجابـة الصحيحـة، التـي كان لا بـد أن تعطيهـا في أثنـاء نقـاش مـا، لكـن، كالمعتـاد، تخطـر في بالـك وأنـت عـلى وشـك الرحيـل. بالفرنسـية **esprit d'escalier**.

Yuugen (كلمـة يابانيـة): الوعـي بالكـون، الـذي يوقـظ شـعوراً أكـبر بكثـير مـن الكلـمات، ويشـير إلى عمـق لا يمكـن سـبر غـوره مـن الجـمال المخبَّـأ، وسـحر الأشـياء في الظـلال التـي لا يمكـن فهمهـا فهـماً دقيقـاً.

Dap jeong nieo (بالكوريـة): عندمـا يقـرر أحدهـم بالفعـل مـاذا يرغـب في أن يسـمع ويريـدك أن تجيبـه كـما يتمنـى.

Joyus (كلمـة إندونيسـية): تُقـال عـن شيء لا يُضحـك إلى حـد أنـه يصبـح مضحـكاً في النهاية.

Goya (لغـة الأردو): التشـويق مـن خـلال عـدم التصديـق الـذي يخـدم في دمجنـا في قصـة مـا أو فيلـم.

Vorfreude (بالألمانيـة): حرفيـة، مـا قبـل السـعادة: تلـك السـعادة التـي تنتـج عـن التـذوق المسـبق لسـعادة مسـتقبلية.

Desenrascanço (كلمـة برتغاليـة): عندمـا ينجـح المـرء بطريقـة مثـيرة وبـأدوات قليلـة لديـه في أن يحـل مشـكلة صعبـة.

Nunchi (اللغة الكورية): فن الاستماع وفهم مزاج الآخر.

Sisu (الفنلنديـة): الحفـاظ النفـسي الاسـتثنائي في مواجهـة تحديـات طويلـة المـدى وشـديدة الصعوبـة.

Mbuki-mvuki (بلغـة البانتـو): الرغبـة في خلـع الملابـس والبـدء في الرقـص.

a-un (يابانيـة): نـوع مـن التواصـل الـلا شـفاهي بـين صديقـين عزيزيـن، اللذيـن يتفاهـمان بـلا كلـمات.

Frisson (كلمة فرنسية): رعشة من الخوف والاستمتاع والإثارة.

Qarrtsiluni (بلغـة أهـل الإسـكيمو): الجلـوس مـع أحدهـم في الظـلام في انتظـار حـدث جلـل، نـوع مـن السـكون الـذي يسـبق العاصفـة.

Besa (اللغـة الألبانيـة): وعـد لا يمكـن نكثـه، كلمـة شرف، التمسـك بالقسـم، كل هـذا في كلمـة واحـدة مـن أربعـة حـروف.

Doxa (كلمة يونانية): الثقة الشعبية، الرأي العام.

Filoxenia (اليونانية): محبة الضيوف والغرباء.

Gjensynsglede (كلمـة نرويجيـة): السـعادة عنـد مقابلـة شـخص لم تـرَه منـذ وقـت طويـل.

Ming-gat (كلمة إندونيسية): الرحيل إلى الأبد بلا وداع.

Mann vaasanai (لغة التاميل): رائحة الأمطار على الأرض الجافة.

Nja (كلمة سويدية): لا نعم، ولا لا.

Onsay (بلغة البورو): التظاهر بالحب.

Schnapsidee (الألمانيـة): الخطـة المبهمـة والسـخيفة التـي تخطـر في بالـك وأنـت مخمـور، وتجعلـك ترتكـب كـوارث لا يمكـن إصلاحهـا.

Torschlusspanik (الألمانيـة): الخـوف مـن أن يكـون التقـدم في السـن «بابـاً يُغلـق» أمـام إمكانـات السـعادة.

Zhaghzhagh (الفارسـية): عندمـا تصطـك الأسـنان مـن الخـوف أو

الغضــب.

Shmegegge (اليادیش): شخص إما أنه أحمق أو مُداهن.

Nonplussed (الإنجليزيـة): عندمـا تجـرب شـيئاً قويّـاً جـدّاً، ومتناقضـاً، ولا تسـتطيع أن تصفـه بالكلـمات.

Proairesis (اليونانيــة): القــدرة عــلى اتخــاذ القــرارات أو الاختيــارات وفــق العقــل.

Vybafnout (كلمة تشيكية): القفز خارجاً فجأة والصراخ بوو.

Curgalff (لهجــة إســكتلندية): الشــعور بالصدمــة، وفي الوقــت نفســه القــوة التــي تكــون للمــرء عندمــا يقفــز في المــاء المُثلــج.

Utsura-utsura (كلمة يابانية): الوجود في حالة بين النوم واليقظة.

KenshO (كلمة يابانية): لحظة مفاجئة وسريعة من الاستنارة.

Mokita (كيليفيــلا): حقيقــة يعرفهــا الجميــع، لكــن لا يتحــدث عنهــا أحــد أو يعــترف بهــا.

Turadh (كيلتــي): بقــع اللــون الأزرق القاتــم، التــي تتكــون بــين الســحب بعــد العاصفة.

Ikigai (كلمــة يابانيــة): ذلــك الــشيء الــذي تحــب أن تفعلــه، وتتمســك بــه كثــيراً؛ ومــن أجلــه تنهــض مــن فراشــك في الصبــاح.

Magari (كلمــة إيطاليــة): صيغــة تمــنٍّ «إذا فقــط أمكــن أن يصبــح هــذا الــشيء حقيقيّــاً»، (اشــتقاق مــن الكلمــة اليونانيــة makarios، ســعيد).

Kogarashi (كلمة يابانية): أول هبة رياح تُعلن عن الشتاء.

Gigil (تغالوغ): الرغبة في إيلام شخص ما، من شدة الرغبة في لمسه.

Neach-gaoil (كيلتي): الشخص الذي يعيش داخل قلبك.

شكر

لا أدري ماذا عنكم، لكنني أقرأ الشكر في نهايات الكتب دائماً. أعتقد أنه يمنح المتعة نفسها، التي تمنحها قراءة الأسماء في نهاية الأفلام.

الشخص الأول، الذي أريد أن أشكره، هو تلميذتي السابقة: إليونورا تريفسان. في إحدى الليالي، حلمت أنها تقف بيني وبين شخص، عندما كان عمري سبعة عشر عاماً كان يريد ضربي دائماً، وهي تصرخ فيه: إنه أستاذي! لا تلمس أستاذي! وعندما استيقظت جاءني شيء كالاستنارة، فكرة غيَّرت حياتي، ماذا إذا بدأت تسجيل فيديوهات أحكي فيها عما يحدث في المدرسة كل يوم؟ من دون تلك التسجيلات لم يكن لأشخاص كثيرين أن يقرؤوا الأشياء التي كنت أكتبها، خصوصاً لم تكن لتفعل ذلك إيلاريا مارزي وإيليزابيتا ميليافادا، فتاتان ظريفتان جدّاً، وبالمصادفة البحتة كانتا أيضاً (إيلاريا) واحدة محررة، والأخرى مديرة تحرير في قسم الروايات لدى دار نشر جارزانتي. أجل، هاتان الاثنتان هما الشخص الثاني الذي أريد أن أشكره، بالاشتراك مع أدريانا سالفاتوري (من جارزانتي أيضاً).

أشكر أليكس باللاتو، ممكن أن يكون نيكولا سيلينو، فرانشسكو دومينيللي وباولو دي ناداي؛ لأنه أيضاً لولاكم لما حدث ما حدث.

وأشكر شكراً بلا نهاية تلاميذي السابقين وأصدقائي الذين قرؤوا «إلا أننا نسقط سعداء» «عندما كان اسمه فقط (لو)»، والذين سألتهم

عـن آرائهـم ونصائحهـم، خصوصـاً إينريكـو مـاركي، وكلارا زورزيـن، وجوليـا تايـارول، وفرانشسـكا برينشـيفالي، وآليسـاندرو ديـل سـافيو، وسـيلفيا بوفيـو، وإيليزابيتـا مارتشـين روبرتـا دي كيـارا.

أشـكر كل مـن تابعنـي عـلى «فيسـبوك»؛ فبفضلكـم أيضـاً تحـول هـذا الكتـاب إلى حقيقـة.

أشـكر مئـات التلاميـذ، الذيـن درسـتهم في تلـك الأعـوام، إضافـة إلى أنهـم منحـوني مـادة لأكـثر مـن عشريـن روايـة عـلى الأقـل؛ فأنتـم أيضـاً الذيـن تمنحوننـي كل يـوم كميـة كبـيرة مـن الطاقـة والأدرينالـين، والرغبـة في أن أتبـع أحلامـي، التـي لـن تكفـي حيـاة كاملـة لتحقيقهـا كلهـا. لا توجـد في اللغـة الإيطاليـة كلمـة لتشـكركم جميعـاً كـما أريـد، لكـن في لغـة هـاواي، توجـد كلمـة لا تسـهل ترجمتهـا، وكانـت سـتعجب جويـا كثـيراً: mahalo؛ وهـي تعنـي في دفعـة واحـدة: شـكراً، أنتـم عظـماء، أحترمكـم وأحبكـم.

Mahalo، بصفة خاصة من أجل كل ما تعلمته منكم.

E. G.

حوار مع إينريكو جاليانو

أجرته أماني حبشي

• جويـا ولـو، بطـلا الروايـة، مراهقـان يلتقيـان بالمصادفـة، ومـن تلـك اللحظـة تتغـير حياتهـما للأبـد. مـن أيـن واتتـك فكـرة الروايـة؟

- مـن فكـرة عبثيـة بعـض الـشيء راودتنـي في إحـدى الليـالي في سـيارتي بينـما أتحـدث عـن صديقـة لي، كنـت أريـد أن أكتـب قصـة حـب لا يُفهـم فيهـا إذا كانـت هـذه القصـة ثمـار خيـال بطلتهـا أم واقعيـة. وفي تلـك الليلـة، وُلـدت جويـا، ثـم معهـا أيضـاً (لـو)، والقصـة كلهـا، التـي - بطبيعـة الحـال - اتخـذت منحـى مختلفـاً جـدّاً عـن ذلـك الظهـور الأوَّلي.

• لـدى جويـا هوايـة خاصـة، جمـع الكلـمات التـي لا تتُرجـم بكلمـة مـن كل أنحـاء العـالم. كيـف هـذا؟

- تكـره جويـا الطريقـة، التـي يتواصـل بهـا النـاس، الذيـن يسـتخدمون دائمـاً: المترجـم. وتُـدرك أنـه يوجـد قليـل جـدّاً مـن الأشـخاص، الذيـن يقولـون الأشـياء كـما تخطـر في أذهانهـم؛ لأنهـم إمـا غريبـو الأطـوار جـدّاً، أو صعـب جـدّاً فهمهـم؛ لهـذا هـي تحـب جـدّاً الكلـمات، التـي لا تمكـن ترجمتهـا؛ لأنهـا تقـول أشـياء غـير معتـادة، وخاصـة، وغـير متداوَلـة، ولا يمكـن ترجمتهـا، ويمكنهـا بمفردهـا أن تعـبِّر عـن مشـاعر عميقـة جـدّاً. بالنسـبة إليَّ، عـلى المسـتوى الشـخصي، وليـس كمؤلـف، كان شـيئاً رائعـاً أن أشـارك جويـا هوايتهـا تلـك، وأن أكتشـف أن هنـاك كلـمات مـن أربعـة مقاطـع، يمكنهـا بمفردهـا أن تعنـي «الضـوء الـذي يتخلـل أوراق الأشـجار» أو «الحنـين للأماكـن التـي لم

نذهب إليها قط». إنه بالفعل شيء رائع!

• أحد الموضوعات الأساسية في الكتاب هي المراهقة؛ تلك الفترة في الحياة، التي فيها يشعر المرء أنه بمفرده ضد الجميع، والتي يشعر فيها أنه مختلف ولا يُفهم مطلقاً. عمَّ يبحث في رأيك، وأنت مدرس، مراهقو اليوم؟

- في الواقع، يبحثون عن أشياء بسيطة جدّاً: الإصغاء والاحترام. لا يريدون أن يتعامل معهم الجميع كأطفال، خصوصاً لا يريدون سماع العظات منا، ولا يريدون الخطب المعتادة المطبوعة مسبقاً، بل ربما لا يريدون أي خطب، لكن يريدون الحوار: وهما شيئان مختلفان تمام الاختلاف، ثم يريدون أيضاً أن يُمنحوا إمكانية التجريب، وأن يجربوا ويخطئوا، لكن اليوم لم نعد نتركهم يفعلون ذلك؛ فنحن نوقفهم في الدفء لمدة أكثر من اللازم، لا نمنحهم الثقة والمسؤولية. إذا كانوا ضعفاءجدّاً أمام الألم؛ فهذا خطؤنا.

• جويا تأتي من عائلة صعبة. كم يؤثر، في رأيك، المحيط الذي ينمو فيه الشخص، في مستقبله؟

- كثيراً، ويمكن لهذا أن يحطمك كما يمكنه أيضاً أن يكون الدافع لك لتصبح قويّاً كالصخرة. ما لا يقتلك يقويك؛ بمعنى إذا خرجت منه حيّاً يمكنك بعد ذلك أن تواجه بالفعل أي شيء. في عملي مدرّساً، نرى كثيراً من الصبية الضائعين وآخرين يصبحون رجالاً في سن مبكرة، وخلف كل هذا كثيراً ما تكون القصص العائلية الصعبة جدّاً.

• من أقرب الشخصيات إلى جويا أستاذ الفلسفة. ما الذي يوجد في مهنتك ويدفعك كل يوم إلى الذهاب إلى فصل مليء بالطلبة؟

- كثير بالفعل؛ كل المشاهد الدراسية الموجودة في الكتاب هي مشاهد من الحياة الواقعية، شهدتها أو حكاها لي تلاميذي. ودروس الأستاذ بوفه هي الدروس التي أقوم بها أنا كل يوم. بالطبع، هو يبلغ من العمر سبعين عاماً، وأنا عمري تسعة وثلاثون. هو يدرس الفلسفة، وأنا أدرس الآداب، لكنّ كثيراً من الأشياء التي يحكيها أخذته من دروسي.

• الرواية أيضاً هي قصة حب جميلة جدّاً، وعن تلك اللحظة التي يخاطر

فيها المرء بأن يفقد حب حياته. ماذا يعني لك الحب؟

- ببساطة الدافع الذي لأجله نحن موجودون. لأجيب عن هذا السؤال يجب أن أكتب عشرات الروايات الأخرى مثل هذه الرواية، لكن في النهاية الخلاصة ستكون واحدة: الدافع الذي لأجله نحن موجودون.

• جويا لديها هواية أخرى، هواية التصوير. هل هذا فن يسحرك أيضاً؟

- أجل، وبصفة خاصة التصوير الأبيض والأسود. ومصوري المفضل هو ستانلي كوبريك، عندما كان مصوراً صحفيّاً لمجلة Look في نيويورك، إلا أنني يجب أن أعترف أنني أحب أيضاً كثيراً من الأشياء التي أشاهدها على «إنستغرام»: يوجد بعض الصفحات لمصورين محترفين يمكنها أن تسحرك بالفعل. ويعجبني كثيراً في التصوير عندما ينجح أن تكون الصورة متحركة حتى في حالة ثباتها، عندما تحكي قصة، عندما تكون فيها حبكة داخلية. بهذا المعنى أعتقد أن لقطات الشاب كوبريك من الروائع، ثم أحب جدّاً أيضاً أغلفة ألبومات فريق بينك فلويد؛ الفريق الذي تحبه جويا، تلك الصور تحكي قصصاً، جميلة جدّاً، سيريالية وشاعرية.

• جمع الحجارة من كل الأماكن الخاصة التي زارها المرء أو عاش فيها لحظات لا تُنسى. هل حضرتك تجمع شيئاً؟

- أجمع التسجيلات الصوتية لحوارات الأفلام. لديَّ منها جيجا كاملة على حاسوبي، وأستمع إليها كثيراً جدّاً، خصوصاً أفلام وودي آلان. خلال مائة عام سندرسها في كتب الأدب، لكن لديَّ أيضاً قسم ثري جدّاً من حوارات أفلام ألدو، جوفاني وجاكومو، التي أفخر بها كثيراً.

• متى وُلدت لديك هواية الكتابة؟

- كان عمري سبعة أعوام، في الصف الثاني الابتدائي. بدأت شاعراً، وكتبت إلى أمي بيتين من الشعر خالدَين: «ماما، كل يوم يمر علينا تصبحين فيه أكثر بدانة». ولا يمكن بالطبع أن أنسى الذكرى التي لا تُمحى من آثار ضربات المداس يومها.

• هل في ذهنك بالفعل رواية جديدة؟

- واحدة فقط؟ لنضع المزاح جانباً، أجل، لكن لا أريد أن أدمر عنصر التشويق: سأقول فقط إنها ستكون بالفعل فيلم، لكن على الورق!

المترجم في سطور

أماني فوزي حبشي

- مواليد القاهرة.
- حصلت على ماجستير في الترجمة، ودكتوراه في الأدب الإيطالي، من كلية الألسن جامعة عين شمس.
- حصلت على الجائزة الوطنية الإيطالية للترجمة عام 2003، وعلى وسام نجمة إيطاليا برتبة فارس عام 2004 لإسهاماتها في نشر الثقافة الإيطالية.
- شاركت بعدد من المقالات والأبحاث الخاصة بالثقافة الإيطالية والترجمة نُشرت في الصحف والمجلات المصرية المختلفة.
- أسهمت في تأسيس صفحة «المقهى الثقافي الإيطالي» عام2017، وهي صفحة تعمل كببليوجرافيا للأعمال المُترجمة من اللغة الإيطالية إلى اللغة العربية.
- سبق وترجمت لسلسلة إبداعات عالمية «اذهب حيث يقودك قلبك» و«صوت منفرد» لسوزانا تامارو.
- من أهم ترجماتها الأخرى: «بندول فوكو» لأومبرتو إيكو، و«ثلاثية أسلافنا: الفسكونت المشطور، البارون ساكن الأشجار، وفارس بلا وجود» لإيتالو كالفينو، و«بلا دماء ومستر غوين» لأليساندرو باريكو، «أصوات المساء» لنتاليا جينزبورج، و«أربطة» لدومينيكو ستارنونه.

المراجع في سطور

الرداد شراطي

- باحث أكاديمي ومترجم.
- حاصل على الإجازة في الأدب الإسباني تخصص ترجمة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - عين الشق - الدار البيضاء في العام 1993.
- حاصل على شهادة الأهلية العليا لتدريس اللغة الإيطالية جامعة سيينا بإيطاليا.
- حاصل على أستاذ مكون للغة الإيطالية والإسبانية بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بالرباط - المغرب.

من ترجماته:

من العربية إلى الإيطالية :

- ديوان «أنثى الماء وقصائد أخرى» للشاعرة التونسية أمال موسى عن دار Giustiniani dei Marco ans، في عام 2003، وقد حازت هذه الترجمة على جائزة "**Lerici Pea**" عام 2014 وهي جائزة إيطالية أوروبية تمنح لثلاث شاعرات من البحر الابيض المتوسط.
- ديوان «المستحمات وأبدية صغيرة» للشاعر حسن نجمي عن دار Messina Kimerik عام 2007، وقد حصلت هذه الترجمة على جائزة «روكا فلبيا» بإيطاليا عام 2008.
- ديوان «مائيات وقصائد أخرى» للشاعر محمد الأشعري عن دار Ragusa World Libroitaliano عام 2008.
- ديوان «ورق عاشق» للشاعرة فاتحة مرشيد عن دار Leonida عام 2010.
- ديوان «توهج الليلك» للشاعرة عائشة البصري عن دار GirasoleIl عام 2012.
- «كل شيء يبدأ من وردتك»، أنطولوجيا للشاعر أحمد الشهاوي عن دار Editore Aletti في عام 2019.

من الإسبانية إلى العربية :

- ديوان «شذرات كتاب آت» للشاعر الإسباني الراحل خوصي انخيل بالنطي Futuro Libro un de Fragmentos عن وزارة الثقافة المغربية عام 2005.

من العربية إلى الإسبانية:

- ديوان «المصابيح» للشاعر السعودي عبد الله باشراحيل كتاب مشترك عام 2008.

من الإيطالية، الإسبانية، الفرنسية والبرتغالية:

- كتاب «عشق وحداد» أنطولوجيا نشر دار الصدى للصحافة والنشر عام 2015.
- «بعكس الضفة» كتاب للشاعرة فاليريا دي فيلتشي نشر إتحاد كتاب فلسطين بالتعاون مع سفارة روما عام 2016.
- ديوان « المنحطون» للشاعر الإيطالي جوزيبي أليتي عن مركز المحروسة مصر عام 2019.

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف: ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف: ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف: كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف: خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف: جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف: تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف: جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف: ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف: ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف: مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف: رولان بارت
325	لون الماء	تأليف: جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف: أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف: اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف: مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف: بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف: بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف: جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف: هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف: أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف: فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف: مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف: ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف: نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف: جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيغو ديوب
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية	تأليف: مجموعة من القاصين

ما صدر من هذه السلسلة

ما صدر من هذه السلسلة

376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فُروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو مينديس
398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي
401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليڤي
404	الرِّقَّة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس
405	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يو هوا
406	الأب (رواية)	تأليف: يورج أكلين
407	إِنِّيْ أَتَعَافَى (رواية)	تأليف: دافيد فوينْكِيْنوس
408	الوردة الزرقاء (رواية)	تأليف: بينلوبي فيتزجرالد
409	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
410	الإيـــاب (ديوان شعر)	تأليف: هاينْرِيش هايْنِهْ
411	سبع حكايا تعود من بعيد	تأليف: جان كريستوف روفان
412	المخادع الحقيقي (رواية)	تأليف: توف جانسون

ما صدر من هذه السلسلة

413	اليوم السابع (رواية صينية طويلة)	تأليف: يــو هـــوا
414	الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل (رواية)	تأليف: جِلْبير سِيْنُويه
415	رَاوِي مَرَّاكش (رواية)	تأليف: جويديب روي ـ باتاجاريا
416	فَتَاةٌ في حَالَة حَرْب (رواية)	تأليف: سارة نوفيتش
417	آكلو اللوتس الجزء الأول (رواية)	تأليف: تاتيانا سولي
418	آكلو اللوتس الجزء الثاني (رواية)	تأليف: تاتيانا سولي
419	بستنة في المنطقة الاستوائية (ديوان شعر)	تأليف: أوليف سنيور
420	مختارات من القصة القصيرة الهندية الحديثة	تأليف: مجموعة من كتّاب شبه القارة الهندية
421	جمعية غيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطا (رواية)	تأليف: ماري آن شيفر وآني باروز
422	كي يواجهوا الشمس المشرقة (رواية)	تأليف: جون ماكغرين
423	صوت مُنْفَرِد (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
424	ـ السيدة أرنول ـ الجبل (روايتان)	تأليف: جان نويل بانكرازي
425	الأشياء تنادينا (قصص)	تأليف: خوان خوسيه ميّاس
426	ميخائيل زوشينكو (قصص مختارة)	تأليف: ميخائيل زوشينكو
427	مون تايجر (رواية)	تأليف: بينيلوبي لايفلي
428	غطاء دروبادي (رواية)	تأليف: آناندا ديڤي
429	موسم الظل (رواية)	تأليف: لينورا ميانو
430	قَبْلَ أَنْ نَزُورَ الإِلهة (رواية)	تأليف: شيترا بانرجي ديڤاكاروني
431	الغزو (مجموعة قصصية)	تأليف: ريكاردو بيجليا
432	السكينة (رواية)	تأليف: أتيلا بارتيش
433	سيدة أورتوبي.. وقصص أخرى..	تأليف: بيّو باروخا
434	المسافرون الإنجليز الجزء الأول (رواية)	تأليف: ماثيو نيل
435	المسافرون الإنجليز الجزء الثاني (رواية)	تأليف: ماثيو نيل
436	قبل شروق الشمس (رواية)	تأليف: ميخائيل زوشينكو
437	السر المكنون (رواية)	تأليف: سبستيان باري
438	درب الملح (رواية)	تأليف: رينور وين
439	نحو الجمال (رواية)	تأليف: دافيد فوينكينوس
440	دفتر نيويورك (شعر)	تأليف: خوسيه يرّو
441	الطوفان وقصص أخرى (قصص)	تأليف: مجموعة كتّاب
442	بيت بلا جذور (رواية)	تأليف: أندريه شديد
443	قدّيسات كابول (رواية)	تأليف: فرانشيسكا مارتشانو

يمكنكم الاشـتراك والحصول على نسـختكم الورقية من إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب من خلال الدخول إلى موقعنا الإلكتروني:

https://www.nccal.gov.kw/#CouncilPublications

البيان	عالم المعرفة		الثقافة العالمية		عالم الفكر		إبداعات عالمية		المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
مؤسسة داخل الكويت	25		12		12		20		20	
أفراد داخل الكويت	15		6		6		10		10	
مؤسسات دول الخليج العربي	30		16		16		24		24	
أفراد دول الخليج العربي	17		8		8		12		12	
مؤسسات خارج الوطن العربي		100		50		40		100		100
أفراد خارج الوطن العربي		50		25		20		50		50
مؤسسات في الوطن العربي		50		30		20		50		50
أفراد في الوطن العربي		25		15		10		25		25

قسـيمة اشـتراك في إصدارات
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
المدينة:	الرمز البريدي:
البلد:	
رقم الهاتف:	
البريد الإلكتروني:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدا / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / 20م

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - إدارة النشر والتوزيع - مراقبة التوزيع

ص.ب: 23996 - الصفاة - الرمز البريدي 13100

دولة الكويت

كشف وكلاء توزيع مطبوعات المجلس الوطني

م	الدولة	اسم الشركة	هاتف الشركة	فاكس	عنوان الشركة
1	لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	00961 1666668/ 1653259 00961 166631/ 4	00961 1653260 00961 1653259	لبنان - خندق الغميق - شارع سعد - بناية فواز
2	البحرين	مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع	97317617733	97317617744	مملكة البحرين - المنامة - ص. ب: 3262
3	الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	00962 5358855 00962 5300170	00962 5337733	الأردن - شارع خليل العلي - تلال العلي - بجانب مؤسسة الضمان الصحي - ص. ب: 3371
4	قطر	شركة دار الشرق للنشر والتوزيع	97474064163	97444557819	قطر - الدوحة - ص. ب: 3488
5	الإمارات	شركة دار الحكمة	00971 529711510	009714 2976066	دبي - الإمارات العربية المتحدة - ص. ب: 2007 دبي
6	السعودية	الشركة الوطنية الموحدة	009661 38112222	009661 4870809	المملكة العربية السعودية - ص. ب: 84540 - الرياض 11671
7	فلسطين	شركة بال رام للتوزيع والنشر	00970 2243955/ 22954731/ 2 00970 22980800	00970 2296413 00970 22980800	رام الله - عين مصباح - ص. ب: 1314
8	مصر	مؤسسة دار الأخبار	00202 25806241/ 25806400 00202 5782700	00202 25782632	6 شارع الصحافة - القاهرة - ص. ب: 372
9	السودان	دار المصري للتوزيع	249123078223		الخرطوم - شارع البلدية - جنوب برج التضامن
10	تونس	الشركة التونسية للصحافة	00216 71322499	216 71323004	3 نهج المغرب - تونس 1000
11	المغرب	الشركة الشريفية للتوزيع	00212 522589912	002120 522976832	المغرب - الدار البيضاء - سيدي معروف - شارع أبو بكر القادري
12	كندا	Speed Impex	007417416 7417 635	007417416 7417 626	1040 martein grove rod untt 6 toronto on Canada m9w 4w4
13	لندن	Quik March ltd	0044 7715758553	0044 1753681050	c/o k2 freight services badge code dal uk

اتحاد الموزعين العرب

ARAB DISTRIBUTORS UNION



إنريكو جاليانو

- مواليد بوردينونى عام 1977.
- يُدرِّس الأدب الإيطالي وتم ترشيحه في قائمة أفضل مائة أستاذ في إيطاليا عام 2015.
- تصل منشوراته على الفيسبوك وتسجيلاته للفيديو من خلال موقعه لملايين من المشاهدين.
- نشرت له دار نشر جارزانتي روايته «إلا إننا نسقط سعداء» في عام عام 2017 والتي فازت بجائزة ثقافة البحر المتوسط ورواية «كل الحياة التي تتمناها» عام 2018، و«أقوى من أي وداع» عام 2019، و«سعداء في مواجهة العالم» عام 2021.

إبداعات عالمية

إلا أننا نسقط سعداء

إنها كلمات لها عوالم كاملة بداخلها، شظايا صغيرة من الصوت من مقطعين أو ثلاثة مقاطع تحتاج إلى صفحات وصفحات لتُشرح، ولكنها تُترك هكذا، فهي غير قابلة للترجمة، ليس من جهة أنه من المستحيل ترجمتها، ولكن من جهة أنه لا يجب عمل هذا، لأنها جميلة جدًّا هكذا كما هي، غير قابلة للترجمة وغامضة، بأصواتها الغريبة جدًّا سواء كانت موسيقية، غير متناسقة ورائعة في آنٍ واحد.

إن أفضل العوالم الممكنة هو ذلك الذي فيه لا يحتاج أحد إلى ترجمة نفسه ليفهمه الآخرون. أو على الأقل هذا ما تفكر فيه جويا.



ISBN: 978-99906-0-718 - 5